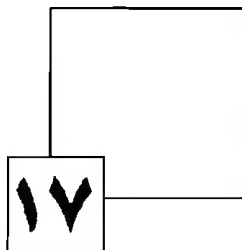
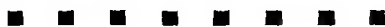




موسسة العقيدة والأدب



# تجديد المنهج في العقيدة الإسلامية



د. يحيى فهم حسن فرغل

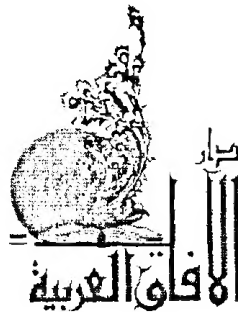


هاشم ، يحيى  
تجديد المنهج فى العقيدة الاسلامية  
تأليف : د/ يحيى هاشم  
ط ١ - القاهرة : دار الأفاق العربية 2007  
431 ص ، 24 سم  
تدمك : 9 - 220 - 344 - 977  
١- علم الكلام  
أ- العنوان  
ديوى : 240  
رقم الايداع : 2007/ 13755

الطبعة الأولى  
1428 هـ - 2007

جميع حقوق الطبع محفوظة للناسر

دار الأفاق العربية  
نشر - توزيع - طباعة  
55 ش محمود طلعت من ش الطيران  
مدينة نصر - القاهرة  
تليفون : 22617339      تليفاكس : 22610164  
EMIL: Daralafk@yahoo . com



☐ ☐ ☐ ☐



■■■■■■

■ ■ ■ ■ ■ ■ ■ ■ ■ ■







بسم الله الرحمن الرحيم



## إهداء

إلى روح أبى  
تحية وذكرى ودعاء  
ذكرى طفل صغير:  
ها هو بعض من آثاره  
من حقه على ولده فيه: أن يقسو على ما به من أخطاء  
ومن حق ولده عليه: أن يستشفع به عما فيه من عثرات .  
وهو بعد: صدقة جارية ودعاء  
وتحية قبيل لقاء قريب



## المقدمة

يشرح هذا الكتاب عقائد الإسلام شرحاً أساسياً علمياً ملتزماً بالكتاب والسنة، لإثباتها ورد الشبهات عنها، ويعمل - بطريق غير مباشر - على بناء شخصية المسلم عقلياً ووجدانياً وسلوكياً وفقاً لعقيدته في الإيمان بالله، صعوداً به في مدارج الإسلام والإيمان والإحسان

ورفعاً للالتباس منذ البداية بالنسبة للمنهجية التي قام عليها الكتاب، نبادر إلى القول بأنها لم تؤد - وما كان لها أن تؤدي - إلى نتائج في العقيدة إلا أن تكون مقررّة أصلاً بصريح الكتاب وصحيح السنة .

والمنهجية التي حاولنا تطبيقها تلتخص فيما يلي:

أولاً: الاحتكام إلى الأصول المنهجية الثلاثة التي ننادى بالالتزام بها وهي: محدودية العقل، ومرجعية العمل، ومحدودية الجدل .

ثانياً: في سياق هذه الأصول وبخاصة مرجعية العمل نأخذ بها نسميه "نظرية النجاة" وما تؤدي إليه من قبول التنوع في المداخل المؤدية إليها: العقل، والفطري، والتجريبى، والعملى

ثالثاً: الاهتمام بشواهد العلم التجريبى والفكر المعاصر ذات الدلالة في المسائل الإلهية بعامة، وبخاصة في: حدوث العالم من ناحية، وغرضية الطبيعة من ناحية ثانية، وتهاافت المذاهب المادية، مما يؤكد العقيدة الإسلامية في الإلهيات .

رابعاً: زيادة الاهتمام بالشواهد والأدلة القرآنية والحديثية على مسائل العقيدة .

خامساً: اتخاذ أئمة المدارس العقدية: من السلف والأشاعرة والماتريدية مصدراً هاماً من مصادر العلم بالعقيدة، في ضوء صريح القرآن، وصحيح السنة، إقراراً بجهودهم واستفادة باجتهاداتهم، مع النقد الموضوعي لبعض آرائهم، والتخلص من العصبية لأى منهم .

سادساً: الانفتاح على المكتبة الإسلامية على اتساعها في العقيدة والانتفاع بنماذج متنوعة من كتب التراث .

وقد اشتمل الكتاب على الموضوعات الأساسية الآتية:

الباب الأول: في المداخل والمصطلحات على النحو التالي:

المدخل إلى علم التوحيد ويشمل ما يأتي:

تعريف " الدين " لغة وشرعاً، وتعريف "علم التوحيد"، وضوابط الاشتغال به .  
العلاقة بين علم الكلام ونشأة الفرق، والمقصود بمصطلح أهل السنة والجماعة .  
التعريف بـ "الحكم العقلي"، وأقسامه، وأول ما يجب على المكلف، والتعريف بالنظر العقلي، وحكمه، وتنوع الأدلة والمداخل، وحكم التقليد في العقيدة، وخبر الواحد، وقيمة الظن في المنهج الإسلامى .

الباب الثانى: في المداخل المؤدية إلى الاعتقاد بوجود الله، وصفاته تعالى

الباب الثالث: في التشابهات: معنى المحكم والمتشابه، وما يوهم التشبيه من صفاته تعالى، ومواقف العلماء: بين التنزيه والتشبيه، والتفويض والتأويل، ورؤية الله تعالى، والاستواء على العرش، والعلو والنزول، والصفات الخبرية، ومنهج ابن تيمية في الصفات والمجاز، وموقف المنهج العملى في مسألة التشابهات

القضاء والقدر، وما يتعلق به في موضوعات: أفعال العباد، والهداية والإضلال، والتوفيق والخذلان، والوعد والوعيد، والعدل والمساواة، والصلاح والأصلح،

والسعادة والشقاء، والخير والشر ودور الشيطان وحكمة الابتلاء والفرح والنجاة والفلاح .

#### الباب الرابع: في شئون الآخرة

في البعث، والإنذار بالآخرة، وأهمية التذكير بالنار، والمنطق العملي في الإنذار، والعقل النظري المسحور، والنار كحدث كوني، ومنطقية سقوط الكافر في النار، والرحمة في الإنذار، ومراتب الخوف وأحكامه، والتبشير بالجنة، ودروب الرحمة، وأوصاف الجنة، والنعيم بين المادية والروحانية .

الباب الخامس: في المدخل إلى الإيمان، ومصطلح الأسماء والأحكام: حقيقة الإيمان في المذاهب المختلفة، وعلاقته بالإقرار والتصديق والعمل. زيادة الإيمان ونقصه، العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان، وتعليق الإيمان على المشيئة، وإيمان الأطفال، والكبائر والصغائر، حكم مرتكب الكبيرة، وتعدد الأديان، والشرائع. وحدة الدين عند الله، الإلحاد المعاصر





الباب الأول

# المدخل إلى دراسة علم التوجيه



## تعريف كلمة " الدين "

يذكر الأصفهاني في كتاب " المفردات في غريب القرآن، والنيسابوري في تفسيره " أن الدين يدل أصالة على الطاعة والجزاء • ويدل مجازاً أو توليداً على الشريعة والملة •

وبمثل ذلك يرى الشهرستاني في الملل والنحل : أن الدين يدل أصالة على الطاعة والانقياد والجزاء والحساب ويدل مجازاً على الشريعة والملة .

ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق في بحثه العميق هذه الكلمة: أن الكلمة مأخوذة من اللفظ العربي " دَين " - بفتح الدال - فهما من مادة واحدة . وهما مصدران لفعل واحد. وهما يستعملان للدلالة على شيء غير حاضر . ومع ذلك فإن هذا الرأي لا يمنع من أن تكون الكلمة مستعملة في معان أخرى كثيرة كالطاعة وغيرها .

وأما استعمال كلمة "الدين" في لغة القرآن: فقد ورد لفظ دين في القرآن في أكثر من ثمانين موضعاً . ومن معانيها فيه: الحساب . وهناك آيات نستخلص منها أسماء الملل المعروفة التي سميت باسم الدين، وهي التي ينتسب إليها الجماعات الرئيسية الآتية:- ١- المؤمنون. ٢- اليهود. ٣- النصارى . ٤- الصابئة . ٥- المجوس . ٦- المشركون. (١) ٧- وآخرون مختلفون:

---

(١) الآيات ٦٢ سورة ٢، ٦٩ سورة ٥، ١٧ سورة ٢٢.

فمنهم:

أ- من أنكر الخالق والبعث والإعادة وقال بالدهرية.<sup>(١)</sup>

ب- ومنهم من أقر بالخالق وبالحدوث وأنكر البعث.<sup>(٢)</sup>

ج- ومنهم من أقر بالخالق وبالحدوث وبنوع من البعث وأنكر الرسل وعبد الأصنام كوسطاء<sup>(٣)</sup>.

وأما المعنى الشرعى لكلمة دين فنذكر أن القرآن قرر في الدين أصولا جعلت له معنى شرعيا خاصا . فهو لا يكون إلا وحيا من الله إلى أنبيائه<sup>(٤)</sup> . وهو واحد لا يختلف بين الأولين والآخرين<sup>(٥)</sup> هو الإسلام.

يقول الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء " عم " (الدين هاهنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل، وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه من الأنبياء .)

وقد عرفه الشهرستاني في الملل والنحل: بأنه (ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه من الأحكام)

وعرفه البيجورى في شرح الجوهرة - وعليه أكثر العلماء - بأنه (وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات) أو : (هو وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل)

---

(١) - الآية ٢٤ سورة ٤٥ .

(٢) - الآية ٧٩، ٧٨ سورة ٣٦ .

(٣) - الآية ٣ سورة ٣٩ .

(٤) أنظر الآية ٣ سورة ١٣ والآية ٤٣ سورة ١٦ .

والآيات ١٦٥، ١٦٣ سورة ٤ والآية ١٣ سورة ٤٢ .

(٥) - أنظر كتاب الدين والوحى والإسلام " للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(٦) - أنظر حاشية شيخ الإسلام - الشيخ إبراهيم البيجورى: تحفة المريد على جوهره التوحيد ص ١٤ طبعة بولاق .

ويمكن اختصار التعريف إلى ما ذكره البيجورى أيضا بقوله: (إن الدين هو الأحكام التى وضعها الله، الباعثة للعباد إلى الخير الذاتى)

ويقول العلامة الغنيمى: (الدين: كما فى تعريفات السيد الجرجانى " وضع إلهى يدعو أرباب العقول إلى قبول ما عند الرسول صلى الله عليه وسلم " ويدينون به لرب العالمين)

(والعالمين جمع عالم: اسم لما يعلم به الله تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأجسام والأعراض)<sup>(١)</sup>.

وتأتى الديانة بالنسبة للإنسان بعد الدين، إذ الإنسان يعرف الدين قبل أن يتدين .

ومن هنا فالدين عقد للقلب على الصواب، والديانة سير على هذا العقد .<sup>(٢)</sup>  
وهذا يعنى أن الوضع الإلهى لكلمة الدين لا يتعلق بالأحكام الشرعية فقط وإنما يدخل فيه كل ما يوحى به الله إلى رسله عليهم السلام من أمور الدنيا والآخرة .  
كما يعنى إخراج كل ما يضعه الساسة والحكماء من تشريعات وأيديولوجيات .  
وهو يعنى سوق البشر باختيارهم إلى الخير الحقيقى : ألا وهو السعادة الأبدية، والقرب من رب البرية.

### تعريف علم التوحيد

وكما يسمى البحث فى العقائد الدينية فى الإسلام بعلم التوحيد فإنه كما يقول العلامة الغنيمى يسمى أيضا (" بأصول الدين " وبعلم العقائد، وبعلم التوحيد، وبعلم الكلام)<sup>(٣)</sup>. كما يسمى : " الفقه الأكبر " .

وهو قد سُمى علم أصول الدين لأن موضوعه العقائد التى هى الأصول، وأصول الدين: جمع أصل، خلاف الفرع، وفروع الدين هى الأحكام الشرعية لأصوله، وهى العقائد الدينية .

(١) \ شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية دار الفكر المعاصر بيروت ودمشق عام ١٩٨٢ : ص ٤٦

(٢) \ التمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية للإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٢٦٨

(٣) \ شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية دار الفكر المعاصر بيروت ودمشق عام ١٩٨٢ : ص ٤٦

وسمى " الفقه الأكبر لأنه هو الفقه في الدين، والفقه - المعروف - هو الفقه في الديانة .

وسمى علم التوحيد باعتبار أشرف مسائله وهى مسألة التوحيد .

وسمى علم الكلام: قيل من باب المقابلة مع علم المنطق للفلاسفة .

وقيل لأن أبوابه عنونت بالكلام في كذا .

وقيل لأنه يورث قدرة على الكلام مع الخصم في الشرعيات .

وقيل لأن أهله يتكلمون عادة فيما سكت عنه الصحابة والتابعون .

وقيل لأن مسألة كلام الله هى أشهر أجزائه وأكثرها تأثيرا في الفرق .

وأرجح أن هذه التسمية لحقت به لكون أشهر مسائله مما لا يتعلق بها عمل .

أخذا من كلام مالك بن أنس رضى الله عنه: (الكلام في الدين أكرهه .. ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل)<sup>(١)</sup>

ويقول (وأما الكلام في الله فالسكوت عنه، لأننى رأيت أهل بلدنا ينهون عن

الكلام في الدين إلا ما كان تحته عمل)<sup>(٢)</sup>

ومن هنا جاء تعريف هذا العلم بأنه<sup>(٣)</sup> (العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة

اليقينية).

وله مع ذلك تعريفات متعددة، يمكن المقارنة بينها في ضوء ثلاثة أسئلة:

١ - هل يتناول هذا العلم الجانب البنائى والدفاعى معا في العقيدة أو أنه يقتصر

على الجانب الدفاعى ؟

ب - هل يتناول هذا العلم: علم الكلام عند جميع الفرق ؟ أو يقتصر على علم

الكلام عند السلف وأهل السنة ؟

---

(١) أنظر كتاب "مختصر جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر المتوفى عام ٤٦٣ هـ ثم انظر كتاب "علم التوحيد" للدكتور مبارك حسن حسين مبارك ص ١٥، ١٤

(٢) صون المنطق للسيوطى ج ١ ص ١٦٧ ط ٢ نقلا عن أبى القاسم اللالكائى في كتابه أصول السنة

(٣) شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية دار الفكر المعاصر بيروت ودمشق عام ١٩٨٢ ص ٤٧

ج - هل يتناول الجانب النظرى فقط من المسائل العقدية ؟، أو أنه يتناول المسائل العملية أيضا ؟

فقد عرفه ابن خلدون (بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)

وهو بهذا التعريف يخرج علم الكلام عند المعتزلة وأمثالهم . من ناحية و يجعله خاصا بالجانب الدفاعى من ناحية أخرى .

أما تعريفه فى كتاب المواقف للإيجى الأشعرى فهو: (علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشبه والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل )

وهو بهذا يجعله شاملا للجانبين: البنائى والدفاعى من ناحية، ومن ناحية أخرى يجعله خاصا بالنواحي النظرية (غير العملية) ولهذا فقد ذهب أصحاب هذا الرأى إلى التفرقة بين علم الكلام وعلم الفقه بأن علم الكلام يبحث فى الأمور النظرية والفقه هو الذى يختص بالأمور العملية .

ونحن نرى أن قصر المسائل الكلامية على نواحي العقيدة النظرية البحتة أمر مستحدث، وأن أقدم تعريف لهذا العلم الذى نجده عند الفارابى وهو (صناعة الكلام ملكة يقتدر بها على نصره الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل)<sup>(١)</sup> يدخل فيه الآراء والأفعال، ويسوى بينه وبين الفقه من هذا الباب، ويجعل التفرقة بينهما راجعة فحسب إلى أن الكلام يأخذ ما صرح به الشارع لينصره ويقنع به، وأن الفقه يأخذه ليفرع عليه الأحكام.<sup>(٢)</sup> ونحن نرجح ما ذكره الفارابى الذى أدخل فيه نصره الأفعال لأمر:

(١) إحصاء العلوم للفارابى ص ١٠٧

(٢) إحصاء العلوم ص ١٠٧

منها انسجام ذلك مع المنهج العمل في الإسلام .

ومنها ما وجدناه عند نشأة هذا العلم من شموله لمسألة الأسماء والأحكام ومرتكب الكبيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإمامة وهي موضوعات ذات طابع عملي واضح .

ومنها حاجة العقيدة في العصر الحاضر إلى نصره لها من جانب ما يوجه إليها من طعن في شريعتها العملية في موضوعات مثل الجهاد وحقوق المرأة والديموقراطية وغيرها إذ أن هذا الطعن يستهدف الطعن في العقيدة أساسا .

وبناء على ما تقدم تختلف النظرة إلى الغرض من علم الكلام: حيث نلاحظ أن بعض العلماء يجعل الغرض منه دفاعيا فحسب، كما نجده في تعريف ابن خلدون: فقد عرفه ابن خلدون (بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة)

وبعضهم يضيف إلى الجانب الدفاعي منه غرضا أساسيا في بناء العقيدة ابتداء، وذلك حيث يرى بعض العلماء أن : (غايتة: أن يصير الإيمان بالتصديق بالأحكام الشرعية محكما) وأن غايته العظمى: (الفوز بسعادة الدارين: الدنيا بالأمان، والأخرى بالفوز بالجنان، والنجاة من النيران المعدة لأهل الكفر والطغيان)<sup>(١)</sup>

وحيث يقال أيضا عن غايته إنها: إثبات العقائد الدينية بالأدلة التفصيلية، ودفع شبه المعارضين لها بواسطة الأدلة العقلية التفصيلية التي تدحض حجج الخصم، وتدفع شبهه . وأنه ينتقل بالإنسان من مرتبة التقليد، إلى درجات اليقين . وأنه يربي في الإنسان الإخلاص في العمل ومراقبة الله في السر والعلن. وأنه كما ذكر التفاتراني في المقاصد: غايته " تحلية الإيمان بالإيقان ومنفعة الفرد بنظام المعاش ونجاة المعاد فهو أشرف العلوم وأرفعها منزلة "

---

(١) شرح الغنيمي للعقيدة الطحاوية دار الفكر المعاصر بيروت ودمشق عام ١٩٨٢: ص ٤٧



ونحن نرجح القول بأن غايته الدفاع عن العقيدة، أما بناؤها فله أسلوب آخر شامل يتوجه تربويا إلى الشخصية الإنسانية بكل مكوناتها العقلية والوجدانية والعلمية والعملية، ومن هنا يمكن أن يكون لعلم التوحيد جهد نسبي من الإسهام في هذا البناء .

### **ضوابط النظر في علم الكلام (التوحيد)**

تقوم هذه الضوابط في نظرنا عموما على:

نظرية التسليم، ونظرية الإنذار، ونظرية النجاة، ونظرية المداخل،، ونظرية الأصول الثلاثة .

### **نظرية التسليم :**

والتسليم يعنى فى أبسط مظاهره: اشتراط الشروط اللازمة للمعرفة ثم التنازل عنها فى الأساس بحكم الضرورة العملية .

وقد فعلت ذلك جميع الاتجاهات الفكرية الأساسية: الفلسفة العقلية اليقينية، الفلسفة التجريبية، فلسفة الشك، وفلسفة العمل .

فالفلسفة العقلية اليقينية تشترط الحكم العقلى اليقنى، ولكنها إذا سئلت: لماذا الثقة بالعقل أساسا ؟ لم تحر جوابا، ولكن أصرت على التعامل معه والتسليم له بحكم الضرورة العملية.

وفلسفة الشك: إذا سئل صاحبها: هل يتوقف عن التعامل مع ذاته، وأصحابه ووظيفته ومجتمعه وبيئته بحكم ما وقع فيه من الشك واللاأدرية ؟: أجاب: لا، ثم يأخذ بالتسليم لهذه الجهات بحكم الضرورة العملية .

والفلسفة التجريبية وهى تنطلق من حكم العادة والتجربة المبني على الظن - وإنها لكذلك فى صميم العلم التجريبي -: إذا سئلت كيف يصح الأخذ بأحكامها وهى تحمل الخطأ ؟ أجابت: إنها نأخذ بها تسليها بحكم الضرورة العملية .

وهذا التسليم فى هذه الفلسفات يفتح الباب الدينى واسعا - بحكم الضرورة العملية - على أساس الإنذار باليوم الآخر

وفى التسليم فى الساحة الإسلامية خصوصا يقول الإمام الطحاوى (ولا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عليه ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجه مرائه عن خالص التوحيد، وصافى المعرفة، وصحيح الإيـان، فيتذبذب بين الكفر والإيـان، والتكذيب والإقرار والإنكار، تائها زائغا، شاكا، لا مؤمنا مصدقا ولا جاحدا مكذبا)<sup>(١)</sup>

### فلسفة الإنذار

وكما قلنا آنفا .. فإن هذا التسليم الذى تخضع له أنواع الفلسفات جميعا بحكم الضرورة العملية يفتح الباب الدينى واسعا على أساس الإنذار باليوم الآخر، والإنذار باليوم الآخر كما يقوم على أساس هذه الضرورة العملية فإنه - كفلسفة عملية خاصة - يقوم على مجموعة من الأركان أو الأسس:

وإذا اتفقنا على تعريف الإنذار بأنه " خبر عن خطر مستقبلى محتمل ". فإن التعامل معه إنما يقع فى نطاق العقل العملى حيث لا مفر من اتخاذ قرار، قرار بالاستعداد لهذا الخطر أو قرار بعدم الاستعداد له : وادعاء التوقف عن اتخاذ قرار ينتهى عمليا إلى اتخاذ قرار بعدم الاستعداد، ومن هذا يتبين استحالة التعامل معه بمنطق العقل النظرى الذى يسمح باتخاذ الموقف النظرى الوسط: موقف عدم الوصول إلى أدلة النفى وأدلة الإثبات .

ومن أمثلة الإنذار: إنذار بأن الطعام مسموم، أو بأن العدو على الأبواب، أو الإنذار بالآخرة بعد الموت . ولذا جاء فى الحكمة العملية: لقد أعذر من أنذر .

### نظرية النجاة:

إن نظرية النجاة تأتى بالنظر إلى الدين من حيث هو منزل من الله ذلك أن المنهج الإسلامى يستهدف فى الأساس نجاة الإنسان فى الدنيا والآخرة، وأنه ليس لذلك من طريق غير الدخول فى العقيدة الإسلامية .

---

(١) أنظر العقيدة الطحاوية شرح الغنيمى ص ٧٢ ط دار الفكر المعاصر بيروت ودمشق عام ١٩٨٢

ومقتضى هذا المنهج أنه يتميز بالرحمة والتحدى والالتزام :

أولاً من ناحية الرحمة: أنه يقبل الإنسان في ساحة النجاة من أى باب سلك فلا يضيق واسعا، ولا يقفل بابا مفتوحا للرحمة .

ثانياً من ناحية التحدى: أنه يتحدى المنكرين أن يجادلوا بمقياس واضح يختارونه وبه يتعاملون من بين المقاييس التى تنحصر فى: مقياس الفطرة، أو مقياس العقل، أو مقياس العلم الحديث، أو مقياس الضرورة العملية، إذ بأى مقياس من هذه المقاييس يتيسر الدخول إلى ساحة النجاة، كما سوف نبين فيما يأتى .

ثالثاً من ناحية الالتزام : أنه يسد منافذ التهرب عند المجادلة لأنه يجادلهم بالمقياس الذى يختارون فيلزمهم بالنتيجة التى إليها يتوصلون .

### **نظرية المداخل:**

تأتى نظرية المداخل بالنظر إلى الدين من حيث يتلقاه البشر: وهنا نجد أمامنا أربعة مداخل يمكن من خلال كل منها مخاطبة الإنسان بالدعوة إلى النجاة .

#### **(١) المدخل الفطرى:**

وهو يعتمد أساسا على الشعور الإنسانى الذى يملك القلب ويسيطر عليه، بحيث يكون طلب الاستدلال عليه ضربا من اللغو. كالشعور بالجوع والعطش والسرور والحزن .. لا يطلب عليه دليل، وكذلك يمكن تطبيق هذا المدخل فيما يتعلق بالإيمان بوجود الله كما سوف نبينه فى مسألة الإيمان بوجود الله .

#### **(٢) المدخل العقلي:**

وهو يعتمد على الدليل العقلى المبني على البديهيات والمقدمات والنتائج المستخلصة وفق قوانين المنطق، هذه القوانين التى ترجع فى مجملها إلى قانون الذاتية وعدم التناقض .

وبعبارة أخرى فإن هذا المدخل ينطلق من ذاتية العقل وبدهياته المقررة داخليا

وهو المدخل الذى اعتمده علم الكلام غالبا وقدم فيه أدلة وجود الله: دليل الممكن والواجب . دليل الحدوث . دليل الغائية والقصد والاختراع .

### (٣) المدخل العلمى التجريبي:

وهو يعتمد على نتائج العلم التجريبي انطلاقا من التجربة العلمية ذاتها، التى تؤكد غرضية الطبيعة ويلتقى فى أساسه مع الدليل العقلى القائم على الغائية والقصد.

### (٤) المدخل العملى:

وهو يعتمد على قانون الضرورة العملية القائمة على العقل العملى، مع التفرقة بين العقل النظرى الذى يصح له التردد بين ثلاثة مواقف: الوصول إلى أدلة الإثبات، أو أدلة النفى، أو التردد بين الإثبات والنفى، وبين العقل العملى الذى لا مفر أمامه من اتخاذ قرار: قرار بالعمل أو قرار بعدم العمل، ولا ثالث بينهما .

وهذا العقل العملى هو الذى عرفه علماء الكلام بأنه (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات، وتمييز المصالح من المفاسد لانتظام المعاش والمعاد)<sup>(١)</sup> .

وهذه الضرورة العملية هى التى تفرض نفسها فى كل موقف عملى، كما تفرض نفسها فى مواجهة الفرد لمسألة ما بعد الموت . طبقا لقواعد الإنذار .

### ميزان الأصول الثلاثة للنظر فى العقيدة:

بناء على ما تقدم فى نظرية التسليم والإنذار والنجاة والمداخل نرى أن هناك ثلاثة أصول يلتزم بها النظر العقدى فى الإسلام و تتخذ ميزانا توزن بها مباحث علم الكلام .

---

(١) أنظر (النظر والمعارف) للقاضى عبد الجبار ص ١٤٢ - ١٦٤ - ١٨٥ - ٢٠٣، و (المحيط بالتكليف) له ص ٢٢ - ٢٣ و (شرح المقاصد) للإمام لتفتازانى ج ٢ ص ٤٥

## الأصل الأول:

محدودية العقل البشرى المستقل، وهذا الأصل يستخلص بدهيا من طبيعة العقل البشرى من حيث كونه بشريا أى محدودا بحدود البشر فى قواهم المختلفة بالضرورة .

كما يستخلص من نقد العقل الخالص فى الفلسفة القديمة والإسلامية والحديثة .

كما يستخلص بدهيا من العقيدة الإسلامية بالنظر إلى اعتمادها على الوحي، ومن تفرد الرسول فى مخاطبته للعقل بالنسبة للفيلسوف .

كذلك فإنه يستخلص من رواد الفكر الإسلامى نفسه

والحد الذى يقف عنده العقل البشرى هنا هو الحد الذى يضمن له التواضع ويتطلب منه انتظار الهداية.

يقول العلامة الغنيمى فى شرحه للعقيدة الطحاوية (ومما يجب علينا أننا لا نخوض فى ذات الله . روى عن أبى حنيفة أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق فى ذات الله بشيء بل يصفه بها وصف به نفسه)<sup>(١)</sup>

ومن الخوض فى ذات الله الخوض فى موضوع المتكلمين الكبير: العلاقة بين الذات والصفات، وصفة الكلام وخلق القرآن والمتشابهات .

يقول الإمام الشاطبى (إن الله جعل للعقول فى إدراكها حدا تنتهى إليه ولا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلا إلى الإدراك فى كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان وما لا يكون، وقد دخل فى هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلا، وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا .

فالشيء الواحد من جملة الأشياء يعلمه البارى تعالى على التمام والكمال، بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحواله .

---

(١) شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية دار الفكر المعاصر بيروت ودمشق عام ١٩٨٢ ص ٩٥

بخلاف العبد فإن علمه بذلك الشيء قاصر ناقص<sup>(١)</sup>

وكان المتكلمون يرون أنه في الحكمة النظرية (التي هي كمال القوة النظرية بمعرفة أعيان الموجودات وأحوالها وأحكامها كما هي، أى على الوجه الذى هي عليه، وفي نفس الأمر ...) لابد من قيد هو (بقدر الطاقة البشرية)<sup>(٢)</sup>

ومعنى هذا أنهم يقررون ضمنا أن القدرة البشرية عاجزة عن تحصيل الحكمة النظرية على الوجه المذكور، أى عاجزة عن تحصيل اليقين المطلق، لأن اليقين لا يكون بغير هذه الحكمة سواء كان ذلك في المسائل التي يتعرض لها العقل البشرى في مجموعها أو في مسألة واحدة.

ومن المعروف أن اختبار صلاحية العقل للنظر في الحكمة النظرية عملية موكولة للعقل البشرى نفسه حيث يكون هو الحاكم والمحكوم عليه، وهذا يدل على بطلان هذا الاختبار منذ الخطوة الأولى .

ولا يكتسب هذا العقل شرعيته إلا بالاستناد على أساس سابق عليه، يؤخذ مأخذاً تسليمياً بحكم الضرورة العملية وبشروطها الخاصة، وهذا يسلمنا إلى الأصل الثاني

### الأصل الثاني :

اعتماد المنهج العملى فى طرح الموضوعات العقديّة على أساس أن كل ما لا يترتب عليه عمل يستبعد خارج دائرة النظر<sup>(٣)</sup>. ولا شك أن موضوع الأسماء والأحكام وما يتضمنه من تحديد من هو المؤمن والمسلم والكافر والفاسق إلخ هو من صميم مقتضيات هذا المنهج . وهذا الأصل ثمرة الأصل الأول بالضرورة .

(١) الاعتصام للإمام الشاطبى ج ٣ ص ٢١٦

(٢) أنظر شرح المقاصد للإمام التفتازانى ج ١ ص ٤٥

(٣) يرتبط ذلك بما كتبه عن فشل الفلسفة النظرية، واعتقاد فلسفة التسليم، والضرورة العملية، وفلسفة الإنذار، في كتابنا (الأسس المنهجية في بناء العقيدة الإسلامية) و (مداخل إلى العقيدة الإسلامية) وغيرهما .

وهو منهج يعتمد على ما سماه المتكلمون فيما بعد العقل العملى وهو (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات و تمييز المصالح من المفسدات لانتظام أمر المعاش والمعاد)<sup>(١)</sup>

أما العقل النظرى فهو ما عرفه المتكلمون بأنه: (قوة النفس باعتبار تأثيرها عما فوقها من المبادئ للاستكمال بالعلوم والإدراكات . )<sup>(٢)</sup>

والحد الذى يتوقف عنده العقل العملى ولا يتخطاه هو حد التورط فى الموضوعات النظرية البحتة التى لا يترتب عليها عمل .

وإذا كان من المتفق عليه إنسانيا أن المسائل العملية فى حياة الإنسان لا يجوز أن تطرح على مائدة العقل النظرى لما يؤدى إليه ذلك من تعطيل ودمار وخطر شديد على حياة الإنسان: كمسائل القضاء والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والشخصية، فإن العقيدة الدينية أولى بأن تستنقذ من برائن هذا العقل، لما يترتب على ذلك من خطر أشد، وهى أولى بأن يعاد طرحها على مائدة العمليات فى دائرة اختصاص العقل العملى، إذ يقدم الدين نفسه - من خلال الإنذار بالآخرة - على أنه تخير ملزم ضرورى، ولا يمكننا أن نتخلص من مشكلة الاختيار ببقائنا فى حالة شك وتردد مرتقبين اليوم الذى تأتى فيه أدلة أكثر وضوحا وأقوى يقينا، فليس الشك فى هذه الحالة تجنبا للاختيار ولكنه اختيار للجهة الأخرى عن غير وعى، وذلك بحكم الضرورة العملية .

وهذه هى وظيفة العقل العملى الذى يبدأ مع هذه الضرورة مستهدفا مجانية الخطر، مصطحبا معه يقين النجاة منذ الخطوة الأولى، وفقا لقول سيدنا على كرم الله وجهه لمن كان يماريه فى أمر الآخرة (إن كان الأمر كما قلتَ نخلصنا جميعا وإن كان

---

(١) أنظر (النظر والمعارف) للفاضل عبد الجبار ص ١٤٢ - ١٦٤ - ١٨٥ - ٢٠٣، و (المحيط

بالتكليف) له ص ٢٢ - ٢٣ و (شرح المقاصد للإمام لفتنازاني ج ٢ ص ٤٥

(٢) أنظر شرح المقاصد للإمام لفتنازاني ج ٢ ص ٤٢ - ٤٤

الأمر كما قلتُ هلكَتْ ونجوتُ)مرتقيا من هذا المدخل إلى سكيئة الإيمان وفق مراتب: منهج التسليم، ومنهج الإنذار، بشروط المنطق العملي<sup>(١)</sup>

يقول الله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ١٩ آل عمران، ويقول سبحانه ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ٢٢ لقمان .

### الأصل الثالث:

محدودية الجدل: أى محدودية المدى الذى يمكن أن يذهب إليه الجدل، والحد هنا هو ما يكون فى التزامه استبعاد نوعين من الجدل:

الجدل الذى يصحبه التعصب، ويؤدى إلى فرقة المسلمين وتمزيق وحدتهم ويمثل خطرا على وجودهم.

أو الجدل النظرى حول مبادئ أو تفاصيل لا يترتب عليها عمل .

فقد كان رسول الله ﷺ يحيب على أسئلة الصحابة و على ما يدور فى نفوس البعض وان لم يتكلموا عنه — إذا لم تظهر عليها سمة العناد والمراء والرغبة فى الظهور بالجدل والقدرة عليه .

أما إذا كان المراد من الأسئلة الجدل والمراء الذى يتجاهل دواعى الإيمان ولا تتوافر له دواعى الحاجة النفسية الحقيقية فإن الرسول ﷺ كان يمنعه بحزم وقوة .

يقول الرسول الله ﷺ لأمثال هؤلاء وهو غاضب: (يا أمة محمد .. لا تهيجوا على أنفسكم وضح النهار) ثم يقول لهم: (أبهذا أمرتكم ؟ أو ليس عن هذا نهيتكم)؟ ثم يقول: (ذروا المراء لقله خيره .. ذروا المراء فإن نفعه قليل .. ويهيج العداوة بين الإخوان)،<sup>(٢)</sup>

(١) أنظر مزيدا من توضيح ذلك فى كتابنا (مداخل إلى العقيدة الإسلامية)

(٢) رواء الطبرانى فى المعجم الكبير ص ١٥٢ ج ٨ ط ٢ عام ١٩٨٣ نشر مكتبة العلوم والحكم بالموصل



وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجة وحسنه الترمذى (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ " ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون )

وقال فيما رواه ابن ماجة والترمذى وحسنه أيضا (من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتا فى ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة) وأخرج الشيخان مرفوعا " إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم " أى الشديد المراء، الذى يحج صاحبه "

يقول الإمام الصنعانى وهو يفرق بين كل من المراء والجدال والخصومة والمناظرة: (وحقيقة المراء طعنك فى كلام غيرك لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه

والجدال هو ما يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. والخصومة لحاج فى الكلام ليستوفى به حقا أو غيره ويكون تارة ابتداء وتارة اعتراضا . والمراء لا يكون إلا اعتراضا .

والكل قبيح إذا لم يكن لإظهار الحق وبيانه وإدحاض الباطل وهدم أركانه . وأما مناظرة أهل العلم للفائدة وإن لم تخل عن الجدال فليست داخله فى النهى وقد قال تعالى " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن " (١)

والنتيجة التى نخرج بها من دراسة هذا الموضوع هى: أنه ﷺ نهى أصحابه عن المراء . ولم يغلق باب الجدال بإطلاق، وإنما أقام عليه حدوداً .

وفى داخل هذه الحدود: تتم المواجهة بأسلوب عملى:

إذ يجرى الجدال مع الخصوم بقصد صرفهم عن أباطيلهم وإدخالهم فى الدعوة إذا ما تبين استعدادهم لذلك .

---

(١) (سبل السلام شرح بلوغ المرام من الأدلة والأحكام) لمحمد بن إسماعيل الصنعانى ص ١٩٦ ج ٤ ط ٤ عام ١٣٧٩ هـ نشر دار إحياء التراث العربى بيروت

وفى داخل هذه الحدود: يجرى الجدل مع النفس .أو يجرى الجدل مع الآخرين من المؤمنين .. فى إطار الإيمان، بقصد طرد الوسوسات، والتقوى على الشبهات، بما لا يمكن للنفس أن تتقوى فيه بغير هذا الطريق .

ومن هنا تستبعد - فى رأينا - المسائل التى كره الإسلام طرحها للنقاش، كالمسائل التى تدور حول خلق أفعال العباد، وحول العلاقة بين الذات والصفات، وحول تفاصيل الغيبيات مما لم يرد بها نص صريح صحيح، وهى أغلب ما اشتغلت به الفرق وأغلب ما استحدثه علماء الكلام، وأغلب ما كان سببا فى تفريق الأمة وعودها عن مواصلة بناء الحضارة وفقا للتكاليف العملية الشرعية .

ونتمثل فى هذا بقول الإمام الطحاوى وشرح العلامة الغنيمى (ونرى الجماعة حقا وصوابا ونرى الفرقة زيغا وعذابا )

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم " من فارق الجماعة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه " رواه أحمد وأبو داود والحاكم فى مستدركه .

وهذه الأصول الثلاثة هى ما نضعه فى البداية أمام المشتغل بعلم الكلام ليكون ميزانا بين يديه لتقييم آراء المتكلمين، وليكون بمثابة بوصلة النجاة فى يده، وهو يخوض عباب مسائل هذا العلم التى نحسب أن لابد من دراستها لنعرف تراثنا من ناحية، ولنبنى على الصحيح منه من ناحية أخرى، ولنتعرف على العقيدة الإسلامية من خلاله من جهة ثالثة .

### **العلاقة بين علم الكلام وعلم الصحابة**

من المسلم به أن مسائل كل علم تظهر قبل ظهور اسمه، حدث ذلك فى علم النحو والصرف والبلاغة والعروض إلخ، كما حدث فى علم الفقه وأصول الفقه، وكذلك الأمر بالنسبة لعلم الكلام، فوفقا لما ذهب إليه شارح المقاصد الإمام التفتازانى يدخل فى علم الكلام " علم علماء الصحابة بذلك، فإنه كلام وإن لم يكنسمى فى ذلك الزمان بهذا الاسم، كما أن علمهم بالعمليات فقه وإن لم يكن ثمة هذا

التدوين والترتيب، وذلك إذا كان متعلقاً بجميع العقائد بقدر الطاقة البشرية، مكتسباً من النظر في الأدلة اليقينية ."<sup>(١)</sup>

### العلاقة بين علم الكلام ونشأة الفرق

علم الكلام هو كما يقول عنه العلامة الإيجي في المواقف في تعريفه:

" الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج، ودفع الشبه "، ثم يقول " والمراد .... بالدينية المنسوبة إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام "<sup>(٢)</sup> .

يقول الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور الشيخ " مصطفى عبد الرازق " رحمه الله " إن البحث في أمور العقائد كان يسمى كلاماً قبل تدوين هذا العلم. وكان يسمى أهل هذا البحث متكلمين . فلما دونت الدواوين وألفت الكتب في هذه المسائل أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقباً لهذه الأبحاث قبل تدوينها، وعلماً على المتعرضين لها "<sup>(٣)</sup> .

وهذا يعنى أن آراء الفرق التى بدأت مبكرة فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى واستمرت لعدة قرون كانت هى الحصيـلة التى تكون منها علم الكلام . ومن هنا يمكن القول بأنه قد توافقت نشأة الفرق مع نشأة علم الكلام .

### نشأة الفرق

فى نشأة الفرق جاءت أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلم فقد روى أصحاب السنن وصححه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة.

(١) شرح المقاصد للإمام التفتازانى (ص ٧٠٦)

(٢) المواقف (ج ١ ص ٣٤، ٣٨) الطبعة الأولى بمطبعة السعادة عام ١٣٢٥ هـ.

(٣) تمهيد فى تاريخ الفلسفة الإسلامية (٢٦٥) .

" قال الزين العراقي: أسانيده جياذ، ورواه الحاكم من عدة طرق، وعده السيوطي من المتواتر. <sup>(١)</sup>

وروى هذا الحديث من طرق أخرى كثيرة منها رواية عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما وقال فيها " كلهم في النار إلا ملة واحدة "، قالوا من يا رسول الله ؟ قال: " ما أنا عليه وأصحابي " حسنه الترمذى .

ومنها رواية معاوية رضى الله عنه وقال فيها: " ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهى الجماعة " رواه أبو داود وغيره .

ومنها رواية ابن عباس رضى الله عنهما وقال فيها " كلها في النار إلا واحدة " فقليل: وما هى الواحدة فقبض على يده وقال: الجماعة " فاعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " رواه ابن ماجة وغيره .

ونحن نتعرض لشرح هذا الحديث من خلال أربع نواح: من ناحية مدى صحة الحديث، ثم من ناحية المقصود بقوله صلى الله عليه وسلم بالفرقة الناجية (ما أنا عليه وأصحابي) ثم المقصود بالعدد، ثم من ناحية ما فيه من إشارة إلى " إنسانية التفرق ".

فمن الناحية الأولى: نجد الإمام ابن حزم قد تعرض لهذا الحديث فحكم بضعفه لأنه كما رأى: ما من إسناد روى به إلا وفيه ضعيف .

كما نجد أنه لم يتعرض له بالنفى أو الإثبات طائفة من العلماء منهم الإمام الأشعرى والفخر الرازى .

ومنهم من أخذ به كالبغدادى فى الفرق بين الفرق، والاسفرايينى فى التبصير، ومحمد الحسينى فى بيان الأديان، والإيجى فى العقائد العضدية . <sup>(٢)</sup>

ثم نجد الإمام الترمذى قد صحح الرواية الأولى (رواية أبى هريرة )، وحسّن الزيادة التى فى الرواية الثانية (رواية عبد الله بن عمرو)

(١) شرح الغنىمى للعقيدة الطحاوية: نقلا من فيض القدير ٢١١٢

(٢) انظر تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد فى مقدمته على كتاب الفرق بين الفرق

وفى رأى أن الحديث برواياته المختلفة، وبالرغم من اختلاف العلماء حوله: يصح أخذه أساسا لتحديد نهائى لمن تكون الفرقة الناجية بالفعل من الفرق التى ظهرت فى التاريخ، من حيث المقاييس العامة التى يرجع فيها إلى هذا الحديث كما يرجع إلى غيره.

ومن هنا نتقل إلى الناحية الثانية فى الحديث المقصود بالفرقة الناجية: (ما أنا عليه وأصحابى) فهنا مشكلة، حيث نجد أنه ما من فرقة ظهرت إلا وزعمت أنها تمثل الفرقة الناجية <sup>(١)</sup>، وتضع لنفسها نسبا ينسبها إلى طبقة الصحابة فى سلسلة شيوخ المذهب .

لذا فإن الحل فى أن نلجأ إلى استنباط المقاييس الموضوعية التى ينطبق عليها قوله صلى الله عليه وسلم (ما أنا عليه وأصحابى) حيث نجد أن مجموعة الآيات والأحاديث وضعت لنا مقاييس موضوعية: ومن تلك المقاييس: الحث على الوحدة وعدم التفرق، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ١٠٣ آل عمران، وأن العصمة فى كتاب الله وسنة رسوله ففيما رواه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله " إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وستى ولن يتفرقا حتى يردا على الخوض "

وأن مظنة الضلالة تكون على درجات بمقدار درجة القرب أو البعد من نهج الكتاب والسنة ومقرراتها .

ومن ثم يمكن أن نقرر هذه المقاييس بشكل أكثر تحديدا فى الأصول الثلاثة التى ذكرناها سابقا (محدودية العقل - المنهج العملى - محدودية الجدل).

---

(١) انظر مثلا كتيب (حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان) لأبى الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار المعروف بالرازى، من رجال القرن السابع الهجرى رتبها على أبواب وجعل لكل عقيدة بابا، وضمنه من آيات القرآن الكريم ما يناسب معتقديها ويكون حجة لهم على عقيدتهم، طبع مطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر عام ١٣٢٠ى.

ومن هنا ننتقل إلى الناحية الثالثة في الحديث: عن المراد بالعدد الوارد فيه  
حيث نجد ثلاثة آراء:

الرأى الأول: ذهب إلى أن العدد غير مراد بحرفيته، وأن المقصود منه المعنى  
الإجمالى: أى كثرة التفرق

الرأى الثانى: أن المراد المعنى الحرفى، وأصحاب هذا الرأى منهم من أجهدوا  
أنفسهم فى عملية تعداد ما ظهر من هذه الفرق لكى يصلوا بها إلى ثلاثة وسبعين لا  
تنقص ولا تزيد، وهؤلاء لم يوفقتوا فيما قاموا به حيث اعتمدوا على مقاييس مختلفة فى  
عملية العد فتارة يحتسبون الفرق الرئيسية وتارة يحتسبون الفرق الفرعية وهذا غير  
مقبول منهجيا، فقد كان عليهم أن يعتمدوا مقياسا واحدا، لكنهم وجدوا أنهم لو  
احتسبوا مقياس الفرق الرئيسية فحسب لما وصلوا إلى العدد الذى جاء فى الحديث،  
ولو احتسبوا مقياس الفرق الفرعية لوصلوا بها إلى عدد يزيد عن العدد الوارد فى  
الحديث

الرأى الثالث: أن المراد بالعدد المعنى الحرفى، لكن مع التوقف عن إجراء عملية  
العد، لأنها لا تأتى منهجيا إلا بعد التأكد من انتهاء عملية التفرق، وهى عملية لا  
يبدو أنها انتهت بعد، حيث تظهر فرق جديدة بين وقت وآخر، وآخر ما ظهر منها  
فى القرن الماضى: البابية والبهائية والقاديانية .

الناحية الرابعة فى الحديث: إن الرسول صلى الله عليه وسلم يشير فى هذا الحديث  
إلى طبيعة إنسانية تنحو نحو التفرق والتحزب فيما روى عنه من أحاديث ؛ منها ما  
رواه عنه الإمام البخارى بسنده فى صحيحه فى كتاب الاعتصام (لا تقوم الساعة  
حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع)، وفيما رواه أيضا  
(لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب  
خرب تبعتموهم)

والمقصود اتباعهم فى نزعة التفرق ضمن أمور أخرى .

وتفسير هذه النزعة نجده عند علماء الاجتماع المحدثين في تقريرهم أن الروابط تنشأ في الجماعة بدافع من الإرادة والمصلحة، وأن المصلحة يقصد بها الأهداف التي تتجه إليها إرادتنا، وأن هذه المصلحة كما تفعل فعلها في تكوين الجماعة أساساً فهي تفعل فعلها كذلك في تقسيم الجماعة إلى رابطات أو فرق، أو مجموعات داخلية.<sup>(١)</sup>

### أسباب نشأة الفرق:

يتجه بعض الباحثين إلى تفسير نشأة الفرق بإرجاعها إلى سبب واحد، وبخاصة السبب السياسي .

ونحن لا نرى مانعاً من الإقرار بظهور العامل السياسي في نشأة بعض الفرق كالأخوارج والشيعة مثلاً، لكن هذا لا يعنى أن يكون هذا العامل هو الأساس: لأن إرجاع الظواهر الإنسانية إلى سبب واحد يعتبر تفسيراً سطحياً لا يتفق مع طبيعة الشخصية الإنسانية المركبة من نواح كثيرة معقدة، كما أن إرجاع هذه الظواهر جميعاً إلى سبب وحيد: سياسياً أو اقتصادياً إنما يأتى من قبل أصحاب الفلسفات المادية التي ترجع الوجود في أصله وتطوره إلى المادة باعتبارها أصل كل شيء .

كما نرى أن استبعاد الدين كعامل أصيل واستبدال السياسة به إنما نشأ مؤخراً من ظهور التيار العلماني الذي يرى أن إرجاع الظاهرة إلى الدين إنما هو نوع من التعمية أو استغلال الدين .

وإذا كان أصحاب التفسير السياسي يستشهدون بظهور الشيعة والأخوارج وأنه إنما كان على أساس سياسي فإننا نتهم هذا التفسير بالسطحية:

فمن ناحية الشيعة نرى أن الذي حركهم ضميرهم الديني من حيث اعتقدوا أن مبايعة الخلفاء الراشدين قبل على رضى الله عنه إنما كان تعطيلاً لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالولاية لعل، وعصياناً لأمره فيها .

---

(١) كتاب (الجماعة) لأستاذ الاجتماع الأمريكى: ل. ر. ماكفر ص ١٣٦، ١٥٨، ١٥٩

ومن ناحية الخوارج فإن الذى حركهم هو ضميرهم الدينى من حيث اعتقدوا أن قبول على رضى الله عنه لتحكيم الحكّمين إنما كان تعطّيلاً للحكم بما أنزل الله ودخولاً تحت قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

كذلك فإننا نرى أن السياسة ليست من الأمور التى تفسّر بها التطورات تفسيراً نهائياً، وإنما هى فى حد ذاتها مظاهر تحتاج إلى تفسير، فالوقوف عندها فى بيان نشأة الفرق يكاد لا يجدى، ونستشهد فى ذلك بما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع المحدثين: إذ يقرر أن المصالح السياسية والمصالح الاقتصادية ليستا من المصالح الاجتماعية الأساسية، وإنما هى من المصالح الاجتماعية المشتقة، ويذكر من المصالح الأساسية المصالح القائمة على حاجات نفسية، كالمصالح العلمية، والفلسفية، والتعليمية، والفنية والدينية، ومصالح السلطان والمكانة<sup>(١)</sup>.

وبوجه عام فلسنا مع النظرة التى تميل إلى تبسيط العوامل، وإنكار بعضها لحساب الآخر، وإنما نرى أن جميع الفرق والمذاهب على تفاوت بينها فى الدرجة تأثرت بمجموعة من العوامل الإسلامية والحضارية والعقدية والإنسانية، ونقول مع الدكتور محمد إقبال (إن أية ظاهرة عقلية أو تطور عقلى فى أمة لا يكون لها معنى ولا يفهمان إلا فى ضوء الظروف العقلية والسياسية والدينية والاجتماعية التى عاشت فيها الأمة قبل ظهور هذه الظاهرة) وكما يقول الأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى (إن الظواهر العقلية والروحية والاجتماعية لا تخضع لقوانين السببية البسيطة).

ومن هنا فإننا نرى أن هناك مجموعة من الأسباب لنشأة الفرق يرجع بعضها إلى الإسلام كدين يعتنقه أتباع من البشر، بما فيهم من تطلع إلى الفهم، واختلاف فى المنزع.

ويرجع بعضها إلى ضرورات النمو الحضارى بما فيه من نمو الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

---

(١) كتاب الجماعة لما كفر ص ١٤٨ وما بعدها



ويرجع بعضها إلى ضرورات الانفتاح على العالم بما يموج فيه من عقائد مناوئة . ويرجع بعضها الأخير إلى ضرورات النفس البشرية في ترددها بين النزعة الوجدانية والنزعة العقلية واضطرابها بينهما، كما يرجع أيضا إلى حقيقة التفرق ذاتها . أما عن العوامل الإسلامية فيما يتصل بالقرآن الكريم فقد تصدى المسلمون لفهم الكتاب المنزل: فهما له في ذاته ؛ في قضية وجوده، قديما أو محدثا، وفيما يضمه من آيات من حيث كونها محكمة أو متشابهة، وفيما تضمه الآيات من جوانب وأعماق ومسائل .

وإذا كان من الطبيعي أن يرتاد المسلمون آفاق القرآن بالفهم فقد كان طبيعيا كذلك أن يجلسوا إلى النبوة: يتفهمونها من جانب ويفهمون عنها من جانب آخر . يتفهمونها من حيث الصفات الواجبة للرسول صلى الله عليه وسلم، وعصمته، ودلائل صدقه، ودلالة المعجزة . ويتفهمون عنها من جانب آخر: من حيث فهم معنى الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم في الإلهيات والنبوات والسمعيات .

ولقد كان طبيعيا في المجتمع الإسلامي أن يتعرض فيه الباحثون لمعرفة من يكون المسلم ؟ ولم يكن هذا البحث في هذه المسألة سطوحيا أو بسيطا بمقدار تعلق سلامة الكيان الاجتماعي نفسه بهذا البحث، وهو كما نعرف كيان اجتماعي يقوم على هوية العقيدة أساسا .

وأما عن العوامل الحضارية فذلك لأنه لم يكن المسلمون بهويتهم الدينية يعيشون مع قرآنهم وسنة نبيهم ومع أنفسهم فحسب، ولكنهم يعيشون مع الآخرين، ويصنعون حضارة: تستفز الحضارات الأخرى، أو تستعديها، أو تتهاون معها، أو تندمج بها، ومن ثم خضع المسلمون لقوانين الحضارة الأساسية في تبادل التأثير والتأثر، وتبادل الأسلحة والمواقف .

كما خضعت حضارتهم لطبيعة النمو الحضاري في حركته الذاتية: إذ يخرج

المجتمع من طور الكفاح إلى طور الرخاء والوفرة الاقتصادية، وهو طور تفرغ فيه الأذهان للنظر والتأمل وصناعة المعرفة .

وكان من أثر ذلك أن تنوعت مشاكل الحياة الاجتماعية فيما يمس العقيدة، وذاع الاشتغال بمسائل العقيدة في أركان المجتمع وزواياه على اختلاف مستوياتها وتشعب منحنياتها، وانبعثت لتشجيعه أسباب من الحرص على الشهرة، أو الاستنصار بالعامّة، أو التنفير بالتهم، كما انبعثت لتغذيته أسباب من الاختلاط بأرباب الديانات الأخرى والموالى في جو التسامح الذى كفله لهم الإسلام .

وفي حركة النمو الحضارى كانت العقيدة شعارا يرفع أو هدفا يستبطن في معترك الحياة السياسية ودوافعها وآلياتها ومناوراتها .

كما كانت الدواعى المالية والاقتصادية ذات تأثير أيضا: وجدناه في حرب الردة، وفي الاتجاهات الدنيوية حول مبايعة الخليفة، والجزية التى تؤخذ أو لا تؤخذ من أهل الكتاب إلخ

أما عن العوامل العقدية: فنراها في دخول الإسلام أرضا كانت تعج قبله بمختلف الآراء والعقائد وأشدها تنوعا وعصبية وتحبطا : من يهودية، ونصرانية، ومجوسية، وهندوسية، وغنوصية، ودهرية

فقد أثارت اليهودية شبهاتها حول التشبيه والتجسيم فيما يتعلق بالذات الإلهية

وأثارت المسيحية شبهاتها حول قدم المسيح من حيث هو كلمة الله .

وأثارت المجوسية شبهاتها حول خلق الله للشر

وأثارت الغنوصية شبهاتها حول ادعاء الاتصال بالله، أو ادعاء النبوة

وأثارت الدهرية شبهاتها حول قدم المادة .

...وهنا كان لابد للفكر الإسلامى من أن يواجه ذلك كله بتأكيد على هويته

الخاصة .

أما عن العوامل الإنسانية فقد كان للعوامل الإنسانية التى لا تنتسب فى أصلاتها هذه العقيدة أو تلك تأثير أيضا؛ ولقد أرجع الشهرستاني الشبهات التى حدثت فى مراحل الحياة الإنسانية إلى زمن موغل فى الماضى؛ إلى إبليس؛ (وترجع إلى إنكار الأمر بعد الاعتراف بالحق، وإلى الجنوح إلى أهوى فى مقابلة النص).

وفى هذا الإطار يبرز الانحراف فى نظرية المعرفة نفسها بوصاية إبليس أيضا (فاللعين لما حَكَمَ العقل على من لا يحكم عليه العقل لزمه أن يجرى حكم الخالق فى الخلق، أو حكم الخلق فى الخالق).

وفى هذا الإطار كذلك تبرز العلاقة بين النزعة الوجدانية والنزعة العقلية عند الإنسان مستقلا بطبيعته عن مصادر الغواية أو مصادر الهداية، وفى هذا نشير إلى ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنه يوجد فى كل دين تداخل أو صراع بين الحدس والتعقل، بين الشعور والذكاء، بين العقل والقلب، وأن هذا التداخل أو الصراع يختفى - أو من شأنه أن يختفى - فى الأديان الكبرى، حيث توضع له صيغته الشكلية ومقرراته، وحيث يوجه كل من العنصرين فى قنوات محددة، يعبر عنها فى صورة محددة، وينبثقان فى نماذج مقررة من الفكر والعبادة.

ومن الملاحظ أنه فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كان النظام والاستقرار والسلام قائما بين النزعتين، إلا أنه حدث الاختلال بينهما بعد ذلك، حيث وجد المسلمون أنفسهم فى صخب العالم الهلينستى، وكان من نتائج هذا الاختلال ظهور التطرف فى كل من النزعتين: الأمر الذى أدى إلى الاشتغال بمسائل علم الكلام: فى مختلف موضوعاته فى الإلهيات والنبوات والسمعيات والكونيات والإنسانيات، وأدى بالتالى إلى ظهور الفرق.

### **مصطلح أهل السنة والجماعة:**

تطلق هذه التسمية بوجه عام على كل من يلتزم بالسنة ويتبع الجماعة.

والمقصود بالجماعة جمهور المسلمين ممن لم يتم إلى فرقة بعينها من الفرق الكلامية

التي اعتبرت في بعض آرائها حائدة عن طريق السنة وما مضى عليه الجماعة، وهذا يشير إلى أن هذه التسمية تستند إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الفرق . وإلى أنها بدأت في الظهور منذ ظهور الفرق وعلى الأخص المعتزلة .

وإلى أنها ليست فرقة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنما هم جماعة المسلمين التي ترسمت - كما يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني - سنة النبي صلى الله عليه وسلم وطريقة أصحابه في العقائد<sup>(١)</sup>.

ويتبين لنا ذلك من تصنيف البغدادى لأهل السنة والجماعة، حيث يقدمهم بصفة شاملة، تضم المتكلمين - الذين لا يسميهم كذلك، ولكن يقول عنهم " صنف أحاطوا علما بأبواب التوحيد والنبوة وأحكام الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، وشروط الاجتهاد، والإمامة، وسلكوا في هذا النوع من العلم طرق الصفاتية<sup>(٢)</sup> من المتكلمين ".

كما تضم أئمة الفقه من فريقى رأى والحديث من الذين اعتقدوا في الله وفي صفاته الأزلية وتبرءوا من القدرية والاعتزال وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال في القبر والحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التي هي دون الشرك، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها ودوام عذاب النار على الكفرة، وقالوا بإمامة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية، ورأوا تحريم زواج المتعة .

كما تضم الذين أحاطوا علما بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أنظر علم الكلام وبعض مشكلاته للأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني طبع مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٦ ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) المقصود إجمالاً من يشتون الصفات .

والذين أحاطوا علماً بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف، ووجوه قراءات القرآن، ووجوه تفسيرها وتأويلها على وفق مذهب أهل السنة، والزهاد الصوفية الذين جرى كلامهم في طريقى الإشارة والعبارة على سمت أهل الحديث، والمرابطين في ثغور المسلمين الذين يظهرون في ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة، وعامة أهل البلدان التى غلب فيها شعار أهل السنة، دون عامة البقاع التى ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة<sup>(١)</sup>.

ويذكر البغدادي لأهل السنة آثارهم العمرانية في بلاد الإسلام (مائلة أمام الباحثين خالدة في بطون التاريخ، بحيث لا يلحقهم في ذلك لاحق: كالمساجد والمدارس والقصور والرباطات والمصانع والمستشفيات وسائر المباني المؤسسة في بلاد أهل السنة<sup>(٢)</sup>

ثم يلخص البغدادي بعد ذلك ما اتفق عليه جمهور أهل السنة والجماعة من أركان الدين، وما خالفوا فيه غيرهم على سبيل التبديع أو التكفير، وهو يقدم هذا الملخص في تعريف تفصيلي يبدو مانعاً أكثر منه جامعاً ونحسبه لا يتفق مع سعة الأفق الذى يضم أهل السنة والجماعة الذين أشار إليهم من قبل<sup>(٣)</sup>.

ثم يذكر كما يذكر غيره من مؤرخى الفرق أسماء من ظهر من علماء أهل السنة والجماعة بدءاً بعلي بن أبى طالب، ثم بعبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وعلى زين العابدين، والحسن البصرى، والشعبي، والزهرى ١٢٤هـ وجعفر الصادق، وأبى حنيفة وزفر ١٥٨هـ ومحمد ١٨٩هـ وأبى يوسف ١٨٢هـ ومالك ت ١٧٩هـ والليث بن سعد ت ١٧٥هـ وسفيان الثوري ١٦١هـ وسفيان بن عيينة ١٩٨هـ ويحيى بن معين والشافعى وأحمد بن حنبل ٢٤١هـ وأبى ثور ٢٤٠هـ ويحيى

---

(١) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي، بتحقيق الشيخ محمد عى الدين عبد الحميد، نشر مكتبة

محمد على صبيح بالقاهرة ص ٣١٣-٣١٨

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٤-٣٦٦

(٣) المصدر السابق من ص ٣٢٣-٣٥١

بن معين ٢٣٣ هـ، وداود الظاهري ٢٧٠ هـ، وأبو العباس بن سريج، وأبى الحسن الأشعري ومدرسته، وأبى منصور الماتريدي ومدرسته،<sup>(١)(٢)</sup>

ولنا أن نضيف بحق: الإمام ابن تيمية ومدرسته ويمكن تلخيص منهج علمائهم في البحث في العقائد على النحو الذى ذكره سعد الدين التفتازانى فى شرح المقاصد: أن يكون على قانون الإسلام: أى الطريقة المعهودة المسماة بالدين والملة، والقواعد المعلومة قطعا من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول الذى لا يخالفها<sup>(٣)</sup>.

وينبنى موقفنا منهم فى هذا الكتاب على اتخاذهم على اختلاف مدارسهم العقدية:

من السلف والأشاعرة والماتريدية مصدرا هاما من مصادر العلم بالعقيدة، فى ضوء صريح القرآن، وصحيح السنة، إقرارا بجهودهم واستفادة باجتهاداتهم، مع النقد الموضوعى لبعض آرائهم، والتخلص من العصبية لأى منهم.

### مصطلحات أساسية فى علم الكلام

يحتاج القارئ أثناء تجواله فى هذا العلم إلى تعريفه بمصطلحاته الأساسية، ومن أكثرها أهمية وانتشارا: مصطلحات: " الحكم العقلى "، وأقسامه فى الوجوب والاستحالة والإمكان، والتكليف، والنظر، والتقليد، وخبر الآحاد.

معنى الحكم لغة المنع، ومنه سُمى الحاكم حاكما لأنه يمنع الظلم، وفى الاصطلاح: إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، كأن تثبت الشاعرية لشوقى، أو تنفيها عن طه حسين، وينقسم إلى شرعى يستعمله علماء الفقه غالبا، وعادى يستعمله علماء الفيزياء غالبا، وعقلى يستعمله الفلاسفة غالبا.

فالحكم الشرعى يراد به: خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين على سبيل

(١) أنظر التبصير فى الدين لأبى المظفر الاسفراينى ط ١٩٤٠ ص ١١٣

(٢) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ص ٣٦٣ - ٣٦٤

(٣) شرح المقاصد ج ١ ص ١٢

الوجوب أو التحريم أو الكراهة أو الندب أو الإباحة وهذا محله كتب الفقه وأصوله كما أشرنا .

والحكم العادى هو ما يعرف بالتجربة والتكرار وهذا محله فى العلوم التجريبية .  
أما الحكم العقلى فيعرف بمجرد العقل، من غير حاجة إلى تكرار عادة وتجربة أو إلى وضع شرعى أو لغوى .

وهذا محله فى المنطق والفلسفة وعلم الكلام ونحو ذلك .

وأقسام الحكم العقلى: الوجوب، والاستحالة، والجواز أو (الإمكان) .

والوجوب اصطلاحاً: هو عدم قبول العدم - أو عدم قبول الانتفاء - عقلاً، والواجب هو ما لا يتصور فى العقل عدمه أو نفيه .

وينقسم إلى ضرورى ونظرى: فالضرورى ما لا تحتاج فى العلم به إلى نظر واستدلال، مثل البديهيات، والنظرى ما تحتاج فى العلم به إلى نظر واستدلال، مثل العلم بحدوث العالم .

والاستحالة: عدم قبول الوجود أو عدم قبول الثبوت عقلاً، والمستحيل هو ما لا يتصور فى العقل وجوده أو ثبوته .

وينقسم إلى ضرورى ونظرى أيضاً، فالضرورى ما لا يحتاج العلم به إلى نظر واستدلال مثل العلم باستحالة اجتماع التقيضين، والنظرى هو ما يحتاج العلم به إلى نظر واستدلال مثل العلم باستحالة وجود الشريك للبارى سبحانه .

والجواز - أو الإمكان - هو قبول الوجود - أو الثبوت - تارة. والعدم - أو النفى - تارة أخرى، والجائز (الممكن) هو ما يصح فى العقل وجوده - أو ثبوته - تارة وعدمه - أو نفيه - تارة أخرى، وهو ينقسم إلى ضرورى ونظرى: فالضرورى ما لا يحتاج العلم بجوازه إلى نظر واستدلال مثل العلم بجواز حصول المنع والعطاء من المالك، والنظرى ما يحتاج العلم بجوازه إلى نظر واستدلال مثل العلم بكون وجود العالم ممكناً لا واجباً .

## تعريف التكليف والمكلف

التكليف لغة: طلب ما فيه كلفة واصطلاحاً: طلب الشارع من العباد ما فيه كلفة، وعلى هذا فهو يشمل من الأحكام الشرعية : الوجوب والحرمه والندب والكراهة دون الإباحة .

### وشروطه: البلوغ والعقل وبلوغ الدعوة .

والمكلف من الإنسان هو البالغ العاقل الذى بلغته الدعوة سواء كان ذكراً أو أنثى أو حراً أو عبداً، مسلماً أو كافراً .

وعلى هذا فليس مكلفاً كل من: الصبى، والمجنون، والأبله، ومن تلفت حواسه - كالأصم الأبكم الأعمى - بحيث لا يتصور فيه بلوغ الدعوة إليه - وأهل الفترة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ، وعلى هذا فمن ورد في الحديث أنه يعذب من أهل الفترة كأميرئ القيس وبعض آباء الصحابة يحمل على أن تعذيبه كان لأمر خاص يعلمه الله ورسوله .

حكم تكليف من لم تبلغه الدعوة: ذهب المعتزلة إلى أنه مكلف بناء على البلوغ والعقل .

والكلام فى هذه المسألة عندهم مبنى على خلاف فى وجوب المعارف العقلية . فمن زعم أنها ضرورية وهم فرقة من المعتزلة - يدعون أصحاب المعارف - قال بوجوب الإيمان عليه فيما يعرف بالعقل بالضرورة، كتوحيد الله وعدله، وبأنه معذور فيما لا يعرف إلا بالشرع كالسمعيات . وإذا لم يعرف التوحيد والعدل فهو لآفة فى عقله لم يعرف، فغير واجب عليه شيء، ولا ثواب له فى الآخرة، ولا عقاب .

وأما المعتزلة القائلون بوجوب المعارف العقلية اكتساباً فقالوا: إنه يجب على من كمل عقله أن يؤمن بالتوحيد والعدل، ولكنه معذور فى جهله بالرسول والشرائع (السمعيات) . فمن زاغ عن اعتقاد التوحيد والعدل فهو كافر مستحق للوعيد .



أما أهل السنة فيرون أن من لم تبلغه الدعوة ليس مكلفاً بالإيمان ولا بالشرائع لقوله تعالى " وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا " وهم يفرقون بين حالات:

إذا لم تبلغه الدعوة واعتقد الحق في التوحيد والعدل وجهل شرائع الأحكام والرسول . فحكمه حكم المسلمين، وهو معذور فيما جهل .

أما إذا لم تبلغه الدعوة واعتقد الإلحاد والكفر والتعطيل فهو كافر وينظر في أمره من ناحية الجزاء الأخروي: إن كانت قد بلغت دعوة بعض الأنبياء فلم يؤمن بها كان مستحقاً للوعيد على التأييد (الخلود في النار) وإن لم تبلغه دعوة نبي لم يكن مكلفاً ولم يكن له في الآخرة ثواب أو عقاب ...

ولله أن يعذبه عدلاً لا عقاباً (كالبهائم). والله أن ينعم عليه فضلاً لا ثواباً (كأطفال المسلمين).

أما إذا لم تبلغه الدعوة ولم يعتقد كفراً أو توحيداً فليس بمؤمن ولا كافر، إن شاء الله عذبه عدلاً، وإن شاء الله أنعم عليه فضلاً<sup>(١)</sup>.

### أول ما يجب على المكلف: معرفة الله .

وحقيقة المعرفة: هي العلم الجازم المطابق للواقع، وأضاف العلماء إليه أن يكون ناشئاً عن دليل . وقد خرج بهذا القيد الأخير: جزم المقلد، وهو الأخذ بقول الغير بغير دليل

### وجوب النظر

ذهب كل من الأشاعرة والمعتزلة إلى أن المعرفة لا تكون إلا بالنظر، ولذا اتفقوا على أن أول واجب هو النظر، وبالعالم المعتزلة فقال بعضهم: إن أول واجب هو الشك .

واختلفوا في الموجب فقال الأشاعرة : الموجب هو الشرع وقال المعتزلة هو العقل .

(١) \ انظر أصول الدين للبغدادى ص ٢٦٢ وما بعدها .

والمقصود بالنظر: ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها إلى أمور مجهولة سواء كانت تصورا كتعريف الإنسان، أو تصديقا كالحكم بحدوث العالم .

ويرى الإمام الماتريدي أن السبل الموصلة إلى العلم هي: العيان والأخبار والنظر.

والعيان ما تقع عليه الحواس - لا الجوارح - والمعرفة التي تأتي من هذا الطريق معرفة صادقة، والحواس لا تقوم بالمعرفة، وإنما هي تقرر واقعا، ويقتصر دورها على تسجيل ذلك الواقع ونقله إلى القلب والحواس الباطنة التي تقوم بالإدراك والمعرفة، والمعرفة الحسية هي أصل المعرفة العقلية وأساسها<sup>(١)</sup>

وما قرره الشيخ الإمام الماتريدي هنا عن نقل وظيفة المعرفة من الحواس الظاهرة إلى ما يسميه الحواس الباطنة هو الأشبه بما ذهب إليه العلم الحديث عن العلاقة بين أدوات الحس الظاهرة وبين المعرفة التي يقوم بها المخ بعد أن تصل إليه رسالة الحواس .

ويقدم الماتريدي أدلة عقلية وسمعية كثيرة على وجوب النظر، ذكر منها حاجة إبراهيم قومه، ففيها إباحة التكلم في الكلام والمناظرة والحجاج .

ومعرفة الله تكون بالنظر في أحوال النفس، وأحوال العالم، دون الاجترأ على مجالات البحث في كيفية تُنسب لله أو ماهية تكون له، فهي مجالات تعلو فوق طاقة العقل، لأنه - أي العقل - يقصر عن الإحاطة بماهية نفسه<sup>(٢)</sup> ومن باب أولى أن يكون قاصرا عن الإحاطة بماهية خالقه

وذهب الشيخ الإمام الأشعري إلى أن أول واجب على المكلف هو معرفة الله، وذهب أبو إسحاق الاسفراييني إلى ما ذهب إليه جمهور المعتزلة من أن أول واجب

---

(١) المغربي ص ٤٦ وما بعدها نقلا عن تأويلات السنة للماتريدي

(٢) المغربي ص ٦٠ - ٦١ نقلا عن كتاب التوحيد

على المكلف هو النظر في معرفة الله، وذهب ابن فورك والجويني إلى أنه هو القصد إلى النظر<sup>(١)</sup>

ويقول القاضي الباقلاني (أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد النظر في آياته، والاستدلال عليه بآثار قدرته، لأنه سبحانه وتعالى غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وإنما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة والبراهين الباهرة)<sup>(٢)</sup>

والذي أوجب النظر هنا عند الأشاعرة هو الشرع - خلافا للمعتزلة الذين يرون أن الموجب هو العقل - والمراد بالشرع الإجماع والحديث والقرآن .

أما الإجماع فلأن معرفة الله تعالى واجبة إجماعاً، وهي لا تتم إلا بالنظر، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وأما الحديث فلقوله صلى الله عليه وسلم تعليقا على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١٩٠ آل عمران : ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها<sup>(٣)</sup> .

وأما القرآن فلنحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٠١ يونس .

ولما جاء من الآيات التي تؤثم تقليد الآباء وترك النظر من مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ٢٢ الزخرف .

(١) المواقف ج ١ ص ٢٧٥ - ٢٨٠

(٢) (الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به) للباقلاني ص ٢٢ طبعة الخانجي عام ١٩٦٣

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره للآية وقال: " وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه " . وذكره الكتاني وقال: ذكر بعضهم أنه متواتر بل حكى الإجماع على تواتره وفيه نظر فإن المخرجين له لم يذكروه إلا من حديث عائشة فكيف يكون مع ذلك متواترا فضلا عن أن يجمع على تواتره، أنظر (نظم المتواتر من الحديث المتواتر) لمحمد بن جعفر الكتاني، تحقيق شرف حجازي، نشر دار الكتب السلفية بمصر ج ١، ص ٢٤٣

أما مخالفتهم المعتزلة في أن الموجب للنظر هو الشرع وليس العقل فذلك لا يقلل من قيمة النظر العقلي بل يزيده رسوخا وثباتا، وهم يستندون في هذه المخالفة إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ ٢٨ الجاثية، وإلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ١٥ الإسراء، وقد حاول المعتزلة إدخال الاحتمال في دلالة هذه الآية بقولهم بأن المراد بالرسول العقل، أو المراد: ما كنا معذبين بترك الواجبات الشرعية، وقد رد عليهم السيد الجرجاني من علماء الأشاعرة: بأن ذلك التأويل مخالف لأصل الوضع، وهو ما لا يصح صرف الكلام عنه إلا للدليل. <sup>(١)</sup>

ووجوب النظر يقع على جميع المكلفين وفقا لما ذهب إليه الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة. أما الإمام ابن تيمية:

فهو يخالف المعتزلة والأشاعرة في اعتبار العقل أصلا للنقل، إنه يفند مزاعمهم على أساس أن ما يبنى عليه النقل من العقل ليس كل العقلية، فمنها حق وباطل؛ وإن غاية ما يتوقف عليه الشرع من العقل هو تصديقه للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم على العقل أن يعزل نفسه بعد ذلك، فتصديق العقل للنقل له دلالة عامة مطلقة، أما تصديق النقل للعقل فليس كذلك .

و يقول (ولا يقال إن العقل قد زكى الشرع وعدله، فإذا قدم الشرع عليه لكان قدحا فيمن زكاه وعدله فيكون قدحا فيه، ...

لأن الرجوع في موارد النزاع إلى قول الأعمى ليس قدحا فيما علم به أنه أعلم).

وعند التعارض (... لو أبطلنا النقل لكننا أبطلنا دلالة العقل) باعتبار أنه هو الذى دل على صحة النقل .

وهنا نلاحظ في منهج الإمام ابن تيمية أنه يصح للنقل أن يبطل بعض العقل، ولا يصح للعقل أن يبطل بعض النقل .

(١) أنظر المواقف بشروحه ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٦

ويحاول الإمام ابن تيمية أن يحل هذه المشكلة المنهجية فيذهب إلى أن هذا لا يعنى تقديم النقل عند تعارض ظاهره مع العقل، ولكنه يعنى أن يقدم القطعى أيا كان، لكونه قطعيا لا غير، وهنا يأتى التساؤل: كيف تحل المشكلة وكل منهما يقرر ما هو القطعى على طريقته ومقياسه؟

يجيب الإمام ابن تيمية على ذلك بافتراض عدم التعارض بينهما فى القطعيات، لأنه قول بالجمع بين النقيضين، لكن السؤال يظل واردا، ويضاف إليه أن استحالة الجمع بين النقيضين إنما هو فى النقيضين العقليين، أو فى النقيضين اللذين يأتیان من جهة واحدة، أما عند اختلاف الجهة فإنه لا جمع إذ كل منهما منفصل مبدئيا عن الآخر، أو أن ما يعتبر نقيضا فى أحدهما لا يعتبر نقيضا عند الآخر، ومن هنا كان تناقض الآراء والمذاهب وأديان والنظريات يملأ ساحة النقاش<sup>(١)</sup>

ومهما يكن فموقف الإمام ابن تيمية يبين عن اعتداد خاص بالعقل، جعل ابن قيم الجوزية يفترض أن استفسارات الصحابة للرسول لم يكن منشؤها قط التعارض بين النص والعقل، بل التعارض بين النصوص فى ظاهرها، أما الاستشكال بالتعارض بين النص والعقل فقد حكى عن الكفار فحسب!<sup>(٢)</sup>

ومن هنا يذم الإمام ابن تيمية الواقفين عند حرفية النص، والذين يتلقون النصوص دون أن يلتفتوا إلى ما فيها من دلالة عقلية، كما يذم أولئك الذين افترضوا أن الإيمان بالرسول قد استقر فعلا، فلا يحتاج إلى الأدلة العقلية الواردة فى النصوص ذاتها، ويرى أن السلف لم يذموا الكلام بإطلاق، وإنما يذمون الباطل منه لمخالفته الكتاب والسنة، ولمخالفته العقل بالتالى، ويفترض أن صريح العقل لا يخالف صحيح النقل، وأن الكلام لا يذم من حيث إن الله أمر رسوله بالاستدلال .

ولا يقل عن ذلك دلالة على اعتداد الإمام ابن تيمية بالعقل - على الوجه الذى

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ل الإمام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، طبع مطبعة دار

الكتب بالقاهرة عام ١٩٧١ ج ١ ص ١٣٨، ١٧٠، ٨٧

(٢) الصواعق المرسلة ج ١ ص ٢١٩

أرادَه— التقاؤه مع المعتزلة في القول بأن الله لا يخاطب بما لا يُعلم، وفي أن الراسخين في العلم يعلمون تفسير القرآن .

وهو يرى أن من وقف على لفظ الجلالة في الآية فمراده بالتأويل الذي لا يعلمه إلا الله ما يؤول إليه الأمر كوقت الساعة وما إلى ذلك، وبالتأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم التأويل بمعنى التفسير والبيان، ولا وجود لما يقال إنه متشابه لا يُعلم،<sup>(١)</sup> وهذا الفهم للآية هو في رأى مثل من أمثلة التأويل، وهو استعمال للتأويل في نفس الآية التي ينتظر منها أن تبين لنا حكم التأويل، وهذا يكشف عن استعمال التأويل: مبدأ قبلية مطلقا .

إذن فقد أبحر الإمام ابن تيمية مع العقل النظري كما أبحر كبار المتكلمين<sup>(٢)</sup>.

ومن هنا ذهب الإمام ابن تيمية إلى البحث عن طرق الاستدلال التي رأى أنها طريق الرسل.

وطريق الاستدلال عنده يكون بالاستدلال بالآيات، وهو ما تكون الدلالة فيه على عين المدلول لا على كلى يندرج المدلول بين أفرادهِ، ويكون بالاستدلال بقياس الأولى.<sup>(٣)</sup> ودخل الإمام ابن تيمية هنا في جدل طويل عميق .

ومما له دلالة في هذا المقام أن نرى تلميذه الإمام ابن القيم يصنف الأدلة السمعية إلى نوعين : نوع دل بطريق التنبيه إلى الدليل العقلي، كغالب أدلة النبوة والمعاد والصفات والتوحيد، ونوع لا يقوم على التنبيه إلى الدليل العقلي وهو يسير جدا، والأول هو الأغلب في القرآن وهو أصل النوع الثاني، والقدر في النوعين بالعقل ممتنع بالضرورة، أما الأول فواضح، وأما الثاني فلاستلزام القدر فيه القدر في

---

(١) تأمل ما يقوله ابن عقيل في قوله تعالى ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ مخالفنا لذلك قال: (من كفَّ خلقه عن السؤال عن مخلوق، فكفَّهم عن السؤال عن الخالق أولى) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي ص ٤٦

(٢) أنظر كتابنا (الفرق الإسلامية في الميزان) ص ٤٥٣ - ٤٨٣ طبعة جامعة الإمارات الأولى

(٣) درء تعارض العقل والنقل ج ١ ص ١٤ - ١٩، والفرقان بين الحق والباطل ج ١ ص ١٠٨،

والإكليل ج ٢ من مجموعة الرسائل الكبرى طبعة ١٩٦٦

العقل الذى أثبتته، وإذا بطل العقل الذى أثبت السمع بطل ما عارض السمع من العقلیات! <sup>(١)</sup>

لكن ما النتيجة إذن؟ ما الذى بقى لإثبات السمع؟

ومما له دلالة أيضا أن نرى ابن تيمية وهو يعتمد خبر الواحد كطريق إلى المعرفة يجعله من الطرق التى يتحصل منها "اليقين" كدلالة نقلية تأتى على قدم المساواة مع الدلالة العقلية.

وهذا هو الذى جعل أتباع الإمام ابن تيمية يذهبون وراء الأدلة القياسية للدلالة على مباينة الله تعالى للعالم. وعلوه عليه، ليعودوا بعد ذلك بالتأويل - وإن لم يسموه تأويلا - على الآيات التى تفيد المعية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ <sup>(٢)</sup>

وفى رأينا أن الإمام ابن تيمية كان يقرب بذلك اقترابا شديدا ممن يسمون العقلين، وأنه لم يُنزل العقل عن عرشه الذى أجلسه عليه المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، وإنما رفع النص إليه ليجلسه بجواره، بل إنه عندما رفع النص إلى عرش العقل إنما فعل ذلك بإذن العقل الذى يقول عنه إنه سلطان عين واليا ثم عزل نفسه.

وهذا ما جعل بعض مريديه من أهل الحديث والفقهاء يرغبون به عن التوغل فى الكلام والفلسفة

ومهما يكن من قوله: إن شأن العقل مع النقل كشأن سلطان ولى واليا ثم عزل نفسه فإنه لا يتفق مع ممارساته العقلية الجدلية.

وفى رأينا أيضا أنه لقد كان من شأن المتكلم هنا - والإمام ابن تيمية مثل مرموق له - أن ينفذ يده من العقل النظرى جملة، وأن يلتفت إلى ما قدمه المنهج الإسلامى من اعتماد العقل العملى القائم على الضرورة العملية التى تقوم فى أساس كل منهج

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ج ١ ص ١٥٦ - ٤٦ - ٤٨

(٢) أنظر الفرقان بين الحق والباطل ج ١ ص ١٠٦

على الإطلاق، ولو كان قد تم ذلك على يد الإمام ابن تيمية لكانت قد طويت صفحات وصفحات من التزويد والتنقص والخلاف والجدل والتفرق والتشاحن على السواء، ولكانت قد فتحت - من جديد - آفاق البناء الحضارى التى تاهت فيها الأقدام عن نقطة البداية.

### حكم التقليد وآراء العلماء فيه

ذهب إلى صحة إيمان من اعتقد الحق تقليدا ولم يعرف دليله، كل من الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأهل الظاهر والمتقدمون من متكلمى أهل الحديث كعبد الله بن سعيد، والحارث المحاسبى، وعبد العزيز المكي، والحسين بن الفضل البجلي، وأبى عبد الله الكراييسى، وأبى العباس القلانسى، والبغدادى، والجوينى .

وذهب آخرون إلى أنه لا يستحق اسم المؤمن إلا إذا عرف الحق فى حدوث العالم وتوحيد صانعه وفى صحة النبوة ببعض أدلته سواء أحسن صاحبها العبارة عن الدلالة أو لم يحسنها . وهذا اختيار الأشعرى، وهو عنده ليس مشركا ولا كافرا، وقياسه يقتضى جواز المغفرة له .

يقول الإمام الشعرانى: (نقل الشيخ أبو طاهر القزوينى فى كتابه سراج العقول- عن أحمد بن زاهر السرخسى أجل أصحاب الشيخ الإمام الأشعرى رحمه الله قال: لما حضرت الشيخ الإمام الأشعرى الوفاة فى دارى ببغداد قال لى: اجمع أصحابى، فجمعتهم، فقال لنا: اشهدوا على أنى لا أقول بتكفير أحد من عوام أهل القبلة، لأنى رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد يشملهم ويعممهم )

ثم يقول: (وكان شيخ مشايخنا الشيخ كمال الدين بن الهمام رحمه الله يقول: تصوير التقليد فى مسائل الإيمان عسر جدا، فقل أن ترى واحدا مقلدا فى الإيمان من غير دليل، حتى آحاد العوام فإن كلامهم فى الأسواق محشو بالاستدلال، [والجزم] ومقصود الاستدلال هو حصول ذلك الجزم، فإذا حصل ما هو المقصود منه من قيامه بالواجب)<sup>(١)</sup>

(١) اليواقيت والجواهر للشعرانى ج ١ ص ٢٤



ويذكر العلامة الغنيمي<sup>(١)</sup> ما لخصه بعض العلماء عن الإمام الغزالي: (يجب ألا يكون طريق الإرشاد لكل أحد على طريقة واحدة، فالمؤمن المصدق سماعاً أو تقليداً لا ينبغي تحريك عقيدته بتحرير الأدلة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب العرب في مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق، ولم يفرق بين أن يكون بإيهان وعقد تقليدي، أو بيقين برهاني:

والجافى الغليظ ضعيف العقل الجامد المصر على الباطل لا تنفع معه الحجة والبرهان، ..... والشاككون الذين فيهم نوع ذكاء ولا تصل عقولهم إلى فهم البرهان العقلي ينبغي أن يتلطف في إقناعهم بما أمكن من الكلام المقنع المقبول عنده لا بالأدلة اليقينية البرهانية لقصور عقولهم عن إدراكها، لأن الاهتداء بنور العقل المجرد عن الأمور العادية لا يخص الله تعالى به إلا الآحاد من عبادة ...

وأما الفطن الذي لا يقنعه الأدلة الخطائية فيجب المحاجة معه بالدليل القطعي البرهاني.) اهـ

ويرى الأشاعرة إجمالاً أن غالبية المسلمين قد قاموا بواجب النظر إذ يكفيهم النظر الإجمالي كما هو الشأن في الأعرابي الذي استدل على وجود الله بدليل الأثر يدل على المؤثر في قوله (البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير).

أما الإمام الماتريدي فقد استهل كتابه " التوحيد " بالحديث عن إبطال التقليد، واستدل على ذلك بظهور النبي صلى الله عليه وسلم في زمان تقليد في أمر الدين، حيث دعاهم إلى ترك التقليد في الدين واتباع الحجج .

وهو يرى أن الحجة لا تدرك بالعقل دون معونة الوحي الذي يأتي إلينا عن طريق الخبر، لذا فإن تقليد الرسول ليس في معنى التقليد الذي هو قبول الخبر بغير

---

(١) أنظر شرحه للعقيدة الطحاوية ص ٤٥

حجة " لأننا قبلنا قوله - أى الرسول صلى الله عليه وسلم - لظهور العلم المعجز عليه " وإذن فإن تقليد الرسول ليس مسوغا لتقليد غيره .

والماتريدى مع ذلك يميز إيمان المقلد إذا تعلق بالدين الحق، مع عدم قبول عذره عن نقصيره.<sup>(١)</sup>

أما المعتزلة فى هذا الأمر فهم بين القائلين بأن المعارف ضرورية، والقائلين بأنها اكتسابية، فمن زعم أن المعارف ضرورية زعم أن المعتقد للحق إذا اعتقده - عن ضرورة - إما أن يكون قد خلطه بفسق أو لا، فإن خلطه بفسق رجع الأمر إلى قاعدة المنزلة بين المنزلتين، وإن لم يخلطه بفسق كان مؤمنا .

ومن زعم أنها اكتسابية قال بعضهم بفسقه لتركه النظر، فهو غير مؤمن وغير كافر وقال بعضهم بكفره.<sup>(٢)</sup>

وفصل الإمام ابن حزم جوانب الموضوع تفصيلا حسنا بعد أن يذكر رأى القائلين بأنه لا يكون مؤمنا إلا من استدل، فيقول: (نعم إن التقليد لا يحل البتة). وإنما التقليد أخذ المرء قول من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن لم يأمرنا الله عز وجل باتباعه قط ولا بأخذ قوله ..

وأما أخذ المرء قول رسول الله الذى افترض علينا طاعته وألزمنا إتباعه وتصديقه وحذرنا عن مخالفة أمره وتوعدنا على ذلك أشد الوعيد فليس تقليدا، بل إيمان وتصديق واتباع وطاعة لله عز وجل وأداء للمفترض ..

ثم يقول: (قد سمى الله عز وجل القوم الذين زين الإيمان فى قلوبهم وحببه إليهم وكره إليهم الكفر والمعاصى فضلا منه ونعمه: ﴿وَلَيَكُنَّ اللَّهُ حَبِيبَ إِلَيْكُمْ إِلَيَّ مَنْ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ٦٧)

(١) المغربى ص ٧٩ - ٨٠ نقلًا عن التوحيد ص ٣ - ٤ وتأويلات أهل السنة ج ١ ص ٢٢٦، ٢٤٠،

(٢) أنظر أصول الدين للبغدادى ص ٢٥٤ - ٢٥٥

فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ الحجرات . وهذا هو خلق الله تعالى للإيمان في قلوبهم ابتداء وعلى ألسنتهم . ولم يذكر الله تعالى في ذلك استدلالاً أصلاً وبالله التوفيق ..).

ثم يحدد أوصاف المقلدين: (وإنما كانوا مقلدين لو أنهم قالوا واعتقدوا أننا إنما نتبع في الدين آباءنا وكبراءنا فقط ولو أن آباءنا وكبراءنا تركوا دين محمد صلى الله عليه وسلم لتركناه فلو قالوا هذا واعتقدوه لكانوا مقلدون كفاراً غير مؤمنين ..)

ثم يقول عن التكليف بالبرهان في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: (وإنما كلف الله تعالى الإتيان بالبرهان إن كانوا صادقين - يعني الكفار المنافقين المخالفين لما جاء به سيدنا محمد ﷺ . ولم يكلف الله قط المسلمين الإتيان بالبراهين وإلا سقط اتباعهم حتى يأتوا بالبرهان . والفرق بين الأمرين واضح، وهو إن كان خالف النبي ﷺ فلا برهان له أصلاً فكلف المجيء بالبرهان تبكيثاً وتعجيزاً إن كانوا صادقين .

وأما من اتبع ما جاء به الرسول ﷺ فقد اتبع الحق الذي قامت البراهين بصحته فسواء علم هو بذلك البرهان أو لم يعلم حسبه أنه على الحق الذي صح بالبرهان، ولا برهان على سواه، فهو محق ..)

ويقول الإمام الغزالي: (إن الأصل هو الاعتقاد الصحيح والتصديق الجازم وذلك حاصل بالتقليد)<sup>(١)</sup> .

وهذا يتفق مع ما ذكرناه سابقاً في نظرية النجاة ونظرية المداخل . وحيث نرى أن إيمان المقلد مقبول وفقاً لنظرية النجاة التي سبق أن أشرنا إليها .

ووفقاً لنظرية النجاة فإننا نرى أن وجوب النظر إنما هو على من لم تتفق له الهداية في الموضوع المطروح للنظر .

---

(١) أنظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٠

## خبر الواحد:

ذهب أكثر المتكلمين إلى أن خبر الواحد لا يفيد " العلم " - أى بمعنى اليقين - سواء كان الواحد عدلاً أو غير عدل وسواء كان الخبر ورد بقرائن أو بغير قرائن<sup>(١)</sup> ولقد سار على هذه الطريق متأخرو الأشاعرة فى مرحلة هامة من تطورهم الفكرى .

ويقول البغدادى فى الركن الأول من أركان أهل السنة (وأما أخبار الآحاد فمتى صح إسنادها وكانت متونها غير مستحيلة فى العقل كانت موجبة للعمل بها دون العلم) وينسب إلى بعض الأشاعرة أنهم يفرقون بين الخبر المتواتر والمستفيض والآحاد، فالخبر المستفيض وسط بين المتواتر والآحاد، وهو يشارك المتواتر عندهم فى إيجابه للعلم والعمل، ويمثلون له بعلمنا ببعض معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم وببعض الأخبار فى الشفاعة والميزان<sup>(٢)</sup>، وبالأحاديث الناهية عن التفكير فى ذات الله، والمرء فى القضاء والقدر وما أشبه .

وما يقوله البغدادى عن خبر الواحد ليس دقيقاً بالنسبة لعموم أهل السنة

فمن جهة نجد بعض ذلك عند كل من الماتريدى والجوينى والرازى

فالأخبار عند الماتريدى نوعان: الخبر المتواتر جملة، ومنكر هذا الخبر كمنكر العيان لا يستحق المناظرة، ومنكر الخبر كأنه ينكر إنكاره لأن إنكاره خبر

والنوع الثانى: هى الأخبار التى تأتى عن طريق الرسل، ويلزم قبولها بطريق العقل، إذ لا خبر أظهر صدقاً من خبرهم بما معهم من الآيات<sup>(٣)</sup>

والخبر الذى يأتى عن طريق الرسل نوعان: متواتر وآحاد، والمتواتر يوجب العلم والعمل، وهو بمنزلة العيان من حيث ضرورة العلم، أما خبر الآحاد فهو يوجب العمل ولا يوجب العلم

(١) التقرير والتحجير لابن أمير ج ٢ ص ٢٨٦

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٢٤-٣٢٥-٣٢٦

(٣) المغربى ص ٨ نقلاً عن كتاب التوحيد للماتريدى

وإمام الحرمين يقول في بعض كتبه في معرض حديثه عما تمسك به المجسمة والمشبهة من النصوص: (إن الأحاديث التي يتمسكون بها آحاد لا تفضى إلى العلم ولو أضربنا عن جميعها لكان سائغا)<sup>(١)</sup> ويقول (إن أخبار الآحاد لا يجب انقضاؤها في القطعيات) ويقول (إن ما يصح من الآحاد لا يلزم تأويله فإنه يجب تأويل ما لو كان نصا لأوجب العلم)<sup>(٢)</sup>

ومع ذلك فإنه يجب أن نذكر ما تطور إليه حال الإمام الجويني بالنسبة لهذه المسألة من ناحية نظريته إلى التأويل على وجه الخصوص، وذلك ما جاء في كتابه الذي ألفه في أخريات حياته وهو العقيدة النظامية إذ يذهب إلى أن الأولى اتباع ما ذهب إليه (أئمة السلف من الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله تعالى) ويقول: إنه (إذ انصرم عصرهم قاطعا بأنه الوجه المتبع بحق .. فعلى ذى الدين أن يعتقد تنزيه الرب تعالى عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معانيها إلى الرب تعالى) وهو في هذا الكتاب - وهو من آخر ما ألف - يجذد الوقف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ويذكر قول الإمام مالك " الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة " أنظر العقيدة النظامية لإمام الحرمين الجويني .

والإمام الرازي يقرر (أن التمسك بخبر الواحد في معرفة الله تعالى غير جائز)<sup>(٣)</sup> وفي خبر الواحد يقرر الرازي - بعد أن يُشيع مالا يتفق منها مع التنزيه تأويلا - أن التمسك به في معرفة الله تعالى غير جائز، لوجوه:

١- أن رواة هذه الأخبار غير معصومين فأخبارهم مظنونة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ ويقول عن الكفار ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾

(١) الإرشاد إلى قواطع الأدلة للجويني نشر الخانجي ١٩٥٠ ص ١٦١

(٢) الشامل في أصول الدين للجويني ص ٥٥٧، ٥٦١ ط ١٩٦٩ م، وانظر تطور فكر الجويني في

أخريات حياته هامش ص من الملحق بهذا الكتاب

(٣) أساس التفديس للرازي ص ٢٠٤-٢٠٨ ط مطبعة كردستان عام ١٣٢٨ هـ وانظر تطور فكر

الرازي في أخريات حياته هامش ص ٢٩ من هذا الكتاب

ويقول ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ فوجب ألا يجوز التمسك به إلا في فروع الشريعة. ويعجب من الحشوية لقولهم بترك التأويل لابتناؤه على الظن، ولا يتركون أخبار الآحاد في الأصول مع أنها ظنية.

٢- (أن أجل طبقات الرواة قدرا وأعلامهم منصبا الصحابة رضى الله عنهم، ثم إنا نعلم أن

روايتهم لا تفيد القطع واليقين، والدليل عليه أن هؤلاء المحدثين رووا عنهم أن كل واحد منهم طعن في الآخر ونسبه إلى ما لا ينبغي). ولا ينسى الرازى ثناء الرسول عليهم، ولكنه يحصر نتيجته في مجال فروع الشريعة التي يكفى فيها الظن.

٣- (أنه اشتهر فيما بين الأمة أن جماعة من الملاحدة وضعوا أخبارا منكرة واحتالوا في ترويجها على المحدثين، والمحدثون لسلامة قلوبهم قبلوها

٤- ثم ينعى الرازى على المحدثين أنهم يرفضون روايات لأقل العلل ككون هذا رافضيا، وذاك قدريا، ولا يرفضونها لكونها قد " وصف الله تعالى فيها بما يبطل إلهيته وربوبيته "

٥- أن هذه الأحاديث ما كتبت حين سماعها، وما رويت إلا بعد حصولها بأكثر من عشرين عاما، ويندر أن تتذكر الألفاظ بذاتها من راو سمعها في مجلس مرة واحدة، ولم يروها إلا بعد مرور مثل هذا الوقت<sup>(١)</sup>

. ولنا تعليق على موقف الإمام الرازى من خبر الواحد على الوجه المذكور:

أولا: من حيث ما ذكره عن الطعون التي رويت في شأن بعض الصحابة وما رتبته على ذلك، وقد كان الواجب أن يرفض هذه الطعون جملة وتفصيلا - حسب منهجه - لابتنائها على الظنون.

ثانيا: افتقد الرازى النظرة المتوازنة حين اهتم بنقد دلالة خبر الواحد لقيامه على

---

(١) أساس التقديس ص ٢٠٦ - ٢٠٩

الظن، ولم يستحضر ما وجه إلى العقل النظرى من نقد خطير ألقى به في مهاوى الشك، ولو قد فعل لوجد أن ما يستنقذ العقل النظرى هو نفسه الذى يستنقذ الظن في خبر الواحد، وتلك هى الضرورة العملية التى مارسها العقل العمل فى الإسلام، وسادت الساحة على يد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفى صدر الإسلام، ولم يعد فى ظلها تفرقة غير مبررة بين الدلالة التى نحتاج إليها فى مقام الأصول والدلالة التى نحتاج إليها فى مقام الفروع ما دامت تؤدى فى المقامين إلى نتائج عملية ضرورية.

ثالثاً: ما وصل إليه الرازى فى هذه النظرة هو نتيجة التطور فى مجال الفلسفة العقلية اليقينية الذى تم على يديه فى عصره، والذى افترق قليلاً أو كثيراً بدرجة أو بدرجات عن الأصول الثلاثة التى رأينا أنها هى التى تميز " ما عليه أنا وأصحابى " كملجأ أشار إليه الرسول فى مجال اصطراع الفرق .

ومع ذلك فيجب أن نذكر ما تطور إليه حال الإمام الرازى فى أخريات حياته بالنسبة لهذا الموضوع فقد جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان أن الرازى عندما مرض مرض الموت أمل على تلميذه إبراهيم بن أبى بكر الأصفهاني وصية جاء فيها: " لقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتتها فى القرآن العظيم، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى، ويمنع من التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية، ولهذا كنت أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبرائه عن الشركاء فى القدم والأزلية والتدبير والفعالية فذاك الذى أقول به، وألقى الله تعالى به، وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض فكل ما ورد فى القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد فهو كما (مر ..)

هذا من جهة من ينكرون خبر الواحد - أو يضعفون من شأنه - فى العقائد .

ولكننا من جهة أخرى نجد الإمام الباقلاني في كتابه " التمهيد " يؤكد على أمور كانت وما تزال ضمن مسلمات الأشاعرة:

منها ما يتعلق بمنهجية البحث في العقيدة وأنها تستمد من: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإجماع الأمة، وما استخرج من النصوص وبنى عليها بطريق القياس والاجتهاد، وحجج العقول . واعتبار التواتر طريقا إلى العلم الضروري، واعتقاد خبر الواحد طريقا للعلم الاستدلالي بشرط أن يعرى عما يدل على فساد، أو معارضته، وأن يثبت عدالة نقلته<sup>(١)</sup>

وذهب إلى قبول خبر الواحد في العقائد بعض الأشاعرة كأبى إسحاق الاسفرايينى وأبى بكر بن فورك كما ذهب إلى قبوله الفقهاء الأربعة والحارث المحاسبى وابن حزم والإمام ابن تيمية والسلف عموما<sup>(٢)</sup>

ويذكر ابن قتيبة موقف المتكلمين الآخذين بخبر الواحد ويذكر بعض شروطهم واستدلالاتهم<sup>(٣)</sup>

يقول الإمام الشافعى (أقل ما تقوم به الحجة على أهل العلم - حتى يثبت عليهم خبر الخاصة - خبر الواحد حتى ينتهى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو من انتهى إليه دونه، ولا يكون الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً: منها أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفا بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معانى الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى) وهو يستدل على حجيته استدلالاً يفيد عموم ذلك للعلم والعمل، للاعتقادات والعمليات، ومن ذلك أن استشهاد بإرسال الرسول صلى الله عليه

(١) الإنصاف ص ١٩، والتمهيد ص ١٦٢

(٢) أنظر الصواعق المرسلة لابن قيم الجوزية ج ٢ ص ٣٧٣، ٣٦٢ نشر المكتبة السلفية بمكة المكرمة

١٣٤٨

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٧٥ نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة



وسلم آحادا للإلزام بالدعوة إلى الإسلام، وكذلك كان إرسال الله الرسل إلى أقوامهم حيث (أقام الحجة على الأمم بواحد)<sup>(١)</sup>

وفي رأينا أن خبر الواحد وإن لم يكن يفيد اليقين بمقاييس العقل النظرى إلا أنه ملزم قطعى بمقاييس العقل العملى،<sup>(٢)</sup> إذ يحقق يقين النجاة .

يقرر الإمام الغزالي فى كتابه " الاقتصاد فى الاعتقاد " : أن الأنبياء يأتون بأوامر ينذرون فيها مخالفاتهم بالمصير إلى النار ثم لا يقتصرون على مجرد الإخبار بل يستشهدون على صدقهم بالمعجزات، ولكن الغزالي يقرر أنه بمجرد سماع الخبر وقبل النظر فى المعجزات يسبق إلى عقل السامع بل يغلب على ظنه إمكان صدقهم " بأول السماع قبل أن يمعن النظر " <sup>(٣)</sup>

وفى رأينا أن إمعان النظر إنما يأتى لهدف الترقى فى الإيمان، لا للحاجة إليه فى نقطة البداية: التسليم المبني على الضرورة العملية التى شرحناها فى " المنهج العملى ومنهج الإنذار " .

يقول الإمام الغزالي عند الحديث عن إنكار الصحابة أن يكون الإنسان خالقا لشيء دون أن يكونوا قد أيدوا إنكارهم بالدليل العقلى .. يقول (ولا ينبغي أن يعتقد بهم أنهم لم يلتفتوا إلى المداك الظنية إلا فى الفقهيات بل اعتبروها أيضا فى التصديقات الاعتقادية والقولية)<sup>(٤)</sup>

بل نجد من العلماء - ومنهم بعض المعتزلة - من يوجبون العمل بخبر الواحد على أساس هذه الضرورة العملية التى توجب على المرء العاقل أن يحترز من المخاطر المحتملة .

---

(١) الرسالة للإمام الشافعى ص ٣٦٩ طبعة الحلبي عام ١٩٤٠ م

(٢) أنظر التفرقة بين طبيعة كل من العقل النظرى والعمل فى هذا الكتاب ص ٨-٩-٧٧

(٣) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٥ وما بعدها طبع المطبعة الأدبية ط أولى بالقاهرة

(٤) الاقتصاد فى الاعتقادات ص ١٠٧ - ١٠٨

ذهب إلى ذلك أبو الحسين البصرى، - من المعتزلة - في قوله (العمل بالظن في تفاصيل معلوم الأصل واجب عقلا كإخبار واحد بمضرة طعام وسقوط حائط، يوجب العقل العمل بمقتضاه، للأصل المعلوم من وجوب الاحتراس عن المضار، فكذا خبر الواحد يجب العمل به للعلم بأن البعثة للمصالح ودفع المضار ومضمون الخبر لا يخرج عنهما)<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك على سبيل المثال خبر الواحد في منع التفكير في ذات الله، وخبر الواحد في منع الخوض في القضاء والقدر، وخبر الواحد في تحريم المراء في الدين، وخبر الواحد في توقير الصحابة، وخبر الواحد في نفع الصدقة الجارية للميت إلخ ونجد هذه القاعدة مقررة لدى المعتزلة وهم بصدد إيجاب النظر

يقول القاضي عبد الجبار - وهو من أئمة المعتزلة - (وقد تقرر في العقول وجوب دفع الضرر عن النفس معلوما كان أو مظنونا، متى كان المتحرز منه أعظم من المتحرز به)<sup>(٢)</sup>

ويذهب الإمام ابن تيمية إلى أنه قد تقرر في الشريعة أن الوجوب معلق بالاستطاعة كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقوله تعالى: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) متفق عليه (فإذا كان كثير من الناس مشتبه لا يقدر فيه على دليل يفيد اليقين لا شرعى ولا غيره لم يجب على مثل هذا في ذلك ما لا يقدر عليه، وليس عليه أن يترك ما يقدر عليه من اعتقاد قول غالب على ظنه لعجزه عن تمام اليقين، بل ذلك هو الذى يقدر عليه)<sup>(٣)</sup>

ونرى أولا: أن الظن الذى اصطلح عليه بأنه يقتضى الترجيح بواسطة الأمارات لا يمكن أن ينهى عنه القرآن الكريم عند ما يكون هو الممكن بالنسبة للعقل البشرى

(١) التقرير والتحبير لابن أمير الحاج ج ٢ ص ٢٧٤ المطبعة الأميرية ١٣١٧ هـ بالقاهرة

(٢) المحيط بالتكليف ص ٢٦ نشرة الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق الأستاذ عمر السيد عزمى

(٣) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول على هامش منهاج السنة ط ١٣٢١ هـ ج ١ ص ٢٨

ما لم يكن في مواجهة أدلة أقوى وطالما كان محققا ليقين النجاة<sup>(١)</sup>، ويؤيد ذلك أن الظن ورد في القرآن الكريم في مواضع تدل على أن له قيمة معرفية وعملية معتبرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ۖ ﴾ ٢٠ الحاقة، وقوله تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۖ ﴾ ٢٤ ص. وقوله تعالى عن سيدنا يوسف: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ۖ ﴾ ٤٢ يوسف، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ۖ ﴾ ١١٠ يوسف

ثانيا: أننا لا نفرق بين الاعتقاديات والعمليات من جواز الأخذ بالظن - كما ذهب إلى ذلك الكثير من العلماء - ذلك لأن الاعتقاديات - وفقا للمنهج العمل الذي عرضناه في الضوابط<sup>(٢)</sup> - هي عمل أو وثيقة الارتباط بالعمل منذ اللحظة الأولى لأنها تعنى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يأتي به، وهي تعنى اتخاذ سلوك معين إزاء خبر معين جاء به الرسول من عالم الغيب .

ثالثا: إنه ليس من المستساغ - في رأينا - أن يكون الاختيار بين الأدلة تابعا لرتبة الموضوع الذي تختار له، ذلك أشبه بمن يصر على أن يكون طعام طفل الملك من غير جنس طعام أطفال العامة، إنه يؤدي إلى قتله من حيث براد له الشرف والتميز، وقياسا على ذلك يؤدي في باب الاعتقاديات إلى الخلو منها لعدم إمكان الأدلة الفائقة المطلوبة، هذا في حين أن الخطر الذي يواجه الخالي من العقيدة بمعناها الشامل أعظم من الخطر الذي يواجه الخالي من العمل بمعناه الضيق، فكان من الأولى تيسير الأدوات التي يصل بها إلى الاعتقاد، لا تبديدها تحت وهم الشرف في الرتبة، وما دما قد قبلنا رجحان الظن في العمليات وحاجتنا إلى الاعتقاديات المرتبطة بالعمل أشد فينبغي قبوله في هذه الأخيرة من باب أولى .. وذلك كبداية تحقق النجاة بيقين . ويقين النجاة متحقق منذ الخطوة الأولى، وفقا لقول سيدنا على

(١) أذكر ما كتبه سابقا عن المدخل العملى للإيمان بالله

(٢) انظر ص من هذا الكتاب

لمن كان يهاريه في أمر الآخرة (إن كان الأمر كما قلت نخلصنا جميعا وإن كان الأمر كما قلتُ هلكتُ ونجوتُ) مرتقيا من هذا المدخل إلى سكينه الإيمان وفق مراتب: منهج التسليم، ومنهج الإنذار، بشروط المنطق العملي<sup>(١)</sup>

رابعاً: إن المنهج الإسلامي القائم على التربية العملية إذ يبدأ من هذه الضرورة العملية فإنه يأخذ بيد المسلم ليتدرج به في مدارج الإيمان ليصل به إلى الإحسان وهو عين اليقين . وهذا ما نزيده إيضاحاً في مبحث حقيقة الإيمان والإسلام.

ومن هنا فإن لخبر الآحاد دوراً أساسياً في الأمور العملية وفي كل اعتقاد مرتبط بالعمل، وبه يتحقق اليقين: يقين النجاة.

---

(١) أنظر مزيداً من توضيح ذلك في كتابنا مداخل إلى العقيدة الإسلامية

## الباب الثاني

# مدخل إلى الصفات

الصفات الواجبة لله تعالى يأتي إثباتها لله إجمالاً من وجوه:

١- دلالة أفعاله تعالى

٢- دلالة كونه واجب الوجود

٣- اقتضاء كماله لها



## معنى الصفة فى اللفظ

المعنى القائم بالموصوف، وفى النحو: هى التابع الموضح لتبوعه فى المعارف، المخصص له فى النكرات .

وهى والوصف يطلقان بمعنى واحد .، وقد يفرق بينهما:

بأن الصفة ما قامت بالموصوف، والوصف ما قام بالواصف، إذ الوصف هو الإخبار بقيام الصفة، فهو - أى الإخبار - يتعلق بالواصف، أما الصفة فهى تتعلق بالموصوف .

و من الثابت بالدليل العقلى أن واجب الوجود بما أنه لا يقبل العدم - وفقا للأحكام العقلية للواجب<sup>(١)</sup> - فهو لا يقبل النقص، لأن النقص صورة من صور العدم .

إذن فإن واجب الوجود بما أنه لا يقبل العدم فهو لا يقبل النقص، وبما أنه لا يقبل النقص فهو يتصف بالكمال . كما لا لا نقص فيه<sup>(٢)</sup>

ومن مقتضيات الكمال اتصافه تعالى بالصفات الآتية: الوجود، و القدم والبقاء والقيام بالنفس والوحدانية والمخالفة للحوادث، والعلم والقدرة والإرادة، والسمع والبصر، والكلام، والحياة، - يضاف إليها صفة التكوين عند الماتريدية

---

(١) أنظر ص ٢٠ من هذا الكتاب

(٢) نعم فقد يكون الكمال فى البشر نقصا كالنوم، فالنوم كمال صح للبشر وهو فى حد ذاته نقص وهو فى حد ذاته مستلزم للعدم، وقد يكون كمالا لا نقص فيه، كالعلم فالعلم فى حد ذاته كمال وهو فى حد ذاته ليس مستلزم للعدم .

وكونه تعالى عالما مريدا قديرا حيا سميعا بصيرا متكلمًا وكونه تعالى: خالقًا محييا مميتا  
رازقا عفوا رحيما المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر إلخ

وإثباتها بوجه عام بالدليل العقلي يأتي من ثلاثة أوجه:

اقتضاء كماله لها، وهو مستمد من دليل الممكن والواجب .

ومن باب قياس الأولى: والمقصود به من أفاد غيره الكمال فهو يتصف به من  
باب أولى .

دلالة أفعاله تعالى عليها، وهو مستمد من دليل حدوث العالم، و العناية والإتقان  
والاختراع .

أما إثباتها بوجه عام بالدليل النقلى: فهي هى صفات الجمال والجلال والكمال  
التي نرجع فيها إلى أسمائه الحسنى<sup>(١)</sup>  
**أسماء الله الحسنى:**

ذهب جمهور الأشاعرة إلى أن الفرق بين الصفة والاسم أن الصفة عبارة عن  
المعنى القائم بالذات كالعلم فهو يدل على المعنى المجرد دون الذات، ومدلول العالم  
العلم وهو لا عين الذات ولا غيرها، وأما الاسم كخالق مثلا فمدلول الخالق  
الخلق وهو غير الذات، ومدلول اسم الله هو الذات وهو عين . خلافا للمعتزلة  
فإنهم ذهبوا إلى أن الاسم مغاير للذات مطلقا متمسكين بأن الاسم حقيقة فى  
الملفوظ فلا يتحد بمعناه بحال، وذهب عامة الماتريدية إلى أن الاسم مشترك بين  
الدال والمدلول وأنه يتبادر إلى كل منهما بحسب المقام

وقد ثبتت الأسماء بالقرآن والسنة ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف  
١٨٧، والحديث النبوى الشريف، فقد روى البخارى بسنده عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أنه قال: (إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل

(١) انظر إشارات المرام للبياضى ص ١١٥



الجنة، إنه وتر يحب الوتر) ويقول الإمام البيهقي (وهذه الأسماء كلها في كتاب الله وفي سائر أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم نصا أو دلالة)

وفي هذا العدد اختلف العلماء إلى رأيين أو ثلاثة: فذهب فريق منهم إلى أن المعنى الحرفي للعدد مقصود، وأن ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، والثاني إلى أنه مقصود بخصوص ما يؤدي إلى المغفرة، والثالث إلى أنه غير مقصود على سبيل الحصر، ويستدلون بما رواه الإمام أحمد في مسنده وصححه ابن حبان من دعائه صلى الله عليه وسلم بقوله: (أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك...) إلخ الحديث وأنه إنما خص التسعة والتسعين من حيث كونها أكثر الأسماء ذكرا، وأبينها معنى .

قال صاحب مصباح الزجاجة: لم يخرج أحد من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنی من حديث أبي هريرة ولا من غيره سوى ابن ماجة والترمذی وابن حبان، وطريق الترمذی أصح شيء في هذا الباب وقال هذا حديث غريب .

قلت رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في المستدرک من حديث أبي هريرة أيضا وإسناد طريق ابن ماجة ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد الصنعاني اهـ<sup>(١)</sup>، ويجب الإيمان بها

وفي سبل السلام للصنعاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين يقول سبحان الله، وحمد الله ثلاثا وثلاثين يقول الحمد لله، وكبر الله ثلاثا وثلاثين يقول الله أكبر، فتلك تسع وتسعون عدد أسماء الله الحسنی، وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير: غفرت خطاياهم ولو كانت مثل زبد

(١) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٨، ومن مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة لأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل الكنانی ت ٨٤٠ ط ١٤٠٣ نشر بيروت ج ٤ ص ١٤، وسبل السلام للصنعاني ج ١ ص

البحر، وهو ما يعلو عليه عند اضطرابه، رواه مسلم. وفي رواية أخرى لمسلم بسنده عن أبي هريرة: أن التكبير أربع وثلاثون، وبه تتم المائة فينبغي العمل بهذا تارة وبالتهليل أخرى ليكون قد عمل بالروايتين. اهـ

وأسماء الله توقيفية باتفاق المتكلمين من أهل السنة: فلا يصح فيها تسمية الله إلا بما سمي به نفسه في كتاب أو سنة فلا يسمى سبحانه تعالى: عاقلاً، أو فاهماً وقد ورد في الخبر اسم السيد، والمنان والحنان والديان ورمضان مطلقاً بغير إضافة اسم الشهر<sup>(١)</sup>.

وقال أبو الحسن الأشعري: (لا يجوز أن نسمى الله تعالى باسم لم يسم به نفسه، ولا سمّاه به رسوله، ولا أجمع المسلمون عليه ولا على معناه)<sup>(٢)</sup>

وتطبيقاً لذلك يقول ابن قيم الجوزية (ونقول هو الحكيم ولا نقول العاقل، ونقول خليل إبراهيم ولا نقول صديقه)<sup>(٣)</sup>، ويقول: (ودخل في أسمائه الواجد دون الموجد، وهو بمعنى الوجد والغنى ضد الفاقدة، فإن الموجد صفة فعل، وهو معطى الوجود كالمحيى معطى الحياة، وهذا الفعل لم يجرى إطلاقه في أفعاله تعالى لا في الكتاب ولا في السنة، فلا يعرف إطلاقاً أوجد كذا وكذا، وإنما الذي جاء: خلقه وبرأه، وصوره وأعطاه، فلما لم يكن يستعمل فعله لم يجرى اسم الفاعل منه في أسمائه الحسنی، فإن الفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق على نفسه أفعالا لم يتسم منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء وأحدث، ولم يسم بالمريد، والشائي والمحدث، كما لم يسم نفسه بالصانع والفاعل والمتقن وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء. وقد اخطأ من اشتق له من كل فعل اسماً، وبلغ بأسمائه زيادة على الألف، فسماه الماكر والمخادع والفاتن، والكائد ونحو ذلك.

(١) أنظر شرح جوهرة التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة للأستاذ عبد الكريم تتان وآخرين نشر دار البشائر بدمشق ج ١ ص ٤٣٧ - ٤٤١

(٢) اللمع ص ٢٤، وانظر أصول الدين للبغدادى ص ١١٦ ط استانبول، ونهاية الأقدام للشهرستاني ص ١٢٩، والإرشاد لإمام الحرمين ص ١٢٤ مكتبة الخانجي

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥٧ المطبعة المنيرية بمصر عام ١٣٥١ هـ

وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من باب تسميته به، فإنه يخبر عنه بأنه شيء، وموجود ومذكور، ومعلوم، ومراد، ولا يسمى بذلك)

### **تصنيف المتكلمين للصفات**

ومن تصنيفات المتكلمين في موضوع الصفات يذهب الأشاعرة إلى تقسيمها إلى: نفسية، وصفات الذات الوجودية وصفات الذات السلبية، وصفات أفعال، وأضاف بعضهم: الصفات الخيرية .

والصفة النفسية هي التي يدل الوصف بها على الذات دون معنى زائد على الذات وتلك هي صفة الوجود

والمراد بصفات الذات ما يوصف الله تعالى بها ولا يوصف بضدها، وهي تشمل ما كان الاتصاف بها لقيام معنى كالصفات الوجودية<sup>(١)</sup>. وما كان الاتصاف بها من غير قيام معنى كالصفات السلبية .

### **وتنقسم الوجودية إلى صفات معنى ومعنوية .**

والمراد بالصفات الوجودية: صفات الذات التي يدل الوصف بها على معنى زائد على الذات، وهي تنقسم إلى صفات معان وصفات معنوية:

وصفات المعانى: هي العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والحياة والكلام (والتكوين عند الماتريدية).

والصفات المعنوية - وهي عبارة عن قيام صفات المعانى بالذات - هي كونه تعالى عالما قديرا مريدا سميعا بصيرا حيا متكلمًا

والمراد بالصفات السلبية تلك التي يدل الوصف بها على سلب معنى لا يليق بذاته تعالى وهي: القدم والبقاء والقيام بالنفس والوحدانية والمخالفة للحوادث

والمراد بصفات الأفعال تلك المشتقة من فعل له سبحانه وتعالى ويجوز أن يتصف بواحدة منها أو بضدها كالإحياء والإماتة إلخ.

---

(١) إشارات المرام للبياضى ص ١٠٧

فأما الصفات الوجودية فهي كما يذكر الإمام الباقلاني صفات قديمة لم يزل سبحانه وتعالى موصوفا بها ولا يزال كذلك.<sup>(١)</sup>

ويفرق الباقلاني بين صفات الذات وهي التي لم تزل ولا تزال، وصفات الفعل التي كان الله في الأزل قبل وقوع الفعل بها .

ويرجع المشيئة والمحبة والرضا وأضدادها إلى صفة الإرادة .

بينما نجد الإمام الماتريدي يسوى بين صفات الذات وصفات الفعل في القدم وهو ما روى عن أبي حنيفة رضى الله عنه . وفي هذا يقول الإمام الطحاوى (ما زال بصفاته قديما قبل خلقه . لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفاته ..)

وترجع صفات الأفعال عند الماتريدية إلى ما يسمونه صفة التكوين .

أما الصفات الخبرية: فهي التي استقل الاستدلال عليها بالاستنباط من دليل السمع، وقد اختلف العلماء في تسميتها صفات، وفي معانيها، نظرا لما قد تدل عليه من التشبيه - بظاھرھا - : مثل النزول واليد والاستواء على العرش .

أما المعتزلة فقد اشتهر عنهم القول بنفى الصفات، وهم في حقيقة الأمر ينفون القول بصفات زائدة على الذات، كالعلم والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام، ولا ينفون كونه تعالى عليا سميعا بصيرا مريدا قديرا حيا متكلمًا، وقد جاءتهم الشبهة من اعتقادهم أن القول بصفات قديمة زائدة على الذات يؤدي إلى نفى التوحيد من حيث يؤدي إلى القول بتعدد القدماء، وهو اعتقاد خاطئ لأن نفى التوحيد إنما يترتب على تعدد القدماء الذوات، أما القول بذات واحدة متعددة الصفات القديمة فلا يتنافى مع التوحيد وإنما هو من مقتضى الكمال الإلهي ..

ومن هنا يناقش إمام الحرمين مشكلة المعتزلة في نفى الصفات ويلزمهم بأن قولهم بأن الله عالم هو اعتراف بثبوت العلم إذ (لا معنى للعلم إلا كون العالم عالما،

فإذا اعترفتم بكونه عالما فهو العلم بعينه، فلا معنى للعلم إلا كون العالم عالما بمعلوماته على ما هو عليه).

وإذا كان هذا هو معنى العلم حصرا فهل يخالف المعتزلة في ذلك؟ يعلق الشيخ الكوثري في تحقيقه على العقيدة النظامية مؤيدا للجويني قائلا: (وهذا القدر ليس مما ينكره الخصم، وما زاد على ذلك من أن الصفات زائدات على الذات، واجبات بالغير، ممكنات في حد ذاتها، كما وقع في كلام الفخر الرازي ومن تابعه فتهور لا تنهض به الحجة)<sup>(١)</sup>

### صفة الوجود

الوجود صفة نفسية ثبوتية يدل الوصف بها على الذات دون معنى زائد على الذات

وصفوة القول فيها أن للإيمان بها مداخل: المدخل الفطري، والعقلي، والتجربي، والعمل.

### المدخل الفطري

وهذا المدخل يعتمد أساسا على الشعور الإنساني الذي يملك القلب وسيطر عليه، بحيث يكون طلب الاستدلال عليه ضربا من اللغو، كالشعور بالجوع والعطش والسرور والحزن .. لا يطلب عليه دليل ولكن يمكن التنبيه .

وكذلك يمكن تطبيق هذا المدخل فيما يتعلق بالإيمان بوجود الله

### التنبيه على المدخل الفطري في مسألة الإيمان بوجود الله:

(١) من ناحية التأمل في أحوال الشعوب: وذلك أننا نجد الشعوب في جميع مستوياتها وأطوارها الاجتماعية والتاريخية تعتنق عقيدة في الله، مما يدل على أن ذلك أمر مفطورة عليه طبيعة البشر، وأن الانحراف الذي تتعرض له

---

(١) العقيدة النظامية بتحقيق الكوثري ص ١٧

الشعوب في دينها إنما هو نوع من تشويه الفطرة يقودها إلى الشرك بالله، لا إلى إنكار وجوده، أو هو نوع من الكبت والاستعباد يقودها إليه طائفة من الحكام يريدون لها أن تهبط من عبودية الله إلى عبودية البشر .

(٢) من ناحية التأمل في طبيعة الإنسان: إذ نجد في فطرته نزعة إلى التحرر مساوقة تماما لنزعة فيه إلى العبودية، ومهما يغالى الإنسان في نزعته إلى الحرية فلا بد له من أن يشبع نزعته إلى العبودية . وهو إذا لم يختر معبوده بوعى فإنه ينزل إلى عبادة معبود بغير وعى . إنه إذا تمرد على الخضوع لله انزل إلى التسليم لفكرة، أو لمبدأ، أو لحاكم أو فيلسوف أو صديق أو حبيب، لمذهب أو حزب، أو جماعة، وهو بهذا يهبط من العبودية لله المتصف بصفات الجمال والجلال والكمال .. إلى عبودية زائفة تشوه فيه فطرته التى تنزع به إلى الحرية وتنزع به إلى العبودية على السواء .

(٣) من ناحية التأمل في أحوال الفرد مهما يكن ملحدًا: وذلك أننا بينما نجده متمردًا على الاعتقاد بوجود الله طالما أنه غارق في النعيم ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ ﴿ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ ٦-٧ العلق، إذ به إذا أدركته نقمة قارعة تتبدد بها وسائل الاستغناء عن الله - حسب وهمه - كأن يتعرض لحريق عاصف أو غرق يائس .. يجد نفسه وجها لوجه أمام حقيقة الاعتراف بوجود الله ويصرخ مناديا يارب . وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ ﴾ ٦٧ الإسراء، ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ٣٢ لقمان، ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ٩٠ يونس

فإذا استقامت الفطرة داعية إلى الإيمان بالله فإن الأمر بعد ذلك يصبح في غير حاجة إلى الاستدلال بنوع ما من الأدلة .

## وهذا المدخل الفطري نجده مقررًا:

في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾<sup>(١)</sup> ١٧٢ الأعراف

وفي السنة الشريفة (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) رواه أبو يعلى والطبرانى في الكبير ..

ويقول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم) رواه مسلم .

وفي هدى السلف: عند الصحابة والتابعين، وعند الصوفية غالبًا

وقد نجده عند بعض المتكلمين، يقول الإمام الشهرستاني في كتابه الملل والنحل: (إن الله أسس دينه على مثال خلقه)

ويعبر الإمام ابو حنيفة رضى الله عن نظرة خاصة إلى فطرية الاعتقاد بالله وأنها قد تأتى بغير طريق النظر العقلى، وإنما بهداية من الله، أو بما سماه بالنور الذى يقذفه الله فى القلب سابقا فى ذلك ابا حامد الغزالى الذى ساق هذا التعبير نفسه فى كتابه "المنقذ من الضلال"، ويذهب إلى أن معرفتنا بالله التى يأتى بها هذا النور تسبق معرفتنا بالرسول وليس العكس .

(١) يقول العلامة الغنيمى فى شرحه هذه الآية: وفى معالمة التنزيل للبغوى: روى عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال: إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته: فقال: خلقت هؤلاء ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون - فقال رجل: فقيم العمل يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على أعمال أهل النار فيدخله النار - قال أبو عيسى - أى الترمذى - حديث حسن اهـ . وفى التلويح للسعد: ذهب جمع من المفسرين إلى أن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من بعض على حسب ما يتوالدون إلى يوم القيامة فى أدنى مدة كموت الكل بالنفخ فى الصور، وحياة الكل بالنفخة الثانية، فصورهم واستنطقهم وأخذ ميثاقهم، ثم أعادهم فى صلب آدم، ثم أنسانا تلك الحالة، ابتلاء لنؤمن بالغيب . اهـ الغنيمى ص ٨٠-٨١

يقول أبو حنيفة مستدلاً بالقرآن (نعم نعرف الرسول من الله تعالى، لأن الرسول وإن كان يدعو إلى الله تعالى<sup>(١)</sup> ولم يكن أحد يعلم بأن الذى يقول الرسول حق، حتى يقذف الله في قلبه التصديق والعلم بالرسول، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٢)</sup>).

وهنا ينبغى أن نلاحظ أمراً يتعلق بموقف أبى حنيفة من العقل، فهو في هذا النص لا يعتمد كطريق إلى معرفة الله ولا يوجب به المعرفة إيجاباً، ويجعل المعرفة ناشئة عما يقذفه الله في القلب.

لكنه في نفس الوقت يعول عليه فيما إذا دل على الله، عندئذ يكون المرء متصفاً بمقتضى هذه الدلالة فيكون مؤمناً، وهذا ما يمكن استنتاجه من سؤال أبى مطيع له (... لو أقر بجملة الإسلام في أرض الشرك، ولا يعلم شيئاً من الفرائض والشرائع ولا يقر بالكتاب ولا بشيء من شرائع الإسلام إلا أنه مقر بالله تعالى وبالإيمان ولا يقر بشيء من شرائع الإيمان فمات أهو مؤمن؟ قال . نعم. قلت له: ولو لم يعلم شيئاً ولم يعمل به إلا أنه مقر بالإيمان فمات؟ قال: هو مؤمن<sup>(٣)</sup> .)

وتعتمد المعرفة الدينية عند الإمام الماتريدى على إدراك أن الدين ضرورة لقيام المجتمع، إذ لابد للخلق من دين يلزمهم للاجتماع عليه وأصل يلزمهم الفرع إليه، وعلى ذلك جرت سياسة الممالك في الأرض<sup>(٤)</sup>

ووجهة نظر الإمام الماتريدى تلك تصلح للمشاركة في الحوار العصري حول استبقاء الدين، وتقوم دليلاً على أن استبعاد دين ينتهى حتماً إلى استئصال دين جديد.

ويرى الإمام الماتريدى أن الله فطر الناس على فطرة يعقول مركبة فيهم، يعرفون

(١) لعلها لم بدون حرف العطف .

(٢) العالم والمتعلم (ص ٣١).

(٣) الفقه الأيسر (ص ٨٢).

(٤) كتاب (إمام أهل السنة والجماعة) للدكتور المغربي ص ٥٨ - ٥٩



بها وحدانيته وربوبيته، والله قد بعث الرسل ليقطع عليهم الاحتجاج وإن لم تكن لهم الحجة أصلاً<sup>(١)</sup>

وفي رأينا أن التنبيه على العقل كمكون من مكونات الفطرة - كما جاء في كلام الماتريدي - ينجم به من ضربات فلسفة الشك على صهوة جواد " الضرورة العملية " .

ويعبر الإمام ابن تيمية عن فطرية الدين أو ضروريته حيث يقرر: أن علم الإنسان بوجود الله ناشئ من علمه بأن كل حادث لا بد له من محدث، وأن علمه بذلك هو كعلمه بأن الكتابة لا بد لها من كاتب، ولأن البناء لا بد له من بان وهكذا .

وفي هذا السياق يقول العلامة الغنيمي في شرحه للعقيدة الطحاوية: (واعلم أن المصنف - أي الإمام الطحاوي - قد أعرض عن بحث الوجود واكتفى بها هو ظاهر في مقام الشهود، ففي التنزيل: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إبراهيم ١٠ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لقمان ٢٥، فوجود الحق ثابت في فطرة الخلق، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الروم ٣٠، وإنما جاء الأنبياء عليهم السلام لبيان التوحيد وتبيان التفريد، ولذا أطبقت كلمتهم واجتمعت حججهم على كلمة التوحيد بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ولم يأمرؤا أهل ملتهم بأن يقولوا الله موجود، بل قصدوا إظهار أن غيره ليس بمعبود، ردا لما توهموا وتخلوا حيث قالوا: ﴿ هَتُوْلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ١٨ يونس ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ الزمر ٣، على أن التوحيد يفيد الوجود مع مزيد التأييد، ولذا صدر عقيدته بشهادة التوحيد اهـ<sup>(٢)</sup>

ولهذا لم يرد التكليف الشرعى بالبحث العقلى لنعرف وجود الله غالبا وإنما ورد التكليف الشرعى بمعرفة التوحيد ونفى الشرك .

وفي الفكر المعاصر: يقول الأستاذ إسماعيل مظهر في كتابه " ملقى السبيل ":

(١) كتاب (إمام أهل السنة والجماعة) للمغربي ص ٥٩ نقلا عن تأويلات أهل السنة للماتريدي

(٢) شرح الغنيمي للعقيدة الطحاوية ص ٥٥

(ثبت لدينا أن الدين من ضرورات الاعتقاد لم تخرج عن حكم كل ضرورة في أنها ذات قاعدة ما، كضرورة التغذية والتعاون إلخ)

ويقول أرنولد توينبي في كتابه "تاريخ البشرية": (إن جوهر الدين ثابت ثبات جوهر الطبيعة البشرية ذاتها، فالدين في الحقيقة صفة ذاتية مميزة للطبيعة البشرية .)

### **المدخل العقلي إلى الاعتقاد بوجود الله**

يعتمد هذا المدخل على الدليل العقلي المبني على البديهيات والمقدمات والنتائج المستخلصة وفق قوانين المنطق، هذه القوانين التي ترجع في مجملها إلى قانون الذاتية وعدم التناقض .

وهو المدخل الذي اعتمده الفلاسفة وعلماء الكلام غالبا وقدموا فيه أدلة وجود الله: دليل الممكن والواجب ودليل حدوث العالم..: ودليل الغائية والقصد والاختراع (لابن رشد)

### **دليل الممكن والواجب:**

اهتم كثير من الفلاسفة بهذا الدليل، ونحن نصوغه صياغة ميسرة في الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: وفيها يكون النظر عقليا بحثا بقطع النظر عن الوجود الخارجى حيث يمكن للعقل أن يقرر القضية التالية:

الشيء إما أن يكون وجوده ممكنا، أو مستحيلا أو واجبا

القسم الأول: من أحكامه أنه يقبل الوجود ويقبل العدم، وإذن فوجوده وعدمه ليس من ذاته، لأنه لو كان وجوده ذاتيا لما قبل العدم، ولو كان عدمه ذاتيا لما قبل الوجود، لأن ما بالذات لا يتخلف، فلا يقبل المثلث أن يكون ذا أربعة أضلاع، ولا يقبل المربع أن يكون ذا ثلاثة أضلاع ..

والقسم الثانى: أى مستحيل الوجود - من أحكامه: أنه لا يقبل الوجود أصلا، وإذن فعدمه ذاتى، ولو قبل الوجود لاجتمع فيه النقيضان: العدم الذاتى والوجود

الطارئ، وهما نقيضان، والعقل يحكم - بداهة - بأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان .

والقسم الثالث: أى واجب الوجود - من أحكامه أنه لا يقبل العدم أصلاً، وإذن فوجوده ذاتي، ولو قبل العدم لاجتمع فيه النقيضان كذلك، وهذا مقطوع ببطلانه

وهنا تنتهى من الخطوة الأولى: ونحن ما نزال ندور مع العقل البحث، لا نلتفت إلى شيء خارج عنه، وإنما نقرر أموراً بديهية، ونبنى عليها أقساماً منطقية ضرورية .

الخطوة الثانية: نلتفت فيها إلى الخارج فتساءل: أى قسم من الأقسام الثلاثة نعرفه في الخارج ونتفق عليه دون اختلاف أو اشتباه ؟

هنا نجد في الخارج: القسم الأول باتفاق: أى الممكن الذى يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى

ونلمس أمثله: فى قطرة الندى، وفى الزهرة تصبح ناضرة، وتمسى ذابلة، وفى المولود يولد ثم يموت، وفى المدينة تظهر ثم تزول وهكذا ..

وهنا نتساءل: بما أن هذا يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى ..

وبما أنه بمقتضى أحكامه التى ذكرناها لا يستمد وجوده أو عدمه من ذاته كما شرحنا ..

فلا بد أنه يستمد أحد الأمرين - وجوده أو عدمه - من غيره

وغيره هنا حسب الأقسام السالفة ليس إلا المستحيل أو الواجب .

ليس من المعقول أن نقول إنه استمد وجوده من المستحيل، لأن المستحيل لا يقبل الوجود أصلاً، فهو من باب أولى لا يعطى الوجود لغيره، وفاقد الشيء لا يعطيه بداهة .

إذن لزمنا القول بأنه استمد وجوده من القسم الباقي الوحيد: وهو واجب الوجود .

وهنا يمكننا أن نقول: إن وجود ممكن الوجود دل على وجود واجب الوجود وبعبارة أخرى: وجود الممكن دل على وجود الواجب

ونحن بدأنا فى هذه الخطوة بإثبات وجود الممكن بحسب المشاهدة وانتهينا إلى إثبات وجود الواجب بحسب الاستدلال .

ومعنى هذا أن ما كنا نفترضه افتراضا عقليا فى الخطوة الأولى - الممكن والواجب - أصبحنا فى الخطوة الثانية وقد أثبتنا وجوده واقعا .

وجود الممكن بحسب المشاهدة

ثم وجود الواجب بحسب الاستدلال .

الخطوة الثالثة: هنا نتساءل: ما واجب الوجود الذى أثبتنا وجوده بالاستدلال؟

إن العقل هنا ما يزال له بقية من دور، إذ يمكنه أن يزيدنا تعريفا بهذا الواجب .

وأول ما يقرره العقل هنا: أن واجب الوجود هذا بما أنه لا يقبل العدم - وفقا للأحكام العقلية لواجب الوجود التى أشرنا إليها سابقا - فهو لا يقبل النقص، لأن النقص صورة من صور العدم .

وإذن فلا يمكن أن يكون هو الطبيعة، لأن الطبيعة تتصف بأحط صور النقص، حتى عند الطبيعيين والماديين: إنه ينقصها الحياة، إنه ينقصها العلم، إنه ينقصها الإرادة

إذن فإن واجب الوجود بما أنه لا يقبل العدم، فهو لا يقبل النقص، وبما أنه لا يقبل النقص فلا بد أنه يتصف بالكمال .

ومن صفات الكمال: العلم، ومن صفات الكمال: الإرادة، ومن صفات الكمال: القدرة، ومن صفات الكمال: الحياة .

إذن فواجب الوجود هو الله سبحانه وتعالى: لأنه وحده الذى يوصف بصفات الكمال

وإذن فقد انتهينا فى هذه الخطوة الثالثة إلى أن وجود الممكن دل على وجود الواجب: أى دل على وجود الله .

أى انتهينا إلى إثبات وجود الله بالاستدلال، عن طريق إثبات وجود الممكن بالمشاهدة .

الخطوة الرابعة: هنا يأتي سؤال هام: وهو يأتينا هذه المرة من الناحية الشرعية: ذلك أنه إذا كان من الصحيح عقلا أن نقول: إن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، فهل يصح شرعا أن نطلق هذا الوصف عليه باعتباره اسما له سبحانه وتعالى؟

الجواب: إن ذلك لا يصح، لأن الأسماء توقيفية، بمعنى أنه لا يصح أن نسمى الله تعالى إلا بما سمي به نفسه: فهو الله، وهو الرحمن الرحيم، وهو الحي الذي لا إله إلا هو، وهو العليم وهو الفعال لما يريد، وهو القدير، وهو السميع البصير، وهو الأول والآخر، وهو الملك القدوس، المهيمن، العزيز، الجبار المتكبر، وهو الودود اللطيف الخبير، إلخ أسمائه الحسنی الواردة في القرآن والسنة الصحيحة.

ويستدل الإمام الماتريدي على وجود الله بالنظر في مبدأ "جواز العالم" وهو بذلك كان الأسبق إلى هذا الدليل من الباقلاني والجويني والغزالي، وهو نفس المبدأ الذي يقوم عليه دليل الوجوب والإمكان عند الفارابي وابن سينا، ويدخل الماتريدي في دليل "جواز العالم": الاستدلال بوجود الشر في العالم على أنه غير موجود بذاته، إذ لو كان موجودا بذاته لنفى الشر عن ذاته، وإذن فوجوده بغيره، وهذا دليل وجود الله.

ويستدل الماتريدي أيضا على وجود الله بدليل النظام والعناية في العالم، وخلق الإنسان وما فيه من آيات عجيبة، وحكمة بالغة<sup>(١)</sup>

### **الاستدلال على وجود الله بحدوث العالم**

يستدل الفيلسوف الكندي<sup>(٢)</sup> على وجود الله بحدوث العالم، ويعتمد دليل حدوث العالم عنده على إثبات تناهيه ويستدل الكندي على تناهي العالم (ما سوى الله تعالى) بإبطال كونه لا نهاية له عن طريق الخطوات الآتية:

(١) المغربي ص ١٢٧ - ١٣٥

(٢) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، من قبيلة كندة باليمن، ولد في الكوفة، درس المنطق والفلسفة والموسيقى وانتشرت مؤلفاته وترجمت إلى اللاتينية، ويعد له ابن التديم حوالي ٢٣٨ رسالة، ويذكر القفطي له ما يقارب هذا العدد، ويذكر ابن أبي أصيبعة له أكثر من ذلك، ولقب بفيلسوف العرب، ويعد بعض المستشرقين - كاردا نوس أحد اثني عشر هم زعماء الفكر في العالم كله (١٨٥ هـ - ٢٥٢ هـ - ٨٠١/٨٦٨ م)، أنظر التفكير الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود.

أنه إن كان جرم لا نهاية له فإذا فصل منه جرم متناهى العظم فإن الباقي : إما أن يكون متناهى العظم أو لا متناهى العظم:

إن كان الباقي متناهى العظم فإذا زيد عليه المفصول منه المتناهى العظم: كان الجرم الكائن منهما متناهى العظم [ بالبداهة ]، فهو إذن متناهى العظم [ بالبداهة ] لا متناهى العظم [ طبقا للفرض الأساسى ] وهذا تناقض .

أو يكون الباقي لا متناهى العظم: فإذا زيد عليه ما أخذ منه صار أعظم مما كان قبل أن يزداد عليه أو مساويا له:

إن كان مساويا فقد صار ما زاد مساويا لما نقص وهذا باطل بداهة

وإن لم يكن مساويا بأن كان أعظم مما كان قبل أن يزداد عليه فقد صار مالا نهاية له أعظم مما لا نهاية له، وهذا باطل بداهة أيضا

وبهذا بطل ما أدى إليه وهو القول بأن جرم العالم لا نهاية له، وثبت نقيضه وهو أن جرم العالم له نهاية .

وهذا الدليل إذا كنا قد أقمناه فى الجرم فهو يصدق على كل ما يقال فيه 'إنه لا متناه فى العالم كالزمان والحركة والمكان

على انه لا جرم بلا زمان<sup>(١)</sup>، ولا زمان بلا حركة ويستدل الكندى على التلازم بين الجرم والزمان والحركة بأن الجرم جوهر ذو أبعاد ثلاثة: عرضا وطولا وعمقا فهو إذن مركب، والتركيب حركة والحركة إذن إنما هى حركة الجرم، فإن كان جرم كانت حركة وإن لم يكن جرم لم تكن حركة

---

(١) هذا ما تقرره نظرية النسبية لأينشتين إذ تقرر أن الزمان هو البعد الرابع للمادة وهذا يعنى أن زمان العالم متناه بتناهى المادة، وهذا يعنى أن العالم حادث، ولقد تمكن أينشتين من إثبات تناهى العالم بإيجاد نصف قطر الكون، وبالتعبير الرياضى: وجد أينشتين أن نصف قطر الكون يتناسب عكسيا مع الجذر التربيعى للكثافة، وباستعمال أحسن التقديرات لمتوسط كثافة المادة فى الكون يكون التقدير الحالى لنصف قطر الكون هو ٢ وأمامها ثلاثة وعشرون صفرا من الأميال . أنظر " النسبية فى متناول الجميع " للأستاذ جيمس كولمان ص ١١٥ - ١١٦ - ١١٧، ترجمة رمسيس شحاتة، نشر دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩، وألف باء النسبية لبرتراند رسل ترجمة فؤاد كامل والنسبية: النظرية العامة والخاصة لأينشتين، ترجمة رمسيس شحاتة . نشر دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

والحركة هى تبدل الأحوال، فتبدل مكان كل أجزاء الجرم هو الحركة المكانية، وتبدل نهاياته إما بالقرب من مركزه أو البعد عنه هو الربو والاضمحلال، وتبدل كفياته المحمولة هو الاستحالة، وتبدل جوهره هو الكون والفساد، وكل تبدل فهو عاد مة المتبدل أى الجرم، فكل تبدل هو لذى زمان، ومن التبدل الائتلاف والتركيب، لأنه نظم الأشياء وجمعها، والجرم جوهر ذو أبعاد ثلاثة، طولاً وعرضاً وعمقاً، فهو مركب من الجوهر الذى هو جنسه، ومن الأبعاد التى هى فصوله، والتركيب تبدل الأصول التى هى لا تركيب. فالتركيب حركة وإن لم تكن حركة لم يكن التركيب

والجرم مركب كما أوضحنا فإن لم يكن حركة لم يكن جرم فالجرم والحركة لا يسبق بعضهما بعضاً وبالحركة الزمان، لأن الحركة تبدل، والتبدل عاد مدة المتبدل، فالزمان مدة تعدها الحركة، ولكل جرم مدة هى الحال التى هو فيها إنية<sup>(١)</sup>

فإن كانت حركة كان زمان، وإن لم تكن حركة لم يكن زمان

الجرم إذن لا يسبق الحركة<sup>(٢)</sup>، والزمان ملازم للحركة .

والجرم لا يسبق الحركة كما أوضحنا والنتيجة لكل هذا: أن الجرم والحركة والزمان لا يسبق بعضها بعضاً فهى متلازمة، فهى متناهية وهى لذلك حادثة

وبهذا يثبت حدوث العالم ومادام أن العالم حادث فقد ثبت بالضرورة وجود المحدث إذ المحدث محدث المحدث، إذ المحدث والمحدث من المضاف فلكل محدث محدث، ضرورة<sup>(٣)</sup> .

---

(١) المراد بالإنية كينونة الذات

(٢) تذهب المادية الجدلية لكارل ماركس إلى التلازم بين المادة والحركة، لكنها لم تدرك حدوثها .

(٣) أنظر (التفكير الفلسفى فى الإسلام) للدكتور عبد الخليم محمود، نشر دار الكتاب اللبنانى - بيروت ١٩٨٥ م، وانظر رسائل الكندى للدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة، و "رسالة الفلسفة الأولى للكندى" نشر وتحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى، وكتاب "فيلسوف العرب والمعلم الثانى" للإمام الأكبر الدكتور الشيخ مصطفى عبد الرازق .

ويستدل الكندي على وجود المحدث الذى لا محدث له بوجدانيته، حيث يرى أن المحدث لا يخلو أن يكون واحداً أو كثيراً: فإن كان كثيراً فهم مركبون: لأن لهم اشتراكاً في حال واحدة لجميعهم، أى لأنهم جميعاً فاعلون، والشيء الذى يعمه وغيره شيء واحد إنها يتكرر بأن يفصل بعضه من بعض بحال ما، فإن كانوا كثيراً ففيهم فصول كثيرة: فهم مركبون مما عمهم، ومن خواصهم، والمركبون لهم مركّب، لأن مركّباً ومركّباً من باب المضاف، فيجب إذن أن يكون للفاعل فاعل فإن كان الواحد فهو الفاعل الأول، وإن كان كثيراً فهذا يخرج بلا نهاية وقد اتضح بطلان ذلك .

فليس للفاعل فاعل فإذاً ليس كثيراً، بل واحد غير متكرر، سبحانه وتعالى عن صفات الملحددين علواً كبيراً، لا يشبه خلقه لأن الكثرة في كل الخلق موجودة وليست فيه بته، ولأنه مبدع وهم مبدعون، ولأنه دائم وهم غير دائمين، لأن ما تبدل تبدلت أحواله، وما تبدل فهو غير دائم .

ويستدل الشيخ الإمام الأشعري على وجود الله بحدوث العالم .

وهو يستدل على حدوث العالم أولاً بالدليل الذى يقول عنه الدكتور حمودة غرابة إنه (يمكن وضعه في كلمات: وهو أن جميع الأجسام مكونة من جواهر وأعراض، يوجد تلازم بينهما، والأعراض متغيرة فهي إذن حادثة، وإذن فالجواهر حادثة أيضاً لأن ما لازم الحادث ولم يسبقه زمناً في الوجود كان بالضرورة حادثاً أيضاً)<sup>(١)</sup>

ثم يستدل بحدوث العالم على وجود الله، بطريقة أخرى حيث يقول: (من قصد إلى برية لم يجد فيها قصراً مبنياً فانتظر أن يتحول الطين من حالة الآجر وينتضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بان كان جاهلاً، وإذا كان تحول النطفة علقه، ثم مضغة، ثم لحماً ودماً وعظماً .. أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع النطفة ونقله من حال إلى حال . )<sup>(٢)</sup>

(١) الإمام الأشعري ص ١٤٣

(٢) اللمع، وانظر الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٦



ويمكن ملاحظة أن الإمام الأشعرى في هذا المثال الأخير.. لم يذكر مجرد الحدوث كدليل على المحدث، بل ذكر أمثلة يسير فيها الحدوث في طريق هادف له غاية، مما يدل على أنه يستصحب دليل العناية والقصد.

ويستدل القاضي الباقلاني على وجود الله بدليل الحدوث أيضاً، وهو يستدل على حدوث العالم بأدلة منها: التغير . التغير من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة ثم يقول: وما كان هذا سبيله ووضعه كان محدثاً، ويستشهد بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>، وقد جاء في صحيح البخارى في بدء الخلق قوله صلى الله عليه عليه وسلم (كان الله ولم يكن شيء غيره).

وقد بين نبينا صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة .

وكذلك الخليل عليه السلام إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة: " لما رأى الكوكب قال: هذا ربى، إلى آخر الآيات ٧٦-٧٩ من سورة الأنعام، فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حالة إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقاً، فقال عند ذلك (إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً) ٧٩ الأنعام

ويستدل كذلك بتطور الإنسان من حال النقص إلى حال الكمال .. إذ هو بعد كماله: (لا يقدر أن يحدث في نفسه شعرة وعرقاً ولا شيئاً فكيف يكون محدثاً لنفسه ومنقلاً لها من حال نقصه من صورة إلى صورة، ومن حالة إلى حالة، وإذا بطل منه ذلك في حال كماله كان أولى أن يبطل منه ذلك في حال نقصه)<sup>(٢)</sup>

وهو يستدل كذلك بتقديم المتقدم إذ من اللازم أن يكون مصدره للتقدم .. من غيره.

---

(١) الإنصاف ص ٣٠-٣١-٣٢

(٢) الإنصاف فيها يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني طبعة الخانجي ١٩٦٣ ص ٣٠-٣١-٣٢

ويستدل أيضا بظهور الحياة في الجمادات إذ لا يجوز أن تكون فاعلة للحياة لنفسها وهي فاقدة الحياة أصلا .

أما إمام الحرمين فهو يبدأ بالنظر في الموجودات ويقول: (أنها تنقسم إلى قسمين: منها ما لوجوده أول ومفتتح، وهو الحادث، ومنها مالا أول له ومفتتح وهو القديم<sup>(١)</sup>)، فهذه قسمة بديهية: نعلم بضرورة العقل استحالة الزيادة عليها، فإنها مستندة إلى نفى وإثبات، وليس بين النفي والإثبات رتبة ..<sup>(٢)</sup>

ثم يتحدث عن الحادث فيقول: (إن الحوادث تنقسم أيضا انقساما ضروريا ولا تخلو: إما أن تكون مفتقرة إلى محل تحله، وإما أن لا تكون مفتقرة إلى محل تحله، وهذه القسمة تستند إلى النفي والإثبات أيضا

ثم الحادث الذي لا يفتقر إلى المحل هو الجوهر في اصطلاح المتكلم والمفتقر إلى المحل العرض)<sup>(٣)</sup>

ثم هو ينظر في العالم - وهو كل ما سوى الله تعالى - ويصنفه إلى نوعين: جواهر وأعراضا .

والمراد بالجواهر<sup>(٤)</sup> - كما عرفه الباقلاني -: كل ماله حيز، وهو ينقسم إلى بسيط لا يقبل التجزئة وهو الجوهر الفرد<sup>(٥)</sup>، وإلى مركب وهو الجسم المركب

---

(١) يقول الآمدي في كتابه "المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين" (وأما القديم فقد يطلق على مالا علة لوجوده كالباري تعالى، وعلى ما لا أول لوجوده وإن كان مفتقرا إلى علة كالعالم على أصل الحكماء، وأما الحادث فقد يطلق ويراد به ما يفتقر إلى السبب وإن كان غير مسبوق بالعدم كالعالم [أي عند الحكماء] وعلى ما لوجوده أول وهو مسبوق بالعدم [أي عند المتكلمين] أنظر ص ١١٩ من الكتاب المذكور تحقيق أد: حسن الشافعي طبعة القاهرة ١٩٨٣

(٢) الشامل في أصول الدين للجويني بتحقيق الدكتور على سامي النشار ط ١٩٦٩ للجويني ص ١٣٩

(٣) الشامل ص ١٤٠

(٤) ذهب النظام والنجار - من متكلمي الجبرية - إلى أن الجواهر أعراض مجتمعة، وزعم ابن كيسان الأصم [ت ٢٩٩ من الشيعة - إلى أن العالم كله جواهر، وذهبت طوائف من الدهرية ونفاة الصانع إلى نفى الأعراض أنظر الشامل للجويني ص ١٤٨ - ١٦٨

(٥) يقول ابن خلدون عن القاضي الباقلاني إنه قد تصدر للإمامة في طريقة الأشاعرة، ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد، والخلاء، وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنه لا يبقى زمانين، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبعا للمعائد الإيمانية في وجوب اعتقاده) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥ طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر

يقول الجويني: (الأصح في ذلك عبارات ارتضاها القاضي رضى الله عنه -  
الباقلاني - منها أنه قال: التحيز هو الجرم، وقال: الذى له حظ من المساحة ...  
والحيز: مكان لجوهر مقدر<sup>(١)</sup>)

والمراد بالعرض ما يقوم بغيره من الجوهر . أو هو كما يقول الأمدى: عبارة عن  
وجود فى موضوع<sup>(٢)</sup>

ويقرر الجويني للأعراض أحكاما: منها أنها لا تقوم بنفسها، وأنها تفتقر إلى محل  
غير عرض بناء على أنه لا يقوم العرض بالعرض<sup>(٣)</sup>، وأنها لا تبقى وقتين<sup>(٤)</sup>.  
ثم يستدل على وجود الأعراض وأنها حادثه، وحدوث الأعراض نعلمه كما

(١) الشامل ص ١٥٦، ومن الغريب أن هذه هى نفس المشكلة المستمرة فى علم الفيزياء المعاصرة: عن  
جزيئات الذرة: أمى موجات، أم فوتونات، أم هى الأمران معا ؟ وكيف ؟ أنظر معالجتنا لهذه  
القضية فى كتابنا (الفكر المعاصر فى ضوء العقيدة المعاصرة)

(٢) أنظر المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين لسيف الدين الأمدى المتوفى ٦٣١ هـ تحقيق أ.د:  
حسن الشافعى طبعة القاهرة ١٩٨٣ م

(٣) يقول الإمام البيضاوى فى كتابه طوابع النوار: (فى قيام العرض بالعرض منعه المتكلمون متمسكين  
بأن المعنى بالقيام حصوله فى الحيز تبعا لمحلّه، وذلك المتبوع لا يكون إلا جوهرًا) وهو يرد على ذلك  
بقوله (وهو ضعيف إذ القيام هو الاختصاص الناعت، فإن صفات الله قائمة بذاته تعالى مع امتناع  
تحيزه، وإن سلم فلم لا يجوز أن يكون تحيز محله تبعا لتحيز محل آخر وهو الجوهر) ثم يبين حجة  
الحكماء [ الفلاسفة ] فى صحة قيام العرض بالعرض بقوله (واحتج الحكماء بأن السرعة والبطء  
عرضان قائمان بالحركة فإنها المنعوتة بهما دون الجسم) أنظر طوابع النوار من مطالع النظائر للقاضى  
ناصر الدين البيضاوى ت ٦٨٥ هـ تحقيق عباس سنيان نشر دار الجيل بيروت ط ١ سنة ١٩٩١  
ص ١٠٤

(٤) يقول الإمام البيضاوى فى طوابع الأنوار: (فى بقاء الأعراض: منعه الشيخ [ أى الأشعرى ] ونمسك  
بأن البقاء عرض فلا يقوم بالعرض، وبأنه لو بقى لامتنع زواله، لأنه لا يزول لنفسه لاستحالة أن  
ينقلب الممكن متمنعا، ولا لمؤثر وجودى كطريان ضد، فإن وجوده مشروط بعدم الضد الآخر، ولا  
عدمى كزوال شرط فإنه الجوهر فيعود الكلام إليه ويلزم الدور، ولا فاعل إذ لا بد له من أثر فيكون  
موجدا لا معدما) ثم أجاب البيضاوى على ذلك بأن قال: (وأجيب عن الأول بمنع المقدمتين، وعن  
الثانى بأن عدمه تقتضيه ذاته بعد أزمنة، والإلزام مشترك، أو مؤثر مباين عن محله، أو انتفاء شرط  
وهو عرض لا يستمر، أو فاعل، ولا نسلم أن أثره لا يكون عدما متجددا، وقد تمسك به النظام فى  
امتناع بقاء الأجسام) ص ١٠٥

يقول الجويني بالمشاهدة من تعاقب الأعراض المتضادة، فنعلم حدوث الطارئ منها، من حيث وجدت، ونعلم حدوث السابق منها من حيث عدمت  
ثم ينتقل إلى إثبات حدوث الجوهر فيثبت استحالة تحلّي الجوهر عن جنس العرض: أى عرض كان، والعرض الذى يستند إثباته إلى الضرورة هو عرض "الأكوان"، ويعنى به أننا ببديهة العقل نعلم أن الجواهر قابلة للاجتماع والافتراق وهى لا تعقل غير متماسة ولا متباينة .

ثم ينتقل إلى إبطال القول بحوادث لا أول لها، إذ القول بحوادث لا أول لها فى الأزل نفى لجملة الحوادث، لأنها لو فرضنا أنها ثبتت لكان كل واحد مشروطا وجوده بمحال، وهو انقضاء ما لانهاية له من الحوادث وكل ما علق ثبوته بمحال كان محالا، وذلك كقول القائل لا أعطيك درهما إلا وأعطيك قبله دينارا ولا أعطيك دينارا إلا وأعطيك قبله درهما

وبذلك يثبت حدوث الجوهر، فيثبت حدوث العالم

ثم ينتقل الدليل إلى إثبات المحدث '، وهو يثبت أولا أن الحادث جائز الوجود فهو على قدم المساواة وجودا وعدمًا، وليس أحدهما بأولى من الآخر، فلا بد من ترجيح وجوده على عدمه، أو العكس،  
فلا بد إذن من مخصص خصصه بالوجود بدل العدم، ضرورة بطلان الترجيح بلا مرجح .

ثم ينتقل الدليل إلى إثبات كون المخصص هو الفاعل المختار لا الطبيعة<sup>(٢)</sup> كما ادعى ذلك الطبيعيون ولا السبب كما ادعى ذلك أصحاب نظرية العقول من الفلاسفة .<sup>(٣)</sup>

---

(١) يذهب الكندى - من فلاسفة الإسلام - إلى أن هذا بدهى لأنه من التضافى، إذ المحدث محدث المحدث، كما أن المكتوب مكتوب الكاتب، والمأكول مأكول الأكل وهكذا، وإلى مثل ذلك ذهب ابن تيمية أيضا

(٢) وذلك لأن الطبيعة لا يتصور لها اختيار، ولأنها أى الطبيعة إن كانت حادثة افتقرت إلى غيرها محدثا لها، وإن كانت قديمة لزم قدم آثارها، وقد ثبت حدوثها .

(٣) ملخصا من لمع الأدلة للجويني، والشامل فى أصول الدين للجويني بتحقيق الدكتور على سامي النشار ط ١٩٦٩ ص ١٤٢، ومن ١٦٧ إلى ٢٠٥

ثم يأتي الإمام الغزالي فيسلك هذا المسلك نفسه، يقول الدكتور سليمان دنيا (لو رحت تقرأ هذا البحث في كتب الكلام عند غير الغزالي لم تجد كبير فرق)<sup>(١)</sup>

وفي مسألة وجود الله نلاحظ أن الأشاعرة تابعوا المعتزلة في أمور: منها أن إثبات وجود الله طريقه النظر بالعقل، وأنه يجب أن يسبق بإثبات حدوث العالم، وأن إثبات حدوث العالم يستند إلى: إثبات وجود الأعراض، وقيامها بالجوهر، وإثبات حدوث الأعراض، وإثبات استحالة خلو الجواهر من الأعراض، والرد على من يقولون بحوادث لا أول لها، وتقرير أن ما لا يخلو من الحوادث حادث.

ويعترف الشهرستاني في مطلع كتابه (نهاية الأقدام) بأن هذا الدليل لا يتم للأشعرى ومن تابعه إلا إذا تم لهم أولا الدليل على بطلان وجود حوادث متعاقبة لا نهائية وهذا ما حاوله الأشاعرة بعد الإمام الأشعرى عن طريق برهان بطلان الدور، وبطلان التسلسل بدليل برهان التضاييف والتطبيق.<sup>(٢)</sup>

أما إبطال الدور كما يقول الإمام اليعاقبة: (فلأن صريح العقل جازم على تقدم المؤثر على وجود أثره، فلو أثر الشيء في مؤثره السابق عليه لزم تقدم وجوده على نفسه ...، وهو محال .

وأما التسلسل فيدل على بطلانه وجهان:

الوجه الأول: الأول فلنفرض جملتين من السلسلة إحداهما من معلول معين والأخرى من المعلول الذي قبله، فلو تسلسلت العلل إلى غير نهاية: فإن ساوت الثانية الأولى بالتطبيق من الطرف المتناهي يكون الناقص مثل الزائد، [وهذا باطل بداهة]، وإن لم تساوها يلزم انقطاعها والأولى تزيد عليها بمرتبة، فتكون متناهية .

---

(١) أنظر الحقيقة في نظر الغزالي للدكتور سليمان دنيا طبعة عيسى الحلبي عام ١٩٤٧ ص ٢٠٨ - ٢٢٣  
(٢) أنظر الإمام الأشعرى لحمودة غرابية ص ١٤٢ - ١٤٣، وحاشية الشيخ محمد عبده على شرح الجلال الدواني على العقائد العنصرية طبعة القاهرة عام ١٣٣٢ هـ ص ٣٦ - ٣٨ وكتاب (التحقيق التام في علم الكلام) للشيخ محمد الحسيني الظواهري طبعة عام ١٩٣٩ نشر مكتبة النهضة المصرية ص ٤٢ - ٤٣

الوجه الثاني: أن مجموع الممكنات المتسلسلة محتاج إلى كل واحد منها فيكون ممكنا محتاجا إلى سبب خارج عن مجموع الممكنات، بحكم التضاييف إذ المحدث محدث المحدث، كما أن المكتوب مكتوب الكاتب، والمأكول مأكول الآكل.

والدليل على أن ذلك السبب يجب أن يكون خارج مجموع الممكنات أنه إما أن يكون نفس مجموع الممكنات أو يكون داخل مجموع الممكنات أو يكون خارج مجموع الممكنات: ولا يصح أن يكون السبب نفس مجموع الممكنات [لأنه يلزم عليه الدور الباطل] ولا يصح أن يكون داخلا في مجموع الممكنات لأنه [أى الداخل فيه] لا يصح أن كون علة لنفسه ولا لعله [لأنه يلزم عليه الدور الباطل أيضا]، فلا يكون علة لمجموع الممكنات، فلزم أن يكون أمرا خارجا عن مجموع الممكنات، والخارج عن كل الممكنات لا يكون ممكنا<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك نجد اتجاهها عند بعض متأخري الأشاعرة إلى أن وجود الله يمكن إثباته بدليل إثبات إمكان العالم لا حدوثه، وأن الاستدلال على حدوث العالم يمكن إثباته بالدليل السمعي إذ صحة الدليل السمعي - حيثئذ - لا تتوقف عليه<sup>(٢)</sup> ولذلك وجدنا من أئمة الإسلام من لم يتخرج من نقد بعض مبادئ الدليل العقلي على حدوث العالم، فوجدنا الإمام ابن تيمية يجيز القول بحدوث لا أول لها ووجدنا الإمام ابن حزم ينتقد في عنف بعض مبادئ هذا الدليل أيضا في كتابه الفصل بين الملل والنحل.

ووجدنا الشيخ محمد عبده ينتقد أدلة بطلان التسلسل إذ يقول (وجميع ما قالوه في إبطال التسلسل من البراهين فإنها هو مبنى على أوهام كاذبة، يردعها البرهان الصريح، إلى الآن لم يقم برهان خطابي فضلا عن يقيني على وجوب تناهى سلسلة اجتمعت أجزاؤها في الوجود أو لم تكن، فإن ثبت تناهى الحوادث فلسيء آخر لا

(١) طوابع الأنوار من مطالع الأنظار للبيضاوي تحقيق عباس سليمان ص ١٦٥ الطبعة الأولى لدار الجيل بيروت لعام ١٩٩١

(٢) أصول الدين للبغدادى ص ٥١

يتعلق بالتسلسل استحالة أو جوازها، وطريق إثبات الواجب [ أى واجب الوجود ] متسع لنا فيه مندوحة عن ارتكاب أمثال هذه الأوهام<sup>(١)</sup>

ويقول الشيخ محمد الحسنى الظواهري (والإنصاف أن تحصيل الجملتين من سلسلة واحدة ثم مقابلة جزء من هذه بجزء من تلك إنما هو بحسب العقل [ أى بحسب الفرض العقلي لا الواقع ونفس الأمر ] فإن كفى في الدليل حكم العقل بأنه لا بد من أن يقع بإزاء كل جزء جزء أو لا يقع فالدليل جار في الأعداد [ إشارة إلى نقض دليل بطلان التسلسل بأنه لو صح لزم أن تكون الأعداد متناهية، وتناهي الأعداد باطل ... وبعد ما تقدم صار التطبيق غير متفق عليه في إبطال التسلسل، وإن قيل إنه العمدة<sup>(٢)</sup>، وابن رشد كان أحد هؤلاء الذين انصرفوا عن هذا الدليل مكتفيا بدليل الاختراع والعناية .

### دليل العناية والاختراع والقصد

في كلام أبى حنيفة عن الطريق إلى الإيثار: أجاب عن سؤال: ما الدليل على الصانع ؟ قال: أعجب دليل النطفة التى فى الرحم، والجنين فى البطن ... وذهب يستدل بما يحدث له من أطوار، وما يجرى عليه من اختلاف، على خلاف اختيار الأبوين ... على أنه دال على قدرة قادر عالم حكيم، وسفه الفلاسفة الطبيعيين على رأيهم فى مثل هذا الموضوع<sup>(٣)</sup>.

ويقول ابن رشد فى كتابه مناهج الأدلة: (الطريق التى نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل إلى بابها إذا استقرئ الكتاب العزيز وجدت تنحصر فى جنسين:

أحدهما: الوقوف على العناية بالإنسان وخلق الموجودات من أجله. ولنسم هذه

---

(١) فى حاشيته على كتاب شرح الجلال الدوانى على العقائد العضدية ص ٣٦-٣٨ طبعة القاهرة عام ١٣٢٢

(٢) أنظر التحقيق التام فى علم الكلام للعلامة الشيخ محمد الحسنى الظواهري ص ٤٢-٤٣ ط أولى عام ١٩٣٩ نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٣) مفيد العلوم ومبيد المموم للخوارزمي (ص ١٢).

دليل العناية من مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝﴾ إلخ الآيات ٦ من سورة عم

والطريقة الثانية: ما يظهر من اختراع الحياة في الجمادات والإدراكات الحسية والعقل ولنسم هذه دليل الاختراع  
ثم يقول: (الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تصفحت وجدت ثلاثة أنواع:

إما آيات تتضمن التنبيه على دليل العناية، وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع، وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعا)

فأما الآيات التي تتضمن العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَنَّتْ أَلْفَافًا ۝﴾ ٦-١٦ سورة عم، ومثل هذه كثير في القرآن الكريم

وأما الآيات التي تتضمن الاختراع فقط فمثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ ۝﴾ ٦ الطارق إلى غير ذلك من الآيات .

وأما الآيات التي تجمع الدالتين فهي كثيرة أيضا، بل هي الأكثر، مثل قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ۝﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ سورة البقرة ٢١-٢٢ اهـ

أقول: ثم انظر إلى آيات القرآن وهي تتصفح لك آيات الكون وما فيه من روعة النظام والإتقان والعناية والغائية والدلالة على وجود الله العالم المريد لقدير .

يقول سبحانه وتعالى في إتقان ارتباط الأرض بالنظام الفلكي وغايتها ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾ ١٦٤ البقرة



ويقول تعالى في إتيان أحوال الأرض وغائيتها وارتباطها بالعبادة بالإنسان ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَشْبَقْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوْحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْسَقَتِ الْكُومُوهُ وَمَا أَشْتَرُ لَهُ بِخَيْرِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ غَنِيٌّ وَنُصِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝﴾ ١٩ الحجر

ويقول تعالى في إتيان أحوال الحيوانات وغائيتها وارتباطها بالعبادة بالإنسان كذلك: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَعُونَ وَحِينَ يُسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَوْبَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِهِ بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ ٤-١٤ النحل

ويقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۚ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظُلَلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ ۚ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلِغُ الْمُمِينُ ۝ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۝﴾ ٨٠-٨٣ النحل

وما أكثر ما فى القرآن الكريم من الآيات التى تساعد العقل على الخروج من حاة الإنكار وتسقط عن العيون غشاوة الركون إلى القول بالصدفة .

وللعلم الحديث إسهام ملحوظ فيما يقدمه لنا من أمثلة واضحة على تغلغل عنصر الغرضية والعناية فى الطبيعة، وما يقدمه العلم الحديث فى هذا الاتجاه يمكن اعتباره جسرا يصل بين المدخل العقلى، والمدخل العلمى التجريبي .

### مدخل العلم التجريبي

لم يعد مقبولا فى ساحة العلم التجريبي التهرب من الإقرار بوجود الخالق الذى يحكم الطبيعة بإرادته اكتفاء بما كان يشاع عن كفاية قوانين التطور وقواعده فى الصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح إذ أن الاعتراض الذى يثار هنا ضد القول بكفاية هذه القوانين هو كما يقول البروفيسور وايت هيد: لماذا ظهرت " الحياة " البدائية ؟ وهى (لا يرجى لها منافسة الصخور والجمادات فى الاستمرار والبقاء) (ولو أن مجرد البقاء - لا الغائية - كان المطلب الوحيد فإن نوعا من الحياة البدائية يبدو كافيا لهذا الغرض)<sup>(١)</sup>

يلاحظ الباحثون المحدثون انهيار المقاييس المادية فى إنكار وجود الله ويتبين ذلك مما يلي:

أولا: منع إنكار وجود الله على أساس الزعم بكفاية الأسباب الطبيعية فى تفسير وجود الأشياء وانتظامها والغنية بها عن الإرادة الإلهية: حيث خلط هؤلاء بين التصور الصحيح للإرادة الإلهية وبين التصور الوثنى لهذه الإرادة فى كل من الأديان الشرقية القديمة واليهودية والمسيحية

وحيث خلطوا بين السبب (السبب) والمسبب (المعلول) من ناحية وبين علاقة الترابط بين السابق واللاحق من جهة أخرى

---

(١) أنظر كتاب (العلم فى مواجهة المادية: قراءة فى كتاب حدود العلم لسوليفان) للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل، نشر مؤسسة الرسالة ص ١٣ ط ثانية عام ١٩٨٦ م

وحيث غفلوا عن أن مبدأ العلم القائم على البحث عن الأسباب يلزم بالبحث عن سبب للعالم هو الله تعالى

وحيث غفلوا عن أن العلم الحديث لم يعد ينظر إلى السببية الطبيعية على أنها حتمية نهائية

وحيث غفلوا عن أن مبدأ التطور والتقدم الذى يؤمن به الفكر المادى الحديث ينبئ بمبدأ الغرضية ومن ثم يلزم بالاستدلال على حاكم لهذا التطور والتقدم يتصف بالعلم والإرادة (الله).

ثانيا: منع إنكار وجود الله على أساس عجز العلم والعقل عن تصور الذات الإلهية.. لأن العلم والعقل معا يعجزان عن تصور مكونات المادة حسبها كشف عنها العلم الحديث فما بالك بالذات الإلهية

ثالثا: منع إنكار وجود الله على أساس المغالطة القائلة: بأن الاستدلال على وجوده قائم على نزعة التشبيه ... إذ الحقيقة ليست كذلك، وإنما الاستدلال عليه يقوم رغم هذه النزعة التشبيهية .

رابعا: منع إنكار وجود الله على أساس القول بكفاية المادة القديمة، لأن المادة القديمة لا تفسر نفسها، وليس فيها الكفاية لتفسير مظاهر الحركة وظهور الحياة، والعقل، والعلم، والإرادة، والتقدم. ولأن المادة فى هذا التصور هى فى قدمها ناقصة، والنقص صورة من صور العدم، وقبول العدم يتناقض مع افتراض وجوب الوجود الذى يعنى القدم .

خامسا: منع إنكار وجود الله على أساس المذهب المادى، لأن المادية تؤدى حتما إلى اللاأدرية، فأنى لها أن تنكر .

سادسا: منع إنكار وجود الله على أساس كفاية المادة والحركة القديمتين، لأن الحركة يستحيل عقلا أن تكون قديمة

سابعا: منع إنكار وجود الله على أساس كفاية جدلية المادة لأن هذه الجدلية لا

تتحقق في المستوى المادى الأوّل - وفقا لما كشفت عنه البحوث الفيزيائية الحديثة -  
فما بالك بالمستويات الأرقى .

ثامنا: منع إنكار وجود الله على أساس إنكار ما ليس بمحسوس لأن هذا يترتب  
عليه إنكار المادة نفسها

تاسعا: منع إنكار وجود الله على أساس التمرد على العبادة، لأن المادية نفسها  
تؤول إلى عبادة المادة، فيصبح المجال مقارنة بين معبود ومعبود .

وفي مواجهة الاتجاه المادى الذى ينزع بطبيعته إلى تأليه المادة يمكن الرد عليه  
بقوله تعالى (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به  
عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) بشرحها على الوجه  
التالى: إن إنكار إلهكم "المادة" لا يؤدى إلى نتيجة عملية تضر بالإنسان سواء في  
الدنيا أو في الآخرة - إذ أن الآخرة مهما يكن أمر منكرها تظل فرضا قابلا للتحقيق  
- غاية ما في الأمر أن منكر إلهكم "المادة" لا يخضع لقانونها، فيأتى الوهم بأنه  
سوف يتضرر من ذلك، لكن هذا الوهم لا يلبث أن يزول، لأنه لو كان للمادة قانون  
يثبته العلم التجريبي فإن المؤمن بالله سوف يعترف به باعتباره سنة الله .. فمن  
الناحية العملية: منكر إلهكم لا يخسر شيئا وإلهكم لا يُخشى لأنه لا يتصف بعلم ولا  
إرادة ولا قدرة .. إلخ والأمر على العكس من ذلك بالنسبة لمن ينكر الله تعالى<sup>(١)</sup>.

فضلا عن ذلك فإن العلم الحديث يقدم لنا ما يدل على حدوث العالم في سياق  
غرضي ومن ثم الاستدلال على وجود المحدث المتصف بالعلم والإرادة، وسنين  
ذلك فيما يلي من ثلاث جهات:

أولا من جهة السياق الغرضي .

وثانيا من جهة إبطال دعوى المصادفة

وثالثا: من جهة حدوث العالم واحتياجه إلى الله وفقا لنظريات العلم الحديث

---

(١) أنظر كتابنا "الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية" طبع ونشر جامعة الإمارات

## أولاً: من جهة السياق الفرضي

إن الأمر في مجال العلم التجريبي يسمح بالإفادة به في مجال العناية والقصد والغائية كدليل على وجود الله .

إن الأمثلة على تغلغل عنصر القصد والغائية والغرضية في الطبيعة لا حصر لها، وهي مطروحة في علم الطبيعة والحياة والفلك وغيره من العلوم التجريبية الحديثة، والمصادر زاخرة<sup>(١)</sup> بما لا يحصى من الأمثلة الدالة على وجود الله من حيث إنها تدل على الصانع وما في صنعه من إتقان وقصد وعناية بالإنسان، ومن ثم تدل على أن وراء هذه الظواهر العلمية صانعا مريدا عالما قادرا لا تنطبق أوصافه هذه على الطبيعة العاطلة من هذه الصفات، فهي من ثم تدل على وجود الله .

وهذه العناية لا تقتصر على عالم الإنسان والحيوان فيما تكفي الإشارة إليه هنا في الأجهزة الحيوية في الإنسان والحيوان، وتصميمها لأداء غرض مقصود شديد الترابط والإتقان والتعقيد: في الجهاز الدوري، والتنفسي، والهضمي، والعصبي، والعظمي، والغددى، والمناعى، والخلوى، والجينى، إلخ مما يعلمه الأطباء وعلماء البيولوجيا والفسولوجيا بوجه عام

وإنما تمتد إلى عالم النبات والجماد مما يكشف عنه العلم التجريبي الحديث أيضا ونكتفى هنا بسوق مثال على شمول هذه العناية لعالم النبات، هنا حيث يطرح الباحثون العلميون سؤالاً هاماً:

كيف استطاعت أنواع من الأشجار مقاومة عوامل الفناء الداخلى، ومواجهة

---

(١) المراجع كثيرة، وعلى سبيل المثال اقرأ سلسلة الكتب التى أصدرها الأستاذ عبد الرازق نوفل عن العلم والإيمان، وكتاب الدكتور خالص جليلى بعنوان "الطب في محراب الإيمان" من جزئين، نشر مؤسسة الرسالة ببيروت، وكتاب العودة إلى الإيمان، للدكتور هنرى لنك، ترجمة ثروت عكاشة، نشر دار المعارف بمصر ط ١٩٥٩، والعلم يدعو إلى الإيمان لكريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكى مصر ١٩٦٢ . والله يتجلى في عصر العلم لجون كلوفر ترجمة ...

الحرائق والحشرات، وجميع الكائنات التي حاولت القضاء عليها لتعيش عمرا يتجاوز الألف سنة، رغم فشل الإنسان بكل منجزاته الطبية والتكنولوجية عن الوصول إلى عشر عمر هذه الأشجار؟

هذا السؤال أجابت عليه مؤخرا دراسات بريطانية وأمريكية واكتشفت مجموعة من الحقائق تتحدى الخيال .

تقول الدراسة البريطانية: إن الأشجار امتلكت أسلحة فريدة للحفاظ على حياتها .

١- فهي تغير التركيب الكيميائي لأوراقها حتى تتخلص من الآفات غير المرغوب فيها، وتستخدم في الدفاع عن نفسها وسائل بلغت درجة مذهلة في الدقة والتعقيد، من بينها مفاجأة الأعداء بتركيب كيميائي جديد يوما بعد يوم، الأمر الذى يضعف من هجمات المعادين . والتغير الكيميائي ينطوى على ظهور مواد متعددة .. من بينها مادة اسمها "التامين" تعوق عملية الهضم لدى الآفات والحشرات والقوارض المهاجمة .. أى أنها تصيبها بنوع رهيب من عسر الهضم، يرغمها على الفرار من ذلك الطعام المخيف.

والغريب أن هذه المادة تصل إلى أعلى تركيز لها في أوراق الأشجار التى نمت مرة أخرى .. ويبدو أن هذا السلاح الكيميائي هو السبب الرئيسى لعدم انتشار الحشرات بشكل وبائي ضد الأشجار "المعمرة" وانتصار هذه الأشجار على أعدائها .

٢- والدراسة الأمريكية اكتشفت أن هذه الأشجار المعمرة امتلكت بعد عمر طويل .. أروع جهاز للمناعة ضد حرائق الغابات هو حماية هذه الأشجار بجلد سميك يستطيع مقاومة معظم الحرائق باستثناء ما يصل منها إلى حد الاستمرار فترة طويلة، وفي حالة الإحساس باحتمال انتصار هذه الحرائق فإن جهاز المناعة يلجأ للسلاح الثانى وهو مضاعفة إنتاج بذور هذه الأشجار . بطريقة فذة غريبة .. بحيث

تضمن قبل موتها أن هذا الإنتاج المفاجئ الغزير للبذور سيضمن إعادة الحياة لأبنائها بعد إخماد الحريق وكان استمرارها بفضل إنتاجها الوفير من البذور والثقة في إفلات بعضها من الدمار ليعيد تجديد نوعها بصورة أقوى وأصلب .

٣- وتمضى الدراسة فتقول: إن مقاومة هذه الأشجار للحشرات والآفات والحرائق لا تقل إبداعاً عن مقاومتها للإنسان نفسه الذى يسعى لاقتلاعها لاستخدام أخشابها، والسلاح الذى اكتشفته الدراسة الأمريكية يتمثل فى أن هذه الأشجار تخزن كميات كبيرة من المياه .. وعند الإحساس بخطر الزحف البشرى لاقتلاعها تتحول بقايا الأشجار التى تم اقتلاعها إلى مستنقعات طينية صعبة .. يستحيل الغوص فيها للوصول إلى الأشجار التى لا زالت ترفع رءوسها عالية محتمية بمساحات كبيرة من المستنقعات تلف حولها وتجعل منها قلعة صعبة المتال .

٤- وبالنسبة لمصدر خطر العواصف العنيفة التى تمثل أحد أقوى الأعداء لهذه الأشجار فإنها عندما يصل عنف العواصف إلى حد اقتلاع الرأس الحوى الذى يمد الشجرة بأشعة الشمس فإن أحد فروعها تتناهب حالة غريبة .. إذ يبدأ فى التحرك من مكانه القديم ويصعد بالتدريج حتى يصل إلى القمة التى أطاحت بها العاصفة ليقوم بوظيفته الحيوية ويسجل بذلك أحد انتصارات هذه الأشجار على أصعب الظروف<sup>(١)</sup> .

أو بالأحرى تسجل بذلك أحد مظاهر العناية الإلهية بمخلوقاته، وفي الوقت نفسه أحد ظواهر التوازن بين القوى التى بثها الله تعالى فى الكون كمظهر أعم من مظاهر هذه العناية .

ويتحدث السير أرثر طومسون من كبار فلاسفة العصر الحديث وعلمائه عما

---

(١) دراسة نشرت بجريدة الأخبار المصرية بتاريخ ١٩٨٣/٢/٢٨

يسميه مظاهر الروعة في العالم - كما يكشف عنها العلم الحديث - في صورة لا تتفق مع القول بالمصادفة: هذه الروعة التي تبدو من خلال ما في العالم من وفرة القوة، والضخامة، والتعقد والتشابك، والدقة، والجمال، والحياة، والتطور.<sup>(١)</sup>

ولا ننسى في هذا المقام أن نستشهد بكلمة للسير جون أرثر طومسون (١٨٦١-١٩٣٣) العالم الشهير في علم الحيوان وأستاذ التاريخ الطبيعي بجامعة أبردين إذ يقرر (وجود السلوك الغرضي في الطبيعة طوال مجرى التطور العضوي، وأن الغرضية ليست كامنة في التطور فحسب، بل يوجد كائن غرضي أعلى يسمو على العالم، وإليه يرجع أصل كل سلوك غرضي، وأن الكون بأسره تعبير عن خالقه ... تدرك مقاصده في كل ما يحدث، سواء في العالم غير العضوي أو العضوي أو في عالم الناس)<sup>(٢)</sup>

ونحن إنما نستشهد هنا بكلمة هذا العالم الفيلسوف لما فيها من إقرار من متخصص بها في الطبيعة من سلوك غرضي، أو بعبارة أخرى لما وراءها من قصد وغاية تدل على واضع لهذا القصد وهذه الغاية، يتصف بالقدرة والعلم والإرادة، وهو الله سبحانه وتعالى، وليس المادة البسيطة الواقعة في مبدأ التطور خالية من الحياة والوعى والإرادة، إنه لا بد حينئذ من التسليم بوجود الله: ذاتا وصفات: صفات كمال وجلال وجمال .

### ثانيا: بطلان دعوى المصادفة في ظهور العالم ونظامه:

القول بالمصادفة في ظهور العالم ونظامه يسقط تلقائيا عند إثبات حدوث العالم، وما يترتب على ذلك من احتياجه لمحدث بحكم البدهاة والمنطق، كما أنه يسقط

---

(١) أنظر كتاب: أسرار العلم وخفاياه للدكتور هارلو شابلي وآخرين ترجمة الدكتور جمال الغندور، ومحمد صاب رسلیم ط ١٩٧١

(٢) أنظر "الفلسفة الإنجليزية في مائة عام، لروولف متس، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، ومراجعة الدكتور زكى نجيب محمود ج ١ ص ٤١٢ ط ١٩٦٧ نشرة المجلس الأعلى للفنون والآداب بالقاهرة



تلقائيا عند إثبات غرضية السلوك الطبيعي في العالم، ومع ذلك فإن هذا القول ساقط بحسب مقاييس العلم التجريبي الحديث على النحو التالي:

أولا: القول بالمصادفة نوع من التجهيل يلجأ إليه الإنسان عند جهله بالأسباب وكسله عن البحث عنها، وإذن فالقول بالمصادفة يتناقض بطبيعته مع وظيفة العلم، لأنه إنما يقوم منهجيا على البحث عن الأسباب لا التجهيل بها.<sup>(١)</sup>

والإجابة على السؤال التالي تين كيف أن درجة الاحتمال في قانون المصادفة ليست إلا تعبيرا مهذبا عن الجهل !: إذا ألقى أحدهم قطعة نقود فهل ستظهر الصورة أو الكتابة ؟ هذا أمر لا يعلم أحد عنه شيئا وليس لدينا من الأسباب ما يجعلنا نقول بإحدى التيجتين دون الأخرى، لذلك ننظر إلى الاحتمالين على أنهما متساويان في درجة الاحتمال، ونقول بأن لكل من الوجهين احتمالا مقداره نصف ! وهكذا فالجهل بالأسباب هو السبب في افتراض تساوى الاحتمالات أو ما يعرف بمبدأ السوية، فالقول بأن درجة الاحتمال نصف لا يعنى أى شيء، وإنما يعبر فقط

---

(١) يقول الدكتور هـ إيزنك في كتابه " الحقيقة والوهم في علم النفس " (عن العالم سواء كان فيزيائيا أو بيولوجيا أو سيكولوجيا يجب أن يتطلق في دراسته من افتراض أن ما يدرسه محتوم وخاضع للقانون العلمي، وأن افتراضاته تنهزم بقدر ما يفشل في إقامة هذه القوانين) ص ٣٨٤ ترجمة قدرى حنفى و رؤف نظمي ط ١٩٦٩ م

ويقول الأستاذ إسماعيل مظهر: (إذا سألتهم - أى الماديين - كيف وجد السديم أصلا - هو المادة الأولية التى نشأ منها الفلك في زعمهم - وأية قوة حركته ؟ وما الذى أحكم تلك التغيرات بحيث انتهت إلى ذلك النظام المحكم ؟ لم يجدوا مخرجا إلا بالركون إلى القول بالمصادفة) أي: لم يجدوا مخرجا مقبولا: أنظر كتابه ملقى السبيل ص ١٦٦ نشر المطبعة المصرية بمصر عام ١٩٢٦

ويقول الدكتور جون كيمنى في كتابه الفيلسوف والعلم (إن القوانين الاحتمالية تدخل إلى العلم بسبب إخفاق جميع الرسائل الأخرى، وعندما نضطر إلى الاعتراف بجهلنا الكامل) أنظر كتابه المذكور ص ١١٨ ترجمة د: أمين الشريف، نشر مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ببيروت عام ١٩٦٥ م

ويقول برتراند رسل الفيلسوف الإنجليزي المعروف في أخريات ما كتب (لقد انتهت إلى نتيجة: هي أن الجوانب الرياضية من الاحتمال ذات شأن في الاستدلال العلمى أقل مما نعتقد) أنظر كتابه (فلسفتى كيف تطورت) ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ترجمة عبد الرشيد صادق نشر مكتبة الأنجلو بمصر عام

عن أن معرفتنا عن وقوع هذا الحادث لا تزيد عن معرفتنا بوقوع الحادث المضاد، وبعبارة أخرى: إنما يعبر عن أن جهلنا بوقوع هذا الحادث تساوى جهلنا بوقوع الحادث الآخر .

ثانيا: إذا كان بعض الماديين يزعمون أنهم يستندون إلى ما يسمى قانون المصادفة وهو أن " حظ المصادفة يزداد أو ينقص بنسبة عكسية مع عدد الاحتمالات (فإنهم يتناسون أن هذا يصدق نظريا ويكذب عمليا .

ومعنى هذا أن هذا القانون على سبيل المثال يقرر بالنسبة للاعب النرد أن احتمالات ظهور الرقم (١) المدون على أحد أوجه النرد الستة هو بنسبة واحد إلى ستة، أى كلما رمينا النرد ست مرات فإن الوجه المدون عليه رقم واحد يظهر مرة . ومن الواضح أن هذا قد يكون صحيحا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فكلنا نعرف أننا إذا رمينا النرد ست مرات فإن الوجه المدون عليه رقم (١) قد يظهر مرتين أو ثلاثا أو أكثر وقد لا يظهر لأكثر من عشرة مرات .  
وإذن يصبح لا قيمة لهذا القانون .

وكل مقامر يعرف أن هذه القواعد تتخلى عنه وهو على مائدة القمار، وأنها ليست إلا مغالطات، يغالط بها نفسه من يريد الاستمرار في مقامرات لا جدوى منها .

ثالثا: وعلى فرض صحة هذا القانون - جدلا - فهو بقوله بتناقض حظ المصادفة كلما تزايدت الاحتمالات .. لا بد أن ينتهى إلى تقرير وصول هذا الحظ إلى نقطة العدم كلما كانت الاحتمالات " لانهاية "

والماديون القائلون بقدوم العالم ملزمون بالقول بلا نهائية الاحتمالات القائمة فيه، وإذن فهم بحسب قانونهم ملزمون بالقول بأن حظ المصادفة في هذا المجال معدوم .

رابعا: إنه بتطبيق هذا القانون على احتمالات ظهور أصل الحياة على الأرض - من وجهة نظر العلم التجريبي الحديث - فإن حظ المصادفة هنا يدخل في حكم المستحيل وفقا للدراسات العلمية التى أجريت بهذا الصدد التى انتهت إلى أنه لكى

يتكون جزئى بروتينى واحد - وهو القالب الأساسى للمادة الحية - وفقا لقانون المصادفة فإنه يحتاج إلى حجم للكون أكبر مما يتسع له الكون الحالى بملايين المرات، وإلى زمن أكبر مما يقدره العلم الحديث لعمر الأرض<sup>(١)</sup>، ومعنى هذا أنه بتطبيق قانون المصادفة على ظهور الحياة على الأرض فإنه من المفترض ألا تكون الحياة فى صورتها الأشد بساطة (الجزئى البروتينى) قد ظهرت بعد على هذا الكوكب، لكن لقد ظهرت الحياة فعلا، ليس فى صورتها البروتينية الساذجة ولكن فى تركيباتها الأكثر تعقيدا ابتداء من الجزئى البروتينى إلى البروتوبلازم، إلى النبات، إلى الحيوان، إلى الإنسان، ومعنى هذا أن الحياة ظهرت لا بفعل قانون المصادفة ولكن بالرغم منه، مما يبطل أى دور له فى هذا الصدد<sup>(٢)</sup>.

يقول الدكتور ليكون دى نوى<sup>(٣)</sup>: (يجب ألا ننسى أنه مهما كانت فرصة المصادفة فإننا لا يمكننا إثبات أن هذه الفرصة سوف تتحقق حتى فى نهاية بليون بليون قرن، فقد تتحقق ذرة واحدة منذ البداية ثم لا تعود ثانية على الإطلاق، وذرة واحدة لا تفيد بل بلايين الذرات ... وتزداد استحالة حدوث ذلك مع كل ذرة جديدة، وتزداد الاستحالة مع كل مجموعة متناسقة) ثم يقول: (إننا نصل إلى نتيجة هامة، هى أنه من المستحيل تماما تفسير جميع الحوادث التى تتعلق بالحياة وتطورها وتقدمها .. إلا بكونها معجزة أو بتدخل قوة تفوق العلم)

يقول سقراط فى حوار ه منكر القول بالصدفة فى تفسير وجود العالم (أرأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منها ما هو خفى المنفعة، ومنها ماله منفعة ظاهرة وحكمة فى الوجود باهرة فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدفة أو من نتائج الحكمة؟)

(١) التصور الحالى لحجم الكون هو حسب نظرية أينشتين: نصف قطر طوله ١٠ أس ٢٣ من الأميال، وعمره الزمنى حسب أقصى التقديرات وأحدثها ١٨ مليارا من السنين !!

(٢) انظر تفصيل هذه الدراسة فى كتاب " الله يتجلى فى عصر العلم " لجون كلوفر

(٣) هو من أعلام العصر، شغل رئيس قسم الفيزياء فى معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة بجامعة السوربون: أنظر كتابه " مصير البشرية " ص ٣٣ ترجمة أحمد عزت طه، وعصام أحمد طه، نشر دار البقعة العربية بدمشق طبعة ١٩٦٣

إن العلم الحديث الذى يقوم فى أساسه وجوهره على البحث عن الأسباب لا بد له من أن ينكر القول بالصدفة وإلا وقع فى تناقض منهجى شديد .

خامسا: أن القول بالمصادفة ليس إلا اختيارا محضا - بحسب الهوى - بين اختيارين:

القول بالإرادة الإلهية، والقول بالمصادفة، ومن الواضح أن القول الأول هو الذى يناصره كل ذى عقل صحيح أو قلب سليم، ولا دافع يدفع إلى القول الثانى من العقل أو القلب إلا أن يكون كراهية محضة للتوجه إلى الله تعالى فى شئون حياتهم، ومن لم يتوجه إلى الله فمن الطبيعى أن يكون توجهه إلى طريق لا ينال فيه شيئا من حماية الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ٦٧ سورة التوبة، أو بعبارة أخرى تركوا الله فتركهم: إنه إذن الهلاك بالنار . ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ٢٦ ص

### ثالثا : احتياج العالم إلى الله طبقا لقوانين الفيزياء الحديثة

١ - مبدأ عدم التحدد والإفادة به فى الاستدلال على وجود الله

من المعروف الآن فى علم الفيزياء الحديثة، أن قوانين الميكانيكا التى تسرى على حركات الأجسام الكبيرة، لا تنطبق على الذرات المفردة، فضلا عن الإليكترونات، والبروتونات، والنيوترونات، وغيرها من مكونات الذرة .

أما حركة هذه الصغيرات فلها أحوال غير محددة، ولا تتدخل حالة منها فى أخرى، وقد تقفز الصغيرة من حالة من هذه الحالات إلى أخرى دون وجود قوانين، تحدد أى هذه القفزات هو ما سيحدث فى أى ظرف من الظروف .

وهذا هو ما يسمى فى الفيزياء الحديثة بمبدأ عدم التحدد لهايزنبرج<sup>(١)</sup>.

وقد امتحن هذا المبدأ من كبار العلماء، مثل أينشتين، الذى حاول اكتشاف

---

(١) أعلن فرينر هايزنبرج هذا المبدأ عام ١٩٢٧، انظر (برائق وأنايق) لبرنارد جافى، ترجمة الدكتور أحمد زكى، نشر مؤسسة فرانكلين ومطبعة النهضة المصرية ص ٤٠٠، و(قصة الفيزياء) لجورج جاموف ترجمة جمال الدين الفندى، نشر دار المعارف عام ١٩٦٤ ص ٣٤٨، وغيرهما من المصادر .

المتناقضات فيه ولكن مجهوداته أدت إلى تقويته بدلاً من دحضه . وعندما عجز أينشتين عن ذلك سلم بأن فكرة (عدم التحدد) خالية من المتناقضات إلا أنه حتى آخر أيام حياته ظل يأمل أن تعود الفيزياء مرة أخرى إلى وجهة نظر إمكان التحديد في يوم من الأيام <sup>(١)</sup> . ولكن هذا لم يحدث وظل مبدأ عدم التحدد يمثل ركناً في الفيزياء الحديثة .

يقول برترند رسل، معلقاً على مبدأ هايزنبرج:

(إنه لا يعرف حتى الآن على وجه يقارب التأكيد: هل هناك قوانين تتحكم في سلوك الذرات المفردة من كل وجوهه، أم أن سلوك هذه الذرات سلوك عشوائي في ناحية من نواحيه ؟ وهناك من يظن أن الذرة لا تخضع لأي قوانين على الإطلاق في هذا الصدد، وإنما لها ما يمكن أن يسمى "إرادة حرة" <sup>(٢)</sup> .

ومن جهتنا فنحن نجد في هذا المبدأ - مثل كثيرين من مفكرى العصر - ما يدل على وجود الله، ولذا فنحن نناقش ما يدور حول هذا المبدأ في أربع نقاط:

١ - الأولى اعتقاد بعضهم - كبرتراند رسل - أنه بالرغم من مبدأ عدم التحدد فالعلم الطبيعي سوف يكشف في المستقبل عن القانون الذى يحكم حركة الصغيرات والذى يعجز عن كشفه الآن بمقاييسه الحالية القائمة على الزمان والمكان أو على "الزمان/ المكان"

ويرد لويس دى بروى على الذين يعتقدون بوجود حتمية يحتمل الكشف عنها فيما بعد قائلاً: (لا يبدو أن الأمر على هذا النحو .. يبدو هذا الأمر بعيد الاحتمال إذا تأملنا ملياً الطريقة التى يتدخل بها كم الفعل <sup>(٣)</sup> ، إذ يدخل علاقة جديدة بين الوجهين الديناميكي والهندسى للكون، تحرم كل معرفة مضبوطة للوجهين وبهذا

(١) قصة الفيزياء ص ٣٥٠، ٣٥١ .

(٢) مجموعة نظمى لوقا (عالمنا المجنون) ص ٥٤ : ٥١ .

(٣) انظر بياننا عن "كم الفعل" في كتابنا (في مواجهة الإلحاد المعاصر أو عقائد العلم) نشر مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ط ١٩٨٠ ص ١٠٩ .

الشكل تجعل مستحيلاً وضع قوانين حاسمة للتتابع بين الظواهر التي يمكن مشاهدتها ..<sup>(١)</sup>.

ويقول لويس دي بروي جازماً باللاحتمية في الطبيعة: (نتيجة لفيزياء الكم من المستحيل أن نسلم بأنه توجد وراء للاحتمية قوانين فيزياء الكم الحالية حتمية متخفية يمكن أن تظهر لنا كما لو كنا قادرين على فهم تطور متغيرات خفية معينة)<sup>(٢)</sup>.

وعلى كل فنحن نرى أنه لا مسوغ على الإطلاق للقول بأن تلك القوانين التي يحتمل أن يكشف عنها الإنسان في المستقبل توصف بأنها طبيعية، وقد تجردت تماماً من الزمان والمكان، بل تجردت من الزمان - المكان .

إنه ماذا يبقى بعد هذا التجريد لتوصف بالطبيعية، ورسل هو الذي يقرر أن ثنائية العقل والمادة أصبحت أمام الحقائق العلمية الحديثة في خبر كان، وأنه لم يعد أيهما غير سلسلة أحداث ترتبط بقوانين، وأنا لا نعرف شيئاً عن هذه الأحداث إلا في كيانها الزماني - المكاني<sup>(٣)</sup>

ماذا يصح من وصف هذه القوانين بأنها طبيعية في عالم يقول عنه رسل: (إن العقل والروح والمادة ليست سوى رموز لأشياء غير معروفة)<sup>(٤)</sup>.

وإذا نزع عنها وصف " الطبيعية " فماذا تكون ؟ ماذا عند رسل خارج هذه الدائرة ؟ لا شيء

في حين أن ضرورة السببية - كمبدأ عقلي وعلمي معا - تلجئنا إلى شيء خارج . تلجئنا إلى عالم الأمر . وهو لا شيء إلا أن يكون أمر الله .

(١) الفيزياء والمكروفيزياء ص ١٤٨، ١٤٩ .

(٢) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٣٠ .

(٣) العقل والمادة ص ٢٠٣ - ص ٢٠٩ .

(٤) مجموعة عالمنا المجنون ص ٩٧ .

وهذا ما ينبغي أن نسميه دليل القانون "غير الطبيعي" على وجود الأمر الإلهي، أى على وجود الله .

ب- إنه وإن كان مبدأ عدم التحدد يتعلق كما يقول رسل وترنر بالقياس لا بالسببية، فإن هذا في الحقيقة ينسحب على جميع القوانين الطبيعية، يعنى أنها جميعاً تتعلق بالقياس لا بالسببية<sup>(١)</sup>.

ومن هنا يبقى تطلع العقل الدائم إلى اكتشاف السببية، وهنا لا غنى عن الدين أو الميتافيزيقا، وتصبح الأسباب الطبيعية قياسات غير محددة مفتقرة إلى تفسيرها بالسبب الحقيقي، وهو أى السبب لا محالة غير هذه القوانين .

ج - إنه وإن كان صحيحاً ما يقوله رسل: (لا يوجد في مبدأ التحدد ما يثبت أن أى حدث طبيعي غير معلول) لكنه على أى حال يضعنا - أى مبدأ عدم التحدد - أمام حالات لا يمكن أن نثبت فيها ما إذا كان الحدث الطبيعي معلولاً لعلّة طبيعية؟ وهذا كاف لكى ينهدم المنطق الإلحادى القائم على أن العلم قدم التعليل الكافى للظواهر الطبيعية وأزاح من الطريق الحاجة إلى التعليل بالإرادة الإلهية . هنا يعترف العلم بأنه لا يقدم السبب الطبيعي .

بل هنا يعترف العلم بأنه عاجز عن تقديم القياس والسبب معاً في صلب حقيقة الظاهرة الطبيعية إذ يكون القياس العلمى بعد ذلك مجرد قوانين إحصائية توسطة للمجموع الكبير لا يدري مصدر انضباطها بعد أن زال هذا الانضباط من الوحدات الصغيرة التى يتألف منها هذا المجموع .

إنه لا يصح القول بأن مصدر الانضباط هو حساب الاحتمالات الذى بينا بطلانه من الناحية العملية والنظرية معاً فيما تقدم عن بطلان القول بالمصادفة فمن أين جاء الانضباط إذن وقد تحقق بالفعل في حالات معروفة في الطبيعة في

---

(١) أعنى أن القوانين الطبيعية مهمتها الوصف والقياس، لا تفسير السبب ولا بيانه

انضباط المجموع الإحصائي للصغيرات، وانضباط نسبة الوفيات في بيئة معينة، وانضباط نسبة الذكور إلى الإناث في المواليد .. الخ .

إن الأمر يرجع إذن إلى غير قانون الاحتمالات النظرى .

وهنا أيضا تسقط دعوى العلم في الاستغناء بالأسباب - مهما يكن تفسيره لهذه الأسباب - عن الإرادة ويعود للإرادة حقها في تفسير الظواهر .

**بل هنا ينبغى أن نستنبط ما نسبيته:**

**دليل الانضباط الإحصائي الواقعي للصغيرات على وجود الله:**

ومحتوى هذا الدليل هو أن الصغيرات التى تتكون منها المادة لا تحتوى على قوانين تحكم سيرها، ومع ذلك فإنه عندما تكثر هذه الصغيرات وتكون المجموع الكبير (الجسم) يدخل هذا المجموع تحت قوانين الميكانيكا المعروفة، وهذه القوانين التى تتحكم في سلوك الأجسام مجرد قوانين إحصائية تعطى النتيجة المتوسطة لعدد كبير من الحركات دون حتمية تطبيقية ترجع إليها ودون حتمية ترجع إلى الأصل المادى، فهى إذن - أى هذه الحتمية أو هذا الانضباط الواقعي - يأتى من خارج الوضع النظرى لهذه القوانين، ومن خارج الأصل المادى للمادة، فهى إذن راجعة إلى إرادة الله سبحانه وتعالى .

د - إن برتراندرسل يهاجم رجال الدين في محاولتهم الاستفادة بمبدأ عدم التحدد: من أجل إثبات وجود الإرادة الإلهية وراء الظواهر الطبيعية . وهو يبنى هذا الهجوم على مغالطة: فيدعى أنهم يحاولون إسقاط مبدأ السببية<sup>(١)</sup> ثم يقول: (وإن مبدأ السببية قد يكون صحيحا كما أنه من الممكن أن يكون غير صحيح، بيد أن الإنسان الذى يبتهج بعدم صحته لا يدرك تماماً معنى عدم صحة هذا المبدأ، إنه في العادة يستبقى التسليم بكل ما يرغب فيه من قوانين السببية، من مثل أن الطعام

---

(١) والحقيقة أنهم لا يفعلون ذلك ،، وإنما يتشبثون باعتباره موضوعا بجعل من الله، مضمونا بضمان الله



يغذى، والبنك سيدفع له رصيда، في حين يرفض من قوانين السبب مالا يلائمة،  
وأى سداجة أكثر سداجة من هذا الموقف الطفولى<sup>(١)</sup>

وهكذا يسلط رسل سخريته على رجال الدين، وهى مردودة عليه لأننا نعرف  
أنه يتجاهل أن رجال الدين إذ يتتهجون بمبدأ عدم التحدد لا يرون فيه إسقاطاً  
للسببية مطلقاً، وإنما يرون فيه دلالة على أن السببية كامنة وراء الظاهرة الطبيعية، لا  
فيها، ويرجعون بها إلى أمر خارج عنها، هى الإرادة الإلهية .

إن رجال الدين أشد تمسكا بمبدأ السببية على النحو الذى يقررونه - وكما نجده  
- عند الإمام الغزالى - لأنهم يرون فيه دليلا من أدلتهم على وجود الله فهم كما رأينا  
لا يسقطون مبدأ السببية مطلقا، وإنما يثبتونه راجعين به إلى ما خلف الظواهر، إلى  
الإرادة الإلهية ومن ثم يستشفون هذه الإرادة فى كلتا الحالين، حالة التحدد، وحالة  
عدم التحدد، بل هم يرون فى الترواح بين الحالتين دليلا جديداً على "سببية" الإرادة  
الإلهية .

إنه لحق مشروع - منطقياً - للفكر الدينى أن يثبت مبدأ " الإرادة الإلهية " سواء  
ثبت مبدأ (عدم التحدد) أو ثبت مبدأ (الحتمية )، لأنه فى كلا الحالين يقوم الدين على  
أن السببية الحقيقية كامنة وراء الظواهر .

إن افتراض حتمية القانون لا يلغى الإرادة الإلهية كما لا يلغىها القول بعدم  
الحتمية .

## ٢- حدوث العالم وفناؤه:

١١٢ - الكون متناه حجماً:

هذا ما يقرره العلم الحديث: فلقد تمكن أينشتين من إيجاد نصف قطر الكون، "  
وبالتعبير الرياضى: وجد أينشتين أن نصف قطر الكون يتناسب عكسياً مع الجذر  
التربيعى للكثافة .

(١) مجموعة عالمنا المجنون ص ٥٧، ٥٨ .

وباستعمال أحسن التقديرات لمتوسط كثافة المادة في الكون يكون التقدير الحالى لنصف قطر الكون هو ٢ وأمامها ثلاثة وعشرون صفرا - من الأميال، وترتبا على ذلك يقول العلماء المحدثون: إنه إذا تمكن أحد الفلكيين يوما من بناء تلسكوب كبير بعيد المدى، فإننا نستطيع أن نتخيل ما يمكن أن يحدث عندما ينظر أحد من خلاله . (ربما يرى جسما لامعاً مضيئاً يشبه القمر، وينمو على سطحه شجرة منحنية غريبة المنظر . وقد تمضى ساعات طويلة من البحث والتدقيق قبل أن تشرق عليه الفكرة بأنه ينظر إلى صلته اللامعة، وقد أتم الضوء الصادر عنها دورته حول الكون وعاد ثانية)<sup>(١)</sup>. يقول سير آرثر أدنجتون: (وبطبيعة الحال فإن هذه الفكرة التى تتضمن فراغاً كروياً مقفلاً قد يصعب هضمها إلى حد كبير، ولكن من الحق أنها ليست أسوأ من تلك الفكرة الأقدم المتعلقة بالفضاء اللانهائى المفتوح الذى لا يمكن أن يتصوره أحد فليس ثمة من يستطيع أن يتصور اللانهاية)<sup>(٢)</sup>.

٢١٢: الكون متناه زمنياً: يستدل العلم الحديث على أن للكون بداية من عدد من النتائج التى توصل إليها أخيراً:

١١٢١٢ - فهو متناه فى المستقبل . وذلك يستدل عليه من قابلية المادة للفناء، كما تقرر الفيزياء الحديثة . يقول الدكتور جورج جاموف من مشاهير رجال الفيزياء النووية المعاصرين: (إن ميكانيكا النسبية تؤدى إلى احتمال وجود عالين مختلفين: أحدهما: موجب وهو الذى نعيش فيه .

والثانى: غريب سالب: وهو مالا سبيل له سوى تحدى واعتراض سبيل تصوراتنا وأحلامنا. وكتلة الأجسام فى هذا العالم السالب هى بدورها سالبة كذلك. ومعنى ذلك أنها عندما تدفع فى اتجاه معين تتحرك فى الاتجاه المضاد .

(١) النسبية فى تناول الجميع ١١٥، ١١٦، ١١٧ .

(٢) العلم أسرارته وخفاياه ج ١ ص ٩٦، ولا يطعن فى استدلالنا بهذه النتيجة التى توصل إليها أينشتين ماثبت بعد ذلك من أن الكون فى حالة اتساع مستمر، فهذا من حيث الاستدلال على نهاية الكون حجماً مجرد تعديل جزئى ولا يلغى أصل الفكرة بل يؤكد ما

وبطريقة التشابه أو المقارنة نستطيع أن نطلق على الكهارب التى لها كتل سالبة اسم الكهارب البليدة <sup>(١)</sup> . ثم يقول: (ونظرا لإمكان وجود البروتونات والنيوترونات والكهارب التى تتكون منها ذرات المادة العادية وظهورها جميعا فى الحالات المضادة، فإن ذلك يعنى إمكان وجود المادة المكونة من هذه الجسيمات .

ومن اللازم أن تكون جميع الصفات الكيماوية والطبيعية للمادة المضادة هى عينها صفات المادة العادية، والسبيل الوحيد الذى نستطيع به أن نقرر أن حجرين يتكونان من مادتين متضادتين فيما بينهما هو ضمهما معا فإذا لم يحدث شئ فهما من نفس النوع المادى، أما إذا حدثت بينهما عملية إفناء ذريعة فهما من مادتين متضادتين.

فهل مادة الكون بأسره من نفس النوع أم أن هناك أرجاء من نوع مادتنا وأخرى من المادة المضادة موزعة هكذا حسبما اتفق عبر الفضاء اللانهائى ؟

وإذا كانت جميع مادة الكون من نوع واحد، فلماذا يكون الأمر هكذا ؟

وإذا كان بعضها من المادة العادية .. وبعضها الآخر من المادة المضادة .. فكيف تم فصل هذه الأجزاء المميزة بعضها عن بعض .إننا لا نملك الإجابة عن أى من هذه الأسئلة <sup>(٢)</sup>

### ولكننا نحن نتصدى للإجابة:

إذ هنا ينبغي أن نستنبط دليلا على وجود الله يمكن أن نسميه:

---

(١) قصة الميثافيزيقا ص ٣٥٤، وقد جاء أخيرا فى الأنباء (أنه نجح فى منتصف هذا العام - ١٩٧٨ - فريق من علماء المنظمة الأوروبية للبحوث النووية " سيرن" فى تحقيق معجزة علمية أقرب إلى الخيال . وهى تخليق أشعة متصلة من جسيمات المادة المضادة وهى المادة ذات الوجود السالب التى إذا ما التقت بالمادة العادية فإنها تفتنيها . وينتج عن ذلك فراغ خال من المادة . . . وأعلنت المنظمة أن تخليق أشعة الأنثيرونات هو بداية عصر جديد فى ميدان التعرف على عالم المادة المضادة)أنظر مجلة أكتوبر

العدد ١١٤ فى ٣٠/١٢/١٩٧٨

(٢) قصة الفيزيقا ص ٣٦١ .

## دليل الإمساك: أو دليل إمساك المادة من الفناء

فحوى هذا الدليل: أنه مادام أن الفيزياء الحديثة تثبت أن المادة لها قابلية مستمرة للفناء وأن هذا الفناء يحدث عندما تلتقى بمادة أخرى تماثلها تماما في جميع الصفات، وأن شيئا ما يحدث آنذاك، لا يعرفه العلم إلا عند حدوثه، فيسمى بعضهم هذه المادة (مادة عادية) وبعضها الآخر (مادة مناقضة) ... فهذا يدل على أن عامل الحفظ وارد من خارج المادة، كما يدل على أن عامل الإفناء وارد من خارجها كذلك: وهو الله سبحانه وتعالى . وهو مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِيَوْمَ﴾ ٤١ فاطر، صدق الله العظيم .

٢١٢٢: وهو متناه من جهة الماضي:

ويقول جورج جاموف عن تولد المادة من لا شيء وذهابها إلى لا شيء وفنائها بالإشعاع:

(ذهب نيل بور .. إلى أن قانون بقاء الطاقة لا ينطبق في حالة تحللات بيتا ذات النشاط الإشعاعي، وأنه في حالة انبعاث جسيم بطيء من جسيمات بيتا تختفى كمية معينة من الطاقة ..

أما في حالة انبعاث جسيم سريع من جسيمات بيتا فيكون من الممكن تولد كمية إضافية من الطاقة من لا شيء . وتبعا لهذه النظرية فإن قانون بقاء الطاقة في العمليات النووية الأولى ينطبق على المتوسط فقط)<sup>(١)</sup>

وهذا الذى يقرره العلم الحديث من فناء المادة، يذهب - في تقديرى - إلى أبعد مما ذهب إليه شيخ الإسلام الشيخ مصطفى صبرى عندما استدل على فناء المادة بما أثبتته العلم الحديث من تحولها إلى ما ليس بمادة<sup>(٢)</sup>

٣١٢٢ - بل هناك دلالات علمية أقوى، على أن للعالم بداية تستتج مما توصلت

(١) قصة الفيزياء ص ٣٨١

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين، نشر عيسى الحلى ج ١ ص ٢٣٧، ٢٣٨ .

إليه الفيزياء الحديثة عن تمدد الكون إذا أضيف ذلك .. إلى ما تقرر عن تناهى الكون حجما: يقول السير آرثر أدنجتون عالم الفلك الإنجليزى الكبير: (من الاستنتاجات التى أخذناها عن النظرية النسبية، أنه يجب أن توجد قوة تعرف باسم "التنافر الكونى" تعمل على نشوء هذا النوع من التشتت الذى معه يتباعد كل جرم عن أى جرم آخر)<sup>(١)</sup>

ولم تكن قوة التنافر الكونى هذه مجرد استنتاج من النظرية النسبية، ولكنها من المسائل التى أسفرت عنها الملاحظة والرصد الفلكى فيما تم كشفه أخيرا من التباعد بين الأجرام يقول أدنجتون: (والشيء الملحوظ الذى تم اكتشافه فيما يتعلق بالمجرات هو أنها تجرى متباعدة عن مجرتنا، وأنها كلما ازداد بعدها عنا ازدادت سرعتها وتنطلق المجرات بسرعات عالية جدا. وإنما فى نفس الوقت الذى تتباعد فيه عنا إذ بها تتباعد بعضها عن بعض كذلك ... وهذا التمدد لا يتجه بعيدا عن مركز بالذات، ولكن بسبب تشتت عامًا ... ونحن نعتقد أنه جنبا إلى جنب مع تمدد اتساع الكون المادى يتمدد الفضاء نفسه، وتتلخص الفكرة فى أن المجرات التى تمثل الجزر تتناثر عبر فضاء كروى يتمدد)<sup>(٢)</sup>

يقول سير آرثر أدنجتون: فإن أضفنا ذلك كله إلى ما تقرر عن تناهى الكون حجما كان لابد أن نستنتج أن - الكون متناه أيضا زمنياً. إذ يعنى ذلك بالتالى أننا لا نستطيع أن نرجع القهقرى فى الزمن إلى ما لا نهاية)<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان هذا القول لا يرضى العلماء العاجزين عن تصور كون له بداية وأرادوا أن يجمعوا بين القول بكون متمدّد، والقول بأنه بدون بداية أو نهاية . فقد فعلوا ذلك عن طريق الإقرار بنظرية الخلق المستمر، ووجود المادة من العدم، والتخلّى عن

---

(١) العلم أسرارهِ وخفائهُ: جـ ١ ص ٩٧

(٢) أنظر العلم أسرارهِ وخفائهُ للدكتور هارلو شابلى جـ ١ ص ٩٥ - ٩٧ والنصوص المأخوذة من السير آرثر أدنجتون نشرها فى مقال له عام ١٩٣٧ .

(٣) العلم أسرارهِ وخفائهُ جـ ١ ص ٩٦ .

مبدأ بقاء الطاقة ... يقول الدكتور فايسكوف .. (يدافع فريق من العلماء عن وجهة نظر تسترعى الاهتمام تتجنب هذه الحالة الخارقة للعادة التى كان عليها الكون فى البداية، إذ يصحب تمدد الكون طبقاً لأراء هذا الفريق خلق مستمر للمادة فى الفضاء، والمفروض أن تخلق مادة جديدة كلما ترك التمدد قضاء كبيراً غير عادى بين المجرات، وتحتل مناطق الفضاء هذه، وتتجمع فى نجوم ومجرات جديدة، ويكون إنتاج المادة الجديدة طبقاً لهذه النظرية بالقدر الكافى لحفظ المسافة بين المجرات ثابتة تقريباً على الرغم من التمدد وعلى هذا الأساس يمكن تصور كون متمدد بدون بداية أو نهاية)

نعم لقد تراجع عن القول ببداية الكون ونهايته لكن تراجعته كان إلى خندق القول بالخلق .. - يقول: (إن عدد المجرات كان قليلاً فى ذلك الوقت، ومعظم المجرات التى نراها خلقت فى الفترة الزمنية بين البداية الظاهرية (!!)) للكون والوقت الحاضر).

ولست أدري لماذا يمكن تصور خلق أكثر المجرات الموجودة حالياً ولا يمكن تصور خلق باقىها ذلك القليل الذى يصير بغير مبرر على أنه كان موجوداً بغير بداية؟؟ - ثم يقرر المؤلف أيضاً أن عملية الخلق مستمرة فى المستقبل ..

ويقول: (سوف لا تنحف المجرات فى المستقبل، وذلك لأن هناك مجرات جديدة تخلق باستمرار . فالمجرات تولد بصفة مستمرة وتتحرك متباعدة إحداها عن الأخرى فى الفضاء اللانهائى ..).

وإذا كان هذا رأى فريق من العلماء فما رأى المؤلف ؟ يقول: (هذا ولا توجد حقائق كثيرة تدعم هذه الآراء، كما لا يوجد أى شئ يتناقض معها).

ويصل المؤلف إلى حد التكرار لمبدأ بقاء الطاقة، ويراه غير صالح للحكم على الزمن السحيق، كما يراه غير صالح لمعارضة ما ذهب إليه هذا الفريق من العلماء إذ يقول: (حقيقى أن فكرة خلق المادة من لا شئ فى الفضاء تتعارض مع آرائنا العادية فى بقاء المادة والطاقة إلا أن الكمية اللازمة لحفظ الكون من (النحافة) صغيرة جداً

درجة استحيل معها ملاحظتها فى المعمل، فكل ما يلزم هو خلق ذرة إيدروجين واحدة سنويا فى الميل المكعب من الفضاء، ومن المستحيل ملاحظة هذه الكمية اللانهائية فى الصغر بطريقة مباشرة<sup>(١)</sup>.

يا سبحان الله، تأمل قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصْدًا﴾ ٥١ الكهف .

وهنا يمكننا أن نقول بأن النظريات العلمية أخذت تكف - على الأقل - عن الاعتراض على مبدأ الخلق، وتقرر إمكانيته علميا، وأنها تكاد تنحصر الآن فى التردد بين نظريتين: يشير إليهما الدكتور هارلو شابلى مدير مرصد هارفارد (من عام ١٩٢١ - ١٩٥٢) هما: النظرية التى تنادى بأن الكون نشأ فى لحظة واحدة عارمة .

والنظرية التى تنادى بها مجموعة من العلماء الإنجليز وتذهب إلى أن الكون نتيجة عملية نشوء مستمر من غير ابتداء أو انتهاء معين؟ ويتساءل: أى هاتين النظريتين ترجحه الحقائق العلمية ؟ يقول:(إنه لما كان معدل التمدد يتباطأ فعلا، وإن كثافة المادة تزداد بازدياد المسافة، فإن هاتين الحقيقتين تشيران إلى أن الكون خلق دفعة واحدة وراح يتطور وتقفان ضد نظريات النشوء المستمر).

٤٢١٢ وتستنتج حقيقة أن للكون بداية أيضا من القانون الثانى للديناميكا الحرارية . فحوى هذا القانون أن الحرارة تسرى دائما من الأجسام الساخنة إلى الأجسام الباردة ولا يحدث العكس بتاتا .

وإنه ليس فى الإمكان تحويل الحرارة إلى طاقة ميكانيكية من غير أن يكون لدينا فائض أو مزيد من الحرارة الهابطة من مكان ساخن إلى مكان بارد<sup>(٢)</sup>.

وسترك السيد برتراندرسل نفسه يقدم لنا هذا القانون ودلالته . يقول رسل: إنه

---

(١) انظر ص ٢١٠ - ٢١١، من كتاب المعرفة والتساؤل للدكتور فكتور فايسوف (كتبه عام ١٩٦٣ ترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة) (النشرة العربية لدار النشر للجامعات المصرية بالقاهرة) .

(٢) قصة الفيزياء ص ١٥٦ : ١٥٨ .

إذا كان هناك فرق في درجة الحرارة بين جسمين متجاورين فإن الأشد حرارة منهما يبرد والأشد برودة تأخذ درجة حرارته في الارتفاع حتى يتساويا في درجة الحرارة. ولكن سرعان ما وجد للقانون معنى اعم من هذا بكثير. فالدقائق المادية في الأجسام الشديدة الحرارة تتحرك في سرعة كبيرة جداً، في حين أن تلك الأجسام الباردة تتحرك بسرعة أقل. وفي آخر الأمر يجد عدد من الدقائق السريعة الحركة وعدد من الدقائق البطيئة الحركة أنهما في حيز واحد، فإن الدقائق السريعة ترتطم بالبطيئة حتى تصل المجموعتان إلى سرعة متوسطة مشتركة. وتصدق الحقيقة المماثلة على كل صور الطاقة . فحيثما وجد قدر كبير من الطاقة في حيز ما وقدر ضئيل في حيز مجاور، مالت الطاقة إلى الانتقال من الحيز الأول إلى الثاني حتى يتم التساوى . وهذه العملية لا رجوع فيها).

ويقول رسل: (لعل من أعوص المسائل التي تعترض طريق العلم في هذه الآونة الأخيرة تلك المشكلة التي نتجت عما يبدو لنا من انهيار العالم .

ذلك أن العالم - مثلاً - به من العناصر الإشعاعية ما ينحل باستمرار إلى عنصر أقل تركيباً، ولا نعرف الوسيلة التي نتمكن بها من إعادة تجميع وتركيب هذه العناصر<sup>(١)</sup>.

ونظراً لأن الكون المادى يعتبر الآن في نظر الفيزيكا متناهما ويتكون من عدد محدود، وإن كان غير معروف من الإلكترونات والبروتونات، فهناك حد نظري للتجميع الممكن للطاقة في بعض الأماكن دون الأخرى، فإذا رجعنا بالبصر إلى الماضي وجدنا بعد إيغالنا فيه .. أننا وصلنا إلى حالة للعالم لا يمكن أن تكون قد سبقت بحالة أخرى وهذه الحالة الأولى هي التي كانت فيها الطاقة موزعة توزيعاً أبعد ما يكون عن المساواة).

ويشرح أدنجتون هذه النقطة فيقول: (وكلمنا توغلنا في ماضى الزمن وجدنا أن العالم يزداد تمايزاً بالتدريج إلى أن نصل إلى لحظة كانت فيها قوى العالم متميزة تمايزاً

---

(١) مجموعة عالمنا المجنون، جمع وترجمة نظمي لوقاص ٥٦ ص ٦٥ - ٦٧



كاملاً، ومن المستحيل أن تتجاوز هذه اللحظة إيغالا في الماضي، فالتمايز الذي نتكلم عنه يبلغ مرتبة الكمال، ولا توجد سلسلة لا متناهية من حالات التمايز الأعلى والأكثر علواً وهذا التنظيم نقيض المصادفة، فهو شئ لا يمكن حدوثه عرضاً واتفاقاً)

ويعلق رسل على أدنجتون فيقول: (ويلاحظ أن أدنجتون في هذه الفقرة لم يستنتج حدثاً محدداً للخلق بيد الخالق، وليس من سبب يمنعه من ذلك إلا عدم حبه لهذه الفكرة، مع أن الحجج العلمية المؤدية إلى النتيجة التي يرفضها أقوى بكثير من الحجج التي تعارضها).

ثم يقول: (إنى أعتقد أنه يجب التسليم بأن ما يمكن أن يقال إثباتاً لفكرة أن الكون له بداية في الزمان، في عصر ليس باللامتناهى في قدمه، يرجع كثيراً ما يمكن أن يقال إثباتاً لأي استنتاج آخر).

مما جعله يضطر إلى أن يقول: (ينبغي علينا أن نقبل مؤقتاً افتراض أن العالم له بداية ترجع إلى وقت محدد وإن كان غير معروف)<sup>(١)</sup>.

نقول: وقد كان من البديهي أن يخضع رسل لهذه النتيجة وما تؤدي إليه من أن العالم من صنع خالق. ولكنه وقد وصل إلى هذه النقطة يبدو وكأن قد أصابه مس. فيذهب يرتكب حماقات عجيبة. إنه يرفض التسليم بالخالق مفضلاً عليه القول: (بأن الكون قد بدأ تلقائياً). فإذا بدا له أن هذا قول عجيب، قال شيئاً أعجب، قال: (إنه ليس من قانون في الطبيعة يقول إن ما يبدو عجيبيلاً لا يمكن أن يحدث).! وهو يفضل أن يرتكب هذه الحماقة العجيبة، على القول بخلق الله للعالم، ويرى أن قانون الطبيعة لا يقبل القول بالخالق (لأن استنتاج "خالق" للعالم هو استنتاج علة، ولا يسلم بالاستنتاجات السببية في العلم إلا حين تبدأ من قوانين محسوسة والخلق من العدم لم يره أحد)

(١) أنظر مجموعة عالمنا المجنون ص ٦٥-٧٠

وهكذا: " الخلق من عدم على يد خالق " لا يسلم به الفيلسوف مدعيا الاستناد إلى العلم، ولكن الفيلسوف الذى يدعى الاستناد إلى العلم يسلم بالخلق من عدم إذا كان لا على يد خالق !! .

ما أعجب هذا الحضيض الذى وصل إليه عقل الفيلسوف .

ما أصدق أن يقال عن رسل ما قاله هو عن أدنجتون (إنه لم يستتج حدثاً محدداً للخلق، وليس من سبب يمنعه من ذلك إلا عدم حبه لهذه الفكرة).

وما أصدق بسكال حين أخذ يعلل لإصرار الملحد على إلحاده وهو ينطبق أعظم الانطباق على رسل في هذا الموقف، وفي غيره من المواقف .

يقول بسكال: (إن ما يجعل الملحد متصبلاً في إلحاده، ليس ضعف الشواهد الموجودة في العالم المنظور، بل قرار اتخذته الإرادة والعواطف . والعيب الرئيسى في مذهب للألوهية مبنى على الاعتبارات الرياضية والفيزيائية وحدها، هو أنه لا يلتفت إلى المشكلات والدوافع الإنسانية التى تشكل في نهاية الأمر موقف الإنسان من الله).

### **المدخل العملى إلى الإيمان بالله تعالى**

المدخل العملى: هذا المدخل يعتمد - كما قدمنا سابقا - على قانون الضرورة العملية القائمة على العقل العملى، وهذا العقل العملى هو الذى عرفه علماء الكلام بأنه (قوة التصرف في الموضوعات واستنباط الصناعات، وتمييز المصالح من المفسد لانتظام المعاش والمعاد).

وهذه الضرورة العملية هى التى تفرض نفسها في كل موقف عملى، كما تفرض نفسها في مواجهة الفرد لمسألة ما بعد الموت . طبقا لقواعد الإنذار

نجد هذا المدخل واضحا عند الإمام الغزالى

ولشخصية الإمام الغزالى من التميز والتنوع الواضح ما يحفز إلى أن نبحث في

تراثه عن الأكثر تميزاً بدلاً من تتبع آرائه التقليدية كأحد الأئمة الأشاعرة، وهنا سنتجه رأساً إلى رأى له تميزه في قضية الدخول إلى الإيمان .

عند الإمام الغزالي تبرز بطريقة منهجية مهمة الإنذار بعذاب الآخرة، الأمر الذي يمكننا أن نعتبر أنه يصب في الأصل الثاني من أصول النظر في العقيدة الإسلامية، وهو المنهج العملي.

الإنذار بعذاب الآخرة يقوم - ضمن شروط عملية خاصة - بمهمة الدعوة إلى تصديق الرسول فيما يأتي به من أصول في العقيدة أو الشريعة، انطلاقاً من أن تكذيبه يعرض لخطر الخلود في النار .

وهذا ما عنى الإمام الغزالي بشرحه في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد: إذ يبين أن الأنبياء يأتون بأوامر يندرون فيها مخالفيهم بالمصير إلى النار، ثم لا يقتصرون على مجرد الإخبار بل يستشهدون على صدقهم بالمعجزات

ثم يقرر أنه بمجرد السماع وقبل إمعان النظر في المعجزات ؛ يسبق إلى عقل السامع بل يغلب على ظنه إمكان صدق الرسول، ويقول: (وهذا الظن البديهي أو التجويز الضروري ينزع الطمأنينة عن القلب، ويحشوه بالاستشعار بالخوف ويهيجه للبحث والافتكار، ويسلب عنه الدعة والقرار، ويحذره مغبة التساهل والإهمال، وأن ما أخبر به هؤلاء غير خارج عن حيز الإمكان، فالخزم ترك التواني في الكشف عن حقيقة الأمر).

ثم يضرب مثالا لذلك فيقول: (فما هؤلاء - مع العجائب التي أظهرها - في إمكان صدقهم قبل البحث عن تحقيق قوهم بأقل من شخص واحد نخبرنا عند خروجنا من دارنا بأن سبعا من السباع قد دخل الدار، فخذ حذرك، واحترز منه لنفسك جهداً، فإننا بمجرد السماع إذا رأينا ما أخبرنا عنه في محل الإمكان والجواز لم نقدم على الدخول وبالعنا في الاحتراز)

ثم يقول: (فالمت هو المستقر والوطن، فكيف لا يكون الاحتراز لما بعده مهما؟)

وتطبيق كلام الغزالي منهجيا يضعنا في موقف عملي كاف في التوجه إلى الله وإسلام الوجه له دون الحاجة للدخول في البحوث النظرية التي تجرى وفق المنهج الفلسفي أو الكلامي التي أشار هو إليها والتي إذا احتكنا إليه فيها كتبه في المنقذ من الضلال وجدناها لا تجدى فتىلا .

وفي كتابه ميزان العمل، إذ يبين أن الإنسان أمام اعتقاد أن الموت عدم محض وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما لا يخلو أن يكون واحدا من أربعة: إما أن يكون قاطعا ببطلانه . وإما أن يكون ظانا لبطلانه . أو ظانا لصحته ظنا غالبا ومجوزا لبطلانه بطريق الإمكان البعيد . أو قاطعا بصحته .

وعلى كل حال فإنه يجب أن يعتقد بصحة الآخرة وأن يعمل لها .

أما في الحالة الأولى فبين . ويلحق بها الحالة الثانية .

وعن الحالة الثالثة يقول (وإن كنت تظن صحته غالبا [ يعنى صحة الاعتقاد بأن الموت عدم محض وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما ] ولكن بقى في نفسك تجويز صدق الأنبياء والأولياء وجماهير العلماء ولو على بعد ؛ فعقلك [ أى العقل العملى ] أيضا يتقاضاك سلوك طريق الأمن واجتناب مثل هذا الخطر الهائل، فإنك لو كنت في جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى في واحد من محارمه مثلا عملا من الأعمال تظن ظنا غالبا أنه يقع منه موقع الرضا فيعطيك عليه خلعة ودينارا ... ويحتمل احتمالا على خلاف الظن الغالب أنه يقع منه موقع السخط، فينكل بك ويفضحك ويديم عقوبتك طول عمرك ... أشار عليك عقلك [ العملى ] بأن الصواب أن لا تقتحم هذا الخطر . فإنك إن فعلت وأصبت فميزته دينار لا يطول بقاؤه معك، وإن أخطأت فنكاله عظيم، يبقى معك طول عمرك فليس تفى ثمرة صوابه بغائلة خطئه .

ولذلك إذا وجدت طعاما وأخبرك جماعة بأنه مسموم، أو شخص واحد حاله دون حال نبى واحد، فضلا عن أن يقدر على التأيد بالمعجزة، وغلب على ظنك كذبه كما غلب على ظنك الآن كذب الأنبياء كلهم ... ولكن جوزت مع ذلك

صدقه، وعلمت أنه ليس في أكله إلا التلذذ بطعمه وحلاوته وقت الذوق ... وإن كان مسموما ففيه الهلاك ... فعقلك يشير عليك باجتناّب الخطر إن كنت من زمرة العقلاء .

ولهذا قال على رضى الله عنه لمن كان يشاغبه ويمارى في أمر الآخرة: " إن كان الأمر على ما زعمتَ تخلصنا جميعا، وإن كان الأمر كما قلتُ فقد هلكتَ ونجوتُ " وقد تبين على القطع أن العظيم الهائل وإن لم يكن معلوما فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر) .

ثم يتحدث الإمام الغزالي عمن هو في الحالة الرابعة، وبعد أن يلفت نظره إلى أنه لا برهان لديه على ما قطع بصحته ... يبدأ معه من السعادة الدنيوية التي يحرص عليها ولا ينكرها (وأعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة والمكانة والقدرة والسلامة من الغموم والهموم ودوام الراحة والسرور).

ثم يبين أن العلم بالآخرة والعمل من أجله يحقق السعادة الدنيوية .

(فإذن العالم العامل أحسن حالا عند من رأى السعادة مقصورة على الدنيا، فإن الدنيا ليست تصفو لأحد، وليس يفى جدواها بمشاقها، فالممغن في اتباع الشهوات والمعرض عن النظر في المعقولات شقى في الدنيا باتفاق، وشقى في الآخرة عند الفرق الثلاث إلا شذمة من الحمقى لا يؤبه بهم ولا يعدون من زمرة العقلاء رأسا، فقد تبين أن الاستعداد للآخرة بالعلم والعمل ضرورى في العقل) [العملى]

وتطبيق كلام الغزالي منهجيا يضعنا في موقف عملى كاف في التوجه إلى الله وإسلام الوجه له دون الحاجة للدخول في البحوث النظرية .

وهذا ما يلتقى مع المنهج العملى للرسول الذين أتوا بالإنذار باليوم الآخر .

وهذا ما تقضى به دلالة المثال الذى ضربه الغزالي نفسه عن الخبر عن سُبُع داخل الدار، وعن الأكل من الطعام الذى قيل إنه مسموم .

وهذا ما تقضى به دلالة المثال الذى ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم فى أول الدعوة عن النذير العريان .

إنه مما يتناقض مع العقل العملى أمام الإنذار أن نرجئ تصديقه والعمل بمقتضاه حتى نجرى هذه البحوث .

وإن الغزالي اتجه إلى ذلك فى بداية كلامه عندما قال: (سبق إلى عقله إمكان صدقهم بل غلب على ظنه ذلك بأول السماع قبل أن يمعن النظر).

وإمكان الصدق يرد حتى عند عتاة الكفر والإلحاد بناء على أنهم لا يملكون دليل العدم، وإن كانوا يتيهون فى عدم الدليل .

إنه طبقا للعقل العملى لا يمكن الانتظار حتى يتم إجراء البحوث النظرية بينما النذير يتحدث عن أمور مغيبة داهمة .

إن البحث على النحو النظرى فيما يأتى به النذير تتاح فرصته بعد المبادرة إلى العمل بمقتضى الإنذار، والنظر يأتى هنا لتأكيد أن ما جاء به النذير ممكن حقا، ثم لتحقيق الترقى بالسالك من غالب الظن الذى بدأ به إلى مرتبة اليقين، والشارع الذى قد بدأ مع الإنسان تلك البداية - بداية الإنذار العملى بها فيها من يقين النجاة - هو نفسه الذى يصاحب السالك بعد هذه البداية بما يوصله إلى مرتبة اليقين المطلق بوسائل لم تغفل النظر ولم تقتصر عليه، وهذا ما لمسَه الإمام الغزالي برفق إذ يقول (فإن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه لم يطالب العرب فى مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق، ولم يفرق بين أن يكون ذلك بإيمان وعقد تقليدى أو بيقين برهانى، وهذا مما علم ضرورة من مجارى أحواله فى تزكية إيمان من سبق)<sup>(١)</sup>

ونظرا لما تميز به الإمام الغزالي - مع التزامه بأشعريته - من اتساع أفق النظر فى كافة المباحث التى تطرق إليها فإننا نجده يلتقى فى نظريته تلك مع طائفة من العلماء - ومنهم بعض المعتزلة - الذين يوجبون العمل بخبر الواحد على أساس الضرورة العملية التى تلجئ الإنسان إلى التحرز من المخاطر المحتملة .

(١) أنظر الاقتصاد فى الاعتقاد ص ٥ وما بعدها، وميزان العمل ص ١٨٠ - ١٩٣

ذهب إلى ذلك أبو الحسين البصرى، والقفال الشاسى وابن سريج وغيرهم .

قال أبو الحسين البصرى: (العمل بالظن في تفاصيل معلوم الأصل واجب عقلا، كإخبار واحد بمضرة طعام، وسقوط حائط: يوجب العقل العمل بمقتضاه للأصل المعلوم ؛ من وجوب الاحتراس عن المضار، فكذا خبر الواحد يجب العمل به، للعلم بأن البعثة للمصالح، ودفع المضار، ومضمون الخبر لا يخرج عنهما)<sup>(١)</sup>

ونجد القاعدة مقررة عند المعتزلة وهم بصدد إيجاب النظر، يقول القاضى عبد الجبار: (وقد تقرر في العقول وجوب دفع الضرر عن النفس معلوما كان أو مظنونا، متى كان المتحرز منه أعظم من المتحرز به)<sup>(٢)</sup>

كما نجده عند العلامة ابن المرتضى المعروف بابن الوزير الذى أدرك هذا المعنى الذى ينطوى عليه الإنذار بعذاب الآخرة، والذى طرق الغزالى بابه فى الاقتصاد فى الاعتقاد وميزان العمل، وذلك إذ يقرر ابن المرتضى (أن من واجب العاقل أن يدفع عن نفسه المضار المحتملة) وإذ يقول (لأن السلامة متحققة فى الإيمان والخطر مأمون فيه، والمهالك مخوفة فى مخالفته)<sup>(٣)</sup> .

ويستشهد لهذا بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ٥٢ فصلت، وقوله تعالى: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ٣٩ النساء، وقوله تعالى على لسان رجل مؤمن من آل فرعون: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ٢٨ غافر، وقوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ ٨١ الأنعام

هذا المنهج الإنذارى الذى لمس الغزالى لمسا خفيفا والذى ينبع أساسا من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان عليه هو وأصحابه، والذى ينطبق تمام

(١) التقرير والتحرير لابن أميرج ٢ ص ٢٧٤

(٢) المحيط بالتكليف ص ٢٦

(٣) إيثار الحق على الخلق ص ١٨

الانطباق مع الأصول الثلاثة التى ذكرناها فى بداية الكتاب .. نجده معروضا هنا بعد خمسة قرون تقريبا من بدء الرسالة كجوهرة نبوية ضمن قش الفلسفة البشرية النظرية العقيم، لأسباب ليس بعيدا عنها ضغط الانخراط فى المذهب الأشعرى وتطورات الفلسفة غير العملية فى بعض أدواره المتأخرة .

### التفكير فى ذات الله

ذكر اللالكائى فى شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: فى سياق ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى النهى عن التفكير فى ذات الله عز وجل - بسنده عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أن أبا هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته . أخرجه مسلم عن زهير والبخارى من حديث الزهرى

وفى صحيح مسلم: فى باب بيان الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها بسنده عن أبى هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبى فسألوه إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال وقد وجدتموه ؟ قالوا: نعم قال: ذاك صريح الإيمان .

وفى رواية أخرى له بسنده عن علقمة عن عبد الله قال سئل النبى عن الوسوسة قال تلك محض الإيمان .

هذه الأحاديث تفيد أن بعض الصحابة رضى الله عنهم كانوا يشعرون بأسئلة تتردد فى صدورهم وراء ما يمكن للعقل البشرى أن يقتحمه من مجالات .

وكانوا يشعرون فى نفس الوقت أن هذه الأسئلة تعرض إيمانهم لشيء من الخطر، أو يشعرون من ناحية أخرى بأن هذه الأسئلة فيها من الجرأة ما لا يتفق مع الحد الذى يجب أن يقف عنده الإنسان .

كانت هذه الأسئلة يتعرض بعضها لمسائل تدور حول الذات الإلهية، ولذلك



فإنهم كانوا في بعض الأحيان يقمعونها أو يستعظمون البوح بها (إنا نجد في أنفسنا ما يتعظم أحدنا أن ينطق به) ومن هنا كان رد الرسول صلى الله عليه وسلم (ذاك صريح الإيمان)، والشيء الذي يصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه صريح الإيمان هو ما يجدونه في أنفسهم من الحرص على قوة عقيدتهم وسلامتها، وما يشعرون به من التخوف واستعظام النطق بما يجدون، لا الوسوس في ذاتها .

ويؤكد لنا ذلك ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك أنه قال: " كنا نهينا أن نسال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء رجل من البادية يسأله ونحن نسمع "

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ما عليه حال بعضهم فلم يكن ليستظر بهم حتى يتكلموا، أو ليستظر بهم حتى يرهقهم التساؤل المكبوت، وإنما كان في بعض الأحيان يبدأ بعرض المشكلة ويجيب عنها، كما جاء في الحديث الذي صدرنا به المبحث . وفي رواية أخرى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال: (يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق السماء؟ من خلق الأرض؟ فيقول: من خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله)

فهذا سؤال عن ذات الله سبحانه وتعالى يدسه الشيطان في قلب المؤمن، ولقد أحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه يدب في صدور بعضهم، وهو سؤال يتعرض له كثيرون في بعض أدوار حياتهم؛ فماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاءهم: لم يتهمهم في إيمانهم، وإنما دلهم على مصدر السؤال ليتخذوا منه موقف الإيمان الصحيح .

### **مصدره الشيطان**

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في رده وأوجز

ذلك أن هذا السؤال لا يصدر عن العقل كما لا يصدر عن الإيمان .

فهو من الناحية العقلية خطأ في أساسه: أن تسأل قائلا: من خلق الله يشبه تماما

أن تسأل قائلًا: من الذى طبخ الطائرة، ويشبه تماما أن تسأل قائلًا: من الذى زرع التليفون .

الطائرة لا تطبخ، التليفون لا يزرع، كذلك فإن الله جل جلاله: لم يُخلق، ولا يُخلق، ذلك لأنه موجود بغير أول، ومن كان كذلك فإنه لا أحد يوجده ولا أحد يخلقه .

فالسؤال إذن خطأ فى أساسه لأنه يدس إلى العقل فرضية خاطئة: أن الله مخلوق

المخلوق وحده هو الذى يسأل عنه من الذى خلقه ؟، ونحن لم نبحث فيما خلق العالم إلا بعد أن أثبتنا أنه حادث مخلوق، والله ليس مخلوقا، هو موجود غير مخلوق، والعقل من شأنه أن يقسم الأشياء إلى مخلوقة وغير مخلوقة، فيضع العالم فى قسم المخلوق ثم يبحث عن خلقه، أما عن الله تعالى فهو فى قسم الموجود غير المخلوق، فمن ثم لا يصح السؤال عن خلقه .

السؤال إذن خطأ فى أساسه .. ليس صادرا عن العقل .

وليس صادرا عن طبيعة الإيذان نفسها التى دخل الصحابة إليها من دائرة التصديق والتسليم .

وإذن فهو صادر عن قوة شريرة ضالة مضلة، يجب أن يحتذى منها المسلم بالإيذان والعقل العملى . (فليقل آمنت)

هو سؤال صادر عن الشيطان (فليستعذ بالله من الشيطان).

إنه صادر من منطقة ما وراء محدودية العقل البشرى: وفيها التفكير فى ذات الله

ومن هنا جاء فى كتاب العظمة لأبى الشيخ<sup>(١)</sup> بسنده عن مجاهد عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا

---

(١) كتاب العظمة لعبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهانى ت ٣٦٩، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفورى ط أولى عام ١٤٠٨ نشر دار العاصمة باتلرياض ج ٥ ص ٢١٤

وروى أنه صلى الله عليه وسلم طلع يوماً على جماعة من أصحابه وهم يتكلمون فسكتوا فقال ما كنتم تقولون قالوا يا نبي الله: نظرنا إلى الشمس فتفكرنا من أين تجيء وأين تذهب؟ وتفكرنا في خلق الله عز وجل فقال: كذلك فافعلوا، (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله) يقول الإمام الإسفراييني في شرح هذا الحديث: (ابتدئوا بالفكرة في خلق الله حتى إذا عرفتم الخلق بالعجز عرفتم أن له خالقاً قادراً موصوفاً بأوصاف الكمال، ومن ابتدأ بالنظر في الخالق أداه إلى ما لا يصح من تشبيه وتعطيل)<sup>(١)</sup>.

ويستشهد الإمام الباقلاني على نفس المعنى بقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ آل عمران ١٩١، ولم يقل في الخالق، وبإجابات موسى عليه السلام عندما سأله فرعون عن الله إذ كان كلما سأله عن الذات أجابه بالنظر في المخلوقات. سورة الشعراء من ٣٣-٢٨<sup>(٢)</sup> وفي نفس المعنى يقول المقدسي: (سأل فرعون موسى "وما رب العالمين" فلم يرد موسى بالماهية ولكن بالصفات: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ الشعراء . يقول المقدسي: (هذا طريق السلامة)<sup>(٣)</sup>.

وفي شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لللالكائي<sup>(٤)</sup>: روى بسنده عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله عز وجل).

(١) التبصير في الدين للإسفراييني ص ٩٩

(٢) الإنصاف فيها يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني، ط الخانجي بالقاهرة الطبعة الثانية ص

(٣) البدء والتاريخ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي وهو المطهر بن طاهر المقدسي، من رجال القرن

الرابع، نشرة مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة ج ١ ص ٨٦

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن

منصور اللالكائي ت ٤١٨، تحقيق د: أحمد سعد حمدان ط ١٤٠٤ نشر دار طبية بالرياض ج ٣ ص

تفكروا فى خلق الله، تفكروا فى الشمس، تفكروا فى الفلك، تفكروا فى الفيزياء والكيمياء والفسولوجيا، والبيولوجيا، والألكترونيات، فى العمليات، و التشريعات، فى الاقتصاد والتربية والتعليم ونظم الحكم وإعداد العدة للجهاد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ٦٠ الأنفال هذا هو المنهج الإسلامى، ولو اتبعه المسلمون بدقة لكان لهم اليوم شأن آخر، ولكنهم بالغوا فى النظر وراء محدودية العقل، ووراء المنهج العملى فوقعوا فى كثير من الضعف وكثير من التفرق والمراء

### إن التفكير فى ذات الله يقع خارج محدودية العقل

و فى هذا المعنى يستشهد الإمام ابن المرتضى المعروف بابن الوزير بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ١١٠ طه: إذ يقول (والذى وضح لى وضوحا لا ريب فيه أن الكلام فى ذات الله على جهة التصور والتفصيل أو على جهة الإحاطة كلاهما باطل)<sup>(١)</sup>

---

(١) أنظر إشار الحق على الخلق لابن المرتضى ص ٩٣

الباب الثالث

# المتشابهات



إنه إذا كان التفكير في ذات الله يقع في منطقة ماوراء محدودية العقل - كما أوضحنا سابقا - فإنه مما يقع داخل تلك المنطقة أيضا مسألة التشابهات التي اقتحمها - أو حذر منها - بعض المتكلمين على تفاوت بينهم. وفي هذا المعنى يستشهد الإمام ابن المرتضى المعروف بابن الوزير بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ١١٠ طه: إذ يقول: (والذي وضح لي وضوحا لا ريب فيه أن الكلام في ذات الله على جهة التصور والتفصيل أو على جهة الإحاطة كلاهما باطل، بل من المتشابه الممنوع الذي <sup>(١)</sup> لا يعلمه إلا الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

وانطلاقا من مبدأ محدودية العقل ظهرت ملامح المنهج القائم على: التسليم والتفويض والتنزيه في التشابهات:

### المحكم والمتشابه

إذا دل اللفظ على معناه بحيث لا يحتمل غيره يسمى النص  
أما إذا احتمل معنى آخر فإن كان راجحا سمي الظاهر  
والنص والظاهر يسمى المحكم  
وإن تساويا سمي المجمل  
وإن احتمل معنى مرجوحا أو متساويا سمي المتشابه

---

(١) أنظر إشار الحق على الخلق ص ٩٣

والمشترك إن أريد به كل معانيه فهو من قبيل الظاهر، وإن أريد بعضها على سبيل  
التعيين فهو من قبيل المجمل

ويدل على التقسيم السابق إيقاع المحكم مقابلا للمتشابه في القرآن الكريم، في  
قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ  
مُتَشَبِهَاتٌ﴾ ٧ آل عمران .

فوجب تمييز المحكم بما يقابله ولا يتنافى ما جاء في هذه الآية مع ما جاء في آية  
أخرى من كون القرآن الكريم محكما كله وذلك في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ  
آيَاتُهُ﴾ ١ هود، وما جاء في آية ثالثة من كونه متشابها كله في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ  
أَحْسَنَ الْخُبَرِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ ٢٣ الزمر.

وذلك لأن المراد بكونه محكما كله أنه منظم رصين متقن متين لا يتطرق إليه  
خلل، والمراد بكونه متشابها كله أنه يشبه بعضه بعضا في حسنه وإعجازه، والمراد  
بكون بعضه محكما وبعضه متشابها أن منه ما اتضحت دلالته على المراد منه نصا أو  
ظهورا، ومنه ما خفيت دلالته فلا يدرك معناه لا عقلا ولا نقلا وهو ما استأثر الله  
بعلمه أو احتمل أوجهها من التأويل دون قطع بأحدها .

وعليه فالمحكم هو الذى استقل بنفسه فلا يحتاج إلى بيان، والمتشابه الذى يحتاج  
إلى بيان حيث يقع الاختلاف في تأويله ويدخل فيه الأسماء المشتركة والألفاظ  
الموهمة للتشبيه<sup>(١)</sup>

وعلينا أن نسترشد في موقفنا من التشابه بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه  
البخارى بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله تعالى عنه قال: قال النبی صلی الله  
عليه وسلم "الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشبهة، فمن ترك ما شبه عليه من  
الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما  
استبان، والمعاصي هي الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعها

(١) أنظر " شرح جوهره التوحيد في عقيدة أهل السنة والجماعة " تأليف عبد الكريم تنان وآخرين نشر  
دار البشائر بدمشق الطبعة الثانية ١٩٩٩ ج ١ ص ٤٤٢ - ٤٤٣



وأن نسترشد بخصوص التشابهات من الإلهيات بما جاء عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فيما رواه اللالكائي في كتابه (اعتقاد أهل السنة) بسنده عن أبو صخر حميد بن زياد عن نافع قال بينما نحن عند عبد الله بن عمر جاءه إنسان فقال إن فلانا يقرأ عليك السلام لرجل من أهل الشام فقال ابن عمر إنه قد بلغني أنه قد أحدث حدثاً فإن كان كذلك فلا تقرأ عليه مني السلام"

وروى بسنده عن سليمان بن يسار أن رجلاً من بنى غنيم يقال له "صبيغ بن عسل" قدم المدينة وكانت عنده كتب فجعل يسأله عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر فبعث إليه وقد أعد له عراجين النخيل، فلما دخل عليه جلس قال من أنت قال أنا عبد الله صبيغ، قال عمر وأنا عبد الله عمر، وأوماً عليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه وجعل الدم يسيل عن وجهه، فقال حسبك يا أمير المؤمنين فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي .

فإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا من الملاحظات الهامة بالنسبة للآية التي تحدثت عن المحكم والمتشابه في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ يَخْتَفَاءُ بِؤَى تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمْنًا بِمِ كُلِّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ ﴾ ٧ آل عمران: .... وجدنا أنها فتحت المجال للوصول أو الوقف عند قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ مما جعل الذين يميلون للخوض في التشابهات يستندون إلى قراءة الوصل، والذين يميلون إلى عدم الخوض يستندون إلى قراءة الوقف، وفي كلا الحالتين تكون الآية التي تعرضت لمشكلة المحكم والمتشابه قد جاءت في أسلوب يشبهه على الفهم

وفي رأيي - والله أعلم - أننا حيث وجدنا الأمر مشتبهاً في هذه الآية نفسها كان لابد أن نقول: إن الله أعلم بمراحده، ومن هنا نطلق من خصوص الآية إلى عموم

آيات الكتاب كلها: كلما اشتبه الأمر علينا قلنا الله أعلم بمراده وأنه ما يعلم تأويله إلا الله، أى آخذين بقراءة الوقف بالضرورة .

ونحن بحكم أن طريقة عمر رضى الله عنه فى معالجة الموضوع لم تعد هى المجدية حالياً من جهة، وبحكم التراث الواسع الذى ورثناه حول التشابهات من جهة ثانية : نجد أنه لا مفر من دراسة ما جاء فيها، ملتزمين بالضوابط الثلاثة التى قدمناها، لنصل فى النهاية إلى الموقف الصحيح منها، طبقاً لما جاء من هدى القرآن وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم وهدى السلف الصالح رضى الله عنهم .

**ما يوهـم التشبيه بين المعنى الظاهر والمؤول، والتشبيه والتنزيه والتسليم والتفويض:**

المراد بما يوهـم التشبيه كل ما جاء فى كتاب أو سنة وأوقع الأخذ به بحسب ظاهره فى وهم مشابهة الله تعالى للحوادث، مع أن المقطوع به نقلاً وعقلاً أنه تعالى مخالف للحوادث كما هو صريح قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ١١ الشورى.

وفى التشابهات بوجه عام يقول العلامة الغنىمى شارحاً ما ذهب إليه الإمام الطحاوى: (وأما ما ورد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من وصفه تعالى بما يوهـم ظاهره ذلك كاليد والإصبع والقدم وكذا النفس والوجه، كقوله تعالى: ﴿مَا مَتَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ﴿فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ البقرة ١١٥، وقوله صلى الله عليه وسلم "لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك" رواه مسلم وغيره، وقوله "عن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء" رواه مسلم وغيره، وقوله "لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد؟ حتى يضع فيها الرب قدمه فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط، قط" إلخ رواه البخارى ومسلم وغيرهما.. فالواجب إجراؤه على ظاهره وتفويض علمه إلى قائله، وتنزيه البارى عن الجارحة ومشابهة الصفات المحدثه (١).

ولا تعارض بين القول بإجرائه على ظاهره وتفويض علمه إلى قائله، إذ المراد

---

(١) (شرح العقيدة الطحاوية المسماة بيان السنة والجماعة للإمام أبى جعفر الطحاوى ت ٣٢١ هـ) للعلامة عبد الغنى الغنىمى ت ١٢٩٨، طبعة دار الفكر دمشق ط ١٩٨٢ م ص ٧٣-٧٤

إجراؤه على ظاهره من حيث معنى الكلمة في حد ذاتها وتفويض علمه إلى قائله من حيث نسبتها إلى الله تعالى، إذ من المسلم به تغاير المعاني عند تغاير الصلات. فالأسد معناه معروف ولكن المراد منه يتغاير إذا وصلت الكلمة بالغابة في قولك " رأيت أسدا في الغابة " عنها إذا وصلتها بالحمام إذا قلت " رأيت أسدا في الحمام "

**وهذا هو منهج التسليم والتفويض والتنزيه .**

**وليس في هذا المنهج شيء من التعطيل : لأمرين:**

الأول أن أعمال هذه النصوص - حيث لا يترتب عليها عمل بالجوارح - ينحصر في التسليم بها، والتسليم بما يكون في علم الله بالمراد منها، وإنما التعطيل الصريح يقع فيما لو ضربنا صفحا عن التنزيه الوارد في النص المحكم في قوله تعالى " ليس كمثله شيء " .

الثاني: أنه ليس فيه بالضرورة صرف للكلمة عن ظاهرها لأن المراد بالتفويض عدم الخوض في البحث أصلا، سواء في صرف الكلمة عن ظاهرها، أو عدم صرفها عن ذلك .

وقد جاء في معنى ذلك في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لللالكائي: ما رواه بسنده عن عباس بن محمد الدوري قال: سمعت أبا عبيد القاسم بن سلام وذكر عنده هذه الأحاديث: ضحك ربنا عز وجل من قنوط عباده، والكرسى موضع القدمين، وأن جهنم لتمتلى فيضع ربك قدمه فيها، وأشباه هذه الأحاديث: فقال أبو عبيد هذه الأحاديث عندنا حق يرويا الثقات بعضهم عن بعض، إلا أنا إذا سئلنا عن تفسيرها قلنا: ما أدركنا أحدا يفسر منها شيئا، ونحن لا نفسر منها شيئا، نصدق بها ونسكت . وهنا يظهر مبدأ التفويض

ثم ذكر أنه سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فقال: الاستواء معقول والكيف مجهول والإيمان به - قال ابن الجراح: "واجب"- والله عز وجل لا يحده . وهنا يظهر مبدأ التنزيه .

قال المصنف: ذكره عبد الرحمن: قال وجدت في كتاب أبي نعيم بن حماد قال " حق على كل مؤمن أن يؤمن بجميع ما وصف الله به نفسه، ويترك التفكير في الرب تبارك وتعالى، ويتبع حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه " قال تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق "

قال المصنف: قال نعيم " ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء من الأشياء "

ثم روى بسنده عن الوليد بن مسلم قال: سألت الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية فقالوا " أمروها كما جاءت بلا كيف "، وهنا يظهر مبدأ التسليم والتنزيه .

وروى بسنده عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال لغلام له: بلغني أنك تتكلم في الرب تبارك وتعالى وتصفه وتشبهه؟ فقال الغلام: نعم، فأخذ يتكلم في الصفة.

فقال رويديك يا بني حتى نتكلم أول شيء في المخلوق فإذا عجزنا عن المخلوقات فنحن عن الخالق أعجز وأعجز، وهنا تأتي حجة التفويض .

وقد صدق فيما قال: فنحن أعجز ما نكون عن التفكير في ذوات المخلوقات، وفي العلاقة بين ذواتها وصفاتها فكيف نقترح من مقام الخالق ما هو أكثر تعجيزا .

و الإمام أبو حنيفة يرد على هواجس التشبيه فيقول: (وصفاته كلها بخلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا<sup>(١)</sup>).

وهو يثبت اليد، والوجه، والنفس، والغضب والرضا، والقضاء والقدر صفات لله<sup>(٢)</sup>.

ولكنه يقرر أيضا أن صفات اليد والوجه... الخ هي (بلا كيف)، سابقاً بذلك ما عبر به مالك من بعد.

(١) المصدر السابق (ص ١٣)

(٢) المصدر السابق (ص ١٤، ١٧)، والفقه الأيسر (ص ٥٦)

وهو يقرر (أن الله تعالى استوى على العرش من غير أن يكون له حاجة واستقرار عليه<sup>(١)</sup>).

وأبو حنيفة متوقف غير مؤول، وذلك إذ يقول: (...) ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة ... ولكن يده صفته بلا كيف<sup>(٢)</sup>.

إن الصفات عند أبي حنيفة ذاتية، وفعلية، والفعلية: يبدو أن لا عدد لها، وهي كلها قديمة. والأسماء قديمة كذلك<sup>(٣)</sup>.

وبيان الطحاوى يؤكد ما سلفت الإشارة إليه من أزلية الأسماء والصفات الفعلية فضلاً عن الصفات الذاتية، يقول (ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئاً ... ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق<sup>(٤)</sup> ...).

يقول العلامة الغنيمي في شرحه للعقيدة الطحاوية (ومما يجب علينا: أننا لا نخوض في ذات الله . روى عن أبي حنيفة أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء، بل يصفه بما وصف به نفسه)<sup>(٥)</sup> وفي هذا يظهر مبدأ التفويض

ويفرق الإمام الماتريدي بين التأويل والتفسير، فالتفسير " هو القطع على أن المراد من اللفظ كذا، والشهادة على الله سبحانه أنه عني باللفظ كذا " والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع والشهادة .

ويرى الإمام الماتريدي أن المحكم في القرآن الكريم يتناول أصول الدين، إذ لا متشابه فيما إليه أحكام من نهى وأمر وحلال وحرام وهذا ما يحتاجه الناس، فعلى الناس أن ينظروا فيه ويطلبوا معرفته .

ويرى أن فائدة النظر في المحكم ومعرفته توقفنا على معرفة المتشابه الذى يجب التسليم به لعدم الحاجة إلى العلم به ولأنه لا يعلم تأويله إلا الله، وإن علم به أحد

---

(١) الجوهرة النيفة في شرح الوصية (ص ١٠) .

(٢) الفقه الأكبر بشرح المغنيساوى (ص ١٤) .

(٣) الفقه الأكبر بشرح المغنيساوى (ص ٥-٧) . ويظل التساؤل عن قدم اللغة .

(٤) بيان السنة للطحاوى (ص ٥) .

(٥) شرح الغنيمي للعقيدة الطحاوية ص ٩٥

فبالله علم، لا لأن في العقول بلوغ ذلك . والخلاصة أن الإمام الماتريدي يبين ما يجب تأويله وما لا يجب فيقرر أنه إذا كان الأمر خاصا بالعمل وجب طلب دليله للعمل به، وإذا كان خاصا بالاعتقاد وجب الوقف فيه والتسليم به مع عدم تحقيق المثلية أو الكيفية.<sup>(١)</sup>

ونضيف نحن إلى ذلك أن أقصى ما يطلب من عمل بالنسبة للمتشابه هو التسليم والتفويض، وهنا يظهر منهج الضرورة العملية .

ويذهب الإمام الماتريدي إلى أن ما جاء من نسبة اليد لله، لا يفهم منه الجارحة، وما جاء عن الاستواء على العرش لا يفهم منه ما يفهم من استواء الخلق لأنه بريء عن مشابهة الخلق، وما جاء عن المجيء لا يفهم منه ما يفهم من مجيء الأجسام لأنه تعالى لا يوصف بالجسمية، والمراد منه يجب أن يتوقف فيه .

وينفى عن الله تعالى الحالات الانفعالية، فلا يصح أن يفهم انفعال من إضافة المكر والخداع والاستهزاء، ويقرر أن الله لا يوصف بالاتصال بالأشياء ولا الانفعال بها، ولا بالحلول فيها، ولا بالخروج منها من جهة المسافة ... لأن الله تعالى كان ولم يكن شيء غيره

ويصنف الماتريدي إضافة الأشياء إلى الله على نوعين:

فإما إضافة كلية فتخرج مخرج الوصف لله تعالى بالعلوم والرفعة والتعظيم مثل قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وإما إضافة الخاص من الأشياء فتخرج مخرج الاختصاص والتعظيم لذلك الخاص على جنسه مثل قوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ . ومن هنا تكون إضافة المكان إلى الله لا تعنى الوصف له بالمكان.<sup>(٢)</sup>

(١) المغربي ص ٧٨ نقلا من تأويلات أهل السنة ج ١ ص ٣٦٤

(٢) المغربي ص ٢١٤ - ٢٢٨ نقلا عن التوحيد ص ٦٨ - ٦٩، ٨٠، ١١٩، وتأويلات أهل السنة ج ١

ص ١٢، ٤٣٤، ٦٥٤، ج ٢، ١٢٠، ج ٣ ص ٢٤٣، ٣٦٩

ويستدل الإمام الماتريدي على أنه لا يجوز القول بمكان في حق الله تعالى لأنه تعالى كان ولا مكان، وهو الذي أنشأ الأشياء وأمسك كليتها لا بمكان يتعالى عن الحاجة إلى مكان، ويتعالى عن الوصف بما عليه العالم بجزئياته في المكان، فلو كان الله في مكان لكان مثل الجزئيات من العالم، ولما كان العالم بكليته في لا مكان فمن أقامه على ذلك أحق وأولى .

وهذه نظرة للماتريدي متميزة فيما أعلم .

ويذهب الإمام أبو الليث السمرقندي - من الماتريدية - في اليد إلى أنها (صفة وصف بها تعالى نفسه، ونؤمن بها، وبجميع أوصافه، ويتأويل اليد وغيرها من الوجه والعين والقدم، وهو القدرة والقوة)<sup>(١)</sup>

وقد أثبت الأشعري: اليدين والوجه، قائلا: ورد بذلك السمع فيجب الإقرار به كما ورد، وهو يثبت يدين ليستا جارحتين، ولا قدرتين، ولا نعمتين، وليستا كالأيدي<sup>٢</sup> وفي هذا يظهر منهج التسليم والتفويض والتنزيه .

ولا يختلف هذا عن التنزيه الذي ذهب إليه الإمام الأشعري واضحا في كتابه اللمع إذ يستدل على مخالفة الله تعالى للحوادث بقوله: (لأنه لو أشبهها لكان حكمه في الحدث حكمها، ولو أشبهها لم يخل أن يشبهها من جميع الجهات أو من بعضها، فإن أشبهها من جميع الجهات كان محدثا مثلها من جميع الجهات، وإن أشبهها من بعضها كان محدثا من حيث أشبهها، ويستحيل أن يكون المحدث لم يزل قديما)<sup>(٣)</sup>

وذكر البياضى روايتين عنه في مسألة اليد : إحداهما: أنها صفة قائمة بذاته تعالى سوى القدرة، وفي رواية عنه فسر اليد بالنعمة<sup>(٤)</sup>، وهنا يختلف الاتجاه عند الإمام الأشعري من التفويض في كتابه الإبانة إلى شيء من التأويل في كتابه اللمع

(١) شرح الفقه الأكبر ص ١٧ - ١٨

(٢) الإبانة ص ٥١

(٣) اللمع ص ٢٠

(٤) إشارات المرام ص ١٨٨

ويرد الإمام الباقلاني على من يطلقون على الله تعالى وصف الجسمية متسترين بالبلكفة فينكر عليهم أولا أن يكون الله جسما، بناء على أن الجسم هو المجتمع المؤلف، ولو كان كذلك لكان ذا حيز وشغل (وما هذه سبيله فلا بد أن يكون حاملا للأعراض<sup>(١)</sup>)، وأن يكون من جنس الجواهر والأجسام) والله تعالى يتنزه كما يستحيل أن يكون من جنس مخلوقاته .

ولو كان مجتمعا من أجزاء لكانت صفاته إما لجزء منها فحسب، فيكون هذا الجزء هو الإله، أو لكل جزء فتعدد الآلهة بتعدد الأجزاء .

ثم ينكر عليهم أن يقال إنه جسم لا كالأجسام ؛ قياسا على أنه شيء لا كالأشياء، ذلك لأن الجسمية وضعت للمؤلف فحسب، أما الشيئية فليست لجنس دون جنس، ولا لإفادة التأليف .

وهو ينكر عليهم إطلاق لفظ جسم على الله تعالى على معنى مخالف للغة ومفيد لمعنى آخر هو معنى القيام بالنفس، أو لمعنى " شيء " مما يصح إطلاقه على الله تعالى، وذلك لأنه لما كان ذلك لا يتفق مع اللغة ولا مع العقل كنا بحاجة إلى إذن الشرع بإطلاقه ولم يرد فامتنع<sup>(٢)</sup>

وفي قضية التأويل نجد الإمام الجويني - وإن ذهب في كتابه " لمع الأدلة " إلى تأويل الاستواء بالقهر والغلبة والعلو - يذهب في كتابه " العقيدة النظامية " وهو من آخر مؤلفاته إلى أن الأولى اتباع ما ذهبت إليه (أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه ) .

ويقول: (إذا تصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعا بأنه الوجه المتبع بحق . فعلى ذى الدين أن يعتقد تنزيه الرب عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تعالى ) .

وهو يجذب الوقف عند قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ .

(١) على الأقل عرض الاجتماع والافتراق

(٢) التمهيد



ويذكر قول مالك رضى الله عنه (الاستواء معلوم والكيفية مجهولة) ويدعو إلى اتخاذ هذا المنهج فيما يتعلق باليد والوجه والعين والاستواء والمجيء وغيرها<sup>(١)</sup>

ويضبط الجوينى الصفات التى لا يصح وصف الله بها بأنها هى الجائزات التى تحتاج لمخصص مخصصها بوجه دون وجه ثم يقول: (من انتهض إلى طلب مدبره: فإن اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبه، وإن اطمأن إلى النفى المحض فهو معطل، وإن قطع بموجود واعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد)<sup>(٢)</sup>

أما الإمام فخر الدين الرازى: فى كتابه أساس التقديس فيحزم أمره إلى جهة التأويل حيث يقيم الدلائل العقلية على أنه تعالى ليس بمتحيز ألبتة، وفى هذا يذكر براهين منها: أنه لو كان متحيزا لكان محتاجا إلى حيزه، فكان محتاجا إلى غيره، وقد ثبت بطلانه .

وفى تأويل التشابهات من الأخبار والآيات يضع مقدمة فى بيان ضرورة التأويل عند (جميع فرق الإسلام) ثم يقدم فصولا فى تأويل ما أشبه علينا إثبات الجسمية لله، مثل ما جاء فى: الصورة - الشخص - النفس - الصمد - اللقاء - النور - الحجاب - القرب - المجيء - النزول - الخروج - البروز - التجلى - الظهور - التبعض - الوجه - العين - اليد - الكف - الأصبع - الأنامل - الجنب - الساق - الرجل - القدم - الضحك - الفرح - الحياء - الجهة .

ومن الواضح من كتب الرازى بعامة وكتابه أساس التقديس بخاصة أنه يتبنى منهج التأويل فى كل ما يتوهم أنه يخل بمبدأ التنزيه المطلق لله تعالى . وهو يبنى موقفه هذا على أصول عقلية ولغوية ونقلية:

---

(١) العقيدة النظامية بتحقيق الكوثرى وحول هذا يقول الكوثرى: (إن المراد بالسلب فى قوله تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ سلب العموم، لا عموم السلب، أى أن المنفى أن يعرف تأويل كل شيء، لا تأويل شيء ما)، ولعل هذا هو ما يعيد الاتساق إلى كلام الجوينى فى تأويله للاستواء فى كتابه لمع الأدلة ثم تقييده لأولوية الوقوف عن التأويل هنا .

(٢) العقيدة النظامية ص ١٣ - ١٤

فهو من الناحية العقلية يقرر استحالة معرفة كنه الذات والصفات الإلهية ويقول  
(قد ثبت أن معرفة كنه الذات أعلى وأجل وأغمض من معرفة كنه الصفات، فلما  
عزلنا الوهم والخيال في معرفة الصفات والأفعال فلأن نعزلهما في معرفة الذات أولى  
وأحرى)<sup>(١)</sup>

ومن الناحية اللغوية والنقلية يقول في تأويل اليد: (إن لفظ اليد حقيقة في هذه  
الجارحة المخصوصة إلا أنه يستعمل على سبيل المجاز في أمور غيرها: الأول أنه  
يستعمل لفظ اليد في القدرة...، والثاني أن اليد قد يراد بها النعمة، وإنما حسن هذا  
المجاز لأن آلة إعطاء النعمة اليد، بإطلاق اسم اليد على النعمة إطلاقاً لاسم السبب  
على المسبب...) ثم يقول: (إذا عرفت هذه المقدمة فنقول:

أما قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فالمعنى أن قدرة الله غالبه .

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فالمراد النعمة .

كما يقول في التعبير باليد عن القدرة: (إن القدرة عبارة عن الصفة التي يكون  
الموصوف بها متمكناً من الإيجاد والتكوين... فلما كان المسمى باليد هو كذلك  
كان ذلك المعنى نفس القدرة)

ويرد على الاعتراض بأنه لو كان المراد باليد القدرة لما كان في قوله تعالى عن آدم:  
"خلقته بيدي" وجه للتكريم المقصود، إذ يستوى الخلق جميعاً في ذلك... يرد بأن  
في التعبير عن خلق آدم بيديه سبحانه وتعالى - أي بقدرته - بياناً لمزيد العناية به، كما  
يقول القائل "هذا الشيء أعمله بيدي" (فالتخليق باليدين عبارة عن التخليق  
المخصوص بمزيد الكرامات والتشريف، وهذا ما كان حاصله في غير آدم)<sup>(٢)</sup>

ويذهب إلى تأويل الاستواء على العرش بالاستيلاء بمعنى القدرة التامة الخالية

(١) أساس التقديس ص ١٦

(٢) أساس التقديس ص ١٥٦ - ١٥٧، وكان أولى به من حيث هذه الناحية أن يفرض في المعنى المراد  
ويكف عن التأويل تماماً

من المنازع والمعارض، ويبين سبب اختصاص العرش دون غيره من ملك الله بهذا المعنى .. بأن العرش أعظم المخلوقات، فخص بذلك <sup>(١)</sup>.

### ويناقش الرازي المجسمة فيقول:

(فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنه تعالى وإن كان جسماً إلا أنه مخالف لغيره من الأجسام، كما أن الإنسان والفرس وإن اشتركا في الجسمية لكنهما مختلفان في الأحوال والصفات، ولا يجوز أن يقال الفرس مثل الإنسان فكذا هنا؟

### والجواب من جهتين:

الأولى: أنا سنقيم الدلالة على أن الأجسام كلها متماثلة في تمام الماهية، فلو كان تعالى جسماً لكان ذاته مثلاً لسائر الأجسام، وذلك يخالف قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. والذاتان إذا كانتا متماثلتين لكان اختصاص كل واحد منهما بصفاته .. من الجائزات، ولو كان كذلك لزم افتقاره إلى المدبر والمخصص ..

الثاني: أن بتقدير أن يكون مشاركا لسائر الأجسام في الجسمية ومخالفا لها في الماهية المخصوصة يجب وقوع الكثرة في ذات الله تعالى لأن الجسمية مشترك .. وخصوصية ذاته غير مشتركة، وما به المشاركة غير ما به الممايزة، وذلك يقتضى وقوع التركيب في ذاته المخصوصة، وكل مركب ممكن لا واجب، على ما بيناه، فثبت أن هذا السؤال ساقط، والله أعلم <sup>(٢)</sup>

ويرى الأستاذ الدكتور حمودة غرابة أن السلف مؤولون كالأشاعرة تماماً، غاية ما هناك أن المراد بالوجه مثلاً على مذهب السلف غير محدد، مع القطع بأن الوجه الذي نعرفه غير مراد .

وأن المراد بالوجه عند الأشاعرة هو الذات، مع القطع بأن الوجه الذي نعرفه غير مراد .

(١) أساس التقديس ص ١٩٢

(٢) أساس التقديس ٢٨

وهذا يعنى الإجماع على التنزيه، ونفى الوجه المعروف .

وهذا يعنى التأويل عندهم جميعا، ولكن ما المراد بالوجه؟

يقول السلفية: هو وصف لله أجراه على نفسه وهو أعلم بمراده .

ويقول الأشاعرة إنه لفظ عربى، وقد استحال المعنى الحقيقى، فليكن المعنى

المجازى الذى يناسب عظمة الله هو المقصود . فهما متحdan فى التنزيه والتأويل<sup>(١)</sup>.

ونحن نرى أن الفرق الذى ذكره الدكتور حمودة غرابة هام، ولكنه يجعل القول

بأن السلف مؤولون كالأشاعرة تماما غير دقيق، ولو حذفت كلمة تماما " وقيل:

مؤولون كالأشاعرة بوجه معين لكان صحيحا . وعلى كل حال فهم مختلفون من

ناحية التفويض الذى يأخذ به السلف ولا يأخذ به المؤولون .

### رؤية الله تعالى فى الآخرة

يبين العلامة الغنيمى شروط الرؤية مطلقا بصورة دقيقة من شأنها حل المشكلة -

نقلا عن بعض العلماء - فيقول: فإن الرؤية تابعة للشيء على ما هو عليه، فمن كان

فى مكان وجهة لا يرى إلا فى مكان وجهة كما هو كذلك، ويرى بمقابلة واتصال

شعاع وثبوت مسافة، ومن لم يكن فى مكان ولا جهة وليس بجسم فرؤيته كذلك،

ليست فى مكان ولا جهة، ولا بمقابلة واتصال شعاع وثبوت مسافة، وإلا لم تكن

رؤية له

ويشرح العلامة الغنيمى رؤية الله بخاصة فيقول: بغير إحاطة بجوانب المرئى

وحدوده لتعالیه تعالى عن التناهى والاتصاف بالجوانب والحدود، ولا كيفية من

مقابلة وجهة وارتسام واتصال شعاع، وثبوت مسافة بين الرائى والمرئى، لأن هذا

كله فى رؤية الأجسام، والله تعالى ليس بجسم، فليست رؤيته كروية الأجسام .

وفى الرؤية يقول أبو حنيفة رضى الله عنه: (والله يَرى فى الآخرة، ويراه المؤمنون

(١) أنظر تحقيقه على اللمع للأشعرى ص ٨

فى الجنة بأعين رءوسهم: بلا تشبيه، ولا كيفية، ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة<sup>(١)</sup>.

وفى الدليل العقلى على صحة رؤيته تعالى: يذهب الإمام الأشعرى إلى أن كل موجود - أى موجود هو ذات - يصح أن يرى، فإن المصحح للرؤية هو الوجود، والله تعالى موجود إذن فإنه يصح أن يرى . ولا يصح أن تتعلق به الرؤية على جهة ومكان وصورة ومقابلة واتصال شعاع أو على سبيل الانطباع .

أى ويتوقف الأمر بعد ذلك لا على شرط فى المرئى ولكن على شرط أو شروط فى أدوات الرائى، كما يؤيده نظرة العلم الحديث إلى الرؤية، وأنه يجوز منها لبعض المخلوقات ما لا يجوز لمخلوقات أخرى، وأن تركيب الأداة التى يتم بها الرؤية يتوقف عليه الكثير مما يمكن أو لا يمكن رؤيته، مما نراه فى أدوات العلم ومكتشفاته الحديثة فى مجال الرؤية البشرية، بل فيما نراه فى مكتشفات العلم من التفاوت بين الأحياء المختلفة فى إمكانات الرؤية، ولعله من هذا الباب كان تمكين الرسول صلى اله عليه وسلم من رؤية ربه فى المعراج - إن صح القول بذلك - بعد أن تم تأهيله جسديا للعروج فكان لجسده وحواسه من الإمكانات والأدوات ما ليس له فى حاله قبل العروج، والله أعلم

ويقول الإمام الغزالى: (إن الله تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار .. مرئى بالعين والأبصار فى الدار الآخرة دار القرار) ثم يقول: (إن نفى الجهة عمن تقدس عن الجهات والأقطار يوهم انتفاء الرؤية، إذ جرت العادة ألا تتعلق الأبصار إلا بمرئيات مقابلة للأبصار، فدفع هذا التوهم المتأتى من سطوة العادة ببيان جواز الرؤية عقلا، ووقوعها سمعا، إن الحشوية والكرامية وإن ساعدوا على جواز الرؤية حكموا بجوازها لاعتقادهم أنه فى جهة، أما نحن أهل السنة فنقضى بجوازها مع نفى اختصاصه بالجهات)<sup>(١)</sup>

(٢) الفقه الأكبر بشرح المغنيساوى (ص ٣٢) ومثله فى بيان الطحاوى (ص ٧).

(١) كتاب العقائد من كتاب إحياء علوم الدين

ثم يشرح الغنيمى المراد برؤية المسلم لله تعالى نقلا عن اللقانى فى شرح الجوهرة فيقول: والمراد أنه ينكشف سبحانه وتعالى انكشافا تاما بحاسة البصر لكل فرد من المؤمنين مع اختلاف فى الجزئيات. فيما يتعلق بالملائكة والجن .

ومما يؤيد صحة الانكشاف بحاسة البصر دون وقوع فى التشبيه ما نجده فى النظرة العلمية الحديثة لكل من الإحساس والإدراك الحسى من التفرقة بين كلمة الإحساس التى تطلق على الوقائع العقلية التى لا ترجع إلى الخبرة الفردية السابقة، وبين كلمة (الإدراك الحسى) التى تطلق على الإحساس وما يصاحبه ويلصق به مما جعله التاريخ الماضى للفرد لا فكاك منه<sup>(١)</sup>

ومن الواضح أن شروط الرؤية التى استند إليها المعتزلة فى نفى إمكان رؤية الله تعالى ليست من قبيل الإحساس المطلق عن قيود الخبرة ولكنها من قبيل الإدراك الحسى الذى يرتبط عادة بالخبرات الفردية السابقة، ويتأكد ذلك من مطالعة الشروط التى أوردوها وهى:

سلامة الخواس، والمقابلة بين الرأى والمرئى، وانعدام الحجاب، وتوسط المسافة بين الرأى والمرئى فلا تكون فى غاية القرب ولا فى غاية البعد، وتوسط حجم المرئى فلا يكون فى غاية الصغر أو اللطافة [ولا فى غاية الكبر والكثافة إلخ] هذه الشروط التى ضرب بها عرض الحائط التقدم العلمى المعاصر .

و بناء على هذه التفرقة بين الإحساس والإدراك الحسى نلمس قاعدة يمكن الاستناد إليها فى مسألة رؤية الله، حيث يمكن أن يقال: إن قوله تعالى " لا تدركه الأبصار " فيه نفى للإدراك الحسى الملتصق بالتاريخ التجريبي الماضى للفرد الذى لا فكاك منه، وليس فيه نفى للإحساس (الرؤية) المتحرر من هذا التاريخ " فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " .

أضف إلى ذلك - مما يهدم شروط الرؤية المستفادة من التجارب السابقة والتى

(١) أنظر كتاب " العقل والمادة " لبرتراند رسل ص ١٩٥

كانت تسيطر على فهم المعتزلة للموضوع - ما أثبتته العلم الحديث من بطلان التصورات العلمية القديمة التي كانت تقوم على أن الرؤية تكون نتيجة لأشعة تسقط من العين على المرئى، حيث ثبت العكس وهو أن الرؤية تكون نتيجة لأشعة متصلة بالمرئى تسقط على العين، وأيضا بطلان التصور القديم القائم على أننا نرى بعيوننا، في حين أن العلم الحديث يثبت اليوم أننا لا نرى بعيوننا ولكن بمراكز خلوية معينة في المخ والعين وسيلة إلى هذه المراكز !!

هذا فضلا عما كان يذهب إليه بعض القدماء من أن العين ليست هي التى ترى ولكنها مجرد نافذة تطل منها النفس كشأن النوافذ الأخرى للحواس الأخرى، والنفس هي التى ترى، والأذن نافذة والنفس هي التى تسمع، إلخ: نقله الشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى عن القرافى فى التنقيح، وذلك فى شرحه للقطعة العجلان للإمام الزركشى .

### الدليل السمعى

ومن الدليل السمعى على رؤية الله سبحانه وتعالى فى الآخرة قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ ٢٢ - ٢٣ القيامة

ولا يصح تأويل ناظرة بمنتظرة أولا: لأن التأويل لا يصار إليه إلا بعد استحالة المعنى الظاهر، وقد أثبتنا أن القول بالاستحالة محض وهم بحكم العادة، وثانيا لأن الانتظار سبب للغم والقلق، والآية مسوقة لبيان النعم، وثالثا: لأن النظر بمعنى الانتظار يتعدى بنفسه، أما بمعنى النظر فيتعدى بإلى وهو ما جاء فى الآية، رابعا: لأن النظر بمعنى الانتظار يتعلق بالقلب والخاطر لا بالعين كما فى الآية .

ومن الدليل السمعى قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: وفى تفسيرها جاء ما ورد عن صهيب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا أنه قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال:

فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) وفي رواية (وزاد: ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾<sup>(١)</sup>. يونس ٢٦.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُولُونَ﴾ يقول الإمام الشافعي " لما حجب الكفار في السخط دل على أن أولياءه يرونه في الرضا "

والحديث الشريف الصحيح فيما رواه الإمام البخارى وغيره بطرق متنوعة (إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته)

وفي رواية لمسلم أن ناسا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا لا، قال فإنكم ترون كذلك . فتشبيه الرؤية برؤية البدر والشمس من حيث الوضوح التام والتجلى الكامل الذى لا شك فيه ولا ريب .

ويبين الإمام الباقلانى: أن التشبيه الوارد في الحديث هو تشبيه رؤية برؤية لا مرئى بمرئى . فالله يرى بلا كيف

أما قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ارْنِيْهُ ۖ أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرِنِيْ وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِيْ ۖ ﴾ فقد نقل ابن فورك عن أبى الحسن الشعرى أنه قال: قال تعالى: ﴿ لَنْ تَرِنِيْ ﴾ ولم يقل: لست بمرئى على ما هو المقام لو امتنعت الرؤية .

كذلك فإن "لن" تفيد النفي في المستقبل لا على التأييد خلافا للزمخشرى وهو معتزلى، ودعواه بغير دليل<sup>(٢)</sup>

هذا وقد علق القرآن الكريم حصول الرؤية على ممكن هو استقرار الجبل، وما علق على الممكن فهو ممكن، أما استغفار موسى في قوله بعد طلب الرؤية " إني تبت إليك " فلا يحمل على كونه من طلب الرؤية وإلا لمنع من بداية الأمر دون انتظار

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم

(٢) أنظر تنمة هذا البحث اللغوى في شرح الجوهرة للأستاذ عبد الكريم تان وآخرين ج ٢ ص ٦٦٥ -



لحادثة التجلي واندكالك الجبل، ولجاءه الوحي بالمنع لا بالاستعداد للرؤية، وإنما هو الاستغفار المطلوب من المؤمن في جميع الحالات أو هو الاستغفار من مجرد استشعار الجرأة في التطاول إلى مستوى "الرؤية" الذي لم يصبح بعد مناسباً، أو لأنه طلب ما لم يعرف حقيقة مطلوبه، أو مما استشعر في نفسه من ضعف الطمأنينة التي استشعر إبراهيم عليه السلام مثلها من قبل في طلبه رؤية: كيف يحیی الله الموتى.

وقال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: قال الإسفراييني "وأن تعلم أن الله القديم سبحانه يرى وتجاوز رؤيته بالأبصار، لأن ما لا تصح رؤيته لم يتقرر وجوده كالمعدوم، وكل ما صح وجوده جازت رؤيته كسائر الموجودات، ودلائل هذه المسألة في كتاب الله كثيرة منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَهُمَّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ ٤٤ الأحزاب، فاللقاء إذا أطلق في اللغة وقع على الرؤية خصوصاً، حيث لا يجوز التلاقي بالذوات والتماس بينهما .. ومنها قوله تعالى: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار هذا يبين أن جميع الأبصار لا تدركه ومفهومه أن بعضها يدركه"<sup>(١)</sup>

ويفرق بعضهم بين الرؤية فهي جائزة، والإدراك فهو لا يجوز، للفرق بينهما من حيث إن الرؤية لا تقتضي الإحاطة، والإدراك يقتضيه<sup>(٢)</sup>

وفي بصائر ذوى التمييز للفيروزابادي (تسمى الرؤية إدراكاً إذا أحاط البصر بالمرئى بجميع حدوده)

وعن ابن عباس في تفسير الآية: لا يحيط بصر أحد بالملك .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره بعد أن يذكر رأى القائلين بأنه لا منافاة بين

---

(١) التبصير في الدين لأبى المظفر الإسفراييني ت ٤٧١، بتعليق الشيخ محمد بن زاهد بن الحسن

الكوثري ط مطبعة الأنوار عام ١٩٤٠ م ص ٩٤

(٢) في لسان العرب: الدَّرَكُ اللحاق، والدَّرَكُ اسم من الإدراك، مثل اللُّحَقِ، والدَّرَكُ اللحاق والوصول إلى الشيء، والدَّرَكُ: لحاق الفرس الوحش، وفرس دَرَكَ الطريدة يدركها، والدريكة الطريدة، والمتدازكة غير المتواترة، والمتواتر الشيء الذى يكون هنية ثم يجيء الآخر، فإذا تنابعت فليست متواترة، والدَّرَكُ والدَّرَكُ أقصى قعر الشيء، وقال أبو عدنان: يقال: أدركوا الركية إدراكاً، ودَرَكَ الركية قعرها الذى أدرك فيه الماء . اهـ

إثبات الرؤية ونفى الإدراك (فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفى الأخص نفى الأعم:

ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفى:

ف قيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك .

وقال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية وهو الإحاطة، ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، وفي صحيح مسلم (لا أحصى ثناء عليك )، ولا يلزم منه عدم الثناء .

وعن عكرمة قال: ألسنت ترى السماء؟ قال: نعم، قال: فكلها ترى؟

... وعن ابن عباس في تفسير قوله تعالى لا تدركه الأبصار: رأى محمد ربه تبارك وتعالى ثم قال: ذلك نوره الذى هو نوره، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء، وفي رواية: لا يقوم له شيء . قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . اهـ تفسير ابن كثير .

وإذ قد ثبت إمكان الرؤية من ناحية وصحة وقوعها بالفعل من ناحية أخرى بناء على الأدلة المذكورة فإنه لا يصح فيها تأويل ولا تشبيه .

وهذه الرؤية مجمع عليها عند أهل السنة في الجملة، وإن اختلف العلماء في بعض جزئياتها وأفرادها ومكانها

فقد قال العز بن عبد السلام: عن الملائكة أنها لا ترى ربها في الآخرة أخذا بعموم قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ الأنعام ١٠٣ فإنه عام خص منه مؤمنو البشر بالنص - إشارة إلى الحديث (إنكم سترون ربكم إلخ) - فبقى على عمومه فيمن عداهم .

والحق أنهم يروونه سبحانه بناء على تفسير نفى الإدراك بأنه لا يعنى نفى الرؤية، وكما نص على ذلك الأشعرى والبيهقى والبلقيني

وجزم الجلال السيوطى بأن الجن تحصل لهم الرؤية فى الموقف مع سائر الخلق قطعاً، وتحصل لهم فى الجنة فى وقت ما من غير قطع بذلك<sup>(١)</sup>.

والحق أنه يستوى فى ذلك الرجل والمرأة لعموم النص .

### رؤية المؤمنين لله تعالى فى الدنيا:

وفى استحالة رؤية المؤمنين لله فى الدنيا جاء فى شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى رواية له بسنده عن الربيع عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٤٣ الأعراف، قال: وكان قبله مؤمنون، ولكن يقول: ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، أنا أول من آمن بهذا أنه لا يراك أحد قبل يوم القيامة "

وهو فى تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ يقول: يعنى أنه لا تدركه الأبصار فى الدنيا<sup>(٢)</sup>

وقال الإمام النووى فى شرح مسلم: (أما رؤية الله تعالى فى الدنيا فقد قدمنا أنها ممكنة، ولكن جمهور السلف والخلف من المتكلمين وغيرهم على أنها لا تقع فى الدنيا)

أما عن رؤية محمد صلى الله عليه وسلم لربه فى الدنيا:

ففى تفسير ابن كثير: وأخرجه مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك قال نورا أنى أراه . وفى رواية أخرى: قال أبو ذر: قد سألت فقال: رأيت نورا اهـ

وفى شرح أصول السنة للالكائى وفى تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ بسنده عن ابن عباس أنه سئل هل رأى محمد ربه؟ قال: نعم، فقليل لابن

(١) شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية ٦٩-٧٠

(٢) اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة لهبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائى ت ٤١٨

تحقيق د: أحمد سعد عمدان ط ١٤٠٢ ج ٣ ص ٥٢٠

عباس: فأين قوله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار؟ قال: لا أم لك ذلك نوره الذى هو نوره، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء .

وأرى فى عبارة ابن عباس هذه إشارة إلى الربط بين الأمرين: الرؤية وعدم الإدراك معاً، بل إشارة إلى أن الرؤية هى السبب فى عدم الإدراك، والله أعلم .

ومن الناحية المقابلة جاء فى صحيح البخارى: بسنده عن القاسم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم، ولكن قد رأى جبريل فى صورته وخلقه ساداً ما بين الأفق

وفيه بسنده عن الشعبى عن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله تعالى عنها: فأين قوله " ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى "؟ قالت: ذاك جبريل، كان يأتيه فى صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة فى صورته التى هى صورته فسد الأفق .

وفى السنن الكبرى للنسائى: بسنده عن مسروق عن عائشة قالت: ثلاث من قال واحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية:

من زعم أنه يعلم ما فى غد، والله يقول: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ لقمان .

ومن زعم أن محمدا كتم شيئاً من الوحي، والله يقول: ﴿ يَتَأَيَّمُ الرَّسُولُ بَلِّغَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ .

ومن زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الأنعام، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ الشورى .

فقلت: يا أم المؤمنين ألم يقل: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ النجم، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ ﴾ التكوثر؟

فقلت: سألنا عن ذلك نبى الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رأيت جبريل ينزل من الأفق على خلقه وهيته أو على خلقه وصورته ساداً ما بينهما . اهـ

وفي تفسير هذا الاختلاف جاء في الديباج على صحيح مسلم للسيوطي: قال: قال الإمام النووي: الراجح عند أكثر العلماء أنه رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء، لحديث ابن عباس وغيره، وإثبات هذا لا يكون إلا بالسماع من رسول الله، ولم تعتمد عائشة في نفى الرؤية على حديث رسول الله، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات، والجواب عن هذه الآية التي استشهدت بها أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: أن الإدراك هو الإحاطة والله تعالى لا يحاط به وإذا ورد النص بنفى الإحاطة فلا يلزم منه نفى الرؤية بغير إحاطة .

### أما عن الرؤية في المنام:

فإنها إن كانت بتكليف وتشبيه فليست رؤية حقيقية، تبعاً لما قررناه من أن رؤية شيء فإنها تكون تابعة لما هو به، فإذا لم تكن كذلك لم تكن رؤية له، وقد تكون حينئذ مما يخضع له المنام بوجه عام من وسائط التعبير والترميز .

يقول الإمام ابن تيمية في الفتاوى (لا يمكن لأحد أن يرى ربه في الدنيا، ومن جوز ذلك فإنها جوزه للنبي، كقول ابن عباس: رأى ربه بفؤاده مرتين، ولكن هذا التجلي يحصل بوسائط بحسب إيمان العبد ومعرفته وحبه ولهذا تتنوع أحوال الناس في ذلك، كما تتنوع رؤيتهم له تعالى في المنام)<sup>(١)</sup>

وفي شرح أصول السنة للالكائي بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت ربي في منامي في أحسن صورة .

وفي فتح الباري في رؤية النبي في المنام في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم من "رأى فقد رآني": قال الغزالي: ليس معنى قوله "رأى" أنه رأى جسمي وبدني وإنما المراد أنه رأى مثالا، صار ذلك المثال آلة، يتأدى بها المعنى الذي في نفسي إليه

وكذلك قوله: "من رآني في المنام فسيراني في اليقظة" ليس المراد أنه يرى

جسمي وبدني

(١) أنظر شرح الجوهرة للشيخ عبد الكريم نيتان وآخرين ج ٢ ص ٦٨٩ - ٦٩٠

قال: والآلة تارة تكون حقيقية، وتارة تكون خيالية، والنفس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ولا شخصه، بل هو مثال له على التحقيق .

قال: ومثل ذلك من يرى الله سبحانه وتعالى في المنام، فإن ذاته منزهة عن الشكل والصورة ولكن تنتهى تعريفاته إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره، ويكون ذلك المثال حقا في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: " رأيت الله تعالى في المنام " لا يعنى أنى رأيت ذات الله تعالى كما يقول فى حق غيره .

وقال أبو القاسم القشيري: ما حاصله : إنه لو رأى الله على وصف يتعالى عنه وهو يعتقد أنه منزّه عن ذلك لا يقدر فى رؤيته، بل يكون لتلك الرؤيا ضرب من التأويل كما قال الواسطى من رأى ربه على صورة شيخ كان إشارة الى وقار الرائي وغير ذلك اهـ

ونحن ما بين هذه الأخبار فى الرؤية فى الدنيا: نتوقف فى حصولها على صحة الخبر، والله أعلم بما وقع، أما من ناحية الجواز فنؤمن بجوازها بغير تشبيه ولا تأويل، على نفس النحو الذى نؤمن به بجوازها يوم القيامة .  
لا تكفير لمن ينكر رؤية الله تأويلا لما ورد لا إنكارا له .

. ينقل العلامة الغنيمى فى شرح العقيدة الطحاوية عن شرح العقائد: (أن الجمع بين قولهم: لا نكفر أحدا من أهل القبلة وقولهم بكفر من قال بخلق القرآن واستحالة الرؤيا أو سب الشيخين وأمثال ذلك .. مشكل) .

ويرد الغنيمى هذا الإشكال بقوله: قد ذكر العلامة البخارى: أن إطلاق مشايخنا الكفر بالكلمات المذكورة ونحوها ليس على ظاهره، بل تغليظا يريدون به التنفير أو مقيدا باعتقاد ما يكون به اللفظ كفرا .

ويرشد إلى هذا قوله - أى الإمام الطحاوى - (ولا يخرج العبد من الإيثار إلا

بجحود ما أدخله فيه) أى فى الإيمان، وهو الإقرار بالتوحيد والإذعان به، وبكل ما علم بالضرورة أنه من الدين اهـ غنىمى<sup>(١)</sup>

يقول الإمام الطحاوى فى موضوع الرؤية إجمالاً: (لا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم، إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى حضرة الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المرسلين وشرائع النبيين، ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه)

وهو يقرر هنا أصولاً ينبغى الرجوع إليها فى كل مظنة تشبيه حيث يقول (فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس بمعناه أحد من البرية، تعالى الله عن الحدود والغايات، والأركان والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات) فهو قد كان قبل خلقها، وهو الآن ما عليه كان<sup>(٣)</sup>.

ثم يقول الإمام الطحاوى: (الرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا .. وكل ما جاء فى ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين فهو حق كما قال، ومعناه وتفسيره على ما أراد، لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم فى دينه إلا من سلم لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه)

**وهنا يظهر واضحاً منهج التسليم والتفويض والتنزيه.**

---

(١) شرح الغنىمى للعقيدة الطحاوية ص ٩٦ - ٩٧، وهذا من باب ما يقال: درجات من الكفر لا تخرج من الملة كما سنذكره فى موضعه بالتفصيل .

(٢) الوهم عند المنطقة : قوة تدرك المعانى الجزئية وهو أحد الحواس الخمس الباطنة: وهى بالإضافة للوهم: الحس المشترك وهو قوة يدرك بها صور المحسوسات، والمصورة وتسمى المتصرفة وهى قوة تحلل الصور وتركيبها كيفما شاءت، والمتخيلة وهى قوة تحفظ صور المحسوسات والحافظة وهى قوة تحفظ ما يدركه الوهم . أنظر لقطه العجلان للزركشى بشرح الشيخ محمد جمال الدين القاسمى .

(٣) أنظر العقيدة الطحاوية بشرح الغنىمى ص ٧٢ - ٧٥

## الاستواء على العرش

العرش في اللغة السرير وقيل المراد به كما قال اللقاني في شرحه على جوهرة التوحيد: جسم عظيم نوراني علوى محيط بجميع الأجسام، ولا قطع لنا بتعيين حقيقته لعدم العلم بها

وذكر الإمام البيضاوى في تفسيره: (والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمى به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير الملك، فإن الأمور والتدابير تنزل منه، وقيل: الملك.)<sup>(١)</sup>

وفي شرح البخارى لشيخ الإسلام: أن العرش فوق العالم وأنه ليس بكرة كما يزعم كثير من أهل الهيئة، بل قبة ذات قوائم تحمله الملائكة

قال الغنيمى: ويمكن الاستدلال على أن العرش والكرسى على صورة الكرة كما يزعمه أهل الهيئة بما ورد في الحديث " بأن السموات السبع مع الكرسى كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على الحلقة "<sup>(٢)</sup> : فإن تخصيص الحلقة بالتمثيل بها وذكر العرش معها مؤذن بذلك، فإن الحلقة مستديرة كما هو المتبادر والله أعلم .

والإمام أبو حنيفة يقرر (أن الله تعالى استوى على العرش من غير أن يكون له حاجة واستقرار عليه<sup>(٣)</sup>). ويقول: (كان الله تعالى ولا مكان، قبل أن يخلق الخلق، وكان الله تعالى ولم يكن أين ولا خلق ولا شئ، وهو خالق كل شئ<sup>(٤)</sup>).

ويقول أبو حنيفة: (من قال لا أعرف ربي في السماء أو الأرض فقد كفر، وكذا

---

(١) شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية ص ٩٠ - ٩١

(٢) رواه البيهقى في الأسماء والصفات بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنظر هامش شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية بتحقيق وتعليق عماد مطيع الحافظ، وعماد رياض المالح ص ٩١

(٣) الجوهرة المنيفة في شرح الرصية (ص ١٠).

(٤) الفقه الأيسر (ص ٧٥).



من قال إنه على العرش ولا أدري أفي السماء أو في الأرض . والله تعالى يدعى من أعلى لا من أسفل لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والإلهية في شيء<sup>(١)</sup>.

وأرجح أن هذا النص يعنى أن أبا حنيفة ينزه الله عن المكان، وأن توجيه الدعاء للأعلى ليس بسبب المكان ولكن بسبب المكانة بدليل التعليل الذي ذكره، وهو إنها يكفر من يطرح أسئلته على ذلك النحو لما فيه من توهم العدمية من ناحية و أن يكون لله مكان من ناحية أخرى، هذا ما يتفق مع نص سابق للإمام، في قوله (كان الله ولا مكان) وهذا ما يستند إلى فهم أتباعه من الماتريدية مثل: أبى الليث السمرقندي، والطحاوى، والبياضى<sup>(٢)</sup>.

وابن قيم الجوزية يروى عن أبى حنيفة خبراً يقول فيه أبو حنيفة: (إن الله سبحانه في السماء دون الأرض) فقال رجل لأبى حنيفة: رأيت قول الله تعالى: وهو معكم، قال أبو حنيفة (هو كما تكتب للرجل إني معك وأنت عنه غائب) . ذكره ابن قيم الجوزية في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ٤٦)، وإني لأستبعد صدور هذا عن أبى حنيفة، لما تقدم ولما في الخبر من تأويل عجيب، إذ يكون التأويل في جانب نفى المكانية، دون جانب إثباتها في العلو ...

وقال الإمام في وصيته: نقر بأن الله على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة إليه واستقرار عليه، وهو الحافظ للعرش وغير العرش، فلو كان محتاجاً لما قدر على إيجاد العالم وتديره كالمخلوق، ولو كان محتاجاً إلى الجلوس فقبل خلق العرش أين كان الله تعالى؟ فهو متزه عن ذلك علواً كبيراً اهـ

يقول العلامة الغنيمي في شرحه للعقيدة الطحاوية: فانظر كيف أجراه على ظاهر التنزيل من غير تأويل، مع التنزيه عما لا يليق بذات الجليل، وهذه طريقة السلف، وهم أسلم، والتأويل طريقة الخلف وقد قيل: إنها أحكم اهـ<sup>(٣)</sup>

(١) الفقه البسيط (ص ٤٩) .

(٢) الفقه الأبسط: انظر شرح الشيخ الكوثري (ص ٤٩) وما بعدها

(٣) شرح الغنيمي للعقيدة الطحاوية ص ٧٣-٧٤

وفي رأى أن العلامة الغنيمي كان موفقا في صيغة التضعيف في قوله: وقد قيل إنها أحكم، وربما كانت طريقة التسليم بغير تشبيه ولا تأويل هي أسلم وأحكم معا، وهذا ما أميل إليه .

يقول الإمام الطحاوى (وهو عز وجل مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وبما فوقه وقد أعجز عن الإحاطة خلقه)

وهذا واضح في تثبيت منهج التسليم والتفويض والتنزيه

وللإمام الماتريدى نظرة متميزة وهو يبطل القول بالكون على العرش بمعنى الاعتلاء المكانى إذ يستدل على ذلك فيما يستدل بأن كل ملك في الشاهد يتخذ لنفسه عرشا لا يجعل ذلك مسكنا أو مقعدا، فإذا لم يتوهم من الخلق أنهم يتخذون ذلك لمقاعدهم ومجالسهم فلا نتوهم ذلك من الله من باب أولى .

وإذ ينفى الماتريدى أن يكون المراد بالاستواء الفوقية المكانية يورد عبارات أخرى ذات معان لا تتضمن التشبيه، ويُقبل فيها عادة تفسير الاستواء بمعنى الاستيلاء أو التمام أو العلو أو القصد مثل قولهم: "استوى فلان على كوره"، أى استولى عليها، والعلو في مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ ﴾ والتمام في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ والقصد في مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾، أما من ناحية استعمال حرف "على" فهو يذكر أنها من حروف الجر التى يوضع بعضها موضع بعض، كقوله تعالى: ﴿ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ فالمعنى عن الناس .

وبيّن الماتريدى رأيه بوضوح في : أنه ثبت بالتنزيل القول بأنه استوى على العرش، وقد لزم القول بأنه ليس كمثل شيء، وتم الاتفاق على ألا يقدر كلامه بما عرف من كلام الخلق، ولكن بما يليق به، وبما يوجهه حق الربوبية، فكذا في الاستواء، ثم يلزم تسليم المراد لما عنده إذ لم يبينه لنا، وقد ثبت نفى ما يفهم من غيره.<sup>(١)</sup>

(١) المغربى ص ٢٢٩ - ٣٣٣ نقلا من التوحيد ٦٩ - ٧٣ - ٧٤، وتأويلات أهل السنة ج ١ ص ٦٤٩ - ٦٥٠، ج ٣ ص ١١٢

ويقرر أبو الليث السمرقندي (مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى على العرش علو عظمة وربوبية لا علو مكان ومسافة) ويذهب إلى ضرورة تأويل الاستواء على العرش، فيؤوله تارة بأنه استواء المملكة، وتارة بأن المراد منه "استوى فعل التخليق على عرشه"

والإمام الأشعري في كتابه "الإبانة" بعد أن تحدث عن الاستواء على العرش وبعض الآيات وما فيها من الفوقية: قال: كل ذلك يدل على أنه تعالى ليس في خلقه، ولا خلقه فيه، وأنه مستو على عرشه سبحانه بلا كيف ولا استقرار، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا، فلم يثبتوا له في وصفهم حقيقة، ولا أوجبوا له بذكرهم إياه وحدانية، إذ كل كلامهم يؤول إلى التعطيل، وجميع أوصافهم تدل على النفي، يريدون بذلك التنزيه ونفي التشبيه على زعمهم، فنعوذ بالله من تنزيه يوجب النفي والتعطيل. اهـ

والإمام الأشعري ينكر في كتابه الإبانة على القائلين بتأويل الاستواء بمعنى الاستيلاء، فيقول: (فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها لكان مستويا على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش) ومادام أن القول بذلك غير جائز (وجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها)<sup>(١)</sup> أي فلا يكون بمعنى مستوليا.

لكن من الممكن مناقشة هذا الاستدلال: بأن الذين يؤولون الاستواء بمعنى الاستيلاء لا ينكرون أن يكون مستويا على الحشوش بمعنى مستوليا عليها، ويبقى عندهم أمران: أن الأسلوب القرآني خص الاستيلاء على العرش بالذكر باعتبار أن الاستيلاء على الأشرف استيلاء على ما دونه، وأن استعمال الاستواء في الأشرف يمثل خصوصية له فلا يتوسع في استعماله في غيره.

ويقرر الباقلاني (أن الله تعالى متقدس عن الاختصاص بالجهات... لا يوصف بالتحول والانتقال، ولا القيام ولا القعود...)

(١) الإبانة ص ٤٣

وفي مسألة استوائه تعالى على العرش يقرر إطلاق ذلك كما جاء في الكتاب والسنة، مع نفى أمارة الحدوث عنه تعالى، وأن استواءه لا يشبه استواء الخلق، (ولا نقول إن العرش له قرار ولا مكان، لأن الله تعالى كان ولا مكان، فلما خلق الخلق لم يتغير عما كان) <sup>(١)</sup> فالتغير أمارة النقص والحدوث.

والإمام الجويني وإن ذهب في كتابه "لمع الأدلة" إلى تأويل الاستواء بالقهر والغلبة والعلو - نجده في كتابه "العقيدة النظامية" وهو من آخر مؤلفاته يذهب إلى أن الأولى اتباع ما ذهبت إليه (أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردّها، وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه) ويقول: (إذا تصرّم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع بحق).

فعلى ذى الدين أن يعتقد تنزيه الرب عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تعالى) وهو يجذب الوقف عند قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) ويذكر قول مالك رضى الله عنه (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) ويدعو إلى اتخاذ هذا المنهج فيما يتعلق باليد والوجه والعين والاستواء والمجيء وغيرها <sup>(٢)</sup>

ويرجع الإمام الزركشى بمقالة مالك الشهيرة إلى أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها، ويذكر أن سفيان الثوري رضى الله عنه قال: (أفهم من قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ما أفهم من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ ١١ فصلت ويذكر أن الإمام الأوزاعي سئل عن تفسير هذه الآية فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كما قال وإنى لأراك ضالاً) وأنه سئل إسحاق بن راهويه ت

(١) الإنصاف ص ٤١ - ٤٢

(٢) العقيدة النظامية بتحقيق الكوثري وحول هذا يقول الكوثري: (إن المراد بالسلب في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ سلب العموم، لا عموم السلب، أى أن المنفى أن يعرف تأويل كل شيء، لا تأويل شيء ما)، ولعل هذا هو ما يعيد الاتساق إلى كلام الجويني في تأويله للاستواء في كتابه لمع الأدلة ثم تعبيده لأولوية الوقوف عن التأويل هنا.

٢٣٨ هـ عن الاستواء أقائم هو أم قاعد؟ فقال: لا يمل القيام حتى يقعد ولا يمل القعود حتى يقوم وأنت إلى غير هذا السؤال أحوج<sup>(١)</sup>

وينقل السيوطي عن ابن الحاجب أن الذين توقفوا عن التأويل هم الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم<sup>(٢)</sup>

وإذا كان صحيحاً ما ذكره الإمام البيضاوي في تفسيره: (والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير الملك، فإن الأمور والتدابير تنزل منه، وقيل: الملك).<sup>(٣)</sup> فيمكن القول بأن لفظ العرش مشترك لفظي<sup>(٤)</sup> يعني الجسم المخصوص في موضع، والملك في موضع آخر، ويصبح من ثم لا تشابه في قوله تعالى "ثم استوى على العرش" حيث يصرف إلى أحد هذه المعاني التي لا تورث تشابهاً.

ويضبط الإمام الجويني التفاوت بين كل من مناهج: التشبيه، والتفويض، والتعطيل بقوله: (من انتهض إلى طلب مدبره: فإن اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبه، وإن اطمأن إلى النفي المحض فهو معطل، وإن قطع بموجود واعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد)<sup>(٥)</sup>

### نظرة شاملة في ساحة الحنابلة واتهامهم ظلماً بالتشبيه

#### الإمام أحمد بن حنبل والتشبيه:

يقول الإمام الرازي: اعلم أن جماعة من المعتزلة ينسبون التشبيه إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وإسحاق بن راهويه ويحيى بن معين، وهذا خطأ.

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي بتحقيق الأستاذ أبو الفضل

إبراهيم طبعة عيسى البابي الحلبي الأولى عام ١٣٧٦ هـ ج ٢ ص ٧٨

(٢) الإتيان في علوم القرآن للإمام جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي طبعة مصطفى الحلبي لعام

١٩٥١ هـ ج ٢ ص ٣

(٣) شرح الغنيمي للعقيدة الطحاوية ص ٩٠ - ٩١

(٤) المشترك إن أريد به كل معانيه فهو من قبيل الظاهر، وإن أريد بعضها على سبيل التعيين فهو من قبيل

المجمل، وعلى كل فهو غير المتشابه

(٥) العقيدة النظامية ص ١٣ - ١٤

فإنهم منزهون في اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل . لكنهم كانوا لا يتكلمون في التشابهات، بل كانوا يقولون آمنا وصدقنا، مع أنهم كانوا يجزمون بأن الله تعالى لا شبيه له، وليس كمثله شيء، ومعلوم أن هذا الاعتقاد بعيد جدا عن التشبيه<sup>(١)</sup>

وفي أساس التقديس يقول الرازي: نقل الإمام الغزالي رحمه الله عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال بالتأويل في ثلاثة أحاديث: أحدها قوله عليه السلام "الحجر الأسود يمين الله في الأرض"، وثانيها قوله عليه السلام "إني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن" وثالثها قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه "أنا جليس من ذكرني"<sup>(٢)</sup>

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى (إنه وإن كان بعض الحنابلة الأتقياء وقعوا في التجسيم أو التشبيه فإن من الخطأ ما يذكره بعض المعتزلة من أن الإمام أحمد بن حنبل كان من الداهيين هذا المذهب . إنه كان كمالك بن أنس وغيره من رجال السلف، الذين ينزهون الله عن التشبيه وعن التعطيل، ويسكتون عن الكلام في الآيات المتشابهة، مع الجزم بأن الله لا شبيه له، وليس كمثله شيء)<sup>(٣)</sup>

وهو كما قال عنه الشيخ محمد أبو زهرة: أثبت أحمد بن حنبل رضي الله عنه الله تعالى كل ما جاء في القرآن والحديث من صفات الله، فهو يصف الله تعالى بأنه سميع بصير متكلم مريد عليم خبير لطيف عزيز ليس كمثله شيء، ويذكر كل ما وصف به الله تعالى ذاته من غير محاولة تأويل، وكذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد روى عنه ابنه عبد الله أنه قال في أحاديث الصفات: "هذه الأحاديث نروياها كما جاءت" فهو لا يبحث عن كنه الصفات وحقيقتها، واعتبر التأويل خروجاً على السنة والقرآن إن لم يكن مستمداً من أحدهما بالنص، وذلك لأنه يرى أن اتباع التشابه ابتغاءاً للفتنة، وابتداعاً في الإسلام، ولذلك يقول رضي الله

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشرّكين الإمام الرازي ص ٦٦

(٢) أساس التقديس ص ١٠١

(٣) القرآن والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى ص ٧٧

عنه: (صفة المؤمن إرجاء ما غاب عنه من الأمر إلى الله تعالى كما جاءت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيصدقها ولا يضرب لها الأمثال) <sup>(١)</sup>

وإذا عرضنا هذا المنهج على الأصول الثلاثة التي ذكرناها وجدناها متطابقة معها في محدودية العقل، والمنهج العملي، والقصد في الجدل .

ولا يفوتنا أن نذكر أن آفة هذه المنهجية تأتي عندما تطرح المسائل بحذاقها وتفصيلها وجدلياتها وسط الجماهير فيجد فيها الأغبياء ضالتهم لتعويض ما يشعرون به من ضعف ذهني عندما يتبنون منها ما لا يقدرّون على إدراك نتائجه أو مراميّه، ويندفعون في إرضاء غرورهم مستعرضين ما لا يملكون من زعامة فكرية وقيادة مذهبية، تؤدي في النهاية إلى تحريف الفكرة الأصلية، واختلاط العقائد، وإحداث القلاقل، وانفلات النظام .

وقد حدث مثل ذلك قريبا من عهد الإمام أحمد - وقد رأينا الجماهير التي التفت حوله - وذلك فيما ينقل أبو الفداء أنه في عام ٣٢٣ هـ ببغداد (عظم أمر الحنابلة على الناس، وساروا يكسبون دور القواد والعامة، فإن وجدوا نبذا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها، وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، وفي مشى الرجال مع الصبيان ونحو ذلك .

فنهاهم صاحب الشرطة عن ذلك، وأمر ألا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم، فلم يفد فيهم ذلك شيئا، فكتب الراضي توقيفا ينهاهم فيه، ويوبخهم باعتقاد التشبيه، ومما جاء فيه قوله:

إنكم تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، وهيئتكم على هيئته، وتذكرون له الشعر القَطِط، والصعود إلى السماء والنزول .... إلخ، وفي آخره يقول: إن أمير المؤمنين، يقسم قسما عظيما لئن لم تنتهوا ليستعملن السيوف في رقابكم، والنار في منازلكم ومحالكم) <sup>(٢)</sup>

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة، ومناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي

(٢) المختصر في أخبار البشر لابن أبي الفداء ج ٢ ص ٨٢

ولو تم تحييد الأغبياء في مجالس العلماء لما حدثت المأساة، وما أشبه الليلة بالبارحة .

هذا ويقرر الإمام ابن تيمية - وهو من كبار أئمة الحنابلة - فساد ما ذهب إليه بعض الفرق من أن كلام الله القديم هو حروف وأصوات لازمة لذاته أزلا وأبداً، ولا يفرقون بين جنس الحروف وأعيانها، بل يجعلون عين الحروف قديمة أزلية، وينكر نسبة هذا الرأي إلى أحمد وأصحابه، ويقول: (هذا الذي يحكى عن أحمد وأصحابه - أن صوت القارئ ومداد المصاحف قديم أزلي - كذب مفترى لم يقل ذلك أحد، ولا أحد من علماء المسلمين)

وإذا كان صاحب المواقف نسب هذا الرأي إلى الحنابلة حيث قال (ثم قال الحنابلة: كلامه حرف وصوت يقومان بذاته، وأنه قديم، وقد بالغوا فيه حتى قال بعضهم جهلاً الجلد والغلاف قديمان)<sup>(١)</sup> فإن الإمام ابن تيمية لا ينكر وقوع ذلك من بعضهم، حين يقرر أن أبا حامد الغزالي يخطئ وهو يسند إلى أحمد بن حنبل كلاماً لم يقله ويقول إن أبا حامد (لم يكن يعرف ما قاله أحمد ولا ما قاله غيره من السلف في هذا الباب، ولا ما جاء به القرآن والحديث!!! وقد سُمع مضافاً إلى الحنابلة ما يقوله طائفة منهم ومن غيرهم من المالكية والشافعية وغيرهم في الحرف والصوت وبعض الصفات مثل قولهم: إن الأصوات المسموعة من القراء قديمة أزلية، وإن الحروف المتعاقبة أزلية، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ويخلو منه العرش حتى يبقى بعض المخلوقات فوقه وبعضهم تحته إلى غير ذلك من المنكرات، فإنه ما من طائفة إلا وفي بعضهم من يقول أقوالاً ظاهرها الفساد وهي التي يحفظها من ينفر عنهم ويشنع عليهم)<sup>(٢)</sup>

وابن الجوزي بدوره يقول: (ورأيت من أصحابنا - يقصد الحنابلة - من تكلم في الأصول بما لا يصلح وانتدب ثلاثة للتصنيف في هذا:

(١) شرح المواقف ج ٨ ص ٩٢

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ١٠١



أبو عبد الله بن حامد البغدادي الوراق المتوفى عام ٤٠٣ هـ وصاحبه القاضي أبو يعلى المتوفى عام ٤٥٨ هـ وابن الزاغوني المتوفى عام ٥٢٧ هـ فصفنوا كتبنا شأنوا بها المذهب، قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس .

فسمعوا أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته فأثبتوا له صورة، ووجهها زائدا على الذات، وعينين وفما ولهوات وأضراسا، وأضواء لوجهه هي السبحات، ويدين وأصابع وكفا وخنصر، وإبهاما، وصدرا وفخذا وساقين، وقالوا ما سمعنا بذكر الرأس !!

وقالوا يجوز أن يمس ويمس، ويدنى العبد من ذاته .

وقال بعضهم: ويتنفس .

وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمية مبتدعة لا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل .

ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى ولا إلى إلغاء ما توجه الظواهر من سمات الحدث .

ولم يقنعوا بأن يقولوا صفة فعل، حتى قالوا صفة ذات، ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا لا نحملها على توجيه اللغة، مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على معنى بر ولطف، ولا ساق على شدة.

بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين - والشيء إنها يحمل على حقيقته إذا أمكن، فإن صرف صارف حمل على المجاز - ثم يتخرجون من التشبيه - أى من تهمة التشبيه - ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون نحن أهل سنة .

وكلامهم صريح في التشبيه وقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع فقلت لهم: (يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول وهو تحت السياط: " كيف أقول ما لم يُقل " فإياكم أن تبدعوا في مذهبه ما ليس منه .

وينبغي ألا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل، فإننا عرفنا به الله تعالى، وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الحديث ونسكت لما أنكر عليكم أحد، إنما حملكم إياها على الظاهر قبيح، فلا تدخلوا في مذهب الرجل الصالح السلفى ما ليس منه، فلقد كسيتم هذا المذهب شيئاً قبيحاً، حتى صار لا يقال عن حنبلى إلا مجسم).

وبيّن الإمام ابن الجوزى الحنبلى أسباب وقوع هؤلاء المصنفين فى الغلط مما جعل بعض المصنفين يطلق عليهم لقب الحشوية:

أولها: أنهم سمو الأخبار صفات، وإنما هى إضافات وليس كل مضاف صفة، فإنه قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وليس لله صفة تسمى روحاً، فقد ابتدع من سَمَّى المضاف صفة.

وثانيها: أنهم قالوا هذه الأحاديث من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله تعالى، ثم قالوا نحملها على ظواهرها، فواعجبا ما لا يعلمه إلا الله أى ظاهر له، وهل ظاهر الاستواء إلا القعود، وظاهر النزول إلا الانتقال<sup>(١)</sup>.

والثالث: أنهم أثبتوا لله سبحانه صفات، وصفات الحق جل جلاله لا تثبت إلا بما تثبت به الذات من الأدلة القطعية.

الرابع: أنهم لم يفرقوا فى الإثبات بين خبر مشهور كقوله صلى الله عليه وسلم (ينزل تعالى إلى السماء الدنيا) وبين حديث لا يصح كقوله صلى الله عليه وسلم (رأيت ربي فى أحسن صورة) بل أثبتوا بهذا صفة وبهذا صفة.

والخامس: أنهم لم يفرقوا بين حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وبين حديث موقوف على صحابى أو تابعى، فأثبتوا بهذا ما أثبتوا بهذا.

والسادس: أنهم تأولوا بعض الألفاظ فى موضع ولم يتأولوها فى موضع، كقوله

---

(١) أقول: اللهم إلا أن يقال: إن المراد إجراؤها على الظاهر فيما يختص بمعنى الكلمة فى حد ذاتها لا فيما يتعلق بكيفية نسبتها إلى من أضيفت إليه، وهذا ما لا يفعله المشبهة الذين يتصدى لهم ابن الجوزى فى هذا المقام.

تعالى في الحديث القدسي (ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)<sup>(١)</sup> قالوا: ضرب مثلا للإنعام.

والسابع: أنهم حللوا الأحاديث على مقتضى الحس، فقالوا: ينزل بذاته، ويتنقل ويتحول، ثم قالوا لا كما نعقل، فغالطوا من يسمع، وكابروا الحس والعقل.<sup>(٢)</sup>

### حديث الجارية:

جاء حديث الجارية في صحيح مسلم برواية معاوية بن الحكم السلمي في حديث طويل وقد كان حديث عهد بجاهلية قال: (وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم أسف كما يأسفون، لكنني صككتها صكة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله: أفلا أعتقها؟ قال: اتنى بها، فأتيته بها، فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها، فإنها مؤمنة)

### وهناك ملاحظات حول هذا الحديث من ناحية الرواية:

أنه جاء في روايات أخرى في غير مسلم عن غير معاوية بن الحكم السلمي، وبصيغة سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم للجارية ليس فيها قوله "أين الله" ولكن بصيغة أخرى.

ففي رواية الشريد بن سويد الثقفي في صحيح ابن حبان، ومسند أحمد، والمعجم الكبير للطبراني: أنه كان له جارية سوداء نوبية أراد أن يعتقها فجاء بها إلى رسول

---

(١) ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ١٦ ق، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ ٨٤ الزخرف، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ٤ الحديد

(٢) أنظر (دفع شبه التشبيه بألف التنزيه) لابن الجوزي ت ٥٩٧، بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، ويضيف المحقق هنا ما نقله حنبل عن أحمد بن حنبل أنه سمعه يقول: احتجوا على يوم المناظرة فقالوا: تحيي يوم القيامة سورة البقرة وتحيي سورة تبارك، فقلت لهم: إنما هو الثواب، قال الله عز ذكره ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وإنا تأتي قدرته. وقال ابن حزم الظاهري في الفصل: وقد روي عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: (وجاء ربك) إنما معناه وجاء أمر ربك. اهـ كوثري في تحقيقه على كتاب ابن الجوزي ص ٢٨

الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : من ربك؟ قالت: الله . وفي سنن الدارمي، وسنن النسائي قال قال لها: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت: نعم .

وفي رواية أبي هريرة في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث بن أبي أسامة الطوسي البغدادي، جاء قوله "جاء رجل بجارية سوداء لا تفصح فقال: إني جعلت على رقبة مؤمنة أفأعتق هذه؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: من ربك؟ فأشارت برأسها إلى السماء، فقال: من أنا؟ فأشارت إلى السماء، تعنى أنك رسول الله، قال: اعتقها فإنها مؤمنة .) ومن الواضح في هذه الرواية أمران: التصريح بأن الجارية سوداء لا تفصح، وأنها أشارت إلى السماء في السؤال عن الله، وفي السؤال عن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا . أى لا بد من تأويل، وفي الرواية ما يفيد كونها خرساء<sup>(١)</sup>

ومن الملاحظ أيضا أن الحديث لم يخرج البخاري في صحيحه، وقد أخرج في جزء "خلق الأفعال" ما يتعلق بتشميت العاطس الذي ورد في النص الكامل للحديث الذي رواه مسلم، دون ما يتعلق بكونه تعالى في السماء، وبدون إشارة إلى أنه اختصر الحديث .

وهناك ملاحظات من ناحية فقه الحديث:

١- من المقطوع به أن المكان والزمان جميعا من خلق الله وهو سبحانه موجود قبل السماء والخلق جميعا، وهو في السماء إله وفي الأرض إله بعلمه وقدرته وإرادته وسلطانه وفعله وخلقه ورحمته وعدله وحكمته .

٢- أن الرواية بالمعنى شائعة في الطبقات كلها، وصاحب القصة لم يكن من فقهاء الصحابة مما يرجح روايته بالمعنى حملا على الروايات المتفقة مع التنزيه، والتي لم يرد فيها في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم لفظ "أين"، ولقد كان من بين شروط الإمام الشافعي للاحتجاج بخبر الواحد أن يكون راويه من العلماء بمعاني الكلمات حيث يقول: (ولا يكون الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أمورا: منها أن

---

(١) أنظر شرح الجوهرة للأستاذ عبد الكريم تتان وآخرين، الجزء الأول ص ٥٣٧ وفيه رواية عن أحمد والبخاري ورد فيها " فأشارت برأسها إلى السماء أو بأصبعها السبابة "

يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفا بالصدق في حديثه، عاقلا لما يحدث به، عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى<sup>(١)</sup>

٣- أن السؤال بأين يأتي في المكان والمكانة، حقيقة فيهما، وكذلك حقيقة في الأول ومجازا في الثاني. وعلى سبيل المثال قولهم: أين الثرى من الثريا، وأين الأرنب من الأسد، وأين العصفور من النسر .

٤- من الجائز - كما جاء في شرح المواقف للسيد الشريف - مجيء السؤال بأين للاستكشاف عن معتقد الجارية هل هي عابدة وثن أرضى أم هي مؤمنة بالله رب السماوات، وهذا يعنى الأخذ بدلالة المفهوم<sup>(٢)</sup>، ودلالة المفهوم تعنى: أنه ليس الوثن.

٥- من المقرر في تلقين الإيذان لشخص ما الكشف عن رأيه في معتقده السابق، فلا بد من تصريح المسيحي بانخلاعه من الإيذان بالثالوث، والمجوسى بانخلاعه من الإيذان بالنار، ومن عابد الوثن انخلاعه من عبادة الأصنام وهكذا ..

ولم يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم في تلقين الإيذان طوال أدائه الرسالة السؤال بأين في غير هذه القصة، فاللفظ الجارى على الأصل في بعض الروايات هو الأجدر بأن يكون لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم، وما سواه في رواية معاوية بن الحكم إنما جاء بالمعنى الذى عبر عنه الصحابى .

---

(١) أنظر الرسالة للإمام الشافعى ط الحلبى عام ١٩٤٠ ص ٣٦٩

(٢) المفهوم عند الأصوليين هو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق، وينقسم إلى قسمين: مفهوم موافقة وهو أن يكون المسكوت عنه موافقا للمنطوق في الحكم، ويسمى فحوى الخطاب، كتحریم ضرب الوالدين من تحريم التأفف منها، وشرطه فهم المعنى في محل المنطوق وأنه أولى، والثانى مفهوم المخالفة وهو أن يكون المسكوت عنه مخالفا في الحكم للمنطوق ويسمى دليل الخطاب، وشرطه ألا تظهر أولوية ولا مساواة في المسكوت عنه ولا خرج مخرج الأغلب، وجوابا لسؤال، ومثله " في الغنم السائمة زكاة " ومفهومه أن ليس في غير السائمة زكاة، وهو أقسام وهى يحتج بها إلا مفهوم اللقب، وأنكر أبو حنيفة الجميع: أنظر شرح الشيخ محمد جمال الدين القاسمى على لقطة العجلان للإمام الزركشى . ص ٢٧

٦- من العلماء من يعد العامى معذورا في اللفظ الموهم، اعتدادا بأصل اعتقاده بالله سبحانه وتعالى، ويؤيد ذلك ما جاء في بعض روايات الحديث عن الجارية، وأنها نويية سوداء لا تفصح، وما هو ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم من رفقته في التعليم، ومخاطبة الناس بغير أن يشق عليهم فيما يفهمون .

٧- أن الجارية كما جاء في بعض الروايات أشارت إلى السماء فيما يتعلق بسؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عن معرفتها بالله والرسول أيضا، ولا مفر من التأويل .

٨- والخلاصة أنه: بعرض الحديث على المحكم المقطوع به من كونه تعالى خالق كل شيء وهو قبل كل شيء، يصبح ما جاء بالحديث على اختلاف رواياته من المتشابهات التي لم نكلف بالغوص فيها، ولا بالعمل بشيء وراءها غير التسليم بورودها، ونكل علم حقيقتها إلى الله تعالى مع التنزيه .

يقول الإمام ابن الجوزي في هذا الحديث وطائفة من الأحاديث الأخرى التي تسمى أخبار الصفات: (اعلم أن في الأحاديث دقائق وآفات لا يعلمها إلا العلماء الفقهاء، تارة في نقلها، وتارة في كشف معناها) ثم شرح عددا منها .

**ونشير نحن هنا إلى الصحيح منها:**

من ذلك ما رواه مسلم والبخاري من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلق الله آدم على صورته) وبيِّن أن الضمير في " صورته " لا يرجع إلى لفظ الجلالة<sup>(١)</sup>

(١) وفي رواية لابن خزيمة (لا يقولن أحدكم لعبده: قبح الله وجهك ووجه من أشبهك، فإن الله خلق آدم على صورته) وروى هذا الحديث في الجامع الصغير ورمز له بالصحة، والضمير في هذا الحديث إما أن يرجع إلى لفظ عبده أو إلى لفظ آدم، أما إرجاع الضمير إلى لفظ الجلالة فيكون المراد فيه أن الله خلق آدم على صفته، من العلم مثلا، مع حفظ الفارق بين علم الله وعلم آدم، أو يراد بالإضافة في (صورته) معنى التشريف، كقول القائل (بيت الله) و (ناقة الله) وعلى هذا يأتي معنى الرواية الأخرى التي رواها ابن خزيمة أيضا حيث جاء فيها قوله (على صورة الرحمن) رواها بسنده عن عطاء ابن أبي رباح عن عمر رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الملاحظ أن هذه الرواية ضعفها ابن خزيمة نفسه .

وما روى في الصحيحين من حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض ما يحدث يوم القيامة: (فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيقال: هل بينكم وبينه آية تعرفونها؟ فيقولون الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن).

ويذكر كثيرا من أقوال العلماء التي تفسره بغير تشبيه، ومن ذلك: يأتيهم بأهوال القيامة فيستعذون من تلك الحال، ويطلبون أن يأتيهم بما يعرفونه من لطف، فيكشف عن ساقه أى شدته، يكشفها أى يزيلها .

وما روى في الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد، حتى يضع الرب فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض) ويذكر ما ذكره بعضهم في تفسيره بغير تشبيه. ويضيف الكوثرى في تحقيقه ما ذكره جار الله الزمخشري في كتابه (الفائق في غريب الحديث): وضع القدم على الشيء مثل للردع والقمع

وما روى في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة) وما ذكره في تفسيره بغير تشبيه أن يكون معنى الضحك: التعبير عن كثرة الكرم وسعة الرضا .

وما روى في الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يدنى المؤمن من ربه فيضع عليه كنفه فيقول: تعرف ذنب كذا) قال العلماء: يدنيه من رحمته ولطفه، وقال ابن الأثير: كنفه حياضته وستره .

وما روى في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول من يدعوني فأستجيب له) وما ذكره تفسيراً له بغير تشبيه: ينزل بمعنى يقرب برحمته، وقد ذكر الله أشياء بالنزول فقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ . ﴿ وَأَنْزَلْ لَكَ الْكُرْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ﴾ .

ثم يقول ابن الجوزى: (واعلم أن الناس في أخبار الصفات على ثلاث مراتب: أحدها: إمرارها على ما جاءت من غير تفسير ولا تأويل إلا أن تقع ضرورة، كقوله تعالى " وجاء ربك " أى أمر ربك، وهذا مذهب السلف .

والمرتبة الثانية: التأويل وهو مقام خطر .

والمرتبة الثالثة: القول فيها بمقتضى الحس، وقد عم جهلة الناقلين إذ ليس لهم حظ من علوم المعقولات التى يعرف بها ما يجوز على الله تعالى وما يستحيل).

ثم يقول: (ونحن نحمد الله إذ لم يبخس حظنا من المنقولات ولا من المعقولات، ونبرأ من أقوام شأنوا مذهبنا فعابنا الناس بكلامهم)<sup>(١)</sup>

### الإمام ابن تيمية والصفات الخبرية:

ينبنى موقف الإمام ابن تيمية من الصفات على رفضه لمبدأ التفويض بناء على فهمه الخاص لمعانى التأويل فى شرحه لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، كما ينبنى على رفضه القول بأن الله يخاطب عباده بما لا يعلم، ورفضه لمبدأ المجاز، وإعماله التأويل بمعنى التفسير والبيان لا بمعنى صرف الكلام عن معناه الظاهر وتأويله بمعنى مجازى، حيث يعتبر ذلك تحريفا

ويقصد بالصفات الخبرية فى مقامنا هذا ما كان الدليل عليها السمع المحض، أو مجرد الخبر دون استناد إلى نظر عقلى، كاستوائه تعالى على العرش، ونزوله إلى السماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة، وكمحبته ورضاه وسخطه وغضبه، وكالوجه واليد والعين والقدم، وغير ذلك مما جاء به الكتاب الكريم، والأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عنى الإمام ابن تيمية عناية بالغة بإثبات هذه الصفات والرد على من أنكرها من المتكلمين والفلاسفة، ووضع فى ذلك رسائل على جانب عظيم من

---

(١) أنظر (دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه) لابن الجوزى بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى من ص ٤٦ إلى ٩١



الأهمية منها (العقيدة الحموية الكبرى) و (العقيدة الواسطية) إلى جانب ما يوجد مبثوثا في معظم كتبه من محاورات طويلة لاسيما كتابه (منهاج السنة) وكتابه في الرد على تأسيس التقديس للرازي<sup>(١)</sup>.

والإمام ابن تيمية هو لسان الحنابلة الناطق بأرائهم وبإثبات هذه الصفات والرد على المنكرين لها . ومن ذلك إثباته للاستواء على العرش، دون أن يكون محتاجا إليه، استواء يليق بجلاله ويختص به، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ولا يجوز أن يثبت للعلم خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين فكذلك هو سبحانه فوق العرش ولا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها<sup>(٢)</sup>

أما ما يلزم هذه الفوقية من الجهة والحيز فالإمام ابن تيمية يمنعه إذا أريد به أمر وجودي، إذ لا موجود غير الخالق والمخلوق، والله لا يحيط به شيء من المخلوقات، فهو ليس في جهة بهذا المعنى، وإن أريد به أمر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك إلا الله، فإذا قيل إنه في جهة كان معنى الكلام أنه هناك فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليه<sup>(٣)</sup>

ولعل الإمام ابن تيمية في إثباته للجهة بالمعنى المذكور - كما يقول الأستاذ الدكتور محمد خليل هراس - قد تأثر إلى حد ما بابن رشد الذي صرح بإثبات الجهة في كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة) وفرق بينها وبين المكان<sup>(٤)</sup>

ونحن نقول: كيف نعبر عن أمر عدمي بظرف المكان (هناك) وكيف نتحدث عن أمر عدمي بنفس ما استخلصناه من أمور وجودية كالفوقية والاستواء؟ وإذا كنا هنا نعاني من ضيق اللغة البشرية فلماذا فتحنا الملف بوصاية العقل، ولم نغلقه بوصاية التوقف والتفويض؟

(١) أنظر كتاب (الإمام ابن تيمية السلفي) للشيخ محمد خليل هراس ط ١٩٥٢، ص ١٤٤

(٢) منهاج السنة ج ١ ص ٢٦٢، ومجموعة الرسائل الكبرى ص ٤٢٩ العقيدة الحموية

(٣) منهاج السنة ج ١ ص ٢١٦

(٤) كتاب الإمام ابن تيمية السلفي ص ١٥٤، والكشف عن مناهج الأدلة ص ٩٣

وكيف يقبل الإمام ابن تيمية الأمر العدمي في صفة الله خلافا لما أنكره من ذلك على أصحاب الصفات السلبية ؟

وَألا نتعرض بذلك لوصفه تعالى بأمرين متناقضين معا في هذا الاستواء: الأول كونه وجوديا ضرورة عدم أخذ المذهب بالصفات السلبية المحضة، والثاني كونه عدما وهو هذه الجهة التي يقول عنها الإمام الجليل ؟

ولم يقتصر الإمام فيما يثبته على حد النص، ولكننا نجده يغوص في الاستنتاجات والقياسات في هذه المسألة كما نجد في كتابه " الرسالة العرشية ". إذ يثبت للعرش وزنا، وأنه أثقل الأوزان دون تأويل<sup>(١)</sup>، وأنه يمكن لقائل أن يقول: إنه محيط بالأفلاك، أو إنه فوقها وليس محيطا بها (كما أن وجه الأرض فوق النصف الأعلى من الأرض، وإن لم يكن محيطا بها !) على حد قوله ، وهو - أى العرش - لا يخلو: إما أن يكون كريا كالأفلاك، ويكون محيطا بها، وإما أن يكون فوقها وليس هو كريا، وإن كان الأول فالجهة العليا هي جهة المحيط، والجهة السفلى هي جهة المركز كسائر الأفلاك، وليس لها غير هاتين الجهتين، بخلاف الحيوان الذي له جهات ست، وليس لهذه الجهات الست في نفسها صفة لازمة بل هي بحسب النسبة والإضافة، (لكن جهة العلو والسفل التي للأفلاك لا تتغير فالمحيط هو العلو والمركز هو السفلى، مع أن وجه الأرض التي وضعها الله للأنام وأرساها بالجبال هو الذي عليه الناس والبهائم والشجر والنبات والجبال والأنهار الجارية، فأما الناحية الأخرى من الأرض فالبحر محيط بها، وليس هناك شيء من الآدميين وما يتبعهم، ولو قدر أن هناك أحدا لكان على ظهر الأرض، ولم يكن من في هذه الجهة تحت من في هذه الجهة، ولا من في هذه تحت من في هذه .. فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها وجوانب الفلك المستديرة ليس بعضها فوق بعض ولا تحته فكذلك من يكون على الأرض من الحيوان والنبات والأثقال فلا يقال إنه تحت أولئك، وإنما هذا خيال الإنسان وهو تحت إضافي)

(١) ١٨ الرسالة العرشية لابن تيمية نشر قصي عب الدين الخطيب عام ١٣٩٩ هـ ص ١٠-١٣-١٤

وإنه ليلزم على مذهبه أن نقول بالفوق الإضافي قياسا على التحت الإضافي لولا أن هذا القول يعكر قضية الفوقية عموما .

وإنه ليلزم على مذهبه كذلك أن نعمم القول بالنسبية في المخلوقات جميعا، فالفلك يصدق عليه الجهات الست أيضا: بنسبة بعضه إلى بعض، وبعضه إلى المركز، ونسبة القائم عنده إليه لولا أن هذا التعميم يعكر قضية الفوقية عموما كذلك .

وأخيرا فإنه ليلزم استبعاد هذه التفصيلات التي استنبطها الإمام عن العرش أخذا بما عبر به من مبدأ هو أقرب ما يكون إلى التسليم والتفويض والتزيه في قوله (فما وصف الله من نفسه وسماه على رسوله سميناه كما سماه ولم نتكلف منه علم ما سواه، لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف) <sup>(١)</sup>

وفي إثبات صفة العلو لله تعالى يستدل الإمام ابن تيمية بالفطرة والسمع:  
فالفطرة مجبولة على الاعتراف لله بالعلو، وتبدو مظاهر هذه الفطرة في التوجه للعلو حين الدعاء والابتهال، ويحكي الإمام ابن تيمية ما يسمى قصة الهمداني مع إمام الحرمين أنه سأله محتجا عليه: بماذا تفسر ما طبعت عليه فطرتنا من التوجه للعلو حين التوجه إلى الله تعالى؟ فلم يجد الجويني عن ذلك جوابا إلا قوله (لقد حيرني الهمداني) <sup>(٢)</sup>

والقصة هنا أشبه بالقصة التي تروى عن أبي على الجبائي وما أسكتته به الإمام أبو الحسن الأشعري عندما سأله في مسألة الصلاح والأصلح عن الثلاثة: المؤمن والكافر والصبي، والتعليق الساخر الذي علق به المقبلي دفاعا عن الجبائي <sup>(٣)</sup>،

---

(١) الرسالة العرشية ص ٢٠ - وما بعدها .

(٢) أنظر كتاب الاستقامة لابن تيمية، ضمن مجموعة الفتاوى تحقيق عبد الرحمن النجدي ط ٢ ج ١ ص ١٦٧، وكتاب (الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل) للدكتور محمد السيد الجلند ص ٣٨١ - ٣٨٥ .

(٣) أنظر ما كتبه عن ذلك في كتابنا (الفرق الإسلامية في الميزان) ص ٢٩١ في سبب خروج الأشعري على المعتزلة .

بقوله: (هذه الحكاية هوس، وأدنى المعتزلة - فضلا عن شيخهم - يقول من جواب الله على الصغير: " التكاليف فضلى أتفضل به على من أشاء " إلخ )<sup>(١)</sup>

إذ يمكن أن نقول هنا: ما أيسر أن يقول الجبائي: تلك فطرة صادقة هذبا الإسلام .

أما أنها صادقة ففي دلالة هذا التوجه للعلو على انعتاق القلب من التوجه للأوثان القائمة بين يدي البشر من ناحية، ودلالته على الإحساس بعلو المكانة - لا المكان أو الجهة - من ناحية أخرى، ويمتنع أن يكون إحساسا بعلو الجهة أو المكان، لأنها حينئذ كان من الممكن أن يتحقق لها الاستجابة لهذا الإحساس لو أن النظر كان لموضع القدمين من حيث ما هو معروف عن وجود السماء - ومن ثم العلو - وأنها محيطة بالكرة الأرضية من جميع الجهات .

وأما أنه قد هذبا الإسلام - كشأنه في كل الأمور الفطرية: يلتقى معها ليرتقى بها - فذلك ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ١٦ ق، وما يتبين من رفض التوجه لأعلى حين الصلاة كما هو معروف من سنة رسول الله من النظر حين الصلاة إلى موضع السجود، وإلا فلقد كان من الواجب النظر إلى أعلى في لحظات الصلاة، وهو ما لم يقره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وربما قيل: إن توجيه الرسول بالنظر إلى موضع السجود هو للتخلق بأدب الحياء في حضرة الصلاة بين يدي الله .

ولكنه يُردُّ على ذلك: بأن هذا يعنى أن القول بالعلو متاح سواء عند النظر إلى أعلى أو إلى أسفل، فلم يعد للنظر إلى أعلى عندئذ دلالة خاصة في الموضوع .

على أنه من المشكوك فيه أن يكون التوجه لأعلى توجهها فطريا، وإنما هو تعبير عن عادة متوارثة اجتماعيا، بدليل وجود طائفة عريضة من الناس لا تفعل ذلك، ولكن تستغرق ذاتيا عند الدعاء .

---

(١) أنظر كتابه (العلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايع) ص ٢٢٩، ٣٣٠، وتفصيل ذلك في كتابنا عن الصلاح والأصلح ص ١٢٥

وأما استدلاله بالسمع فمن خلال صعود الملائكة وقصة المعراج، وهو في الواقع صعود للمخلوق لا يدل على أكثر من احتياجه إليه في خلقته ليخلص ذاتا وهيئة للحالة التي ينعم الله بها عليه، وبعبارة أخرى لكي يصل إلى المكان الذي تصلح فيه خلقته لتلقى ذلك الإنعام دون أن يكون لذلك أية دلالة بالنسبة لذات الله تعالى<sup>(١)</sup>، وهو إعداد شبيه من هذا الوجه بما كان من إعداد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلقى الوحي، سواء نظرنا إلى شق صدره، أو نظرنا إلى ما كان يعترى جسده من تغيرات حين نزول الوحي ..

وأما صفة النزول فلم يرد ذكرها في القرآن الكريم ولكن ورد بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل<sup>(٢)</sup> ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له) وروى مثله من حديث أبي هريرة أيضا كل من مسلم، والترمذي، وأبوداود، وابن ماجه، وأحمد، ومالك، والدارمي . وكلها تتحدث عن النزول حين يبقى ثلث الليل الأخير

وفي روايات أخرى بالفاظ مختلفة جاء الحديث عن النزول أنه يكون حين يمضي ثلث الليل الأول، وذلك من حديث أبي هريرة في زيادة الجامع الصغير للسيوطي، ومن حديث علي ابن أبي طالب رضى الله عنه، فيما رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه .

و جاء في كتاب العلو للذهبي (ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول فيقول: من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يدعوني فأستجيب له؟ من

---

(١) ولا يمكن في هذا الموضوع تجاهل ما أثبتته الكندي من التلازم بين المادة والزمان والمكان، أو تجاهل ما أثبتته كانط من كون الزمان والمكان مجرد قوالب للمعرفة خاصة بالعقل البشري، أو تجاهل ما أثبتته نظرية النسبية الحديثة من التلازم بين الزمان والمكان إلى حد استبدال مصطلح الزمكان بهما .

(٢) ينقل الشيخ الكوثري في تحقيقه على كتاب (دفع شبه التشبيه) لابن الجوزي ص ٦٥: أن ابن حزم الظاهري يقول عن هذا النزول: إنها هو فعل يفعل الله تعالى في سماء الدنيا من الفتح لقبول الدعاء

ذا الذى يستغفرنى فأغفر له) ويقول الذهبى إن إسناده قوى<sup>(١)</sup>، وهو متفق عليه.

وجاء فى معارف السنن للترمذى قوله: (وفى الفتح: وقد حكى أبو بكر بن فورك: أن بعض المشايخ ضبط (ينزل) بضم أوله على حذف المفعول، أى يُنزل ملكا، ويقويه ما رواه النسائى بسنده من طريق الأغر عن أبى هريرة وأبى سعيد بلفظ "إن الله يمهل حتى يمضى شطر الليل ثم يأمر مناديا يقول: هل من داع فيستجاب له" الحديث، وفى حديث عثمان ابن أبى العاص "ينادى مناد: هل من داع يستجاب له" الحديث. قال القرطبى: وبهذا يرتفع الإشكال، ولا يعكر عليه ما فى رواية رفاعة الجهنى "ينزل الله إلى سماء الدنيا، فيقول: لا يسأل عن عبادى غيرى" لأنه ليس فى ذلك ما يدفع التأويل المذكور اهـ. وفى العمدة بعد رواية الحديث من طريق الأغر وصححه عبد الحق) اهـ<sup>(٢)</sup>

والإمام ابن تيمية يؤكد على معنى النزول كما جاء باللغة العربية، وأنه لو أريد النزول بغير معناه اللغوى، لكان خطابا بغير العربية واستعمالا للفظ المعروف له معنى فى معنى آخر وهذا لا يجوز<sup>(٣)</sup>

لكن: كيف نأخذ النزول بمعناه الحقيقى منسوباً إلى الله تعالى مع وجود صارف يصرف عن ذلك: وهو أنه ما من وقت فى الأرض إلا وهو ثلث ليل فى مكان ما، فهل نأخذ بالمعنى الحقيقى هنا منسوباً إلى الله تعالى وعندئذ يكون النزول دائماً ونتوجه إلى الله فى أى وقت لأنه نازل فيه بغير انقطاع ويفرغ الحديث من معناه فى نصه على ثلث الليل أم يكون للحديث معنى غير معناه الظاهر؟

(١) كتاب العلو ص ٥٩ نقلا عن كتاب (ابن تيمية السلفى) للدكتور محمد خليل هراس ص ١٥٤

(٢) معارف السنن للترمذى مع فوائد الحافظ الشيخ محمد أنور الكشميرى، تأليف الشيخ محمد يوسف البنورى ج ٤ ص ١٣٨

(٣) أنظر "فتا فى مسألة العلو" ضمن مجموعة الفتاوى والرسائل تحقيق عبد الرحمن النجدى ط ٢ ج ٥ ص ١٤٦-١٤٧، ورسالة الجمع بين علو الرب وقربه ضمن المجموعة المذكورة ج ٥ ص ٢٣٢، وكتاب (ابن تيمية السلفى) للدكتور محمد خليل هراس ص ١٥٥ - ١٥٦

ومع ذلك فمعنى النزول عند الإمام ابن تيمية كما جاء في تفسيره لسورة الإخلاص: صفة لله عز وجل لا يماثل نزول الخلق، كما أن استواءه لا يماثل استواء الخلق (وهو ليس من جنس ما نشاهده من نزول هذه الأعيان المشهودة حتى يقال يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر) .

### **منهج الإمام ابن تيمية في الصفات:**

أسس الإمام ابن تيمية مذهبه في الصفات <sup>(١)</sup> - بصفة عامة على أربع قواعد أساسية:

القاعدة الأولى: أن كل ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات يجب إثباته .

وما صرح الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم بنفيه يجب نفيه .

وما لم يصرح الشرع لا بنفيه ولا بإثباته يجب استفسار قائله ؛ فإن أراد به معنى صحيحا موافقا لما أثبتته الشرع قبل، وإن كان مما نفاه الشرع وجب رده .

وإن كان اللفظ قد أثبت به حق وباطل، أو نفى به حق وباطل، أو كان مجملا يراد به حق وباطل، وصاحبه أراد به بعضها ولكن عند الإطلاق يوهم الناس أو يفهمهم ما أراد وغير ما أراد فهذه الألفاظ لا يطلق إثباتها ولا نفيها . <sup>(٢)</sup>

ويمثّل الإمام ابن تيمية بالألفاظ التي تنازع فيها من ابتداعها من المتأخرين مثل لفظ الجوهر والتحيز والجهة ونحو ذلك، فلا تطلق نفيا ولا إثباتا حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن أراد بالنفي أو الإثبات معنى صحيحا موافقا لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم صَوَّب المعنى الذي قصده بلفظه، ولكن ينبغى أن يعبر عنه بالألفاظ النصوص، لا يعدل إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة إلا عند الحاجة، مع قرائن تبين المراد بها .

---

(١) أنظر الدراسة القيمة للأستاذ الدكتور محمد خليل هراس في كتابه بعنوان (الإمام ابن تيمية السلفي) المنشور عام ١٩٥٢

(٢) تفسير سورة الإخلاص للإمام ابن تيمية

والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها.

وأما إن أريد بها معنى باطل نفى ذلك المعنى، وإن جُمع بين حق وباطل أثبت الحق وأبطل الباطل . وإذا اتفق شخصان على معنى وتنازعا: هل يدل ذلك اللفظ عليه أم لا ؛ فيعبر عنه بعبارة يتفقان على المراد بها، وكان أقربهما إلى الصواب من وافق اللغة المعروفة .<sup>(١)</sup>

وفي رأيي أن التطبيق الدقيق لهذه القاعدة الذهبية - وقد ذكرها من قبل الإمام ابن الجوزي فيما ذكره من أسباب الوقوع في التشبيه - من شأنه أن يضمن استبعاد الأخبار والإضافات عن مستوى الصفات .

ومن ناحية أخرى فما أجدد هذه القاعدة أن يُعامل بها مع الألفاظ والمصطلحات العصرية التي تطرح في مجال الفكر الديني المعاصر ويراد بها معان مختلفة يظهر بعضها ويختفى بعضها تبعا لمستويات النقاش، من مثل: القوة الكونية، والمهندس الأعظم وتطور الأديان، والنسبية التاريخية، والأديان السبائية، والضرورة الاجتماعية للدين، وحتمية قوانين الطبيعة، وحقوق الإنسان إلخ.

القاعدة الثانية: نفى مماثلة الله تعالى لشيء من خلقه في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو لا يماثل شيئا، ولا يماثله شيء، وكل ما ثبت له تعالى من صفات الكمال فهو مختص به لا يشركه فيه غيره .

وإذا كان هناك من الأسماء ما يطلق على صفات الله كما يطلق على صفات خلقه فإن هذا ليس إلا محض اشتراك في الاسم، لا يقتضي مماثلة صفاته لصفاتهم أصلا، فتسميته تعالى قادرا وتسمية العبد قادرا لا توجب مماثلة قدرة الله لقدرة العبد، وكذا تسميته عالما ومريدا وحيا وسميعا وبصيرا ومتكلما مع تسمية عباده بهذه الأسماء لا يستلزم أن علمهم كعلمه، ولا إرادتهم كإرادته، ولا حياتهم كحياته، إلخ

وبيان هذا أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به، ويوصف العباد على ما يليق بهم من ذلك .

(١) منهاج السنة ج ١ ص ٣٤٩



فللصفة ثلاثة اعتبارات: تارة تعتبر مضافة إلى الرب، وتارة تعتبر مضافة إلى العبد، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد .

فإذا أضيفت كقدرة العبد وقدرة الله فهي تتبع الموصوف مخلوقا وغير مخلوق، وإن أطلقت كالقدرة والعلم والإرادة فهو مجمل لا يقال عليه مخلوق ولا غير مخلوق حتى يضاف .<sup>(١)</sup> وأقول: اللهم إلا أن تكون أل في قوله " العالم " للاستغراق " فهي عندئذ لا تكون إلا للخالق .

ويستدل الإمام ابن تيمية لنفي المماثلة من السمع بمثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ .

ويستدل على نفي المماثلة من العقل بأن المتماثلين يجوز على أحدهما ما يجوز على الآخر، ويجب له ما يجب له ويمتنع عليه ما يمتنع عليه . ومعلوم أن كل ما سواه تعالى ممكن قابل للعدم، بل معدوم مفتقر إلى فاعل، ومصنوع مربوب محدث، فلو مائل تعالى غيره في شيء من الأشياء للزم أن يكون هو الشيء الذي مائله فيه ممكنا قابلا للعدم، بل معدوما مفتقرا إلى فاعل، مصنوعا مربوبا محدثا .<sup>(٢)</sup>

القاعدة الثالثة: أن الكمال ثابت لله تعالى، بل الثابت له أقصى ما يكون من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه { كالعلم . بخلاف الشفقة } إلا وهو ثابت للرب تعالى . وكل كمال ثبت للمخلوق وجاز أن يتصف به الخالق كان الخالق أولى به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بتنزيهه عنه .

ويستدل الإمام ابن تيمية لثبوت الكمال له سبحانه وتعالى بوجوه نقلية وعقلية .

فمن النقل مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتَأْتِيَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ .

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٢ ص ٥٤

(٢) منهاج السنة ج ١ ص ١٩٥

وأما الحجج العقلية فيعتمد فيها الإمام ابن تيمية على قياس الأولى، إذ كلما كان الكمال ممكن الوجود ممكننا للمفضول فلأن يمكن للفاضل بطريق الأولى، ولأن ذلك الكمال استفاده المخلوق من الخالق، والذي جعل غيره كاملا هو أحق بالكمال منه فالذى جعل غيره قادرا أولى بالقدرة، والذي جعل غيره عالما كان أولى بالعلم، والذي جعل غيره حيا أولى بالحياة.<sup>(١)</sup>

ونلاحظ هنا أن الإمام الماتريدى استخدم صورة من القياس هى قياس الأولى، سابقا بذلك ما جاء به الإمام ابن تيمية فى هذا الموضوع: وهو أن كل كمال ثبت للممكن لا نقص فيه بوجه من الوجوه - وهو ما كان كمالا للموجود غير مستلزم للعدم فالواجب القديم أولى به

وأن كل نقص وعيب فى نفسه - وهو ما تضمن سلب هذا الكمال - إذا وجب نفيه عن شيء ما من أنواع الممكنات فإنه يجب نفيه عن الرب تبارك وتعالى بطريق الأولى .

وقد استخدم الماتريدى هذا القياس فى إثبات الكلام لله.<sup>(٢)</sup>

وهنا يؤكد الإمام ابن تيمية بطريقته: أن الكمال لا يكون إلا أمرا وجوديا، أو يتضمن أمرا وجوديا، أما العدم المحض فليس بشيء فضلا عن أن يكون كمالا، ومن هنا يأتى مدخله فى الطعن على الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة فى وصف الله بصفات السلوب كأن يقولوا عن الله إنه (لا هو داخل العالم ولا خارجه) ويراه مستلزما لعدم ما وصف به.<sup>(٣)</sup>

وفى إطار الحجج العقلية التى سيق فيها هذا الدليل نحسب أن طعن صفات السلوب - التى برأى الإمام ابن تيمية أنها لا تقتضى وجودا ومن ثم تدل على عدم

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل ج ٥ ص ٤٣ - ٤٦، ومنهاج السنة ج ١ ص ١٩٤ ن وهنا تأتى مشكلة قياس الغائب على الشاهد .

(٢) المغربى ص ٦٩ نقلا عن كتاب " التوحيد " للماتريدى

(٣) مجموعة الرسائل الكبرى ص ١١٦ رسالة الفرقان .

الموصوف - يؤدي إلى أمور أولها: أنه يبدو كمن يشترط للموجود أن يكون قابلا للتصور بحسب الذهن البشري الأمر الذي لا يتحقق عندما تمحو هذه السلوب تلك الصورة، وهذا غير صحيح، بناء على محدودية العقل البشري، وقوانينه الخاصة في ممارسة التفكير، وحسب المذهب في: عدم مماثلة الخالق للمخلوق .

ثانيها: أن المكان والزمان كليهما من إبداعات الله، والوجود منه ما هو خاضع للمكان والزمان، وما ليس خاضعا له، وهذا الأخير هو الذي يوصف بأنه لا داخل ولا خارج، لأن الداخل والخارج كليهما من الأمور المكانية، والله ليس خاضعا للمكان لأنه خالقه، وموجود قبله .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فللمعتزض أن يذهب إلى أن الزمان والمكان أمران ذاتيان للعقل البشري، وقالبان لازمان له يصب تفكيره فيهما بحكم العادة<sup>(١)</sup>، فلا يحكم بهما على وجود الله الذي هو في ذاته فوق التصور العقلي المحدود بمحدودية البشر عموما .

ثالثها: أنه لا سلب إلا ويتضمن إثباتا لوجود، ضرورة انتفاء العدم المطلق، وفي السلوب التي يطلقها المعتزلة - مثلا - تضمين معنى الوجود المتصف بالكمال المطلق لمن اتصف بها . ولأن القول بأنه (لا داخل العالم ولا خارجه) ليس عدما محضا، ولكنه بالنسبة للعالم .

وهنا يأتي سؤال: إذ ما القول في الروح والعقل والنفس بالنسبة للجنس البشري؟

القاعدة الرابعة في معنى التأويل : وهذه القاعدة ترجع إلى أصل آخر عند الإمام ابن تيمية في موقفه من المحكم والمتشابه والحقيقة والمجاز:

(١) لا بأس أن نستحضر هنا ما ذكره بعض فلاسفة نظرية المعرفة من أن للعقل قالبا خاصا في التفكير لا يتعداه، من ذلك قالب الزمان والمكان، وما قرره بعضهم من أن العقل البشري لا يمكنه أن يبارس التفكير في موضوع إلا على أساس مشابته بموضوع سابق ويميزته له وعلاقة يقوم بربطها بين شيئين في الوقت نفسه: أنظر الفلسفة الأوربية الحديثة .

و الإمام ابن تيمية ينكر أن يكون هناك متشابه بمعنى أن معرفة المعنى المقصود من الآية مستحيل لا يمكن دركه كما يدعى ذلك من يدعيه من المتكلمين<sup>(١)</sup>، مع ملاحظة أن هذا الادعاء لم يكن قاصرا على من يحسبون من المتكلمين .

وللتأويل معان ثلاثة عند الإمام ابن تيمية: أن يراد به تحقيق الأثر الواقعي المحسوس لدلول الكلمة كما في قوله تعالى عن يوم القيامة ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أى وقوعه، والثانى أن يراد به التفسير والبيان، والثالث أن يراد به المعنى الذى أحدثه بعض اللغويين وأخذ به بعض المتكلمين، وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ لدليل يقترن به مع قرينة مانعة من المعنى الحقيقى، وهو المجاز . وهو يرى أن من وقف على لفظ الجلالة في الآية فمراده بالتأويل الذى لا يعلمه إلا الله ما يؤول إليه الأمر كوقت الساعة وما إلى ذلك كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ ٥٣ الأعراف، وبالتأويل الذى يعلمه الراسخون فى العلم التأويل بمعنى التفسير والبيان، ولا وجود لما يقال إنه متشابه لا يُعلم<sup>(٢)</sup> . ولم يتردد - كما يقول الدكتور محمد الجليند - فى تسمية التأويل بالمعنى الثالث تحريفا وتبديلا لكتاب الله<sup>(٣)</sup> .

ونحن نرى أن هذا الفهم للآية هو نوع من التأويل الخاص، وأن منهج التسليم والتفويض والتنزيه لا يتضمن بالضرورة شيئا من صرف الكلام عن ظاهره، وإنما يترك الأمر لعلم الله: سواء فى ناحية الأخذ بالظاهر على معنى يليق بذاته تعالى دون

(١) تفسير سورة الإخلاص ص ١٢٤ - ١٢٦

(٢) تأمل ما يقوله ابن عقيل فى قوله تعالى: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّكَ ﴾ مخالفا لذلك: (قال من كفَّ خلقه

عن السؤال عن مخلوق، فكفَّهُم عن السؤال عن الخالق أولى) دفع شبه التشبيه لابن الجوزى ص ٤٦

(٣) أنظر "الإكليل فى التشابه والتأويل" لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والفتاوى تحقيق عبد الرحمن

النجدى ط ٢ ج ١٣ ص ٢٧٤-٢٩٢، ص ٢٩٤-٢٩٨، وكتاب (الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية

التأويل) للدكتور محمد السيد الجليند طبعة مجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٧٣ ص ١٥١ - ١٥٣

الخوض في صرفه عن هذا الظاهر أو في ناحية تصورهِ أو تحديده أو تفسيره أو تبينه، على حد سواء: بدافع التسليم والتنزيه معا .

ومهما قيل من أن مجرد صرف الكلام عن معناه الظاهر يعتبر خوضا واشتركا في التأويل مع المؤولين فإننا نرى أن من المبالغة أن يسمى هذا الصرف تأويلا باعتبار أن التأويل كما يقول ابن المرتضى في كتابه إيثار الحق <sup>(١)</sup>: (هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام)، وبناء عليه فإن هؤلاء وإن صرفوا معنى لكنهم لم يثبتوا معنى مكانه، إنه الجانب السلبي من التأويل على أقصى تقدير .

ومع ما ذهب إليه الإمام ابن تيمية في مسألة التأويل نجده يقول في رده على النصارى في قولهم بالآب والابن (لفظ الابن يعبر به عن ولد الولادة المعروفة، ويعبر به عن من كان هو سببا في وجوده، كما يقال ابن السبيل لمن ولدته الطريق، فإنه لما جاء من جهة الطريق جعل كأنه ولده . ويقال لبعض الطير: ابن الماء، لأنه يجيء من جهة الماء، ويقال: كونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا) <sup>(٢)</sup> وهو يصرف الكلام عن أصل وضعه ضرورة في قول الرسول صلى الله عليه وسلم (الحجر الأسود يمين الله في الأرض)، وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ .

### الإمام ابن تيمية والمجاز:

ما معنى أسدا في قولك رأيت أسدا يقود المعركة؟ أليس لها معنى حقيقى وهو الحيوان المعروف بحكم الوضع؟ ولها معنى مقصود بحكم القرينة وهو القائد الشجاع؟

ينكر الإمام ابن تيمية الأصل الوضعى لتقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز، وينطبق

(١) "إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق"، لمحمد بن إبراهيم بن على بن المرتضى المعروف بابن الوزير ت ٨٤٠ هـ طبعة مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة عام ١٣١٨ هـ ص ٩١

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح للإمام ابن تيمية ج ٢ ص ٣٤٦

ذلك - في رأيه - أيضا على علماء السلف و النحو واللغة، وعلماء أصول الفقه الذين يعتد بهم .

ويسانده بعض أتباعه بقولهم بأن الأصل في اللغة هو الإلهام<sup>(١)</sup>، ولا دليل على الوضع، وهذا يفتح الباب لادعاء الإلهام لكل من هب ودب، وهذه هدية ثمينة مجانية للباطنية، أما إذا أريد بالإلهام ما يحدث في بداية ظهور اللغة فهو عود إلى القول بالوضع وإن يكن عن طريق الإلهام، وعود إلى صلب المشكلة من ناحية ثانية .

ويعترف الإمام ابن تيمية بأن المقصود في المثال المذكور القائل الشجاع وليس الحيوان المعروف ولكن على أساس أن اللفظ استعمل استعمالا حقيقيا في الحالين، بدليل قرائن الحال<sup>(٢)</sup>

أى أن لفظ أسد لا يستعمل وهو كلمة مفردة إلا على الحقيقة، وأما في الجملة وسياق العبارة فإنه قد يستعمل للشجاعة أو غيرها فيكون حقيقة فيما استعمل فيه .

وهذا ما يقول به القائلون بالمجاز جملة، وما يسميه الإمام ابن تيمية " سياق العبارة " الذى نقل الكلمة من معنى إلى معنى آخر يساوى عند القائلين بالمجاز: القرينة التى تصرف الكلام عن إرادة المعنى الحقيقى .

ومن هنا ينتهى الخلاف فى الموضوع إلى دائرة الخلاف اللفظى .

أما إنكار المجاز على أساس القول بأنه من المصطلحات المحدثه بعد القرن الثالث، فهو لا يعنى إنكار المجاز، لأن القول بالمجاز لم يكن إنشاء له ولكن كشفا عن وجوده فى طبيعة اللغة، كالقول فى علم النحو المحدث بالفاعل والمفعول و حروف الجر، والمبتدأ والخبر، بل فى مصطلحات علم الكلام التى يستعملها الإمام ابن تيمية نفسه كالصفات الخبرية وجواز قيام الحادث بالقديم، وهذه بدهيات .

(١) أنظر كتاب (الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل) للدكتور محمد السيد الجليلند ص ٣٦٣، ٣٦٩ والمؤلف من أتباع الإمام ابن تيمية فى سائر موضوعاته

(٢) " الحقيقة والمجاز " لابن تيمية ضمن مجموعة الرسائل والفتاوى تحقيق عبد الرحمن النجدى ط ٢ ج ٢٠ ص ٤٠٣ ، ٤٥١ ، وما بعدها

إن اعتبار المجاز تحريفا ليس إلا إنكارا لطبيعة اللغة، ومكابرة في أصل نشأتها وقوانين تطورها، وتناقضا بين موقفين: إنكار وضعيتها عند ما يقول المخالف في لفظ ما إن له معنى حقيقيا جاء في أصل الوضع، ثم ادعاء معرفة أصل الوضع في نفس الوقت عند ما يقول التيميون إن أصل الوضع في اللغة هو الإلهام، أو عندما يقولون إن اللفظ يوضع لمعان مختلفة بحسب السياق وضعا حقيقيا، وأخيرا فهو فصل للقرآن عن مصدر إعجازه القائم فيما يقوم عليه على أساليب المعاني والبيان والبديع وفي صلب ذلك يأتي المجاز بأنواعه وتشبيهاته واستعاراته وكنائياته .

ويتابع الإمام ابن القيم شيخه في إنكار التأويل فيقول: (نصف الله تعالى بها وصف به نفسه وبها وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل ثبت له سبحانه ما أثبتته لنفسه من الأسماء والصفات، ونفى عنه النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات إثباتا بلا تمثيل. وتنزيها بلا تعطيل .. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والكلام في الصفات كالكلام في الذات، فكما أنا ثبت ذاتا لا تشبه الذوات فكذلك نقول في صفاته إنها لا تشبه الصفات، فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. فلا تشبه صفات الله بصفات المخلوقين ولا نزيل عنه سبحانه صفة من صفاته لأجل تشنيع المشنعين وتلقيب المقتربين) (١).

وهذا في رأينا هو أساس ما يبنى عليه منهج التسليم والتفويض والتنزيه .

ملاحظات إجمالية للمنهج العملي في مسألة التشابهات.

الملاحظة الأولى: إنه من الطبيعي طبقا لشروط المعرفة العقلية أن يتورط العقل في التشبيه، حيث تخضع هذه الشروط الموضوع الجديد للمشابهة مع موضوع قديم، كما تخضع في نفس الوقت للمخالفة بينهما، ثم لعلاقة نسبية بين الذات والموضوع، وإلا لم تتحقق المعرفة، وهنا يأتي دور الإرادة التي ترفض هذه الشروط، كلما كان

(١) الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن القيم مطبعة التقدم العلمية بمصر عام ١٣٤٤ هـ

الموضوع هو الذات الإلهية وصفاتها التي لم ترد في الوحي، لأنها ليست مما يمكن للعقل إجراء المشابهة بينها وبين موضوع سابق.<sup>(١)</sup>

وفي هذا الموضوع تثار مسألة قياس الغائب على الشاهد وفيها يرد الماتريدي على القائلين بالتسوية بينهما - ادعاء منهم بأن الشاهد أصل ما غاب عنه ولا يخالف الفرع أصله - ويرى أن هذا قلب للحقيقة إذ الغائب أصل للشاهد، والأصل عنده أن الشاهد قد يدل على الغائب وهو - أي الغائب - خلافة<sup>(٢)</sup>

ومن هنا يقول الإمام الطحاوي (لا تبلغه الأوهام<sup>(٣)</sup> ولا تدركه الأفهام<sup>(٤)</sup>) ولا تشبهه الأنام) يقول العلامة الغنيمي: فكل ما تخيل في الوهم أو تصور في الفهم فالله سبحانه وتعالى بخلافه، وهو سبحانه خالق التخيل في الفهم والتصور في الفهم، ومنشؤه وسوسة الشيطان، وكراهته علامة محض الإيمان) اهـ ثم يقول: (فلا يماثله سبحانه وتعالى شيء لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال، فذاته تعالى

---

(١) ومن هنا يقرر الفيلسوف الإنجليزي هبرت سنسر في كتابه "المبادئ الأولى" أنه وإن كنا لا نملك أن نتصور المطلق بعقولنا فإننا نحكم بعقولنا أنه موجود، وهو يعني أن في صميم جهلنا بالمطلق، يوجد اعتراف ضمنى بوجوده، ذلك لأن المطلق الذي حكمنا بعجزنا عن معرفته كان ماثلاً أمام أذهاننا لا باعتباره عدماً بل باعتباره شيئاً، وذلك لأن تفكيرنا بطبيعته يقوم على العلاقات وهكذا يخلص سنسر إلى القول بأن قوانين الفكر التي تحظر علينا تكوين تصور عن المطلق هي بعينها التي توجب علينا التسليم بوجوده، ويذهب هاملتون الفيلسوف الإنجليزي (١٧٨٨ - ١٨٥٦) إلى الإقرار بوجود المطلق وإن كنا لا ندري عنه شيئاً، وذلك لأن أي موضوع معروف فهو جزء من حيث إنه مشروط [ومعارفنا البشرية كلها مشروطة] ومن ثمة فهو مردود إلى لا مشروط، وهذه النسبة تخرجنا من حدود معرفتنا المشروطة، وتجعلنا نثبت وجود المطلق. أنظر المزيد كتابنا "الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية"

(٢) المغربي ص ٦٧ - ٦٨ نقلاً عن التوحيد للماتريدي

(٣) المراد بالوهم: قوة إنسانية من شأنها إدراك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات: ذكره السيد أبو

الحسن علي بن محمد الجرجاني الحنفى ت ٨١٦ - في كتابه "التعريفات"

(٤) المراد بالفهم تصور المعنى من اللفظ.

وهذا بخلاف الاستدلال على وجود الله وعلى صفاته التي تدل عليها أفعاله، فهو أي هذا الاستدلال شيء وهو ممكن، وإدراك الذات شيء آخر وهو غير ممكن.



ليست بجسم ولا جوهر كما أنها ليست بعرض وصفاته ليست حادثة، وأفعاله ليست معلولة ولا مكتسبة). اهـ<sup>(١)</sup>

وينقل الغنيمي عن بعض الفضلاء معزوا إلى الشيخ الأكبر<sup>(٢)</sup>: من فهم معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لم يفكر قط في كنه ذات الحق أبداً، وما رأيت أحداً ممن يدعى أنه من فحول العلماء من أصناف النظائر إلا وقد تكلم في ذات الله تعالى بفكره زاعمين أنهم ينزهونه، حتى وقع في ذلك أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى، لكنه رجع عن ذلك قبل موته، وكان من فضل الله على أن حفظني من التفكير في ذاته، فلم أعرفه تعالى إلا من قوله وخبره وشهوده<sup>(٣)</sup>، فبقى الفكر معطلاً في هذه الحضرة، فشكرني فكري على ذلك وقال: الحمد لله الذي عصمني بك عن التصرف والتعب، فيما لا ينبغي لي أن أتصرف فيه، وكان ذلك مبايعة سابقة، فإنني كنت قد بايعت فكري ألا يتعب في التفكير في ذات الله، وأن يصرف تعب في الأغيار، فبايعني على ذلك، فالحمد لله على صرفه في الشغل الذي خلق له اهـ<sup>(٤)</sup>

الملاحظة الثانية: إن هذا الاختلاف في مسألة التشابهات نشأ في رأينا من اقتحام التفكير في ذات الله وطرح مسألة العلاقة بين الذات والصفات على بساط البحث وهي مسألة لا يمكن البت فيها فيما يتعلق بالعلاقة بين الذات والصفات بالنسبة للمخلوق (الإنسان مثلاً) فما بالك بالبحث في هذه المسألة بالنسبة للذات الإلهية .

وفي رأينا أن ذلك الجدل كله ناشئ من الإسراف في الثقة بالنظر العقلي، وعدم الالتزام بالأصول الثلاثة التي قدمناها: في محدودية العقل، وعدم الالتزام بالمنهج العملي، ومحدودية الجدل، والاقتصاد في هذه الموضوعات مكفول بالوقوف عند النص الصريح، والتفويض فيما لا علم لنا به .

(١) شرح الغنيمي للطحاوية ص ٥٥

(٢) هو محمد بن علي الطائي المعروف بمحيي الدين بن عربي ت ٦٣٨ هـ شرح الغنيمي للطحاوية ص ٦٠

(٣) مصطلح صوفي يقصد به: حالة من الشعور بالوجد والفقد أو بعبارة أخرى: الحضور أمام الله والغيبة عن الذات، وتصبح الغيبة هي الفناء في المشاهدة، وهي غير وحدة الوجود .

(٤) شرح الغنيمي للطحاوية ص ٦٠

**الملاحظة الثالثة :** أن الباحث في هذه الآيات المتشابهة لا يجد فيها ما ينسب إلى الله تعالى ما يوهم التشبيه مقصودا إليه بذاته، على النحو الذى نجد في تقرير الوجدانية أو العلم أو القدرة أو في تقرير مخالفته تعالى للحوادث ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أو سائر العقائد التى لا يكون المسلم مسلما إلا بها، ففى هذه الصفات يكون القصد واضحا إلى الصفة، ويكون المراد تقريراً مباشراً لاتصافه تعالى بكونه مخالفا للحوادث، أو أحداً، أو عالماً أو قادراً وفى هذا يأتى القول الإلهى: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ و﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إلى أمثال ذلك مما لا يسهل حصره، أما فى حال نسبة ما يوهم التشبيه فنحن لا نجد ألبتة مثل هذا الأسلوب كأن يقول (الله يد أو لله عين) أو (إن الله ذو يد) أو (إن الله ذو عين) وإنما ينسب الأمر غير مقصود، وإنما يكون طريقاً وأسلوباً ومجازاً يمر منه إلى تقرير أمر آخر، فقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ تأتى لمعنى يختلف عن الكلام عن اليد، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ تأتى لمعنى يختلف عن الكلام عن الوجه .

وهذا فرق هام فيما نحن بصدد من الكلام عن الصفات، وهو راجع إلى ما قاله الإمام ابن الجوزى فى أسباب الوقوع فى التشبيه . وقد ذكرناه من قبل .

**الملاحظة الرابعة:** أن محدودية العقل البشرى - وهو أمر لا ينبغى الاختلاف فيه - تلزمنا بالقول بأن الله تعالى يجوز أن يخاطب عباده بما لا يعلمون جانباً منه، ما دام الأمر لا يتعلق بالتكاليف العملية مثل قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ٨٥ الإسراء ومثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِىَ مَوْقِفَتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾ ١٨٩ البقرة.

ومن ذلك ما رواه الترمذى فى سننه بسنده عن عبد الله قال جاء يهودى إلى النبى، فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، قال فضحك النبى حتى بدت نواجذه قال: "وما قدرُوا الله حق قدره" قال هذا حديث حسن صحيح وما رواه بسند آخر عن ابن عباس قال: مر يهودى بالنبى فقال له النبى: يا

يهودى حدثنا، فقال كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه، والأرض على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه، وأشار أبو جعفر محمد بن الصلت بخصره أولا ثم تابع حتى بلغ الإبهام فأنزل الله "وما قدروا الله حق قدره" قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه من حديث بن عباس إلا من هذا الوجه .

فمن هنا نفهم أن ضحك الرسول صلى الله عليه وسلم لمن تحدث إليه عن الأصابع الخمس التي يحمل الله عليها الخلائق لم يكن ضحك إقرار وتعجب وتقرير كما قيل، وإنما اكتفى الرسول صلى الله عليه وسلم بمدلول ما عتب به وهو قول صلى الله عليه وسلم "وما قدروا الله حق قدره" وكان ضحكه بعد ذلك ضحك تلطف وعطف على الضعف والقلق الإنسانى الذى ينزع بالإنسان إلى سد النقص في معارفه بما لا يكون تعبيرا دقيقا عن الموضوع . فهذا مبلغ التنزيه وهجران الشرك عند مثله ومثلها وهو ما تقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائله، وهو ما يمكن أن نفهمه من ذلك دون أن يكون ذلك معارضا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ ودون أن يكون معارضا لقوله صلى الله عليه وسلم "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله" <sup>(١)</sup>

ومن ذلك أيضا وقريب مما تقدم ما ذكره ابن المرتضى من (زيادة علم الله على علم الخلق) <sup>(٢)</sup> وهو يعنى أن التفاضل في العلم يؤدى بالضرورة إلى درجة من نقص الفهم في الطرف الأقل: تقل أو تكثر . والمثال على ذلك بين في قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع الرجل الصالح رضى الله عنه .

ومن هنا جاء كلام العلماء عن: حكمة ورود المتشابه:

---

(١) أنظر التبصير في الدين للأسفرايينى طبع مطبعة الأنوار عام ١٩٤٠ ص ٩٩، ويقول الشيخ الكوثرى في تحقيقه عليه: "رواه أبو نعيم في الحلية واللالكائى في شرح السنة عن ابن عباس رضى الله عنها على اختلاف يسير في اللفظ"

(٢) أنظر "إثبات الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق" ط مطبعة الآداب والمؤيد بالقاهرة لعام ١٣١٨ هـ "ص ٨٨

ومن ذلك: أنه كان لابد منه لفهم العامة وأشباههم الذين لو حملوا على فهم التنزيه المحض لوقعوا في وهم العدمية<sup>(١)</sup>، وفي هذا الموقع من فهم الموضوع يأتي حديث الجارية الذي تحدثنا عنه بالتفصيل آنفا.

ومن ذلك أيضا تقريب العقل البشرى وتدريبه وإعداده ليوم القيامة حيث يكون فيه فيض العلوم من الله وهو وقت يقول عنه القرآن الكريم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ إذا التزم هذا العقل بأدب التسليم في وقت القصور. ومن ذلك: حكمة الابتلاء السارية في جميع التكاليف، وللتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه<sup>(٢)</sup>.

الملاحظة الخامسة: أن موقف التسليم المبني على: إثبات ما ورد، ونفى التشبيه، وعدم الخوض في التأويل هو أسلم المواقف وأقربها لطبيعة التدين، وجوهره الاتباع.

والتسليم المطلوب في العقيدة الإسلامية ليس تسليما لما هو مناقض للعقل، ولكنه تسليم لما هو فوق العقل، وهناك فرق بين الأمرين: ما ناقض العقل كاعتقاد أن الثلاثة تساوى واحدا، فهذا مرفوض عقلا، وليس في الإسلام شيء من ذلك لأنه عندئذ يكون مناقضا للفطرة البشرية التي يمثل العقل أحد مكوناتها الرئيسية، والدين لا بد وأن يتفق مع الفطرة، وهكذا كان الإسلام، وأما ما هو فوق العقل أى من مجهولاته فهو مثل: معرفة كيف خلق الله العالم، أو كيف يبعث الموتى، ومثل هذا مجهول للعقل البشرى، والخلاصة أن الأول مرفوض والثانى مجهول، والدين الصحيح لا يمكن أن يحتوى على شيء من النوع الأول، - لا لشيء إلا لأنه يصبح متناقضا مع الإنسان الذى جاء الدين من أجله - ولكنه يمكن ولا بد أن يحتوى على شيء من النوع الثانى .

---

(١) أنظر "أساس التقديس" للإمام الرازى طبع مطبعة كردستان العلمية بمصر لعام ١٣٢٨ هـ  
(٢) أنظر أساس التقديس للرازى ص ٢١٠، وما بعدها، والبرهان للزركشى ج ٢ ص ٧٥ وما بعدها، والكشاف للزخشري في تفسيره لآية المحكم والمتشابه من سورة آل عمران

وإذا كان قد جاء من العلماء من اعتبر أن التأويل أحكم، لأنه هو الخطاب الذي يصد عن التشبيه عند طوائف من الناس، فيجب أن يكون ذلك محدودا بـخطاب الضرورة، فإن كل ضرورة بحسبها - وهذا بمنطق الضرورة العملية أيضا - وينبغي عندئذ الاقتصاد في التأويل، لأنه رجم بالغيب .

الملاحظة السادسة: أن المشبهة يثبتون آراءهم استنباطا، فهم لا يجدونها صريحة، وإنما يجدونها مستنبطة . وميزة الإسلام أنه لا يلزم أتباعه بعقائد لم تأت واضحة صريحة مأمورا بها

إن المشبهة يقعون هنا في نفس المنهج الخاطئ الذي وقعت فيه المسيحية من حيث التثليث والفداء وقيامه المسيح ... هم يلزمون أنفسهم بعقائد لم يأت فيها نص من الوحي الصريح، فهم يحمّلون أنفسهم أوزارا لم يحمّلهم الله إياها ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الملاحظة السابعة : اللجوء إلى منطق العقل العملى .

ومنتطق العقل العملى الذى يُدخلنا إلى الإسلام من باب الإنذار يُلزمنا بالتسليم وبالتوقف عن الخوض في التأويل، لأن المتوقف هنا ممثّل مسلم وجهه لله، وهو من هذه الناحية قد بلغ - أو له أن يبلغ - الدرجات العليا في الخضوع لله وطاعته ومحبته .

أما الخائض - وبمنظرة عملية - فلأى شيء يخوض ؟ ليقرب من ربه ؟ فما باله إذا كان هذا الاقتراب محفّوفا بمخاطر الابتداع والوقوع في الباطل ونسبة ما ليس لله إليه واقتحام الحمى ؟ وعنده ميادين الاقتراب مفتوحة بغير انتهاء أو خطر: العمل النافع لنفسه وللأمة الإسلامية ابتغاء وجه الله تعالى، وقد ضمن الله له في العمليات أجرين إن أصاب وأجرا إن أخطأ؟

والله سبحانه لن يحاسبه يوم القيامة عما لم يعرف من أسرار التشابه، بينما هو يحاسبه على ما قصر في العمل النافع .

أم يخوض من أجل رد الخائضين؟ أليس هذا هو التناقض بعينه؟ أليس هو ارتكاب ما ينهى عنه؟

إن رجلاً سأل أمير المؤمنين علياً عليه السلام في مسجد الكوفة فقال: يا أمير المؤمنين: هل تصف لنا ربنا فنزداد له حباً؟ فغضب عليه السلام ونادى الصلاة جامعة: فحمد الله وأثنى عليه إلى أن قال:

كيف يوصف الذي عجزت الملائكة - مع قربهم من كرسى كرامته، وطول ولهم إليه وتعظيم جلال عزته، وقربهم من غيب ملكوت قدرته -: أن يعلموا من علمه إلا ما علمهم، وهم من ملكوت القدس كلهم، ومن معرفته على ما فطرهم عليه ؛ فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

(فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته، وتقدمك فيه الرسل، فأتم به، واستضى بنور هدايته، فإنها هي نعمة وحكمة أوتيتها، فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين، وما كلفك الله علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه، ولا في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عن أئمة الهدى فرضه ؛ فكل علمه إلى الله سبحانه فإنه منتهى حق الله عليك )

وروى أن نجدة بن عامر الحروري رئيس النجدات من الخوارج قال لابن عباس رضى الله عنهما: كيف معرفتك بربك؟ لأن من قبلنا اختلفوا علينا؟ فقال: (إن من ينصب دينه للقياس لا يزال الدهر في التباس، مائلاً عن المنهاج، طاعناً في الاعوجاج، أعرفه بما عرف به نفسه من غير روية، وأصفه بما وصف به نفسه)<sup>(١)</sup>

والإمام أبو حنيفة رضى الله عنه عندما يقرر أننا نعرف الرسول من قبل الله، وإن هذه المعرفة تكون بنور يقذفه الله في القلب،<sup>(٢)</sup> فإنه يشير إلى محدودية العقل البشرى

---

(١) أنظر صون المنطق للسيوطي والكلام عن عامي المنطق والكلام " نشر وتعليق الدكتور على سامي النشار، الطبعة الأولى بمطبعة السعادة بالقاهرة ص ٥٠

(٢) العالم والمتعلم لإمام أبي حنيفة ص ٣٢

وحاجته إلى هداية الله، والتزامه من ثم بما يأتي من الوحي، وهو الأصل الأول الذى ذكرناه والذى يمنع من الخوض فى المشابهة .

والإمام مالك رضى الله عنه إذ يقول (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) يرسم منهجا فى النظر فى العقائد يتميز بالتوقف، ويلتقى مع الأصول الثلاثة التى ذكرناها أولا .

والإمام الشافعى رضى الله عنه يقول عمن لم تبلغه الدعوة (لا يجوز قتالهم، ما لم تعرض الدعوة عليهم، ولا يجب عليهم أن يسلموا من قبل العقل، لأنه آله وليس بموجب، والموجب هو الله تعالى) <sup>(١)</sup>

والإمام أحمد بن حنبل يقول: (صفة المؤمن إرجاء ما غاب عنه من الأمر لله تعالى كما جاءت الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، فيصدقها ولا يضرب لها الأمثال) <sup>(٢)</sup>

ويقول إمام الشافعية فى وقته أبو العباس بن سريج رحمه الله تعالى (وفى الآى المتشابهة فى القرآن أن نقبلها ولا نردها، ولا نتأولها بتأويل المخالفين، ولا نحملها على تشبيه المشبهين، ولا نزيد عليها ولا ننقص، ولا نفسرها، ولا نكيفها، ولا نترجم عن صفاته بلغة غير العربية، ولا نشير إليها بخواطر القلوب ولا بحركات الجوارح) <sup>(٣)</sup>

ويقول أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البوشنجى (ت ٢٩٠) لمن سألوه عن الإيمان: أن يلزموا القصد، والاتباع، وأن يجعلوا الأصول التى نزل بها القرآن غايات للعقول، ولا يجعلوا العقول غايات للأصول، ويبين أن نهايات هذه المسائل لا تبلغ أبدا (فإن دون كل بيان بيانا، وفوق كل متعلق غامض، متعلق أغمض منه)، وذكر أن الله منع الأنبياء أنفسهم من السؤال عن كثير من الأشياء (إذ فوق ما

(١) مفيد العلوم ومبيد الهموم للخوارزمى ج ١ ص ٨٥

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة، ومناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى .

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن قيم الجوزية ص ٦٤

سألوا آيات لا يوقف على متنهاها، فلم يكن يجب - أن لو كان ذلك كذلك - إيمان على أحد، حتى يبلغ من غاية المعرفة بأمر الله ما أحاط به علم الله .

ويقول أبو محمد الخطابي في رسالته " الغنية عن الكلام " (إننا لا ننكر أدلة العقول، والتوصل بها إلى المعارف، ولكننا لا نذهب في استعمالها إلى الطريقة التي سلكتموها في الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر وانقلابها فيها .. على حدوث العالم وإثبات الصانع، ونرغب عنها إلى ما هو أوضح بياناً، وإنما هو الشيء أخذتموه عن الفلاسفة وتابعتموهم عليه)<sup>(١)</sup>

ويقول بعض العلماء في التوقف فيما يتعلق بذاته تعالى: (... حرام على العقول أن تمثله، وعلى الظنون أن تحده، وعلى الضمائر أن تعمق، وعلى النفوس أن تفكر، وعلى الفكر أن يحيط وعلى العقول أن تصور: إلا ما وصف به ذاته في كتابه، أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم . فإن كل ما تمثل في الوهم فهو مقدره قطعاً وخالفه).<sup>(٢،٣)</sup>

يقول الإمام أبو المظفر ابن السمعاني في كتابه الانتصار لأهل الحديث: (وأما أهل السنة فقالوا: الأصل في الدين الاتباع، والعقول تبع )

ثم يقول (فإذا سمعنا شيئاً من أمور الدين وعقلناه وفهمناه فلله الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق، وما لم يمكننا إدراكه وفهمه ولم تبلغه عقولنا آمناً به وصدقنا واعتقدنا أن هذا من ربوبيته تعالى)<sup>(٤)</sup>

وهذا هو مبدأ التسليم الكامن في جوهر " الإسلام " والذي يقول فيه الإمام

---

(١) صون المنطق للسيوطي ص ٦٩ - ٧٢، ص ٩١ وما بعدها

(٢) أنظر (اعتقاد أهل السنة والجماعة) للشيخ عدي بن مسافر الأموي ط ١٩٧٥ ص ١٢

(٣) وانظر صون المنطق والكلام عن علمي المنطق والكلام للسيوطي طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ١١١ - ١١٥

(٤) صون المنطق والكلام عن علمي المنطق والكلام للسيوطي طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ٢٣٥



أبوجعفر الطحاوى فى رسالته (بيان أهل السنة) والمشهورة باسم (العقيدة الطحاوية): (لا يثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم، فهو قد حجبه مراؤه عن خالص التوحيد، وصافى المعرفة، وصحيح الإيمان. فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق، والتكذيب والإقرار والإنكار، موسوساً، تائهاً، شاكاً، زائغاً، لا مؤمناً مصداقاً، ولا جاحداً مكذباً). ثم يقول: (ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوجدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس بمعناه أحد من البرية، تعالى الله عن الحدود والغايات، والأركان والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات)

وبمثل ذلك يقول وهو بصدد المنع من الغوص وراء معنى القدر، (والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً، وفكراً، ووسوسة)

ثم يصف هذا المنهج التسليمى بأنه: (درجة الراسخين فى العلم؛ لأن العلم علمان: علم فى الحق موجود، وعلم فى الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يصح الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود)<sup>(١)</sup>

ولو أضفنا نحن إلى هذا البيان مقياس العلم العملى لكان فى جملة تعبيرنا واضحاً قوياً عن الأصول الثلاثة التى ذكرناها فى بداية الكلام عن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقول الإمام الشاطبى (رحم الله الربيع بن خيثم حيث يقول: يا عبد الله ما علمك الله فى كتابه من علم فاحمد الله، وما استأثر عليك من علم فكله إلى علمه، لا تتكلف، فإن الله يقول لنبىه ﴿قُلْ مَا أَمْلِكُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) العقيدة الطحاوية شرح الغنىمى ص ٨٧-٨٨

(٢) الاعتصام للشاطبى ج ١٣ ص ٢٤٢

ويقول ابن خلدون: (فإذا هدانا الله إلى مدرك فينبغي أن نقدمه على مداركنا ونثبته دونها ولا ننظر في تصحيحه بمدارك العقل، ونسكت عما لم نفهمه ونفوضه إلى الشارع ونعزل العقل عنه)<sup>(١)</sup>

وللدقة نقول: نعزل عنه العقل النظرى، الذى نقد نفسه .

ولا نعزله عن العقل العملى الذى هو عمدة الوجود الإنسانى فى الأرض . وهو أداته التى زوده الله بها منذ علم آدم الأسماء ولم يعلمه كنه المسميات . وهو الذى على محوره دار تكليف الله إياه . وهو الذى بمنطقه العملى يتعامل مع المسائل الاعتقادية بعدم الاشتغال بها لا يترتب عليه عمل . وهو الذى يتوافق مع ما ذكرناه آنفا .

وهذا يعنى التطابق مع الأصول الثلاثة التى ذكرناها: محدودية العقل البشرى، وهى قضية انتهت إليها أفذاذ الفلاسفة فى نهاية المطاف، والانصراف عما لا يترتب عليه عمل كنتيجة لطبيعة الصياغة التى تم صوغ العقل البشرى عليها فى مهمته على الأرض، والقصد فى الجدل نتيجة للأصلين السابقين .

إنه هو الذى يجمع فى يده الأصول الثلاثة التى بدأنا بها هذا الكتاب ومن ثم يمسك بجوهر المنهج وصحة التطبيق .

## القضاء والقدر

### تعريف القضاء والقدر

القضاء: مصدر قضى، وهو لغة: إتمام الشيء وإمضاؤه وإنهاؤه، قولاً كان أو فعلاً أو إرادة . فمثال القضاء فى القول قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ٢٣ الإسراء، ومثاله فى الفعل: ﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ مَمْنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ٤١ فصلت، ومثاله فى الإرادة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ رُكُنْ فَيَكُونُ ﴾ ١١٧ البقرة.

والقدر: هو تبين كمية الشيء وهو مصدر قدر يقدر بضم الدال وبكسرها .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٥

وفي المصطلح الشرعى: فيما نقل عن الإمام الأشعرى: القضاء إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما توجد عليه، والقدر: إيجادها على مقاديرها المحددة " بالقضاء "، في ذواتها وصفاتها وأفعالها وأحوالها وأزمنتها وأمكنتها وأسبابها .

وفي المعنى الشرعى فيما نقل عن الماتريدية وأتباعهم: القضاء هو الخلق الراجع إلى صفة التكوين، والقدر هو التقدير أى: جعل الشيء بالإرادة على مقدار محدد قبل وجوده ثم يكون وجوده في الواقع بالقضاء على وفق التقدير

وعليه فيكون القضاء عند الأشاعرة قديماً. والقدر حادثاً، وعلى العكس عند الماتريدية

يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة (والفرق بين القولين السابقين: هو أن ما فسر به القضاء عند الأشعرى يشبه ما فسر به القدر عند الماتريدية، وما فسر به القضاء عند الماتريدية يشبه ما فسر به القدر عند الأشعرى . وبناء عليه يصح لنا أن نجعل كلمتى القضاء والقدر - أى بالجمع بينهما - عنواناً مشتركاً للدلول واحد . فمعنى القضاء والقدر معاً: إيجاد الله تعالى الأشياء على وجه مخصوص - أى حسب علمه تعالى - ثم يكون إيجادها فعلاً على وفق المراد <sup>(١)</sup> .

والإيمان بالقضاء والقدر من أركان العقيدة الإسلامية وفقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ٤٩ القمر، ﴿ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ مَمْنَوَاتٍ ﴾ ١٢ فصلت، ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ ٢١ مريم، ﴿ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ ٤٢ الأنفال، ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ٣ الطلاق، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا ﴾ ٣٨ الأحزاب، ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ ٥١ التوبة، ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ ٢٢ الحديد .

وقال تعالى: ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ

(١) أنظر كتاب العقيدة الإسلامية وأسسها للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني نشر دار القلم - دمشق الطبعة السادسة عام ١٩٩٢ ص ٦٢٥ وما بعدها، وانظر أيضاً شرح الغنيمة للعقيدة الطحاوية ص ٨٦-٨٧

عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَنَكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ الحجرات، وقال تعالى: ﴿وَلَيْكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا إِيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ فضلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ الحجرات .

وفي الحديث الصحيح ما رواه البخارى بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع، برزقه وأجله وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح)

وفي رواية لمسلم بسنده عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " رواه مسلم وغيره .

ولقد كان البحث في القدر من أوائل المسائل التي دار حولها التساؤل ثم الجدل بين المسلمين . ولقد ظهرت بوادر ذلك في عهد الرسول ﷺ والصحابة رضى الله عنهم، ففي مسند أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنها تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب . قال: فقال لهم: مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم . قال: فما غبطت نفسى بمجلس فيه رسول الله لم أشهده بما غبطت نفسى بذلك المجلس أنى لم أشهده اهـ

وكان هديه صلى الله عليه وسلم في الموضوع داعياً إلى الإيمان بالقضاء والقدر دون الخوض في المجادلات حوله، مع حل المسألة حلاً عملياً .

وقد روى الطبرانى بسنده من حديث ابن مسعود بإسناد حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا ذكر القدر فأمسكوا)

ولكن ذلك لم يمنع من ظهور الجدل حول الموضوع وتصاعده منذ أواخر القرن الأول الهجرى حتى اليوم، فكان من ذلك ظهور فرقة القدرية والجبرية ثم المعتزلة، ثم كان لأهل السنة سهم ملحوظ في دراسة الموضوع .

## خلق أفعال العباد:

يطلق اسم القدرية على القائلين بقدرة العبد على خلق أفعاله .. ومن هنا كانت تسميتهم بهذا الاسم .. وحيث أن تكون النسبة إلى القدرة لا إلى القدر وقيل لأنهم في رأيهم ذاك منكرون للقدر .. وقيل لأنهم اتخذوا من القدر موضوعاً لبحثهم ودراستهم<sup>(١)</sup> . وللأشعرى تفسير لهذه التسمية: بـ (إن القدرى هو من يثبت القدر لنفسه دون ربه عز وجل، وأنه يقدر أفعاله دون خالقه<sup>(٢)</sup>) .

## ويذكر الملطى عدة أصناف للقدرية:

منها صنف يقال لهم المفوضة: زعموا أنهم موكلون إلى أنفسهم أنهم يقدرون على الخير كله بالتفويض الذى يذكرون، دون توفيق الله وهداه . وصنف زعموا أن الله عز وجل جعل إليهم الاستطاعة تاماً كاملاً لا يحتاجون إلى أن يزدادوا فيه . وصنف أنكروا أن يكون العلم سابقاً على ما به العباد عاملون وما هم إليه صائرون<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن هذه تفرعات على أصل القدرية، وأنه يجمعهم أنهم يأتون تاريخياً في مقابلة مذهب القول بالجبر<sup>(٤)</sup> . ولقد كان عمر المقصوص رائد القول بالقدر، نادى بذلك فى دمشق، حيث كان أستاذاً لمعاوية الثانى،<sup>(٥)</sup> .

---

(١) انظر بحوث المعتزلة لنيلينو (ص ١٩٨) وما بعدها .

(٢) الإبانة عن أصول الديانة (ص ٧٤، ٧٣) .

(٣) التنبيه والرد للملطى (ص ١٦٥ - ١٨٦) .

(٤) انظر تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور على مصطفى الغرابى (ص ٢١) .

(٥) البداية والنهاية (ج ٦ ص ١٦) ولم أعثر على تحقيق مذهب عمر المقصوص فى قوله بالقدر مما يجعلنا نكتفى بأخذه على المعنى الذى يشمل القدرية عموماً .

ويأتى بعده معبد الجهني: ذهب في البصرة مذهب عمر المقصوص في الشام، وذلك حيث كان يعيش ويرى المعاصي ترتكب ويعتذر عنها بالقدر، فأعلن مذهبه وانتشر المذهب، وقتله الحجاج لخروجه عام ٨٠ هـ<sup>(١)</sup>.

ويذكر بعض المؤرخين أن معبدأ أخذ عن من يدعى: سوسن، تارة، وسوس أخرى وسنسويه وأبو يونس والأسواري، تارات، وهو رجل من أهل العراق كان نصرانياً، ثم أسلم وصحب معبدأ، وعلمه القول بالقدر، وزينه له<sup>(٢)</sup>

وأتى بعد معبد الشخصية البارزة بين رجال القدرية: غيلان بن مروان الدمشقي الذي أخذه هشام بن عبد الملك - قيل لطفه علنا في آبائه - فصلبه بباب دمشق .

ومما يصور مذهب غيلان في القدر قوله في رسالة له إلى عمر بن عبد العزيز: (..فهل وجدت يا عمر حكماً يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضى على ما يعذب عليه، أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه، أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة، أو يعذبهم على الطاعة، أم هل وجدت عدلاً يحمل الناس على الظلم والتظالم، وهل وجدت صادقاً يحمل الناس على الكذب أو التكاذب بينهم؟ كفى بيان هذا بياناً، وبالعَمى عنه عَمى<sup>(٣)</sup> )

أما الجبرية فهم الجهمية (أصحاب جهنم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمز...<sup>(٤)</sup>) وينسب البغدادي إلى جهنم أنه قال بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعات كلها<sup>(٥)</sup> ...

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٩٨) والهامش للمحقق، والبداية والنهاية لابن كثير (ج ٩ ص ٣٤)

(٢) الخطط للمقرئ ومصادر أخرى: نقل عنها جبار الله زهدى في كتابه المعتزلة (ص ٢٦) ومحيي الدين عبد الحميد في هامشه على المقالات للأشعري (ج ١ ص ٩، ١٠) وعلى الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١٨) .

(٣) المنية والأمل لابن المرتضى (ص ١٦، ١٧) .

(٤) الملل والنحل (ج ١ ص ٧٩) .

(٥) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ١١١) .

ويذكر الشهرستاني أنه كان يقول (... إن الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور في أفعاله، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجهادات، وتنسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجهادات، والثواب والعقاب جبر، كما أن الأفعال كلها جبر، قال: وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضاً كان جبراً<sup>(١)</sup>).

أما الإمام الأشعري فيورد قول الجهمية على نحو آخر، فينسب إليهم أنهم يقولون: (إنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وإنه هو الفاعل، وإن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه، إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها الفعل، وخلق له إرادة للفعل واختياراً له، منفرداً بذلك كما خلق له طولاً كان به طويلاً ولوناً كان به متلوناً<sup>(٢)</sup>).

والدكتور النشار يلاحظ بحق ما بين النص الأخير المنقول عن الأشعري والنص السابق له المنقول عن الشهرستاني من خلاف، إذ ينحو الأول نحواً أقل جبرية، فالإنسان - على حسب رواية الأشعري - ليس مجبراً جبر الحيوانات أو الجهادات الصماء، إذ أن الله خلق له قوة بها يفعل ويريد، وخلق له اختياراً، انفرد به الإنسان دون غيره من الكائنات، فالجهم إذن يجعل في هذا الجبر بعض الاختيار، ويقرب بذلك من المذهب الكسبي الأشعري<sup>(٣)</sup>.

وإذن فالجهم - على أساس رواية الأشعري - لم ينكر الاستطاعات كلها، كما ذكر البغدادى، ولم يسلب عن الإنسان الاستطاعة، كما ذكر الشهرستاني. بل أكاد أقول إنه اقترَب من مذهب المعتزلة أنفسهم، في قولهم بأن القدرة الخالقة

(١) الملل والنحل (ج١ ص ٨٠).

(٢) المقالات .. (ج١ ص ٣١٢).

(٣) نشأة الفكر الفلسفي (ج١ ص ٣٤٥).

فى العبد لأفعاله هى قدرة أودعها الله فىه وخلقها من أجله، يصير بها متمكناً من الفعل والترك، بل يقترب بذلك من مذهب إمام الحرمين<sup>(١)</sup>.

ثم ظهرت المعتزلة فى أوائل القرن الثانى الهجرى وهم ينسبون إجمالاً إلى فرقة القدريّة فى بعض كتب الفرق، لكنهم فى حقيقة الأمر لم ينكروا علمه تعالى أزلاً بنظام الموجودات، وأفعال العباد، لكنهم أنكروا تأثير قدرة الله تعالى وإرادته فى أفعال العباد وقالوا بأنها من خلق العباد.

أما أهل السنة فهم قد اتخذوا موقفاً وسطاً بين القدريّة والجبريّة على وجه العموم: يشبّتون القضاء والقدر، ويشبّتون اختياريّة العبد، ويسندون أفعاله إليه على سبيل الكسب، ويسندونها إلى الله تعالى على سبيل الخلق.

يقرر الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه: أن جميع أفعال العباد من تخلّيقه تعالى لكنه يصرح بكونها من كسبهم<sup>(٢)</sup> وهذه إشارة مبكرة إلى موضوع الكسب الذى قال به الإمام الأشعرى من بعد.

ويقول أبو حنيفة: (إن الاستطاعة التى يعمل بها العبد المعصية هى بعينها تصلح لأن يعمل بها الطاعة، وهو معاقب فى تصرف الاستطاعة التى أحدثها الله تعالى فيه وأمره أن يستعملها فى الطاعة دون المعصية<sup>(٣)</sup>).

وظاهر كلام الإمام أن لا جبر عنده، كما علق على ذلك الشيخ الكوثرى قائلاً: (وصرف الاستطاعة هو مدار التكليف، وقد جعله الله بيد العبد المكلف فلا جبر عنده)<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا كان من مواضع الخلاف بين الماتريديّة والأشاعرة - كما يقول الإمام

---

(١) انظر العلم الشامخ للمقبلى (ص ٢١٥)

(٢) الفقه الأكبر (ص ٢١)

(٣) الفقه الأبسط (ص ٤٣)، والاستطاعة عنده تكون مع الفعل لا قبله ولا بعده، الفقه الأكبر بشرح المغنساوى (ص ٢١).

(٤) شرح الفقه الأكبر (ص ١١) وما بعدها.



البياضى - أن الاستطاعة قابلة للمضدين على البدل . وأن اختيار العبد مؤثر في الاتصاف دون الإيجاد، واختاره الباقلانى، وأبو إسحاق الاسفراينى، وإمام الحرمين .<sup>(١)</sup>

ويسند الإمام الماتريدى أفعال العباد إليهم بدليل السمع في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وبدليل العقل الذى يحكم بقبح إضافة فعل المعصية إلى الله، وبحكم الضرورة التى يعلم بها كل واحد من نفسه أنه مختار في فعله .

لكن هذا لا يعنى ما ذهب إليه المعتزلة في خلق العبد لأفعاله، إذ هى تضاف إلى الله بالخلق، وتضاف إلى العبد على سبيل الكسب .

والإمام الماتريدى يجعل الكسب قدرة للعبد، وهى قدرة غير مستقلة عن قدرة الله، وتوجد مقارنة للفعل، وهى عرض والعرض لا يبقى وقتين<sup>(٢)</sup>

يقول أبو الليث السمرقندى: المذهب الصحيح أن للعبد فعلا حقيقة لا مجازا، ثم يبين أن أبا حنيفة توسط بين القدرية والجبرية، إذ جعل الخلق فعل الله وهو إحداث الاستطاعة في العبد واستعمال الطاعة المحدثه فعل العبد حقيقة لا مجازا، وباين ما ذهب إليه الأشاعرة بعد من أن الاستطاعة التى تصلح للخير لا تصلح للشر، وقال: هذا قريب من الجبر، بل هو الجبر بعينه . وهو يرى شرحا لمذهب أبى حنيفة أن هذه الاستطاعة التى يعمل بها العبد المعصية هى بعينها تصلح لعمل الطاعة، ومع ذلك يرفض القول بتنوع المشيئة الإلهية إلى نوعين: مشيئة الجبر، ومشيئة التفويض، ويقرر أن مشيئة التفويض تجعل العباد معذورين في ارتكاب المعاصي!!<sup>(٣)</sup>، وفي الحقيقة لا يظهر لنا الفرق بين مشيئة التفويض هذه وبين الاستطاعة التى تصلح للمعصية كما تصلح للطاعة .

(١) المغربى ص ٣٣٦ - ٢٤٥ نقلا عن التوحيد ص ٣٦٠ وتأويلات أهل السنة ج ١ ص ٢٨١

(٢) المغربى ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ٢٧٨ - ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٧ نقلا عن التوحيد ٢٢٥ - ٢٢٧، ٢٥٦،

(٣) شرح الفقه الأكبر ص ٩ - ١٢

أما أبو المعين النسفى من الماتريدية فيبين (أن الله تعالى يخلق الحركة والقوة في نفس العبد، والعبد مستطيع باستطاعة نفسه ومشيتته، ولا تنسب الحركة والقوة إلى الله تعالى، وإن كان بقضائه ومشيتته) وهذه (الاستطاعة من الله تعالى إلى العبد وقت الفعل، مقارنة للفعل، لا مقدمة، ولا مؤخرة)

والعبد يستحق الثواب والعقاب بالجهد والقصد والاكتساب (فمتى وجد منه الجهد والقصد والاكتساب يحصل له القوة، والاستطاعة من الله تعالى مقارنة للفعل، يستحق الثواب والعقاب بفعل نفسه، فهو إنما يستحق الثواب والعقاب بالجهد والقصد والاكتساب، وذلك من فعل العبد وصفاته)<sup>(١)</sup>

أما الإمام الأشعرى فيذهب في كتابه اللمع إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله ويستدل بقوله تعالى "والله خلقكم وما تعملون" وللإمام الأشعرى دليلان من "القياس":

الأول: أن الفعل لا يتصور حدوثه على حقيقته إلا من محدث أحدثه عليها قاصدا إلى ذلك . ولا شك أن العبد إذ يقصد إلى الكفر لا يقصد ما فيه من قبح - والقبح جزء من حقيقة الكفر - فهو إذن لا يحدثه . وكذلك العبد إذ يقصد إلى الإيمان لا يقصد ما فيه من مشقة - والمشقة جزء من الإيمان - فهو لا يحدثه، فالكفر والإيمان ليسا من إحداث الكافر أو المؤمن

الثانى: أن ما يدل على أن الله خالق حركة الاضطراب - وهو حدوثها واحتياجها إلى مكان وزمان - متحقق في حركة الاكتساب، فدل على أن الله خالقها كذلك .

ويفرق الإمام الأشعرى بين حركة الاضطراب وحركة الاكتساب بقوله: (إن الإنسان يعلم التفرقة بين الحالين من نفسه ومن غيره علم اضطراب لا يجوز معه الشك) ففي حالة الاضطراب عجز عن الامتناع، وفي حالة الكسب قدرة هي ضد العجز (فحقيقة الكسب أن الشيء وقع من المكتسب له بقدرة محدثة)<sup>(٢)</sup>

(١) بحر الكلام ص ٨ - ١٣

(٢) اللمع في الرد على أهل الأهواء والبدع للإمام الأشعرى ص ٦٩ وما بعدها، تحقيق د حمودة غرابية، نشر مكتبة الخانجي مطبعة مصر عام ١٩٥٥

وعند الإمام الأشعري يستحيل أن تتقدم هذه القدرة على الفعل، كما يستحيل أن تكون قدرة على الفعل وضده لأسباب عقلية منطقية<sup>(١)</sup>

وهذه القدرة الحادثة لا تأثير لها في الإحداث لأن جهة الحدوث قضية واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الجوهر والعرض فلو أثرت في الحدوث لأثرت في حدوث كل محدث: جوهرًا كان أو عرضًا .

وفي هذا رد على من يذهب إلى أن العبد يخلق بعض الأعراض .

وعنده أن الله تعالى أجرى سنته بأن يخلق عقب القدرة الحادثة أو تحتها أو معها الفعل الحاصل إذا أَرَادَهُ العبد، وتجرد له، ويسمى هذا كسبا فيكون خلقا من الله تعالى<sup>(٢)</sup>

ولهذا يقول الشيخ القبلي (والذي في كتب الأشاعرة - وهم أخص به - أي أخص بالأشعري - أن فعل العبد بخلق الله ابتداء، ويخلق الله تعالى له قدرة حال الفعل ولا أثر لها، ولذا جزموا بأن مذهب الجبر المحض، كما صرح بذلك غير واحد كإمام الحرمين والرازي، والسمرقندي وشارح الطوالع وغيرهم، وكذا البياضى من الماتريدية .... وهو يسمى الإمام الأشعري وأصحابه أهل الجبر المتوسط، وقول جهم الجبر المحض)<sup>(٣)</sup>

وقد حاول الإمام الباقلاني حل مشكلة أفعال العباد في ذهابه في " القدرة الحادثة " التي تحدث عنها الإمام الأشعري إلى أنها وإن لم يكن لها تأثير في إيجاد الفعل، لكن لها تأثيرا في كونه على حالة مخصوصة، وتلك الحالة المخصوصة هي المتعينة لأن تكون مقابلة بالثواب والعقاب، فإن الوجود من حيث هو وجود لا يستحق ثوابا أو عقابا، والحسن والقبح صفتان وراء الوجود، والموجود من حيث هو موجود ليس بحسن ولا قبيح<sup>(٤)</sup> .

(١) اللمع ص ٩٣

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٨-٨٩

(٣) العلم الشامخ ص ٢١٦

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٩

ولعل هذه الحالة المخصوصة هي ما يمكن التعبير عنه بالنسبة التي تعقد بين شيئين أو أكثر، كالشرب والسم كلاهما من خلق الله، وقدرة العبد الحادثة هي في عقد نسبة بينهما بتناول السم . وهذا في تقديرى يسهم لا في حل مشكلة خلق الأفعال فحسب، ولكن في مشكلة الشر على مستوى الوجود .

وفي أفعال العباد يصرح الجوينى في كتابه لمع الأدلة بأن القدرة الحادثة للعبد ليست مؤثرة في وقوع المقدور، إذ يقول: (العبد غير مجبر على أفعاله، بل هو قادر عليها مكتسب لها .

ومعنى كونه مكتسبا أنه قادر على فعله وإن لم تكن قدرته مؤثرة في إيقاع المقدور)<sup>(١)</sup>

ولكن يبدو أن الإمام الجوينى طور رأيه إلى ما ذكره في العقيدة النظامية التي يعتبر الباحثون أنها من آخر ما كتب . وفيها يجزم الجوينى باستحالة القول بأن العبد يخلق أفعاله، واستحالة القول بأنه لا أثر للقدرة الحادثة في مقدورها، واستحالة القول بأن الفعل الواحد يتحقق حدوثه بقادرين .

ويرى أن إطلاق القول بالاكْتِسَاب من غير شفاء الغليل عما يقال عنه يجعله لقبا من غير تحصيل معنى!

والرأى عند الإمام الجوينى إذن (أن قدرة العبد مخلوقة لله تعالى، والفعل المقدور بالقدرة الحادثة واقع بها قطعاً، ولكنه مضاف إلى الله تعالى تقديراً وخلقاً، فإنه وقع بفعل الله تعالى وهو "القدرة"، وليست "القدرة" فعلاً للعبد، وإنما هي صفته، وهى ملك لله تعالى وخلق له، وقد ملك العبد اختياراً يصرف به "القدرة")<sup>(٢)</sup>

ويعلق الشيخ الكوثرى على ذلك بأنه رأى الإمام الأخير بعد الذى ذكره في الإرشاد، وأنه تحقيق مذهب الإمام الأشعرى كما في مؤلفاته الأخيرة ! بل يشير إلى

---

(١) (لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة) تقديم وتحقيق د فوقية حسين محمود، ود محمود الخضيرى  
طبع الدار القومية ص ١٠٦ - ١٠٧  
(٢) العقيدة النظامية ص ٣٢، ٣٤، ٣٦

أنه يكاد لا يفترق عما ذهب إليه المعتزلة وفقا لما نقل عنهم المسعودي من قولهم " لا يقدر أحد على قبض ولا بسط إلا بقدره الله التي أعطاهم إياها " !

ويوضح الشهرستاني رأى إمام الحرمين هذا بما ينطوى عليه من تميز ؛ حيث يبين أن إمام الحرمين ذهب إلى أنه (لا بد من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة، لا على وجه الإحداث والخلق، فإن الخلق يُشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضا عدم الاستقلال .

فالفعل يستند وجوده إلى القدرة، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر، حتى ينتهى إلى مسبب الأسباب، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها، المستغنى على الإطلاق)

وينتقده الشهرستاني فى ذلك بأنه يلزم عليه القول بالطبع وتأثير الأجسام فى الأجسام وتأثير الطبائع فى الطبائع إحداثا، وليس ذلك مذهب الإسلاميين<sup>(١)</sup>

ويبدو لى أن هذا النقد لا يتوجه للجوينى طالما أنه قرر انتهاء الأسباب والمسببات جميعا إلى الله ووصفه بأنه الخالق لها جميعا، والمستغنى على الإطلاق.

أما الإمام ابن تيمية فيقرر أن الله خالق كل شيء، وأن العبد فاعل حقيقة إذ يقول: (ومما ينبغى أن يعلم أن مذهب سلف الأمة مع قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ فمذهبهم أن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة، وقال تعالى: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ﴾<sup>(٢)</sup>

ويبدو من قول الإمام ابن تيمية التفرقة بين الخلق والفعل، حيث ينسب الأول لله، والثانى للعبد، وهو أشبه بقول من سبقه بالتفرقة بين الخلق والكسب .

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٩٠

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية، مطبعة المنار، الطبعة الأولى عام ١٣٤٩ ١٤٢١٥

وما رآه ابن تيمية ونسبه للسلف هو ما رآه ابن القيم<sup>(١)</sup> - وذلك أن ابن القيم بعد أن هاجم ما سماه كسب الأشعرى في كتابه "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" بجعله هذا الكسب من "محالات الكلام" يقول: "العبد بجملته مخلوق لله" ثم يقول: "والصواب أن يقال: تقع الحركة بقدرة العبد وإرادته التي جعلها الله فيه" ويقول: "هى أفعال للعباد على الحقيقة ومفعولة للرب، فالفعل عندنا غير المفعول... فالعبد فعلها حقيقة والله خالقها وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة وخالق فاعليته، وسر المسألة أن العبد فاعل منفعل باعتبارين: فربه تعالى هو الذى جعله فاعلا بقدرة ومشيته، وأقدره على الفعل، وأحدث له المشيئة التى يفعل بها)، ويقول "والعبد فاعل منفعل وهو فى فاعليته منفعل للفاعل الذى لا يفعل بوجه، فالجبرية شهدت كونه منفعلا... والقدرة شهدت كونه فاعلا... ثم يقول "إحداث الله لها بمعنى أنه خلقها.. قائمة بمحلها وهو العبد، فجعل العبد فاعلا لها بما أحدث فيه من القدرة والمشيئة، وإحداث العبد لها بمعنى أنها قامت به وحدثت بإرادته وقدرته) ويقول عن أثر هذه القدرة فى الفعل "لإرادته واختياره أثر فيها، وهى السبب الذى خلقها الله فى العبد"<sup>(٢)</sup>

وللمرء أن يتساءل هنا ما الفرق بين هذه القدرة وبين الكسب الذى أنكره؟ وما الفرق بين الجبر وبين القول بأن العبد منفعل فى حال قيام الفعل به؟

وللقارئ أن يتابع بقية ما كتبه ابن القيم وغيره مما نراه يرتفع إلى مستوى عال من التحليل الدقيق، ليتضح لديه أن هذا التحليل العميق لابن تيمية وابن القيم ومن قبلهما من الأشاعرة والماتريدية على السواء إنما هو دخول فى الدقيق العميق من علم الكلام بعامة وخلق الأفعال بخاصة، وأن السلف لم يخوضوا من قبل فى شيء من

(١) أنظر الدكتور عبد العظيم شرف الدين فى كتابه (ابن قيم الجوزية: عصره ومنهجه وآراؤه فى الفقه والعقائد والتصوف" الطبعة الثانية عام ١٩٦٧ م لناشره مكتبة الكليات الأزهرية ص ٣٦١

(٢) شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، المطبعة الحسينية بمصر ص

ذلك، وبخصوص مسألة القضاء والقدر اكتفوا بالعمل مع تسليم كامل بالمسئولية وفقا لقوله صلى الله عليه وسلم " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " .

ويرتب المعتزلة تهمة الظلم لله على قول أهل السنة: بأن الله هو خالق أفعال العباد، لأنهم - أى العباد - عندئذ لا يكونون مسئولين عن أفعالهم فيكون من الظلم عقابهم على ما يقع منهم من سيئات، ولذلك ذهبوا ٠ - أى المعتزلة - إلى أن العبد هو خالق أفعاله، تخلصا من هذه التهمة، وسموا أنفسهم لذلك: أهل التوحيد والعدل = وردا على ذلك يقول العلامة الغنيمي في شرحه للطحاوية (وهو غير ظالم بفعله أبدا لأن الظلم يقال على التصرف في ملك الغير كرها، وهذا محال في حقه تعالى لأن الكل ملكه، فله التصرف كيف يشاء ... والله تعالى أحكم الحاكمين وأعلم العالمين وأقدر القادرين فكل ما وضعه فهو في موضعه وإن خفى علينا وجهه . قال الإمام الغزالي: ولا يتصور الظلم من الله فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه ظلما) اهـ ص ١٣٠ :

وهنا نستحضر ما يقرره علم النفس السلوكي المعاصر من اتجاهات لا تؤيد - بوجه عام - مذهب المعتزلة، أنظر ما يقول الدكتور هـ . ج . أيزنك

(إن القول بأن أى شخص لن يكون مسئولا - أى نتيجة لما يقرره علم النفس السلوكي من حتمية السلوك كنتيجة لعوامل بيئية ووراثية محددة - ليس معناه أنه لا يجب أن يعاقب أحد، فههدف العقاب في نهاية الأمر هو حماية المجتمع وإعادة تربية المجرم، ولا يقتضى افتراض عدم مسئوليته أن لا يسمح للمجتمع بإعادة تربيته بالوسائل التى يثبت علميا أنها ناجحة في تغيير سلوكه)

ويذهب إلى أبعد من ذلك حيث يقرر مبدأ عدم المساواة في إيقاع العقاب، إذ يفرق بين الانبساطيين والإنطوائيين في درجة العقاب فيقول: (إن علم النفس يقترح

(١) أنظر كتابه " الحقيقة والوهم في علم النفس " ترجمة قدرى حنفى، ورءوف تظمى ط ١٩٦٩ ص

١٨٤ - ١٨٦

نقطة ذات أهمية خاصة وهى أنه لا يوجد مبرر عقلى - فليسمع المعتزلة - لمعاملة كافة المجرمين نفس المعاملة.. فمن الواضح أن المعاملة يجب أن تصمم خصيصا لكل شخص على أساس درجته من الانبساط أو الانطواء، ومن العصابية أو الاتزان، وخاصة مدى سهولة أو صعوبة تكوينه للاستجابات الشرطية. ويصدق نفس الشيء على تربية الأطفال، فقد آن الأوان لكى نتوقف عن التأرجح ما بين سياسة العصا، وسياسة التهاون، وندرك أن الطفل المنبسط الذى يتم التشريط لديه بصعوبة يتطلب نظاما حازما حتى لا نراه فى الكبر وقد تحول إلى بلطجى أو جانح أو مشروع مجرم، بينما الطفل الانطوائى الذى يتم التشريط لديه بسهولة يتطلب نظاما متهاونا حتى لا ينقلب بدوره إلى عصابى)

والتشريط الذى يعتمد عليه أصحاب المدرسة السلوكية يفترض إحداث ربط فى الجهاز العصبى بين الفعل والألم، أو الفعل والسرور، وهذا هو جوهر سياسة الجزاء بفرعيه "العقاب والثواب"

ولقد فعل المؤلف ذلك إلى الحد الذى دعاه إلى الدفاع عن هذا الاتجاه ضد أولئك الذى رأوا فى هذا التشريط على هذا النحو نوعا من اللإنسانية أو الاعتداء على الفرد، أو غسيل المخ، أو معاملة ميكانيكية للكائن البشرى، بل إنه ليذهب ليرد على أصحاب هذا الاعتراض بما يمكن أن يقوله المؤمنون بسياسة العقاب فيقول عن مريض يقوم بأفعال هى إجرامية من وجهة نظر المجتمع (يجب أن نستبعد تركه حرا، أو وضعه تحت الملاحظة [ فلم يبق إلا التشريط مهما يكن قاسيا ] فللمجتمع الحق فى أن تُكفل له الحماية، وليس هناك من شك فى أنه إذا ما ترك المريض لنفسه فى مثل تلك الظروف فلسوف يتسبب فى أضرار خطيرة قد تصل إلى حد القتل، وقد يرتكب اعتداءات بالغة الخطورة لا يمكن تداركها ضد بعض أفراد المجتمع الذين يستحقون الحماية بالتأكيد، فالشفقة بالشواذ أو المجرمين ينبغى ألا تقودنا نحو عدم الاهتمام بأولئك الذين ليسوا بشواذ ولا مجرمين)

ويمكن وضع الخلاف بين الاتجاهات والفرق حول عناصر الموضوع مختصرا فى الجدول الآتى:



الاتجاه	الجبر	خلق الله	خلق العبد	للعبد قدرة غير الخلق	للعبد قدرة هي الكسب	مستولية العبد عن أفعاله	التسليم العمل وعدم الخوض
السلف	—	—	—	—	—	نعم	نعم
القدرية	لا	لا	نعم	لا	—	نعم	لا
الجبرية	نعم	نعم	لا	لا	لا	لا	لا
المعتزلة	لا	لا	نعم	لا	لا	نعم	لا
الأشاعرة والماتريدية	لا	نعم	لا	نعم	نعم	نعم	لا
ابن تيمية وابن القيم	لا	نعم	لا	نعم	لا	نعم	لا

وبنظرة إحصائية في هذه العناصر يمكن أن نقول عن المعتزلة إنهم أقرب إلى القدرية، وأن الأشاعرة هم أقرب إلى الجبرية، وأن السلف انفردوا بعدم الخوض .

مراتب القضاء والقدر: نقل الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتابه "التوحيد"<sup>(١)</sup> عن الإمام ابن القيم<sup>(٢)</sup> أن مراتب القضاء والقدر أربعة:

الأولى علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها .

(١) أنظر "تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب "التوحيد" للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٦٢٢

(٢) أنظر كتابه شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تحقيق محمد بدر الدين أبو فراس النعماني الحلبي، نشر دار الفكر ببيروت عام ١٣٩٨ هـ ص ٢٩

الثانية كتابة ذلك عنده في الأزل قبل خلق السماوات والأرض

الثالثة مشيئته المتناولة لكل موجود فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج

له عن علمه

الرابعة خلقه لها وإيجاده وتكوينه فالله خالق كل شيء وما سواه مخلوق في ضوء

هذا التقسيم ..

وفي ضوء ضرورة الإيثار والتسليم بالقضاء والقدر شرعا وفي ضوء حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فيما جاء في الصحيحين عن علي رضي الله عنه قال: (كنا مع رسول الله ببيق الغرق في جنازة فقال: ما منكم أحد إلا كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على الكتاب ونذع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ قوله تعالى " فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ).

وفي ضوء مبدأ محدودية العقل ومرجعية العمل نشرح النظرة العملية إلى مسألة القضاء والقدر من خلال ثلاثة مناهج :

المنهج الأول: المنهج التحليلي في النظر في العلاقات الثلاثة الآتية كل على حدة:

١- : علاقة عمل الإنسان بشمول علمه تعالى

٢- : علاقته بشمول إرادته

٣- : علاقته بشمول قدرته

المنهج الثاني التركيبي: من زاوية التوفيق في تركيب هذه العناصر وفعل الإنسان.

المنهج الثالث: المنهج العملي: في الحل العملي لموقف المسلم إزاء الإيثار بالقضاء

والقدر

## أولا المنهج التحليلي:

١: من ناحية علاقة عمل الإنسان بعموم علمه تعالى :

حيث نجد أن العلم صفة تكشف الأشياء ولا توجد لها أو تؤثر فيها، فهو مثل الضوء الساطع يكشف عن الأشياء كشفاً دقيقاً صحيحاً، لكنه ليس هو الذى يصنع هذه الأشياء . وإذن فإن علم الله تعالى بما سوف يحدث منى أو بما سوف يحدث لى ليس هو الذى يؤثر فى هذا الذى سوف يحدث، وليس هو الذى يوجد، صحيح أن ما علمه الله أنه سيحدث سوف يحدث حتماً، لكن ليس بسبب هذا العلم، إنه سوف يحدث لأسباب أخرى، ترجع إلى قدرة الله وترجع إلى اختيار العبد وكسبه، لكن ليس العلم هو المؤثر، وليس هو الموجد . وفى هذا ورد عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قيل له: لقد ظهر فى زماننا رجال يزنون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التى حرم الله ثم يحتجون ويقولون: كل ذلك كان فى علم الله فغضب ابن عمر وقال "سبحان الله كان ذلك فى علم الله ولم يكن يعلم الله يحملهم على المعاصى" <sup>(١)</sup>

إذن فعلم الله لا يتعارض مع العمل، أى أنه لا يتعارض مع اختيار العبد ومسئوليته، والذى يصنع من هذا الموضوع مشكلة يعيد فيها الكلام ويزيد إنما يفعل ذلك بسوء نية، بدافع التهرب من المسؤولية، يريد أن يتكاسل عن العمل، أو يريد أن يعمل بغير مسؤولية، يريد أن يكفر أو يرتكب المعاصى ويقول: هذا كان فى علم الله وأنا غير مسئول عنه .

٢ - من ناحية علاقة عمل الإنسان بعموم إرادته تعالى

من الحقائق التى قررها الدين ووضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن إرادته تعالى شاملة لكل ما وقع أو يقع، وذلك لا يتعارض مع القول باختيارية الإنسان، وذلك لأن الإنسان عندما حصل على حريته وقدرته على الاختيار إنما حصل عليها كما تدل النصوص التى ذكرنا بعضها بتقدير الله وعلمه ومشيته وإرادته .

---

(١) أنظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة، لطاش كبرى زادة نشر دار الكتب الحديثة ج ٢ ص ١٦٢

إن الله هو الذى أراد ألا أن يخلق الإنسان على هذه الشاكلة: أن يخلقه ذا حرية واختيار محدود بحدود مسئوليته، وعلم عنه كل شيء وقدر له ما علم، ولو أراد سبحانه وتعالى أن يخلقه على نحو آخر كما خلق غيره لفعل، إنما أراد سبحانه وتعالى - بمقتضى إبداعه - للإنسان أن يكون طرازاً فريداً بين مخلوقاته: له أن يختار هذا الأمر أو لا يختاره، ومن ناحية أخرى فإن قدرة الإنسان على الاختيار والعمل تستند إلى وسائل وأدوات منحه الله إياها، ولو شاء الله أن يمنعه عن اختيار معين أو عمل معين لفعل أو لقطعه عن هذه الأدوات . وإذن فلا تعارض بين مشيئة الله وبين إقبال الإنسان على العمل ومسئوليته عنه وحرية في اختيار ما يشاء منه .

### ٣ - من ناحية علاقة عمل الإنسان بعموم قدرته تعالى :

ويدل الحديث أيضاً (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) على أن الله سبحانه وتعالى ييسر لنا بقدرته العمل الذى نتجه إليه، وفي هذه النقطة تأتى معالجة الدائرة الثالثة: علاقة عمل الإنسان بقدرة الله، إنه إذا كان عملنا لا يتعارض مع علم الله لأن العلم كاشف غير مؤثر بالإيجاد . ولا يتعارض مع مشيئته لأنه إنما بهذه المشيئة كان، فإن هذا العمل يكون مصحوباً بتيسيرات يمنحها الله للعبد، لأن الله سبحانه وتعالى عالم مقدماً بما يتجه إليه العبد وبما يختاره وبما خلق له فى هذه الحياة، فهو بقدرته سبحانه وتعالى يعطيه الاستطاعة<sup>(١)</sup> والوسائل والأدوات ويدبر له الظروف والإمكانات التى تعينه على العمل وتوفقه إليه، وتوصله إلى مصيره، وهذا معنى قوله تعالى الذى استشهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

(١) يقسم العلماء الاستطاعة إلى نوعين: أحدهما يراد به سلامة الأسباب والآلات وصحة الجوارح والأعضاء وهى المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ (إِلَيْهِ سَبِيلًا) ٩٧ آل عمران وصحة التكليف تعتمد على هذه الاستطاعة، والثانية الاستطاعة التى هى حقيقة القدرة وهى المعنية بقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ٢٠ هود، وقول صاحب موسى عليهما السلام ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ٧٥ الكهف، والاستطاعة الثانية عرض يحدث عند أهل السنة مقارنة للفعل، وعند المعتزلة سابقة على الفعل

وهذا معنى ما جاء في رواية أخرى: "قال رجل يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة" رواه الشيخان

**ثانيا المنهج التركيبي:**

في محاولة التوفيق بين هذه العناصر الثلاثة - : علم الله وإرادته وقدرته - وفعل الإنسان بكل تعقيداته وعلاقاته مع الآخر في المجتمع والبيئة والوراثة والكون . .

مصدر الخوض في هذه المسألة أن الخائضين فيها كأنهم يريدون أن يعلموا كيف يعلم سبحانه وتعالى وكيف يريد وكيف يخلق وكيف يصنع وكيف يوفق بين ذلك كله وبين أفعال الإنسان الاختيارية والاضطرارية وكل حدث من أحداث الكون حيث يتأثر الكل بالكل، كيف يوفق شبكة العلاقات القائمة بين ذلك كله لكي يخلص الإنسان من ذلك كله مختارا؟

إنهم إذن صنف من الناس اتسموا بالغرور يريدون أن يتدخلوا متطفلين فبي صنع الله :

وهنا يظهر الخروج على مبدأ محدودية العقل، هؤلاء ينسون أن هذا التوفيق ليس من إمكانات عقولهم المحدودة

إنه يكفيهم عمليا أن يعلموا أن الله مشيئة تامة، وأن للعبد اختيارا محدودا، و مسئولية مناسبة لهذه الحدود، أرادها الله وأخبرنا بها، أما كيفية التوفيق بين ذلك كله فأمره ليس إليهم، ولا يدخل في اختصاصهم، كما أنه لا يدخل في دائرة إمكانياتهم، إنها هي متروكة لربهم .

أن يكتفوا بالحقائق التي قررها الدين ووضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الحقائق أن إرادته تعالى شاملة لكل ما وقع أو يقع، وهذا الشمول لا يعفى الإنسان من مسئولية الاجتهاد في العمل لأنه كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى يوفق العبد، ويضع

له التيسيرات التي تمكنه من العمل باختيار . ومن ذلك ما رواه الترمذى بسنده عن  
أبي خزيمة عن أبيه أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله:  
أرأيت رقى نسترقها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله؟ فقال صلى  
الله عليه وسلم (هى من قدر الله )، وما جاء فى الحجر من الطاعون إذ قال عمر  
رضى الله عنه (نفر من قدر الله إلى قدر الله) رواه الشيخان

### ثالثاً المنهج العملى:

١ - أما من ناحية علاقة هذه المسألة بالضرورة الحيوية للإنسان فذلك أننا أمام  
الضرورة الحيوية نجد أنفسنا أمام موقف يدفعنا دفعا إلى ممارسة حياتنا، والتصرف  
فى أمورنا دون توقف، على وجه نستفيد فيه بقوانا العقلية والحسية والوجدانية

وعلى سبيل المثال: من منا يتوقف عن الذهاب إلى الطبيب عندما يؤلمه المرض؟  
أو إلى مصدر رزقه على هذه الأرض عندما يحتاج إلى المال؟ أو يتوقف عن  
الاستعداد لما يتوقع حدوثه غدا أو بعد غد أو بعد عام؟ من منا يتوقف عن شيء من  
ذلك انتظارا لما تسفر عنه المناقشات بين الفلاسفة حول الجبر والاختيار؟

أين نجد الفيلسوف الذى امتنع عن القيام بعمل ما يختاره من بين أعمال كثيرة  
فى مواجهة هذه الضرورات الحيوية التى تلزمه ولا تجبره؟ على هذا النسق العملى  
يدعونا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العمل " اعملوا " من أجل الآخرة، كما  
نعمل من أجل اللحظة القادمة، أو اليوم القادم، فى كل ذلك نقبل على العمل،  
متجاوزين جدل الفلاسفة حول الجبر والاختيار .

٢ - إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج المسألة فى قوله (اعملوا فكل ميسر

---

(١) لا نقصد بالضرورة هنا ما حمل عليه الشيء وأجبر وأكره ولو جهد فى التخلص منه لم يجد فكأكا،  
وإلا لكننا سلمنا منذ البداية بالمذهب الجبرى ولم يعد هناك موضع للكلام، ولكننا نقصد بهذه  
الضرورة ذلك النوع من الالتزام أو الإلجاء الذى يقول عنه بعض المتكلمين (لا يخرج الملجأ عن أن  
يكون على العمل قادرا وباختياره متعلقا) كما يكون الإنسان ملجأ أمام المرض أن يختار بين تناول  
الدواء أو عدم تناوله .

لما خلق له) معالجة عملية . وهنا يظهر مبدأ " مرجعية العمل " وتبدأ هذه المعالجة من حيث انتهت الفلسفة إلى متاهة الحيرة والغموض

يدرك من يتعمق في دراسة هذه المشكلة عند الفلاسفة والمتكلمين أنهم عندما اقتصروا على المنهج التأملى النظرى البحت دخلوا إلى أودية ضلال وغموض لا مخرج منه، كما أنهم لا يجدون فى المنهج العلمى مخرجا، إذ كما يقول وليم جيمس زعيم البراجماتية المعاصرة: (كلا الطرفين من القائلين بالجبر والاختيار يعترف بأن الإرادة قد وجدت فى الفعل، تقول اللاجبرية: كان من الممكن وجود بديل عنها، وتقول الجبرية: لم يكن ذلك ممكنا، فهل يمكن أن نلجأ إلى العلم ليخبرنا أى النقيضين على حق؟ يعترف العلم بأنه لا يستنبط نتائجه إلا من مقدمات واقعة بالفعل، ولكن كيف يمكن أن تنتقل من العلم بأن شيئا معينا قد وقع إلى العلم أو الظن بأن شيئا آخر كان يمكن أو لا يمكن أن يوجد مكانه؟ وإذا لم يكن لنا من الأدلة أن نتكلم الحقائق الواقعية فلا بد أن تبقى مسألة الاحتمالات سرا غامضا ..) انظر كتابه " العقل والدين " ص ١٧ .

لهذا يدعونا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العمل الذى نتجاوز فيه الجدل حول الجبر والاختيار لأنه لا مهرب من مواجهة قضية العمل، سواء كان الأمر جبرا أو اختيارا، ف(كل ميسر لما خلق له) إن كان جبرا فهو ميسر لما خلق له (الجبر) وإن كان اختيارا فهو ميسر لما خلق له (الاختيار) . والقضية إذن هى قضية " العمل " الذى لا يصح - ولا يمكن - أن تؤثر فيه مناقشات الفلاسفة والمتكلمين حول الموضوع .

٣ - وإذا كان لا مهرب من قضية العمل فأولى بالمرء أن يعمل باعتباره مسئولا عن عمله "اعملوا" لأنه ماذا يخسر العاملون إذا عملوا باعتبارهم مسئولين، وظهر لهم - جدلا - أنهم "مجبورون"؟ إنهم لا يخسرون شيئا ذا بال، ولكنهم يخسرون الخسران كله لو أنهم عملوا باعتبار كونهم مجبورين، لهم أن يخطبوا فى أمور دنياهم وآخرتهم خبط عشواء، ثم ظهر لهم أنهم كانوا فى

بحبوحه الاختيار، ثم زاغوا بإرادتهم عنها: إنهم حيثئذ لا مهرب لهم من المسئولية ولات حين مهرب .

ذلك مما يوحى به قوله صلى الله عليه وسلم " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " وهذه هى المعالجة العملية لقضية الجبر والاختيار .

معالجة تبدأ من حيث انتهى الغرور العقلى إلى متاهة الحيرة والغموض وتتجاوز كل المناقشات، وترتفع إلى مستوى الحسم .

### وخلاصة ما تقدم:

أن علم الله شامل لكل شيء، وأنه كاشف لا مؤثر، ولا يمنع الإنسان من القيام بمسئوليته فى العمل.

وأن شمول علمه وإرادته تعالى وقدرته لعمل الإنسان يدفع الإنسان إلى العمل وترتب عليه تيسيرات يمنحها الله للعبد

وأن حرية الاختيار التى منحها الله للإنسان لا تتعارض مع مشيئته لأنها بمشيئته كانت .

وأن عمله بعد أن كان باختياره إنما وقع بقدرة الله وخلق .

وأن التوفيق بين هذه الشبكة من العلاقات يتجاوز محدودية العقل ومنهجية العمل معا،

وأن ليس للعبد إزاء عجزه فى مقام هذا التوفيق إلا التسليم والتوجه للعمل على قاعدة المسئولية والاختيار.

وكما يقول الإمام الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر: (كل إنسان مختار فى أفعاله وحركاته وسكناته ومجبور فى عين اختياره، لأن اختياره ليس من عنده ولا يلزم من هذا ألا يكون مختارا فى أفعاله، .. فالعبد مختار متصف بصفة الاختيار، كما أن الموجود من يكون متصفا بصفة الوجود وإن لم يكن وجوده من عند نفسه ولا خالقا وموجدا لوجوده .. فالعبد مختار متصف بصفة الاختيار لكن اختياره وقدرته ومكنته بتخييره تعالى وتمكينه)



وكما يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة: (أى فى كونه مخلوقا مختارا إذ لم يختار الإنسان فى أصل خلقته أن يكون مختارا، وإنما خلقه الله تعالى كذلك إجبارا، كما خلق ذاته وصفاته كذلك) أنظر كتابه العقيدة الإسلامية ص ٦٦٢

وكما يقول الإمام الطحاوى: (خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقدارا وضرب لهم أجالا لم يخفَ عليه شيء من أفعالهم من قبل أن خلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته وكل شيء يجرى بقدرته ومشيتته، ومشيتته تنفذ، ولا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن)<sup>(١)</sup>

ويقول الإمام الطحاوى (لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه): يقول العلامة الغنيمى فى شرحه: لا راد لقضائه المبرم ولا معقب لحكمه: أى لا يتعقبه أحد بتغيير، ولا ناقض لما حكم به لأنه القاهر فوق عباده. اهـ<sup>(٢)</sup>

ويقول الإمام الطحاوى: (على العبد أن يعلم أن الله تعالى قد سبق علمه فى كل شيء كائن من خلقه، وقدر ذلك بمشيئته تقديرا محكما مبرما، ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا محول ولا زائد ولا ناقص من خلقه فى سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته، كما قال فى كتابه العزيز: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ الفرقان ٢، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ الأحزاب ٣٨، فويل لمن صار له الله فى القدر خصيما، وأحضر للنظر فيه قلبا سقيما، لقد التمس بوجهه فى محض الغيب سرا كتيما، وعاد بها قال فيه أفاكا أثيما)<sup>(٣)</sup>

ويقول الإمام الطحاوى (وأصل القدر سر الله فى خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق فى ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة

(١) شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية ٦٢

(٢) شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية ص ٦٣

(٣) العقيدة الطحاوية بشرح الغنيمى ص ٨٩-٩٠

الضعيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً أو فكراً أو وسوسة فإن الله تعالى قد طوى علم ما قدر عن جميع أنامه ونهاهم عن مرآه، كما قال فى محكم كتابه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ الأنبياء ٢٣ فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الله، ومن رد حكم الله تعالى كان من الكافرين)

ويقول (ونؤمن باللوح والقلم بجميع ما فيه قد رقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء قد كتبه الله فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه)<sup>(١)</sup> مقتبساً عبارته مما رواه الإمام الترمذى بسنده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإذا اجتمعت على أن يضررك بشيء لم يضررك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف)

والإيمان بالقضاء والقدر لا ينفى الأخذ بالأسباب، لأن الأسباب هى من قضاء الله وقدره، وفى هذا ما ورد عن عمر رضى الله عنه أنه إذ نادى الناس فى وباء الطاعون أن من كان بأرض فيها هذا الوباء فلا يخرج منها ومن كان خارجها فلا يدخل إليها .. قال له أبو عبيدة بن الجراح: (أفرارا من قدر الله يا عمر؟ فقال له عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصيبة والأخرى جدبية؟ أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبية رعيتها بقدر الله .. فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: إن عندى فى هذا علما، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه .. فحمد الله عمر رضى الله عنه) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ورواه أحمد ومسلم والنسائى

(١) العقيدة الطحاوية شرح الغنيمى ص ٨٧ - ٨٨

ولا يتعارض الإيثار بالقضاء والقدر مع مشروعية الدعاء والاستعاذة من وقوع  
البلاء - فهو - أى الدعاء - من جملة الأسباب - فقد يقضى على المرء بالبلاء  
ويقضى معه أنه يدعو فلا يكشف عنه فهذا ما يسمى القضاء المبرم .

وقد يقضى معه أنه يدعو فيكشف عنه وهذا يسمى القضاء المعلق، وهو  
يسمى معلقا إذا نظرنا إليه من ناحية ذات البلاء المقدر أنه لا يقع، ولكنه يسمى  
مبرما أيضا: إذا نظرنا إليه من ناحية أنه قضى فيه أن لا يقع نتيجة ما سيقع منه من  
الدعاء .

وفى الرضا بالقضاء والقدر يجب التفرقة بين القضاء والقدر من ناحية والمقضى  
والمقدور من ناحية أخرى

ففى الأول يجب الإيثار والرضا به

أما الثانى فلا يجب الرضا به إن كان من المعاصى .

إذ أن للمقضى نسبة إلى الله باعتبار إيجاده، ونسبة إلى العبد باعتبار كسبه، فإنكاره  
باعتبار النسبة الثانية والرضا به باعتبار النسبة الأولى

وهل يرضى الله عما قضاه وقدره مطلقا؟

هنا نجد الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه بعد أن يؤكد إيمانه بالقضاء والقدر،  
ويجعلهما والمشيئة صفاته فى الأزل يقسم الأعمال إلى فريضة وفضيلة ومعصية، وهى  
جميعاً إنما تقع بمشيئة الله وقضائه وتقديره وعلمه وكتابته فى اللوح المحفوظ  
وتخليقه<sup>(١)</sup> .

ثم تكون الفريضة بأمره ومحبه ورضاه وتوفيقه

وتكون الفضيلة لا بأمره ولكن بمحبته ورضاه وتوفيقه

وتكون المعصية لا بأمره أو بمحبته أو برضاه أو توفيقه، ولكن بخذلانه<sup>(٢)</sup> .

(١) الوصية (ص ٨) .

(٢) المصدر السابق، ومثله فى الفقه الأكبر بشرح المغنيساوى (ص ٢١) .

وعنده أن كل شيء أمر به فقد رضى به، وأنه تعالى يرضى أن يخلق الكفر للكافر لكنه لا يرضى الكفر بعينه<sup>(١)</sup>.

ويمكن وضع هذه الأعمال بالجدول الآتى:

الأعمال	علاقتها بالقضاء والقدر	علاقتها بالأمر	علاقتها بالرضا	علاقتها بالمحبة	علاقتها بالتوفيق	علاقتها بالخذلان
الفريضة	نعم	نعم	نعم	نعم	نعم	لا
الفضيلة	نعم	لا	نعم	نعم	نعم	لا
المعصية	نعم	لا	لا	لا	لا	نعم

ولا يسمح الإيمان بالقضاء والقدر للعصاة بأن يُقدّموا على معاصيهم محتجين بأنها من قدر الله، وذلك لأنهم إذ يقدمون عليها لم يكن ينكشف لهم شيء من قدر الله بعد، فهم بذلك يجمعون بين معصيتين: المعصية التى هم قادمون إليها، ومعصية الكذب على الله بأنها من قدر لا يعلمون عنه شيئاً بعد. وفي هذا روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أقام الحد على سارق، وضربه مع ذلك أسواطاً عندما احتج بقوله (قضى الله على) وسئل عمر فى سبب ضربه بالسوط فوق قطع يده فقال: "القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله"<sup>(١٢)</sup> وهذا ما قاله المشركون من قبل:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذِبٌ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ أنعام ١٤٨، وهذا شأن العصاة والكفار على مر التاريخ.

(١) الفقه الأبسط (ص ٥٤، ٥٣).

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٩٨ المعروف بابن الوزير ٨٤٠ هـ طبعة حيدر آباد ١٣١٦ هـ

يقول الإمام الماتريدي في كتابه التوحيد: والأصل في القضاء والقدر والتخليق والإرادة أن لا عذر لأحد بذلك لأوجه منها: أنه لم يخطر شيء من ذلك ببالهم ولا كانوا عند أنفسهم وقت الفعل أنهم يفعلون لشيء من ذلك.<sup>(١)</sup>

ولا يجوز لأحد أن يتوقف عن العمل تسترا بالقضاء والقدر: وذلك ما يحكم به حديث الرسول الذي سبق أن أوردناه حيث قال: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" والرد على عدم جواز ترك العمل بحجة القضاء والقدر جاء أولاً في توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) ويأتى ثانياً فيها يلاحظ على سؤالهم من التناقض في قولهم (أفلا نتكل وندع العمل): من حيث افتراض كون القضاء والقدر يقتضى الجبر في أعمال العباد، وافتراض أنه يمكنهم أن يختاروا ترك العمل.

### الأثر العملي للإيمان بالقضاء والقدر:

يوضح لنا تاريخ المسلمين أنهم استجابوا لهدى الرسول صلى الله عليه وسلم في العمل وفقاً لقوله "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" وأنهم بادروا إلى العمل والجهاد وبذل النفس والنفيس وضحوا بأموالهم وأنفسهم وبذلوا الجهد والعرق، وأكبوا على العلم والعمل، لأن رائدهم في ذلك كله كان إيمانهم بعلم الله وتيسيراته وإيمانهم بقضاء الله وقدره، وأن هذا الإيمان - لا كما يشيع بعض المستشرقين - هو الذى جعلهم مستعدين للعمل وللتضحية، مستعدين للقيام بالواجب شجعاناً في اقتحام العقبات، وقد كان ذلك هو سر قيام الأمة الإسلامية، وسر قيام حضارتها العملاقة الفذة، وهو لا يكون سراً إذا أدركنا جوهره وهو جوهر المعالجة العملية، والإقدام على العمل في ضوء العلم، وحافز الإيمان.

---

(١) أنظر كتاب التوحيد لأبى منصور الماتريدي ت ٣٣٣هـ تحقيق د: فتح الله خليف، نشر دار الجامعات المصرية ص ٣٠٩

## فروع على عقيدة القضاء والقدر .

### الرزق بين الحلال والحرام:

يرى أهل السنة أن الرزق ما يصل إلى العبد ويتغذى به حلالا كان أو حراما:

يقول الغنيمي في شرحه للعقيدة الطحاوية: (خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقدارا من خير أو شر، وضرب لهم آجالا لاستيفاء ما لهم من رزق وعمر، فلا يأكل أحد رزق غيره، ولا يموت إلا بأجله وبسببه)<sup>(١)</sup>

ويقول الغزنوي في كتابه أصول الدين: الرزق ما يصل إلى العبد ويتغذى به سواء كان حلالا أو حراما مملوكا أو غير مملوك . وكل واحد يستوفي رزق نفسه، ولا يتصور استيفاءه رزق غيره<sup>(٢)</sup>،

ويرى المعتزلة: أن الحرام ليس رزقا لمن تحمله .

أما دليل أهل السنة: فذلك أنه قد عرف في الخلق من لم يأكل غير الحرام قط فلو لم يكن الحرام رزقا لزم الخلف في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هود ٦

أقول: هذا غير متصور ولو كان فهو لا يضر بمعنى الآية، لأنها لا يلزم منها أن كل رزق يصل لصاحبه حتما، فالذين يأكلون الحرام يضيعون رزق غيرهم، وهم أضاعوا رزقهم المقدور لهم لو أنهم طلبوه وسعوا إليه، ومن هنا كان لزاما على الناس أن يعملوا من أجل إقامة العدل، لا أن يستكينوا لما يجري بفعل الظالمين تسترا بمذهب القائلين بأنه لا أحد يأكل رزق غيره، ولا أحد يفوته رزقه .

### المقتول والأجل :

يذهب أهل السنة إلى أن المقتول ميت بأجله ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا

(١) أنظر شرح الغنيمي ص ٦٠

(٢) أنظر أصول الدين للشيخ جمال الدين أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد الغزنوي الحنفى ت ٥٩٣ هـ

تحقيق وتعليق الدكتور عمر وفق الداعوق، نشر دار البشائر ط ١٩٩٦ ص ١٧٧

جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ الأعراف ٣٤ وقوله تعالى:  
﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نوح (١)

أما المعتزلة فيذهبون إلى أنه ميت قبل أجله المحدد

وأقول: يمكن تفادي هذا الخلاف بأن نقول: للمقتول أجلان يعلمهما الله تعالى ويعلم أيهما هو الأجل المبرم : الأول: أجل مقدر على الأسباب العادية المكتوبة في شفرة جيناته الوراثية لو أنه لم يقع له القتل، والثاني: أجل مبرم معلق على عملية القتل التي اخترق بها القاتل أجله الأول .

وكما يقول الإمام البياضى: وقال كثير (٢) من المحدثين:

(إن الأجل متعدد: منجز ومعلق بأن يثبت في صحيفة الملائكة مطلقا، وفي علم الله مقيدا ويثول إلى علم الله، متمسكين بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الرعد ٣٩، وقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ نوح ٤، وبحديث الزيادة ونحوه .)

### الهداية والإضلال والتوفيق والغدлан:

يقول الإمام الطحاوى: (يهدى من يشاء، ويعصم ويعافى من يشاء فضلا، ويضل من يشاء ويغذل ويبتلى عدلا) (٣)

أما معنى الهداية: فيقول العلامة الغنيمى فى شرحه للعقيدة الطحاوية : قال الإمام الرازى فى التفسير الكبير: الهداية هى الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، سواء وصل إليه بالفعل أم لا، فإنها مستعملة فى المعنيين كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ القصص ٥٦ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فصلت ١٧ ، لكن الاستعمال فى معنى الدلالة الموصلة أكثر، وهذا عرفها المتقدمون من مشايخ

(١) شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية ص ٦١

(٢) إشارات المرام للبياضى ص ٢٣٦

(٣) العقيدة الطحاوى شرح الغنيمى ص ٦٢

أهل السنة بخلق الاهتداء اهـ، وفي الكشف: هي الدلالة الموصلة إلى المطلوب. اهـ غنيمي .

ويقرر الشهرستاني مذهب الأشعرى في حصول الإيمان بتوفيق الله حيث يقول: (والإيمان والطاعة بتوفيق الله تعالى، والكفر والمعصية بخذلانه. والتوفيق عنده: خلق القدرة على الطاعة، والخذلان عنده: خلق القدرة على المعصية) <sup>(١)</sup>

والمراد بالتوفيق أنه سبحانه هو الخالق لقدرة الطاعة في من أراد توفيقه وأن يصل لرضاه ومحبه، وهذه القدرة ضربان موازيان لمعنى الهداية المذكورين آنفاً: قدرة بمعنى تمكين الله العبد من أن يفعل الفعل أو يتركه بمحض اختياره، وقدرة بمعنى خلق الفعل معها .

والمراد بالخذلان أنه هو الخالق لقدرة المعصية لمن أراد بعده عن محبه رضاه أو ترك نصرته وإعانتة .

والهداية والتوفيق إنما تكون لمن يأخذ بأسبابها، والإضلال أو الخذلان لمن يأخذ بأسبابها .

يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

وإذن فإن أسباب الهدى بينة لمن أراد، وأسباب الضلال بينة لمن أراد .

وتوضيحا لما تقدم نقول:

إن الهداية بمعنى خلق الاهتداء بكسب من العبد وفضل من الله معاً، والإضلال بمعنى ترك النصرة والإعانة بكسب من العبد وخذلان من الله:

أما أن الهداية بكسب من العبد فلأنه يأخذ بأسبابها كما قدمنا، وأما أنها بفضل وتوفيق من الله فذلك بحسب طبيعتها



وتتبن هذه الطبيعة من حيث التفرقة بين العلم الذى جعله الله حظا للبشر جميعا، وهو بالضرورة علم نسبى لا يكفى فى سلوك طريق الهداية، وطريق الهداية لا يهدى إليه إلا من أحاط علما، ولا يسلكه إلا من سلم تسليما لمن أحاط .

إن العلم البشرى حظ مبذول للجميع (علم الإنسان ما لم يعلم..). ولكن العلم البشرى وحده لا يكفى، وبعبارة أخرى: العلم الذى يرشح لابتناء العمل الصحيح عليه - هذا العلم البشرى وحده لا يكفى .

لا بد من الهداية، وهى لا تعطى كما يعطى العلم - للجميع - وإنما تعطى بحسب طبيعتها لمن يتعرض لها بالإيمان والتسليم . لأن التسليم شرط بديهى فى قبولها .

إنك إذا سرت فى مدينة معقدة الطرق، متشابكة السبل، واستعملت ما برأسك من معلومات وما بيدك من خرائط وأدركت أنك قد ضللت الطريق وأردت ممن يعرف سبلها أن يدلك عليه، فلا يمكن أن تطلب هذه الهداية إلا بتسليم يدك لمن يعرفها: صامتا بغير جدال أو لاجاة أو تشكيك .

إن طالب الهداية إنما يطلبها بعد أن تنقطع به سبل العلم، ثم بعد أن يعترف بالعجز عن الحصول على هدفه بنفسه .. عن طريق العقل المستقل، والعلم البشرى . إن العقل المتعلم - المستقل عن الهدى - يمكنه أن يصل إلى شيء من الظن، لكنه لا يصل مستقلاً إلى شيء من الهدى الذى تشعر فيه النفس بالطمأنينة والسكون واليقين .

إن الفلسفات والعلوم التجريبية التى يصل إليها العقل مستقلاً خاضعة لما تخضع له عقولنا من النسبية والنقصان .

لذلك فإن ما نصل إليه اليوم من علم يظهر لنا نقصه غداً، وما نزال نكتشف بتقدم البحث جهلنا، وهزال معارفنا، وحاجتنا إلى الهدى واليقين الذى لا تفرزه عقولنا .

فى ظل العلوم التجريبية والفلسفات الناقصة يتقدم العلم التجريبى، ويترد الحصول على منافع الدنيا، لكن الإنسانية فى عملية الخلافة فى الأرض، أو ما يسمى

بناء الحضارة، لا بد لها من أهداف ثابتة واضحة راسخة على مدى القرون، وإلا كان ضلالها عن أهدافها لا يمكن تلافيه أو البرء منه .

والعلوم النسبية تضل دائماً عن الأهداف البعيدة الراسخة . فهذا ليس من شأنها ولا يمت إلى قدرتها بسبب، ومن هنا كان الإنسان " حيوان الحضارة " بحاجة إلى مصدر خارجي يهديه إلى هذه الأهداف ويرسم لها الطريق: (الصراط المستقيم . )

ولذلك كان أنفع الدعاء وأعظمه - كما يقول ابن أبي العز في شرحه للعقيدة الطحاوية - دعاء الفاتحة ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾ .

ومن هنا جاءت ملاحقة العناية الإلهية للإنسان وهو يُعَدُّ للقيام بمهمته في الحياة الدنيا "بناء الحضارة" بعد أن "علمه" جاءت هذه الملاحقة في قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ ﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝ ١٢٣ - ١٢٤ طه.

ولا يتلقى الإنسان هذا الهدى ولا يستفيد به إلا من نافذة الإيمان . ولكي يقوم الإيمان بالطريق في " التسليم " .

ومن هنا كان خطاب الوحي إلى الإنسان: بأن يطلب الهدى، وأن يطلبه ممن يملكه .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه: (سل الله الهدى والسداد، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، واذكر بالسداد تسديدك السهم)

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعونا هنا إلى الالتجاء إلى الله تعالى، والاستعانة به وسؤاله في كل كبيرة وصغيرة من أغراضنا، ولا نستعظم على الله شيئاً نسأله إياه، ولا نستصغره: في الهدى نسأله الهداية العظمى، ونسأله هداية الطريق العادي الذي نسلكه في غدونا ورواحنا، في السداد: نسأله السداد في القول،

والسداد في العمل، في أخطر شئون حياتنا، وفي أقلها شأنًا.. في كلمة حق تقال، وفي رمية سهم، ذلك لأن التوجه إلى الله بالسؤال والدعاء هو جوهر العبادة وأكرمها عند الله .

يقول صلى الله عليه وسلم "الدعاء هو العبادة" أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم. ويقول صلى الله عليه وسلم "سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج" أخرجه الترمذى وصححه، ويقول صلى الله عليه وسلم سلوا الله كل شيء حتى الشسع [ نعل الحذاء ] فإن الله إن لم ييسره لم يتيسر " لأبي يعلى في مسنده عن عائشة .

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ٦٠ غافر، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ١٨٦ البقرة

إن هذه الأحاديث والآيات ترشد إلى:

(١) أن طلب الهدى من الله، لأنه وحده هو الذى يملكه، وهو وحده الذى يعطيه يقول تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ ويقول تعالى: ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ ويقول تعالى: ﴿ وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ تَقَى ﴾ ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا" صحيح البخارى .

(٢) وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أخبر بأنه تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ وإذا كان قد تبين لنا أنه سبحانه وتعالى وحده هو الذى يملك الهدى وهو الذى يعطيه، فإنه قد بين لنا أيضا توجه مشيئته في ذلك: بأنه إنما يصيب بالضلالة من يأخذ بأسبابها ويعطى الهدى لمن يأخذ بأسبابه، ولمن يبدأ السير في طريقه: أى بالتوجه لمن يملكه.. عند ذلك يمن الله عليه بالهداية الحقيقية وباليقين التام .

ومن هنا أدرك أئمة أهل السنة أن الهداية إنما تكون منحة وفضلا من الله، لكن للإنسان مسئولية كسبها: أى يأخذ بأسبابها، ويتهيأ لها، بأن يطلبها، وأن يتوجه بطلبها إلى من يملكها يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ويقول تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ ١٦ المائدة ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ﴾ ٢٧ الرعد ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ٥٤ غافر.

أما الذين لا يطلبونها ممن يملكها فأنى لهم أن يحصلوا عليها؟  
إنهم إذن لا يأخذون بأسباب الهداية فكان من المنطقى ألا يحصلوا عليها  
إن أسباب الهدى بينة، وأسباب الضلال بينة:  
أسباب الهدى تكمن فى الاعتراف بقصور العقل المستقل، وتوجه الرغبة إلى الهداية، والإخلاص فى طلبها، وطلبها ممن يملكها، مع التسليم.  
وأسباب الضلال تكمن فى الاغترار بالعقل المستقل، والانصراف عن البحث عن مصدر الهدى، ومن ثم عدم طلبها ممن يملكها، وعدم التسليم.  
"قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم"

ومن هنا صح القول بأن الهدى فضل من الله، والضلال استحقاق من العبد.

### بين العدل والمساواة فى مقام العفو والابتلاء:

يقول الإمام الطحاوى (ويعافى من يشاء فضلا، ويبتلى من يشاء عدلا)  
وهذا يعنى أنه سبحانه وتعالى التزم بالعدل ولم يلتزم بالمساواة وشتان بين المقامين.

إن الأمر الذى لاشك فيه أن العدل فى العقيدة الإسلامية مبدأ مطلق، ألزمتنا الله به بقدر المستطاع، وألزم به نفسه - كما أخبر عن ذلك سبحانه - على وجه الإطلاق. ولسنا بحاجة إلى سوق الأدلة على ذلك، فهو من المسلمات عند المسلمين جميعا.

وقد بينا من قبل أن حصول الهداية فى الدنيا إنما يتحقق لمن يأخذ بأسبابها، وبحقق

شروط تلقوها، وهى شروط منطقية، ومن ثم فإن مبدأ العدل فيها قائم، بالتوازي تماماً مع مبدأ الفضل .

وفى وقائع العفو والابتلاء فى الدنيا نفهم كذلك أنها قد جرت على مبدأ العدل فى الابتلاء، حيث يكون الابتلاء عقاباً على ذنب، أو باباً لثواب، وإن لم تجر هذه الوقائع على مبدأ المساواة فى العفو، لحكمة قد لا نعلمها كما هو الشأن فى مجريات الفعل الإلهى قاطبة، وحتى المعتزلة الذين سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد ذهبوا فى الفضل هذا المذهب، كما جاء فى كتاب إشار الحق للمقبلى<sup>(١)</sup> ولو كان مبدأ المساواة لازماً لما خلق الخلق متفاوتين فى الواهب والعطايا

وفى هذا المعنى جاء ما جاء فى صحيح البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما بقاؤكم فيمن سلف من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى ضلّت العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتاب هؤلاء أقلّ منا عملاً وأكثر أجراً، قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، فقال: فهو فضلى أوتيه من أشياء». وروى مثله فى مسلم، ومسنّد أحمد، وهذا يشرح لنا التفرقة الإلهية بين العدل والمساواة .

يقول العلامة الغنيمى فى شرحه للعقيدة الطحاوية: قال العارف السيد عبد الله بن علوى الحداد الحسينى اليمنى ت ١١٣٢ هـ: الخلق مع الحق لا يخلو أحد منهم أن يكون فى إحدى الدائرتين: إما فى دائرة الرحمة أو فى دائرة الحكمة، فمن كان اليوم فى دائرة الرحمة كان غداً فى دائرة الفضل، ومن كان اليوم فى دائرة الحكمة كان غداً فى دائرة العدل اهـ قال شارحها: وحل هذا المقام أن الله تعالى كان موصوفاً فى الأزل

(١) ارجع إلى تفسير المقبلى لسبب مفارقة الأشعرى لشيخه أبى على الجبائى أوردناه فى هذا الكتاب ص

بأوصاف الرحمة كالجلود والكرم والرأفة واللطف والإحسان، وموصوفا بصفات النعمة كالقهر والإضلال والانتقام، فقسم خلقه قسمين: فمنهم من قسم لهم أن يكونوا مظاهر الرحمة في الأغلب، وإن كانوا لا يخلون عن الحكمة والعدل، ومنهم من قسم لهم أن يكونوا مظاهر النعمة المشتملة على الحكمة في الأغلب وإن كانوا لا يخلون عن الرحمة والفضل .. فمن وفقه الله للخير فلا يحمد إلا إياه، ومن ابتلى بالضير فلا يلوم إلا نفسه اهـ<sup>(١)</sup>

أما ابن عطاء الله السكندري: فقد جعل النعمة والبلاء كليهما من تجليات صفتي الرحمة والنعمة عند تقريب الله للعبد، ذلك أن الله يقرب عبده بالتعرف له، فيعرفه على صفاته تعالى، ومن ذلك أن يعرفه عليه بأن يتجلى له بصفة الرحمة فينعم عليه، ويعرفه عليه بأن يتجلى له بصفة النعمة فيبتليه<sup>(٢)</sup>. وهذا أدق وأقرب إلى تفسير قوله صلى الله عليه وسلم: (أكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)

### الوعد والوعيد:

مما تقدم نفهم كيف أن وعد الله لا يتخلف، وإن تخلف وعيده، فالأول يأتي في سياق العدل، والثاني يأتي في سياق الفضل .

ولأنه لو تخلف إعطاء الموعود به لزم الكذب والسفه والخلف مع قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْمِيعَادَ ﴾ ١٩٤ آل عمران، وإذن فوعد الله المؤمنين بالجنة لا يتخلف شرعا قطعا، ولأن الخلف في الوعد نقص يجب تنزيه الله تعالى عنه. وأما الوعيد فمنه ما لا يتخلف قطعا لإخبار الله تعالى بذلك وهو هنا عدل محض. وذلك ما جاء في شأن الكافرين وفقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ٤٨ النساء .

ومنه ما هو في مشيئة الله وهو ما كان من العذاب لعصاة المؤمنين وفقا لقوله تعالى ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ٤٨ النساء: إن غفر ففضل، وإن عذب فعدل .

(١) شرح الغنيمي للعقيدة الطحاوية ص ٦٢-٦٣

(٢) أنظر الحكم لابن عطاء الله ج ص

## السعادة والشقاء:

يقول الإمام العلامة الآمدى: وأما السعادة فسعادة كل شيء بحصول ماله من الكمالات الممكنة له كالبصر بالنسبة للعين، والسمع بالنسبة للأذن ونحوه، وأما الشقاوة ففي مقابلته .<sup>(١)</sup>

و يقول الإمام الطحاوى: (الأعمال بالخواتيم والسعيد من سعد بقضاء الله وقدره، والشقى من شقى بقضاء الله وقدره)

ويقول: (قد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة ويدخل النار جملة واحدة لا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيها علم أنهم يفعلونه، وكل مسر لما خلق له)

فأهل السعادة يسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة يسرون لعمل أهل الشقاوة

وهذا التيسير إنما يترتب على اختيار العبد المعلوم من الله ألا كما بيناه في مسألة الهداية والإضلال

وهذا المعنى هو ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم (إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون في ذلك علقة، ثم يكون في ذلك مضغة ...، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه واجله وعمله وشقى أو سعيد) رواه مسلم في صحيحه .

وإذن فالسعادة والشقاء في العقيدة الإسلامية إنما تكون بحسب ما يكون للمرأة في الآخرة

ويترتب على ذلك الحكم الأزلى بالسعادة والشقاء أنه حكم غير قابل للتبديل، كما يترتب عليه جواز الاستثناء في قولك " أنا مؤمن إن شاء الله " لأنك لا تعلم الخاتمة، فيصح لك أن تعلق إيمانك المعبر في الآخرة على قضاء الله وقدره.

---

(١) (المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين) لسيف الدين الامدى ت ٦٣١ هـ - تحقيق أد: حسن الشافعى، ط القاهرة ١٩٨٣ ص ١٢١

وفى هذا جاء تمة الحديث السابق: (فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها).

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) فالكلمات هى القضاء المقدر فى العلم القديم.

أما إن نظرت إلى تسمية الشرع لك مؤمنا بحسب إجراء أحكام الإيمان والكفر فى الدنيا فهو لا يرد عليه الاستثناء بحسب حالة النطق.<sup>(١)</sup>

### العبرة بالخواتيم:

وفى هذا المعنى جاء قوله صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بخواتيمها كالوعاء، فإذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله) رواه ابن حبان فى صحيحه.

وفى شرح ذلك يقول الإمام ابن حجر فى شرحه للأربعين النووية: (إنه تعالى قد سبق فى علمه سعيد العالم وشقيه، ورتب على هذا السبق الخاتمة عند الموت بحسب صلاح العمل عندها وفساده، وعلى الخاتمة سعادة الآخرة وشقاوتها).

ومن هنا يحكى الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية فى جواز تعليق الإيمان على المشيئة: وهو خلاف لفظى فالأشاعرة يميزون تعليق الإيمان على المشيئة أى بالنظر إلى الموت على الإيمان الذى لا يعلمه المرء عند نطقه بها، والماتريدية لا يميزون تعليقه على المشيئة: أى بالنظر إلى حال النطق بها.

هذا وإن تعليق السعادة على الخاتمة فى قضاء الله وقدره لا يتعارض مع العمل ومستولية الإنسان فى تلمس أسباب السعادة والنأى عن سبل الشقاء، وذلك وفقا لما بيناه سابقا فى قضاء الله وقدره وأسباب الهداية وأسباب الضلال.

(١) العقيدة الطحاوية بشرح الغنى ص ٨١-٨٢



## الحسن والقبح والصلاح والأصلح:

يطلق الحسن والقبح - كما يقول شيخنا العلامة الشيخ محمد الحسيني الطواهرى على ثلاثة معان:

بمعنى الكمال والنقص كالعلم والجهل، وبمعنى: ملاءمة الغرض وعدم الملاءمة كالعدل والظلم، والثالث: وهو استحقاق المدح والذم عاجلا والثواب والعقاب آجلا، ويرى شيخنا أن النزاع إنما هو في الحسن والقبح بالمعنى الثالث

ثم يقول شيخنا: فعند الأشاعرة: لا يحكم العقل بأن الفعل حسن أو قبيح في حكم الله قبل ورود الشرع، بل ما ورد الأمر به فهو حسن، وما ورد النهى عنه فهو قبيح، من غير أن يكون للفعل جهة محسنة: في ذاته ولا بحسب جهاته واعتباراته، حتى لو أمر بها نهى عنه صار حسنا، وبالعكس

والباقلائي يتصدى للبراهمة ويفند دعواهم اكتمال العقول، واكتفاءها بالتحسين والتقيح من قبلها، وأن العقول يمكنها أن تقرر الفرائض: من وجوب النظر عند قرع الخاطر للقلب، ووجوب معرفة الله تعالى ووجوب شكره، وحسن العدل، وقبح الظلم، ويشرك معهم المعتزلة في هذه الدعاوى<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام الشهرستاني من الأشاعرة: (الواجبات كلها سمعية، والعقل لا يوجب شيئا ولا يقتضى تحسينا ولا تقييحا، فمعرفة الله بالعقل تحصل، وبالسمع تجب، ولا يجب على الله تعالى شيء ما بالعقل: لا الصلاح ولا الأصلح، ولا اللطف، ولا التكليف، ولا إرسال الرسل).<sup>(٢)</sup>

وعند المعتزلة للفعل جهة محسنة أو مقبحة في حكم الله يدركها العقل: إما بالضرورة كحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار، .. أو بورود الشرع كحسن صوم آخر يوم من رمضان، وقبح صوم أول يوم من شوال.

(١) التمهيد ٩٦ وما بعدها

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٩٣ - ٩٤

والفرق بين المذهبين في القسم الثاني: أن الأمر والنهي عند الأشاعرة هو ما أوجب الحسن والقبح بمعنى أن الفعل أمر به فحسن أو نُهي عنه فقبح

وعند المعتزلة أن الحسن والقبح هو ما أوجب الأمر والنهي، فالأمر والنهي عند وجودهما يكونان كاشفين عن حسن وقبح سابقين في الفعل .

وقد استدل الأشاعرة بالدليل النقلى: وهو قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) إذ لو كان حسن الفعل مدركا بالعقل للزم تعذيب تارك الواجب ومرتكب الحرام ورد الشرع أم لا، واللازم باطل للآية المذكورة .

كما استدلوا بالدليل العقلى: أنه لو كان الحسن والقبح لذات الفعل لما تخلف عنه في صورة من الصور ضرورة، واللازم باطل لأنه قد يكون فعل واحد كالقتل حدا وظلما، فيكون حسنا لذاته قبيحا لذاته، وهو باطل بالضرورة لأن ما بالذات لا يتخلف .

واستدل المعتزلة بأدلة: منها أن الناس طرا يجزمون بقبح الظلم والكذب وليس هذا من الشرع إذ يقول به غير المتدين أصلا، والناس مجمعون عليه فإذا ما أتى النهى عنهما شرعا كان ذلك كشفا عما هو ثابت عقلا .

وثمرة الخلاف تظهر في حكم من لم تبلغه الدعوة فلم يؤمن حتى مات وهو على ذلك فيخلد في النار على مذهب المعتزلة، وناج عند الأشاعرة لعدم وجوب الإيمان عليه قبل البعثة .

والمعتزلة لما قالوا بالوجوب العقلى بمعنى استحقاق التارك الذم عند العقل لما في تركه من الإخلال بالحكمة جعلوا من فروع هذه المسألة وجوب الصلاح والأصلح عليه تعالى .

والأشاعرة لا يقولون بالأصل ولا بالفرع فهو سبحانه المتصرف مطلق التصرف فى ملكه، و لا يسلمون أن شيئا من أفعاله يجب عليه بحيث

يُخل تركه بحكمة، لجواز أن يكون له في كل فعل أو ترك حكم ومصالح لا تهتدى إليها العقول<sup>(١)</sup>.

هذا ويقرر الإمام الماتريدي أن فعل الله يتم باختيار، ويبطل القول بوجوب الأصلح على الله، وينفى عنه أن يخلق بعلة، ويؤكد في نفس الوقت الحكمة في فعله تعالى، تفضلا لا وجوبا، ويرى عدم جواز الخلف في الوعد والوعيد معا<sup>(٢)</sup>.

ويقسم الماتريدي الحسن والقبح إلى ما حسن وقبح في الطبع، وإن لم يكن في نفسه حسنا، كالتلذذ والتشهي بالطبع.

وإلى ما حسن في العقل، إذ هو لا يحسن إلا ما ثبت حسنه في نفسه، والعقل لا ينفر إلا عما هو قبيح في نفسه.

وما حسن في العقل ثابت لا يتغير من حال إلى حال.

والحسن لنفسه والحق واحد.

والعقل الذي هو مناط التكليف يدرك الحسن والقبح في الأفعال، والسمع قد جاء موافقا له، فلا تعارض بين السمع والعقل.

لكن: هل يوجب العقل حكما تكليفيا قبل ورود السمع؟

هنا يرى الإمام الماتريدي أن ما يوجه العقل في معرفة الله حجة على الناس ولو لم يبعث الله رسولا، ويرى أن المقصود بالتعذيب في قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا): عذاب الاستئصال في الدنيا. وهو من ثم يذهب إلى وجوب معرفة الله وشكره بالعقل كالمعتزلة.

وقد خالفه في ذلك أئمة بخارى من الحنفية، وقالوا في هذا بمذهب الأشاعرة.

ويذهب الماتريدية باتفاق إلى أن هناك فرقا دقيقا بين رأى الماتريدية والمعتزلة في

---

(١) التحقيق التام في علم الكلام للأستاذ العلامة الكبير الشيخ محمد الحسيني الطواهرى من كبار علماء الأزهر والأستاذ الأسبق بكلية أصول الدين ص ١٤١ - ١٤٥، الطبعة الأولى عام ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م - نشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة

(٢) المغربى ص ٣٣٦ - ٢٤٥ نقلا عن التوحيد ص ٣٦٠ وتأويلات أهل السنة ج ١ ص ٢٨١

الوجوب العقلي، فعند المعتزلة: الموجب العقل . وعند الماتريدية: الموجب الله، بواسطة العقل الذي هو آلة لوجوب المعرفة<sup>(١)</sup>

ويبين البياضى ما ذهب إليه الماتريدية من أن الحسن - بمعنى استحقاق المدح والثواب - والقبح - بمعنى استحقاق الذم والعقاب - عقلي ؛ أى يعلم العقل فى مدة الاستدلال حكم الصانع فى الأمور العشرة الآتية: الإيمان بالله ووحدانيته وعلمه وقدرته وكلامه وإرادته وحدث العالم ودلالة المعجزة على صدق الرسول ووجوب تصديقه وحرمة الكفر به، وهى الأمور التى تسبق منطقيا الأخذ من الشرع . .

وهم يخالفون بذلك الأشاعرة القائلين بأن الحسن والقبح بالمعنى المذكور يعلم بالشرع .

ويخالفون المعتزلة القائلين بإيجاب العقل للحسن والقبح فى هذه الأمور وغيرها. أما كيفية الثواب وكونه بالجنة، وكيفية العقاب وكونه بالنار فشرعى عند الماتريدية .

وهم يرون أن أفعاله تعالى معللة بالمصالح والحكم، تفضلا لا وجوبا، واختاره صاحب المقاصد،<sup>(٢)</sup> وبعض الأشاعرة .

ومن المناسب أن نذكر هنا أن الفلسفة المعاصرة لا تأخذ بمذهب الحسن والقبح الذاتيين أصلا، وتراهما... نسبيين: أى بالنسبة لما يراه المجتمع أو تراه الطبقة، أو يراه العنصر، أو تراه المصلحة فى طور معين، وبيئة معينة، أو بالنسبة لما يراه الفرد طبقا لفلسفته أو مزاجه أو رغباته وأوامره ونواهيها الخاصة.

وفى هذا السياق نرى الفلسفة المنطقية الوضعية - وهى من أحدث النظريات

---

(١) المغربى ص ٣٠١ - ٣٠٥ نقلا عن التوحيد ص ١٧٨ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وتأويلات أهل السنة ج ١ ص ٤٤٤ ، ٢٠٣

(٢) المغربى ص ٣٠١ - ٣٠٥ نقلا عن التوحيد ص ١٧٨ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وتأويلات أهل السنة ج ١ ص ٤٤٤ ، ٢٠٣

الفلسفية المعاصرة - قد ذهبت إلى أن القيم ليست إلا تعبيراً عن رغبات أو أوامر من يقررها، ونحن نرتب على ذلك أن يكون هذا التعبير من حق الله وحده مالك الملك، خالق كل شيء، وهذا يعنى أن التحسين والتقيح للشرع كما ذهب إليه أهل السنة .<sup>(١)</sup>

والمراد فى مسألة الصلاح والأصلح: أنه إذا كان ثمة أمور: أحدها أصلح والثانى صلاح والآخر فساد وجب على الله تعالى أن يفعل الأصلح منها، وإلى هذا ذهب المعتزلة بناء على أصولهم فى لزوم الحكمة ومسألة الحسن والقبح التى ذكرناها، وقد ذهبوا جميعاً إلى أنه يجب على الله عقلاً إقدار العبد وتمكينه من غاية مقدوره من الأصلح، وليس فى مقدوره تعالى لطف لو فعله بالكفار لآمنوا جميعاً .

### وهذا باطل لما يأتى:

أولاً: لبطلان ما ذهبوا إليه أصلاً من قاعدة الحسن والقبح العقليين، وهو ما يترتب على نقص علمنا بحقيقة الخير والشر وهو ما سوف نبينه بعد .

ثانياً: لو صح قولهم بوجوب الصلاح والأصلح للزم الإيجاب من الله على العبد، ولبطلت خيرية الاختيار الإنسانى التى دافعوا عنها، ولوقعوا فى التناقض مع أنفسهم .

ثالثاً: لو صح قولهم لما خلق الله الكافر، أو خلقه مجبراً على الإيمان، ولوقعوا فى التناقض من حيث ما يقرره العقل من حسن الاختيار، ولوقعوا فى التناقض مع أنفسهم .

رابعاً: لو صح قولهم لما كان هناك معنى لشكر الشاكرين لله على نعمته ولطفه بعباده، ولما كان لله منة عليهم بذلك، وهى ثابتة بصريح القرآن، وصحيح السنة، ولوقعوا فى التناقض من حيث ما يقرره العقل من حسن الشكر ولوقعوا فى التناقض مع أنفسهم .

---

(١) أنظر كتابنا (الفكر المعاصر فى ضوء العقيدة الإسلامية) طبعة جامعة الإمارات عام ١٩٩٨ الفصل الثانى من الباب الرابع من ص ٣٤٣-٣٦٨

خامسا: لوقعوا في التناقض مع صريح القرآن وصحيح السنة من حيث إطلاق المشيئة لله، وأنه سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُسْقَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْقَلُونَ﴾ .

سادسا: لوقعوا في التناقض مع واقع الحال: في رجل عاش أغلب عمره مسلما ثم ارتد قبيل أن يموت لم لم يمته مسلما قبل أن يرتد؟ وفي رجل مات كافرا لم لم يمهلته حتى يصنع له ما هو الأصلح بأن يموت مسلما؟ وفي طفل مات بعد إيلام شديد لم لم يمته بغير ألم؟ صانعا به الأصلح وهو قادر على أن يعطيه عوض الإيلام في الآخرة بدون وقوع إيلام، وإن يكن مع منة له عليه، لأن المنة من الله على عبده لا تنغص فيها وإنما تزيده تلذذا؟<sup>(١)</sup>

سادسا: لخرجوا على مبدأ محدودية العقل وأدبه، في مقام كل ما يتعلق بذات الله وصفاته وأفعاله، وهو مبدأ لا يسمح بالكلام عن ما يسمونه واجبا على الله .

### وفي هذا يقول صاحب الجوهرة:

وقولهم إن الصلاح واجب

عليه زور ما عليه واجب

وفي مسألة الصلاح والأصلح تروى حكاية عن سبب خروج الإمام الأشعري على أستاذه أبي على الجبائي المعتزلي: إذ تحكى كتب الفرق أنه لم يجد لديه جوابا شافيا في مسألة وجوب الصلاح والأصلح على الله في سؤاله إياه عن: ثلاثة؛ مات أحدهم مستحقا للجنة، ومات الثاني مستحقا للنار، ومات الثالث صغيرا، فلو سأل الصغير ربه: لم أمتني صغيرا فقال له الله: لأنني أعلم أنك لو كبرت لعصيت فاستحققت النار، ماذا يكون جواب الرب لو سألته مستحق النار: لم لم تمتني صغيرا حتى لا أدخلها؟ عندئذ بهت أبو على ولم يحجر جوابا، فكان ذلك هو السبب في ترك الإمام الأشعري لمذهب المعتزلة .

(١) انظر تفاصيل هذا العنصر "سادسا" في كتاب "التمهيد لقواعد التوحيد" لأبي المعين النسفي ت ٥٠٨ هـ دراسة وتحقيق د جيب الله حسن أحمد ط ١٩٨٦ ص ٣٤٤-٣٥٠

ويرى الشيخ صالح بن مهدي المقبل "ت ١١٠٨" أن (هذه الحكاية هوس، وأدنى المعتزلة - فضلا عن شيخهم - يقول من جواب الله على الصغير: "التكليف فضلي أتفضل به على من أشاء" وهذا جواب على أصل المعتزلة، لأن التكليف تفضل عند البصرية، منهم أبو على وغيره، ومن قال منهم إن التكليف واجب - - وهم البغدادية - فهو عندهم وجوب جود !!! لا يعترض على تاركة)

ثم يذكر ردا آخر للمعتزلة (أن الله تعالى حكيم واجب الحكمة، فكل جزئي نراه ندخله في الكلية، إن عرفنا الحكمة فيه علما أو ظنا ففضل من الله، وإلا فنحن في سعة، رددناه إلى حكمة أحكم الحاكمين، وعلم أرحم الراحمين ...).

وفي رأينا أن هذه الردود التي تبرع بها الشيخ المقبل توشك أن تدخل المعتزلة تحت خيمة أهل السنة، لأنهم كذلك يؤمنون بالحكمة الإلهية، وأن ما خفى منها كان أعظم، لولا أدب يلتزم به أهل تلك الخيمة مع الله فلا يجيزون التعبير بالوجوب على فعل الله .

أما الدكتور حمودة غرابة فلا يكتفى بالسبب الذي يرجع إلى سؤال الإمام الأشعري لأستاذه عن الثلاثة، ويذكر أن الإمام الأشعري خرج على شيخه عندما أحس بخطورة الحال الذي صار إليه المسلمون من تفرق بين عقليين ونصيين، وإدراكه وجوب جمعهم على مذهب وسط.

### الجانز في حقه تعالى:

عند أهل السنة في ذهابهم إلى أنه لا يجب عليه سبحانه وتعالى الصلاح والأصلح فإنهم يرون أنه يجوز في حقه تعالى: إيجاد الممكن وإعدامه، فلا يجب عليه شيء من الممكنات كما لا يستحيل.

والممكنات أفرادها كثيرة يشملها كل ما يتفرع عن صفات الفعل وتأثيره تعالى في الأشياء يكون عند مقارنة الأسباب لا بها. ولا بقوة أبدعها فيها<sup>(١)</sup>

---

(١) أنظر كتابه (العلم الشامخ في إثبات الحق على الآباء والمشايع) ص ٢٢٩، ٣٣٠  
(٢) أنظر في إثبات ذلك علميا ما جاء فيها في كتابنا "الفكر المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية" عن سقوط دعوى حتمية قوانين الطبيعة .

وهو سبحانه وتعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله تعالى صانع كل صانع وصنعتة" رواه البخارى فى خلق أفعال العباد والبيهقى فى شعب الإيمان، وفى الأسماء والصفات وصححه، ورواه الحاكم فى الإيمان وصححه، وهو يتفق مع قوله سبحانه: ﴿صُنَعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ٨٨ النمل .

وعلى هذا الأساس ذهب الأشاعرة وأهل السنة عموماً إلى أن ما يحدث فى الطبيعة من العلاقة بين الظواهر وما يسمى السبب والنتيجة فليس فيه ضرورة ذاتية، وإنما هو فى دائرة الجائز بالنسبة لإرادة الله وقدرته الله تعالى .

فهذا هو الإمام الهروى الأنصارى يقرر: (أنه ليس فى الوجود شئ يكون سبباً لشيء أصلاً، ولا شئ، جعل لشيء، ولا يكون شئ جعل لأصل شئ، ولا يكون شئ بشيء .

بل محض الإرادة الواحدة يصدر عنها كل حادث مع الآخر مقترناً به اقتراناً عادياً، لا أن أحدهما معلق بالآخر أو سبب له أو حكمة له، ولكن لأجل ما جرت به العادة من اقتران أحدهما بالآخر<sup>(١)</sup>

كذلك ذهب الإمام الغزالى إلى رفض تفسير العلاقة السببية بين الظواهر الطبيعية على أساس الضرورة.

### يقول الغزالى فى تهافت الفلاسفة:

(إن الارتباط بين ما يعتقد فى العادة سبباً وما يعتقد فى العادة مسبباً، ليس ضرورياً عندنا، بل كل شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمن لإثبات الآخر - فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الرى والشرب، والشبع والأكل، والشفاء وشرب الدواء، وهلم جرا، إلى كل المشاهدات من المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف) .

(١) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام للدكتور على سامى النشار ص ١٦٩ .



ولكن الغزالي يستطرد من ذلك إلى تفسير هذا الترابط بإرجاعه إلى إرادة الله وتقديره تعالى، ويقول: (وإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوي، لا لكونه ضروريا في نفسه).

إن تصور الألوهية في الإسلام لا يتعارض مع تصور القانون والنظام.

بل إن الإسلام هو الذى يضع ضمان الاستمرار للقانون الطبيعي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

إلا أن هذا الاستمرار مستمد من الإرادة الإلهية ومتوقف عليها:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. ٨٢ سورة يس

فهنا يبدو الارتباط واضحاً بين إرادة الله واطراد القانون، ويظل هناك موضع للخوارق التي يظهرها الله بين الحين والآخر، تذكيراً للإنسان بمصدر الوجود، ومصدر القوانين، وهو الله سبحانه وتعالى.

ونحرص هنا على استطلاع هذه العقيدة (إرادة الله وجواز العالم) في الفلسفة الحديثة والفكر المعاصر، صدا لما يمكن أن يشوش به بعض مدعى المعاصرة على مذهب أهل السنة في هذا الموضوع.

ففى هذا الصدد نجد الفيلسوف الفرنسى الشهير رينيه ديكارت قد ذهب إلى أن الإرادة الإلهية، هى الأصل في وجود العالم، بل هى الأصل في وجوده على ما هو عليه.

يرى ديكارت (أن توقف الأشياء على الإرادة المطلقة يتناول فضلا عن وجودها، ماهيتها، وطبيعتها. فليس في ماهية المثلث ما يجعل من الضروري جوهرياً أن يكون حاصل زوايا هذا الشكل مساوياً لزاويتين قائمتين، أو في طبيعة العدد ما يحتم أن يساوى اثنان مضافين إلى اثنين.. أربعة، فما يبدو لنا حقائق أولية هو بالفعل أمر منوط بمشيئة الله، الذى قضى بها وأقرها بصفته المشرع الأسمى، منذ الأزل وحسب) إلى هذا الحد ذهب ديكارت أبو الفلسفة العقلية الحديثة.

وأما الله عند سبينوزا فهو يعنى كما يقول: (كائناً لا يسمو شئ على كماله مطلقاً في لا نهائية .

ولما كان عقل الإنسان لا يستطيع الإحاطة بكيانه، وجب أن نعرف الله بأنه النظام الكبير فى الكون . وأنه تفيض عنه القوانين والحوادث والحقائق والأشياء، كما تفيض خصائص المثلث عن طبيعته) .

ويسط صمويل كلارك لا حتمية الوقائع وقوانينها بإرجاعها إلى الإرادة الإلهية فيقول:

(تبدو جميع الأشياء جائزة كل الجواز.. فالحركة نفسها وجميع مقاديرها واتجاهاتها، فضلاً عن قوانين الجاذبية جائزة بأسرها، وقد كان يمكن أن تكون مختلفة كل الاختلاف عما هى عليه الآن . وعدد الأجرام السماوية وحركتها لا ينطويان على أى ضرورة قائمة فى طبيعة الأشياء نفسها .. وكل ما على الأرض اتفاقى بصورة أجلى، إذ كان نتيجة الإرادة بداهة لا بالضرورة . إذ ما هى الضرورة المطلقة التى قضت بهذا العدد من أصناف الحيوانات والنباتات دون غيره) <sup>(١)</sup>

ثم قدم نيوتن تصوره للطبيعة على أنها آلة معقدة شديدة التعقيد، دقيقة الصنع، عظمية الإحكام، مخلوقة .. وأخذ الناس ينظرون إلى القوانين الطبيعية كأوامر يصدرها الله فتطاع بحرفيتها دون أى تردد.

ويقول فولتير فيما كتبه على لسان الطبيعة .. (لقد أعطيتُ اسماً لا يناسبنى على الإطلاق . فقد دعيت الطبيعة وأنا فى الحقيقة "الفن" فن الله). هذا ما أثبتته نيوتن للقرن الثامن عشر، ومن هنا تغنى الشعراء باسمه .. قال أحدهم: (كانت قوانين الطبيعة مخبئة فى الظلام .. قال الله ليكن نيوتن: فأصبح كل شئ نوراً) <sup>(٢)</sup>

---

(١) أنظر سلسلة الوجود الكبرى ص ٢٤١ - ٢٤٩ لأرثر لفنجوي، ترجمة ماجد فخري، نشر مؤسسة فرانكلين عام ١٩٦٤

(٢) أنظر تكوين العقل الحديث لهرمان راندال، ترجمة الدكتور جرج طعمة، نشر دار الثقافة ببيروت ج ١ ص ٢٤٤٠٢ أنظر الفلسفة الحديثة ليوسف كرم نشر دار المعارف ص ١٦١ - ١٦٣

وذهب باركلي إلى أن العلم الإلهي هو الذى يعرض علينا المعانى ونظامها، والإرادة الإلهية هى التى وضعت العلاقات بينها .. فكون الغذاء يغذى، والنوم يريح، ووجوب أن نزرع لكى نحصد، وبالإجمال وجوب استخدام وسائل معينة للوصول إلى غاية معينة، هذه أمور نعرفها، لا باستكشاف ترابط ضرورى بين معانيها، بل بملاحظة القوانين الموضوعية فى الطبيعة ..

وعلى ذلك ليست الطبيعة ما يعتقد الفلاسفة الوثنيون من أنها علة مستقلة عن الله، إنها اللغة التى يخاطبنا بها الله. وما نظام العالم إلا نتيجة الإرادة الإلهية، وإنما يريد الله النظام لكى نستمد من التجربة توقعاً مفيداً فى أفعالنا المستقبلية.

### مشكلة الخير والشر:

ينكر الإمام الجوينى ما ذهب إليه المعتزلة من أن الله يفعل الخير لأنه خير فى ذاته، ولا يفعل الشر لأنه شر فى ذاته .

ويقول: (ولولا أنه شاع فى ألفاظ عصابة الحق أنه تعالى خالق الخير والشر لكان أمر التوحيد أن يقال: ليس فى أفعال الله تعالى خير ولا شر بالإضافة إلى حكم الإلهية، فإن الأفعال متساوية فى حكمه، وإنما تختلف مراتبها بالإضافة إلى العباد) .

ويقول (وقد نبه على هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال فى سياق حديث طويل فى قسم الله الأرواح: " يوقف أرواح السعداء على يمين العرش، وأرواح الأشقياء على يسار العرش، ثم قال " هؤلاء أهل الجنة ولا أبالي، وهؤلاء أهل النار ولا أبالي) ويقول الشيخ الكوثرى عن هذا الحديث: فى معانيه أحاديث كثيرة عند أحمد والبخاري والطبراني وغيرهم<sup>(١)</sup>

ونحن نرى أن هذا الحديث إنما يعنى عدم مبالاته تعالى بوقوع العذاب على من يستحقه، لا مطلقاً، كما نرى أن القول بأنه ليس فى أفعال الله تعالى خير ولا شر بالإضافة إلى حكم الإلهية صحيح غالباً من ناحية الاستدلال العقلى، أما إن رجعنا

إلى الدليل النقلى فأفعال الله تعالى توصف بالخيرية دائما بناء على ما كتبه سبحانه على نفسه وفقا لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ١٢ الأنعام، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا رَيْكَ يَطْلُنْ لِلْعَيْدِ﴾ ٤٦ فصلت، وما إلى ذلك .

وانطلاقا من قاعدة أن الله منزّه عن الغرضية وهى قاعدة لا تخص الجوينى وحده من الأشاعرة ولكن تعمهم، يتعرض الجوينى لادعاء البعض أنهم إنما يعبدون الله لغير غرض، ولكن لمحض المحبة فيقول: (كما يستحيل على الله تعالى الأغراض والضر والنفع والحظوظ وتفاوت الأفعال يستحيل على العبد الخروج عن طلب الحظوظ فى مسالك التكليف. وعن هذا اضمحل قول من ادعى محبة الله حقا. ومحبة الله لعبده إرادته الإنعام عليه. ومحبة العبد لربه استقامته فى طاعته، وهو متقدس عن أن يناله حظ أو ينال حظا)<sup>(١)</sup>

ويسهم الإمام الماترىدى فى حل مشكلة الخير والشر المطروحة عصريا ضد الاعتقاد بوجود الله، وذلك أثناء رده على الثنوية القائلين بإلهين: أحدهما للخير والآخر للشر .

وفى معرض رده يبطل القول باستحالة صدور الشر عن الحكيم، إذ يبين أن ليس معنى الحكمة عدم فعل الشر، بل الحكمة هى فى وضع الشيء فى موضعه، وإعطاء كل ذى حق حقه .

وأن وجود الشر ليس نقصا فى الحكمة الإلهية، إذ العقل قاصر مبدئيا عن إدراك تلك الحكمة .

ومع ذلك فإن فى خلق الشر حكمة يستطيع العقل عند النظر والتأمل أن يدرك بعض جوانبها:

منها أن فى خلق الجواهر الضارة حكمة: أن يعلم بها لذة الثواب وألم العقاب .  
ومنها أن فى خلقها بيانا لقدرة الله ووحدانيته إذ كون الجوهر ضارا لا يرجع

---

(١) العقيدة النظامية ص ٤٥

إليه- أى لا يرجع إلى الجوهر نفسه ، وإنما يرجع لقهر القاهر الذى قهره على ما هو عليه .

ومنها أن فى خلق الإنسان على غير صفة الملائكة: حكمة الإرشاد إلى قدرة الخالق على الإبداع.

ومنها أن هذه الجواهر لا تخلو من نفع: إذ ليس هناك شر بجوهره، أو خير بجوهره، بل كل جوهر منه خير ونفع كالنار مثلا <sup>(١)</sup> .

وهذا بخصوص الشر يتفق مع ما نذهب إليه من كونه - أى الشر - أمرا إضافيا أو تعبيرا عن علاقة أو مسألة تناول ..

أما بخصوص الخير فنحن نميل إلى القول بأن فعل الله تعالى كله خير، وهو ما يقول به المذهب السلفى كما يعبر عنه الإمام محمد بن عبد الوهاب فى كتابه التوحيد من قوله:

فإن قلت كيف قال - أى الرسول صلى الله عليه وسلم - " وتؤمن بالقدر خيره وشره " وقد قال فى الحديث " والشر ليس إليك "، قيل:

إثبات الشر فى القضاء والقدر إنما هو بالإضافة إلى العبد والمفعول إن كان مقدرا عليه فهو بسبب جهله وظلمه وذنبه لا إلى الخالق، فله فى ذلك من الحكم ما تقصر عنه أفهام البشر، .. أما بالإضافة إلى الرب سبحانه وتعالى فكله خير وحكمة، فإنه صادر عن حكمه وعلمه، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، إذ هو موجب أسائه وصفاته، ولهذا قال: " والشر ليس إليك " أى تمتنع إضافته إليك بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلى ذاته وصفاته ولا أسائه ولا أفعاله، فإن ذاته منزهة عن كل شر، وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأسأؤه كلها حسن ليس فيها اسم ذم ولا

(١) المغربى ص ١٤٢ نقلا عن التوحيد للهاريدى ص ١٠٨ - ١٠٩، ص ١٦٦ - ١٦٨

عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة، وهو المحمود على ذلك كله فتستحيل إضافة الشر إليه. <sup>(١)</sup> اهـ

فأما قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْتُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْتُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۖ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَٰهِيدًا ۝﴾ ٧٨ - ٧٩ النساء:

فقد تناولت جانبين: جانب القضاء والقدر وهذا ما جاء فيه قوله تعالى (قل كل من عند الله) ومن الواضح أن هذا القول الكريم لم يتحدث عن السيئات بشكل مباشر، ولكن تحدث عن "الكل" وإنما جاءت السيئات ضمنه من حيث إنها تنتج من اختيارية الإنسان التي هي خير في ذاتها والتي هي جزء من النظام العام والسنن الإلهية الداخلة في "القضاء والقدر"، وهذه السنن الإلهية خير كلها كما سنشرح فيما يأتي .

أما الجانب الآخر فهو جانب السيئة التي تصدر من الإنسان نتيجة تناوله الخاطئ لحقائق السنن الإلهية وهذا ما جاء فيه قوله تعالى (وما أصابك من سيئة فمن نفسك)

وهذه التناولات والإضافات إذ تخضع لمنظومة القوانين الإلهية الداخلة في القضاء والقدر فإنها لا يسلب عنها وصف إسنادها إلى العبد اختيارا وكسبا ومسئولية، وهو اختيار يدور في دائرة الخير بالوجه العام .

وفي الجانب الأول يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْتُمْ حَسَنَةً﴾ أى خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك يقولوا

---

(١) أنظر " تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد " للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب " ص ٦٣٥

هذه من عند الله، ﴿وَإِنْ تُصِيبْتُمْ سَيِّئَةً﴾ أى قحط وجذب ونقص فى الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك: ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، أى من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك .

كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّغَرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ١١ الحج

وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا فى الإسلام ظاهرا وهم كارهون له فى نفس الأمر ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ فى البر والفاجر والمؤمن والكافر) اهـ

وجاء فى تفسيره للجانب الثانى من الآية: (قال السدى والحسن البصرى وابن جريج وابن زيد "فمن نفسك" أى بذنبك وقال قتادة فى الآية "فمن نفسك" عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك كما روى متصلا فى الصحيح) اهـ تفسير ابن كثير .

وقد جاء فى صحيح البخارى بسنده عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: (قال رسول الله ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها).

وبسنده عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها).

ونحن نرى أن مشكلة الخير والشر تمثل اليوم خطورة خاصة:

إذ هى مطروحة فى الفكر المعاصر من زاوية مضادة للإيمان الدينى .

نعم فإنه يمكن القول بأن مشكلة الخير والشر فى الفكر البشرى والفلسفة ما

تزال هي المشكلة التي يتحصن بها الإلحاد في محاربته لعقيدة الألوهية، بعد أن زالت تقريبا في العصر الحديث الشبهات الأخرى التي يثيرها ضد الإيمان بالله تعالى يقول هرمان راندال: (والحقيقة أنه لا يمكن أن يوجد اعتراض علمي على تفسير مجرى الطبيعة كعملية إلهية... والاعتراض الواحد الكبير على مثل هذا التفسير هو مشكلة الشر العريقة في القدم)<sup>(١)</sup>.

. وهنا نجد طائفة من المفكرين الغربيين المحدثين أو المعاصرين يفسرون المشكلة أو يحاولون حلها بطرح شبهات نراها مضطربة أو موهلة في الشر<sup>(٢)</sup>.

وقد رأينا كيف عالج علماء الكلام هذه المشكلة من خلال مشكلة الحسن والقبح العقليين والصالح والأصلح عند المعتزلة.

واعتبارية ما يسمى الخير والشر: أي أنه وصف متعلق بطريقة تناول لا بالشيء في ذاته، وأنه لا يوجد في نطاق الفعل الإلهي خير بذاته، أو شر بذاته، لانعدام الغرضية بالنسبة لله تعالى كما ذهب إلى ذلك الأشاعرة والماتريدية.

وسوف نؤكد فيما يأتي القول بوجود الخير الذاتي واعتبارية ما يسمى الشر.

### ونطرح القضية على التفصيل الآتي:

أولاً: إن شعورنا بوجود الشر في العالم ناشئ من مشكلة تواجهنا من خلال محدودية العقل، وبعبارة أخرى: من خلال نظرية المعرفة، وليس من نظرية في الوجود.<sup>(٣)</sup>

إن هذا الشعور بالشر لا يرجع إلى معرفة موضوعية بوجود ما يسمى شراً، ولكنه راجع إلى محدودية قدرتنا الإنسانية في المعرفة، ذلك أن إمكانية الإنسان في

---

(١) في كتابه "تكوين العقل الحديث" ج ٢ ص ٢٤٤ وما بعدها

(٢) مثل هربرت سبنسر و نيتشة و برتراند رسل، أنظر "تكوين العقل الحديث" لهرمان راندال، ترجمة جورج طعمة ج ٢ ص ٤٨٠-٤٨١، ص ٨١، ٩٦، ص ١٥٤، ص ١٥٥، ص ١٥٩ - ١٦٤، ص ٦٩، ٧١

(٣) لا كما تذهب إلى ذلك المسيحية في اعتبارها أن الإنسان شرير بطبعه: كتاب تكوين العقل الحديث لهرمان راندال ص ٢٣١ إلى ٢٤٥



مجال المعرفة محدودة بحدود ضيقة من مجال الكون والأرض والإنسان، وإذن فليس من صلاحية هذه المعرفة أن تحكم على الصورة الكلية الشاملة، وكما نعرف فإن المتطلع إلى صورة ما لا يمكنه الحكم عليها بالجمال أو بالقبح، بالخير أو بالشر، بمجرد رؤية بقعة منها في هذه الزاوية أو تلك، ولكن عليه - إذا أراد أن يحكم عليها من خلال نظريته هو - أن ينظر إليها نظرة شاملة من جميع الزوايا، وهو شرط لا يمكن تحقيقه من خلال المعرفة الإنسانية المستقلة

وهنا يأتي مغزى قصة الخضر مع سيدنا موسى عليهما السلام، حيث كان موسى عليه السلام يغير حكمه على الصورة التي تعرض له عندما يكشف له عن الجانب الخفى منها . وهذا هو السر في توجه المسلم في معرفة الخير إلى صاحب العلم الشامل ليهديه إليه، وهذا هو ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين في الاستشارة .

ثانيا: إن شعورنا بوجود الشر ناشئ - أيضا - من ممارسات لنا - فرديا أو اجتماعيا - خارج النظام الذى طبع الله عليه نسيج العالم، وحيث إن هذا النظام هو الذى يتيح لنا أن نجنى من العالم خيره، فإن الخروج عليه - طلبا لخير جزئى موهوم - لابد من أن يؤدي إلى إخلال بما وضع عليه هذا النظام .

وكما يقول جورج باركلي - وهو رجل دين وفيلسوف إنجليزى - (إنما يريد الله النظام محبة بنا، لكى نستمد من التجربة توقعا مفيدا في أفعالنا المستقبلية) <sup>(١)</sup>.

فالذى يطلب الخير من النظام بالخروج عليه يرتكب تناقضا نظريا وعمليا في آن.

ويترب على ذلك: أن شعورنا بوقوع الشر - في الدائرة الفردية - يكون نتيجة التناول الخاطئ ضد النظام الموضوع أصلا لخيره، وعلى سبيل المثال فالسم موجود، وهو خير إذا تناولته بطريقة صحيحة، وهو شر إذا تناولته بطريقة خاطئة، وإذن فالشر وصف لعلاقة قابلة للتغير بين موجودين، وليست وصفا لموجود موضوعى.

---

(١) أنظر تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص ١٥٦، ١٦١

ولاضمان ضد هذا التناول الخاطئ إلا إذا تخلصنا من خير أعظم: وهو حرية الإنسان بخيريتها من ناحية، واطراد النظام بخيريته من ناحية أخرى .

فمرجع الأمر هنا إلى اختيارية الإنسان، وهى اختيارية تقررت فى مذاهب المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، على السواء وإن اختلف كل منهم فى تفسيرها، ومصدر اختلافهم يرجع إلى مسألة أخرى تتعلق بخلق الأفعال لا باختيارية الإنسان فى حد ذاتها .

إذا تقرر ذلك يتقرر بالتالى - بداهة - خيرية هذه الاختيارية وإذن فإن الذى يطلب الخير بالحجر على الإنسان ضد وقوعه فى التناول الخاطئ لوقائع الكون، يطلب إزالة اختيارية الإنسان، بخيريتها، فهو إذن يطلب شرا ويرتكب تناقضا أيضا.

وما على الإنسان لكى يستفيد بإمكانات الخير فى هذا النظام إلا بأن يمثل - باختياره أيضا - لتعليمات واضع هذا النظام، وهنا يصبح الإيمان والتسليم هو الطريق للخير .

ثالثا: وإذا وصلنا إلى هذه النقطة يصبح من الميسور إدراك خيرية ما يقع مخالفا لرغبة الإنسان سواء من خلال الرؤية الواقعية الفردية لأحداث الحياة - فقد عزيز مثلا - أو من خلال الرؤية النظامية لأحداث الطبيعة - زلزال مثلا - لأن هذا الحدث - فضلا عن جريانه فى مجرى النظام بخيريته إذ تعرف الزلازل التى تعقب حدوث الشروخ فى الأرض بالزلازل البانية، وتكون نتيجتها النهائية فى تصميمات الطبيعة طويلة المدى نتيجة بنائية<sup>(١)</sup> - ينضم إليه فى الرؤية الفردية وما يترتب عليها من ألم .. ينضم إليه ما تقرره الرؤية الدينية من تعويض لهذا الألم، فى الدنيا أو الآخرة أو كليهما، حيث يتحول الألم بهذا التعويض إلى مصدر للخير، يتمنى المرء أن لو كان قد أصيب بأضعافه من قبل، كسبب لمضاعفة التعويض والثواب .

---

(١) أنظر العالم من حولنا ص ١٢١

رابعاً: في إطار إدراك الإنسان لنسيته - سواء بحسب نظرية المعرفة، أو بحسب نظرية الوجود - عليه أن يدرك أنه ليس كيانا قائما بذاته، وإنما هو جزء من كل هو هذا الكون .

وكونه جزءاً من هذا الكل ينطوى على تحقيق الخير له .

وكونه جزءاً من هذا الكل يقتضى مراعاة قوانين الكل، والانسجام مع الكل .

ومصدر شعور الإنسان بالشقاء أو بالشر .. أنه في الوقت الذي يتعامل فيه مع الكل باعتباره جزءاً منه، ليستفيد من هذه العلاقة... يرغب في أن يأخذ وضع الكائن القائم بذاته، الذي من حقه وحده أن لا يعطى وزناً لخطوط مسيرة الكل، ويرى فيها - إذا لم تنسجم مع إرادته - أساساً بذاته.

خامساً: وفي نظام الله للكون يتم توظيف الحرمان للحصول على النوال، بل نقول إنه - في نطاق محدودية الناقص ونسبته وقوانين حصوله على المعرفة - يصبح الحرمان هو الطريق الوحيد - معرفياً - للحصول على النوال، ذلك أن الحرمان الذي يحس به الإنسان إنما تقرر أصلاً لخيرته من حيث إنه يتم لتمكينه من الشعور بالنعيم، وهكذا كان منطق الحرمان منذ البداية في تاريخ آدم وحواء بالجنة .

### **والخلاصة تنطوى في المبادئ الآتية:**

- ١ - خيرية النظام، والحرية الإنسانية .
- ٢ - جهل خبايا الخير والشر، إلا أن يكون بكلمة ممن يملك المعرفة المطلقة والعلم الكامل وهو الله تعالى .
- ٣ - نسبية المعرفة الإنسانية القاضية بتوظيف الحرمان من أجل إدراك النوال .
- ٤ - انضمام التعويض والثواب الإلهي إلى موازين تقويم ما يحدث للإنسان من أحداث، إن خيراً وإن شراً .
- ٥ - جزئية الوجود الإنساني بالنسبة للكون، وخيرية هذه الجزئية للإنسان، وشرية انتقاضه على الكل الذي هو جزء منه

بهذه الحقائق تزول من الفكر البشرى شبهة الشر كأساس للإلحاد .

كما تزول منه حيرته في تقدير الخير والشر . ويستقر لديه مرجعية الله وحده في يقينية هذا التقدير .

فالله وحده - بما له من علم محيط بكل شيء، شامل لكل شيء -، هو وحده الذى يمكنه أن يحقق الخير لنا<sup>(١)</sup> . وهو وحده الذى يعلم - بكمالهِ - طريق تكميل الناقص، وتمكينه من إدراك الخير: بشرط التسليم له سبحانه .

ومع ذلك فإن للإسلام نظرتَه المتميزة لما هو الخير وما هو الفرح، ولما هى السعادة ففي الحضارة العلمانية يتم بحث الإنسان عن اللذة ابتداء، فإذا هو يصل إلى الشقاء انتهاء (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القامة أعمى)

وفي التصور الإسلامى يأتى التحرك من الحرمان ابتداء، ليصل إلى النوال انتهاء . إن الجهاد والتحریم والحرمان فى المشروع الإسلامى يطرح باعتبار أنه يقوم بالدور الأساسى فى بناء الإنسان، وباعتبار أنه يقوم بالدور الأساسى فى الحصول على السعادة أو النعيم، والنوال .

بدأت قصة الحرمان مع الإنسان الأول آدم عليه السلام كشرط لإدراك الفرح والنوال، واستمرت معه فى الدنيا كشرط لهذا الإدراك نفسه، ولاحقته العناية الإلهية فى جميع هذه الخطوات : بالهدى، والتوبة، والمعرفة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات) رواه مسلم، ويقول عليه الصلاة والسلام: (للصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه) رواه مسلم

---

(١) ذهب إلى ذلك أيضا الفيلسوف الإنجليزى بتلر (١٦٩٢ \ ١٧٥٢) أنظر الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل، ط الإنجلو ١٩٦٣

ذلك أن الإدراك الإنسانى يدور فى فلك النقائص، "وبضدها تتميز الأشياء"،  
هكذا الأمر عند الإنسان بخاصة، ذلك الذى قام تعليمه فى مدرسة الله على " العلم  
بالأسماء "

يقول الإمام ابن حزم: (إن الله خلق الدنيا دار محنة وبلوى، خلقها أضدادا  
وأزواجا، لتقع المحنة، وتتم الدلالة بذلك، لأنه لا يعرف الشيء بحقيقته إلا من قبل  
ضده، فبالظلمة يعرف النور، وبالمكروه يعرف المحبوب، وبالظاهر يعرف الباطن،  
كل واحد منهما يعرف بصاحبه، ويهتدى إليه بزوجه وضده، ويهتدى بالأضداد كلها  
- فى مجموعها - إلى وحدانية الخالق لها) <sup>(١)</sup>

ولنستحضر معا وقائع ما حصل لأبينا آدم عليه السلام .

إن آدم عليه السلام - كما يقول عنه القرآن الكريم - " نسى "، ماذا نسى؟ نسى  
الحكمة من التحريم، لم ينس التحريم نفسه، وإلا - والله أعلم - لما عوقب.

نسيان الحكمة من التحريم حدث بإلحاح الرغبة فى الحصول على ما حرم منه .

أخذ هذا الإلحاح - بوسوسة الشيطان - يزحف على تذكره للحكمة، شيئا فشيئا  
حتى غطاها، "ولم نجد له عزما "

لقد كان لابد لآدم عليه السلام وهو فى الجنة متمتعا بنعيمها أن يستمر على تكبد  
الحرمان من شيء ما .. وكان هذا الشيء هو الشجرة .. ليتحقق له التمتع بما يتمتع  
به .

إن آدم عليه السلام نسى - والله أعلم - أنه محكوم بأن يدور إدراكه فى فلك  
الأضداد، والنقائص .

وأنه لا يحيا حياة المطلق إلا الله وحده سبحانه وتعالى

لابد لآدم عليه السلام لكى يدرك وحدانية الله تعالى أن يدرك تعددية المخلوقات  
فيما تعلمه من الأسماء .

---

(١) أنظر رسالة الرد على الكندى الفيلسوف لابن حزم .

ولابد لأدم عليه السلام لكي يتحقق له التمتع بنعيم الجنة أن ينتصب أمامه رمز الكبد في الشجرة المحرمة .

لقد كان مطلوباً منه قدر هائل من العزم يصاحبه أثناء الدوام في الجنة .

كان الأمر في حرمانه من الشجرة مؤبداً .

لقد كان المطلوب منه مقداراً هائلاً من العزم، يصاحبه أثناء الدوام في الجنة

إن ما نحرم منه في هذه الدنيا - على فرض كثرتة - نعرف أنه إلى زمن مؤقت، إذ لا حرمان خالداً في هذه الدنيا . إن أمرنا بإزاء الحرمانات الدنيوية - والله أعلم - أسهل نفسياً بكثير مما كان مطلوباً من آدم عليه السلام .

فلما اخترم آدم عليه السلام قاعدة الحرمان اللازم لشعوره بالنعيم تزايدت عليه الحرمانات التي يصعب عليه أن يتخلص منها .

هكذا ... ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ تُوهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿ ١٢١-١٢٤ طه .

ومن هنا كان نزول آدم إلى الأرض استرسالاً في تطبيق المبدأ الذي قام عليه تحريم الشجرة .

... ليوافقه صنوفاً من الحرمان، يعجز عن التحايل عليها دفعة واحدة، وذلك لكي يتأهل للجنة مرة أخرى، وبصفة نهائية .

وهكذا هبط آدم . هبط في سلم المكابذات، ولكن... ليصعد مرة أخرى، كلما انتصر على حرمان ابتعد عن محرمات ... حتى يصل إلى الجنة .

فكما أن عملية الهبوط مستمرة فعملية الصعود مستمرة كذلك .

وعملية الهبوط والصعود هذه ليست خاصة بآدم عليه السلام. ولكنها واردة على ذريته، كلما اقترفوا محرماً زادت عليهم الحرمات (ثم رددناه أسفل سافلين) (اهبطوا بعضكم لبعض عدو)

وكلما نجحوا في البعد عن محرم تأهلوا لكي ينتصروا على حرمات .. إلى أن يعودوا إلى الجنة

لقد صاحبنا في عملية الهبوط نعم لا تحصى:

هى الهداية، والرسالات، والتشريعات، والتوبة، والغفران، وعون الملائكة ... حتى المكابدات ؛ فإنه كلما واجهها الإنسان بالطريقة المطلوبة - من الرضا والطاعة - كلما كان ذلك خطوة ناجحة للعود إلى مقامه الأول .

﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ الانفطار

﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴿١١﴾﴾ الرد

(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة ) رواه مسلم

(يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) حديث صحيح

(أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلى بشير تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) متفق عليه

وفي المعجم الكبير للطبراني بسنده عن أبي أمامة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله قال: (إن الله عز وجل يقول "ما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فأكون أنا سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، وقلبه الذى يعقل به، فإذا دعا أحبته وإذا سألتني أعطيتّه، وإذا استنصرني نصرته، وأحب ما تعبدلى عبدي به النصيح لى)

وفي أحاديث الخلاف لابن الجوزي: في أفراد البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال "ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ."

وفي صحيح البخارى بسنده عن عطاء عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قال: (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيزنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) وتتوالى عملية الصعود ثم تكتمل بعودته إلى الجنة .

وفي هذه العودة لا توضع فى طريقه الشجرة المحرمة، لأن مهمة الكبد - كطريق إلى النعيم - يحل محلها " التذكر " ... ؛ أى التذكر للمكابدات التى حصلت له ولغيره فى دنياه، كما يحل محلها إدراك العذاب الذى عليه أهل النار .

﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَعَقَّبْنَا عَذَابَ السُّمُورِ ۝ ﴾

٢٦ الطور

ولهذا كان النعيم فى الجنة متشابهاً بنعيم الدنيا ﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهٖ مُّتَشَبِهًا ۝ ٢٥ ﴾ البقرة، وذلك من اجل التذكر والمقارنة والإدراك .

إنه كما يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى (أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ فاقرءوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ١٧ السجدة ) صحيح البخارى

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا دخل أهل الجنة الجنة يشتاق الأخوان بعضهم لبعض، حتى يجتمعوا، فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كنا فى موضع كذا وكذا ...) رواه ابن القيم عن ابن أبى الدنيا



ويقول صلى الله عليه وسلم: (إن في الجنة أسواقا لا شراء فيها ولا بيع، يجتمعون فيها حلقا حلقا يتذكرون: كيف كانت الدنيا؟ وكيف كانت عبادة الرب؟ وكيف كان فيها فقراء أهل الدنيا وأغنياؤها؟ وكيف كان الموت؟ وكيف صرنا بعد البلى إلى الجنة) ذكره الإمام أبو الليث السمرقندي في بستان العارفين

والدرس الأخير هنا هو ربط ذلك كله - حرمانا ونوالا - بالله تعالى، إذ لا سعادة بغير ضمان الدوام، وذلك بربطها بالله تعالى مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا لقي ربه فرح بصومه) فلا يتم بناء النعيم إلا بالرجوع إلى الله، وفي جواره بالخلود في الجنة .

وهذا الحديث يعنى أن الفرح الحقيقي لا يكون بغير الله، ولذا يقارن القرآن الكريم بين الفرح الحقيقي، والفرح الزائف

ففى الفرح الزائف كان فرح قارون ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ ٧٦ القصص . أى لا يحب الذين يفرحون بغير الحق فرحا زائفا، يقول تعالى للمشركين يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ ٧٥ غافر

وفى الفرح الحقيقي يأتى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ٤ الروم، ويأتى قوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١٧٠ آل عمران

وكما أن للإسلام نظره المتميزة لما هو الخير والفرح والسعادة فإن له نظره المتميزة لخيرية الابتلاء ووظيفته البنائية .

إن للبلاء وظيفة بنائية في الوجود الدنيوى وموقع مشمر في خريطة الإنسان في العالم

وإننا لنجد هذه النظرة إلى البلاء في بعض الاتجاهات الفلسفية المعاصرة

يذكر هرمان راندال رأى فيلسوف معاصر (جوزايا رويس) في خيرية مقاومة الشر فيقول (كلما قاومت الغريزة الشريرة، وكرهتها، وقهرتها، وتغلبت عليها ... في هذه الدقيقة من الكراهية والقهر والتغلب .. أجعلها قسما من خيري الأخلاقى الأوسع، فتبرير وجود غريزتي الشريرة يأتى بالضبط في لحظة كراهيتي لها وتغلبى عليها . وإنكار الشر وقهره يجعله قسما من الإرادة الصالحة .. هنالك عناصر في العالم الصالح لو نظر إليها بصرف النظر عن غيرها .. لحكم بأنها يجب ألا تكون فيه، لأنها بذاتها بغیضة، مؤسفة في وجودها، ومستحقة للغضب، ومع ذلك فهي تصبح قسما من عالم الخير بقدر ما هي مكروهة ومنكرة ومقهورة ومخضعة، ليس العالم الصالح عالما بريئا، وهولا يتجاهل الشر، بل يحتويه، وما زال يقهره) <sup>(١)</sup>

#### أما النظرة الإسلامية الشاملة فتتلخص فيما يأتى:

(١) يأتى البلاء لهدف بنائى فى زرع الإيمان وترقيته كلما مارسنا الإيمان، أو توغلنا فيه .

والأنبياء أنفسهم مشمولون بهذا النوع من البلاء، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى جوابه لمن سأل: يا رسول الله أى الناس أشد بلاء؟ قال الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل) رواه الترمذى فى سننه وقال: حسن صحيح، ولهذا يمكن القول بأن أعلى درجات هذا السياق يأتى فى نهايته بصنع الإنسان الكامل فى مثله الأعلى: محمد صلى الله عليه وسلم

(٢) ويأتى البلاء لهدف الكشف والإظهار كلما "ادعينا" الإيمان أو تفاخرنا به .

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۚ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۚ﴾ <sup>(١)</sup> مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١-٥﴾ العنكبوت

(١) أنظر تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٤

(٣) أو يأتي البلاء لهدف وضع الإيمان في موضعه من الجدلية اللازمة كلما استسهلنا الإيمان، أو استخففنا به .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أتتها الرياح كفأتها فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء، والفاجر كالأرزة صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء) رواه البخارى في صحيحه .

(٤) وفي التصور الإسلامى يأتي البلاء للمسلمين عقاباً - كما يأتى بناء - يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء، فقل: وما هن يا رسول الله؟ قال إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنياً، والزكاة مغرماً، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه، وبر صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمر، ولبس الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أوها ... فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء، أو خسفاً ومسحاً .) رواه الترمذى في سننه

(٥) ويأتى البلاء - حسب التصور الإسلامى - عقاباً ؛ من أجل العفو:

ففى مسند أحمد بسنده عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ (ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وسأفسرها لك يا علي، (ما أصابكم) من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا (فبما كسبت أيديكم)، والله تعالى أكرم من أن يثنى عليهم العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله تعالى عنه فى الدنيا فالله تعالى أحلم من أن يعود بعد عفوّه .

وفى موطأ مالك بسنده عن يحيى بن سعيد أن رجلاً جاءه الموت فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل: هنيئاً له مات، ولم يبتل بمرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ويحك وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض يكفر به عنه من سيئاته)

## (٦) ويقع البلاء مشمولاً بالتعويض:

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما أحد من المسلمين يتلى ببلاء في جسده إلا أمر الله عز وجل الحفظة الذين يحفظونه: اكتبوا العبدى مثل ما كان يعمل وهو صحيح، ما دام محبوساً في وثاقى ) رواه الإمام أحمد في مسنده

(٧) وقد تكون واقعة البلاء الواحدة عذاباً، وقد تكون رحمة، بحسب ارتباطها بالعلاقة مع الله تعالى، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى بسنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فأخبرنى أنه : عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين ؛ ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد .

(٨) ويستجيب المسلم لفطرته، ويشجع عليها، في طلب العفو: رجاء وعبادة: ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلى فصبر فواها) رواه أبو داود فى سننه بسنده

وفى سنن أبى داود: حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد بن سلمة عن حماد عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبى حتى يكبر ) رواه أبو داود فى سننه

فى ظل هذه المبادئ التى تقرر فى موضوع الخير والشر والفرح والسعادة ..

وفى إطار المفاهيم التى تبينت - من خلال هدى محمد صلى الله عليه وسلم - فى موضوع البلاء والعفو يتحرك المسلم بين أبعاد خيرية النظام، وخيرية الاختيار، وخيرية الابتلاء معاً: بثقة، وطمأنينة، وتماسك، ورباطة جأش ...

يخضع في بعض الظروف للمستوى الضروري من إنسانيته، فيتألم من نوع من البلاء .

ويرتفع في بعض الظروف للمستوى الأرقى في إنسانيته، فيسعد لنوع من البلاء . ولكنه في جميع ظروفه تلك: يمارس الخير، أو يظلمه الخير: إن شكر اقترب من مولاه فله أجر هو خير .

وإن صبر ارتفع في صنع ذاته، وله أجر هو خير .

وإن جزع رجع وآب فله أجر هو خير .

ولكنه في جميع الأحوال يظل - أو ينبغي أن يظل - مرهف الحس، شديد اليقظة؛ لقضية الخلود في الفلاح والثواب والخير، والخلود في الخسران والبلاء والشر ويكون من شأنه أن يتجاوز جميع المربعات الصغيرة في علاقات الخير، والنجاة، والبلاء ... ليشد انتباهه إلى الخلود .

الخلود في أحدهما: خيرا أو شرا .

وهنا تسعفه مقاييس الإسلام حول هذين الأمرين . وعليه أن يتقيد بهذه المقاييس .

تلك هي قضيته الرئيسية التي تحكم مسيرة حياته كلها: دنيا، وأخرى .

وفي هذا المعنى يأتي قوله صلى الله عليه وسلم في رواية للإمام أحمد بمسنده عن معاذ بن جبل قال : " مر النبي صلى الله عليه وسلم برجل وهو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، قال يا ابن آدم : أتدرى ما تمام النعمة؟ قال دعوة دعوت بها، أرجو بها الخير . قال : فإن تمام النعمة فوز من النار ودخول الجنة"

هنا - وانطلاقا من الذاتية الإسلامية - يجب إضافة مبدأ الخلود عند معالجة الموضوع .

فيصبح هم المسلم الأكبر في طلب النجاة: النجاة من الشر الدائم (النار)

ويصبح هم الأكبر الفوز بالخير الدائم (الجنة) .

فإذا مارس الدعاء لله بغير هذه المفاهيم كان كمن يطلب النجاة بمنطق الهلاك !

ومن ثم تتحدد ميادين النجاة والفلاح التي يجوز أن يطلبها المسلم:

فمن خلال العقيدة الإسلامية يكون للفلاح مفهومه الخاص - المستمد من قيم الإسلام الخاصة - بحيث لا يخرج المسلم عن هذا المفهوم وهو يطلب الفوز بالخير، والنجاة من الشر، وإلا كان طلبه لأحدهما خسرانا مضافا إلى خسران سابق أراد الخلاص منه .

والميدان الرئيسى لهذا الفلاح هو الإيمان: يقول تعالى (قد أفلح المؤمنون) ١

المؤمنون

وفى داخل هذا الميدان تأتى دوائر متداخلة متساندة متكاملة: تدل عليها

مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية تجعل الفلاح فى:

الإيمان بما أنزل الله، وبالغيب، والآخرة، والإنفاق مما رزق الله فى سبيله، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الإيمان بما أنزل الله مع الرسول، وتعزيره، ونصرته، واتباع النور الذى أنزل معه، الانتهاء إلى حزب الله فى مواجهة من يوادون من حاد الله ورسوله، الوقاية من شح النفس، إيتاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل، ونية العمل لوجه الله، إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وتركية النفس، والتقوى التى هى خير الزاد، والجهاد بالنفس والمال، واجتناب الرجس من عمل الشيطان، خشية الله، والإشفاق على النفس من عقابه، ذكر الله كثيرا، ذكر آلاء الله، السجود لله وعبادته، وفعل الخير، والتوبة، والابتغاء من فضل الله، وثقل موازين الحق، الحكم بحكم الله ورسوله مع السمع والطاعة، الفوز برضوان من الله والخلود فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، وأزواج مطهرة

النجاة هى الإيمان يقول تعالى: ﴿ وَيَنْقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي

إِلَى النَّارِ ﴾ ٤١ غافر

النجاة - أصلا - إنما تكون من الكفر، يقول شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّا نَحْنُ الْمَلِئِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا﴾ ٨٩ الأعراف والنجاة تبعا لما تقدم هي النجاة من الظلم، ففي خطاب الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٢٨ المؤمنون .

والنجاة تبعا للدخول في الإيمان هي نجاة من الغم، يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ ٨٨ الأنبياء والنجاة تبعا للدخول في الإيمان إنما تكون من النار، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا﴾ ٧٢ مريم، ويقول تعالى: ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَى تَحِيْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ١٠ الصَّف.

والنجاة تبعا لما تقدم تكون أيضا من عذاب الله في الدنيا: ﴿قَالَ إِنِّي فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْبِ﴾ ٣٢ العنكبوت، وعن سيدنا نوح يقول الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ١١٩ الشعراء . وتكون من العدو يقول تعالى: ﴿يَنبَغِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنَجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾ ٨٠ طه .

وهي نجاة مزدوجة ؛ من عذاب الله في الدنيا، ومن عذاب الله في الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ٥٨ هود

وإنه لا ضمان للفرد في النجاة من عذاب يوم القيامة بغير الإيمان والعمل الصالح.

ولا ضمان للأمة في النجاة من وقائع الظلم الاجتماعي بغير تغيير هذه الوقائع انطلاقا من تغيير في النفوس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ويقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ .

وفي المقابل فإنه لا فلاح لمن يولون ظهورهم لله، أو المشركين، أو الكافرين، أو الظالمين، أو المجرمين، أو المسرفين، أو الكذابين على الله، أو أكلى الحرام، أو محبى

الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب، والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث .

يقول تعالى: ﴿ فَذَرْنَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿٥٤﴾ أَحْتَسِبُونَ أَنَّمَا يُبَدِّلُهُمْ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ المؤمنون .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٥٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿٥٨﴾ ١٢٤ - ١٢٦ طه

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ زَنًّا ﴿٦١﴾ ١٠٢ - ١٠٥ الكهف .

إنه لا فلاح ولا نجاة بمحاربة الله الذي نطلب منه الفلاح والفوز والنجاة .

وعلى سبيل المثال فإن ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٦٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٤﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَقُوا اللَّهَ وَذَرَوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ ٢٧٥ - ٢٧٩ البقرة

وإمكان الفوز والفلاح والنجاة مضمون بضمان الله لمن ينصرونه بالتوجه إليه:

يقول تعالى ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٦٨﴾



ويقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

ويقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

هانحن اليوم في الظلمات ولا مخرج إلا بأن نكون من أولياء الله .

وهاهم اليوم في نور الدنيا، يوشك الطاغوت الذي يعبدونه أن ينتقل بهم إلى ظلماتها، ثم من بعد إلى النار يقول تعالى: ﴿الْشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

### وشرط الحصول على النجاة التسليم:

وكنموذج فذ للنجاة الشاملة جاءت نجاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النار.

نعم هي معجزة . نعم هي مكرمة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . لكن تعالوا ننظر إلى الوجوه الأخرى من الموضوع . تلك الوجوه التي تمثل رسالة إلينا نحن البشر في جميع العصور .

أول هذه الوجوه: أننا لا يجوز لنا أن نخاف جزعا، أو نجزع خوفا من طغيان الطغاة إذا نحن توكلنا على الله، وأخذنا بقوانينه، وسلمنا أنفسنا إليه .

ثاني هذه الوجوه: كشف القناع عن مسئولية الناس بعد أن تظهر فيهم تلك الرسالة: ألا يوغلوا في بعدهم عن الله صاحب الرسالة، بأن يخضعوا للتفسيرات الباطلة التي تجهض الرسالة من معناها، وتعطل مغزاها، وتحبط أثرها، نعم، فلقد فسرت الجماهير حادث النجاة من النار بتفسيرات أبطلت جدوى الحادث .

كان هناك التفسير بأنه عمل من أعمال السحر . وكان هناك التفسير بأن إبراهيم -  
إذن - إله !!

وإذن فهى المسئولية تقع علينا أولا، وتقع علينا آخرا؟!

وللأسف فما قام به الطغاة والجماهير فى عصر إبراهيم عليه السلام من إفراغ  
حادث النجاة من مضمونه الصحيح .. يقوم به الطغاة ومن يستهوونهم من الجماهير  
فى جميع العصور .

يأتيهم الدرس، ويأتيهم التذكير، وتأتيهم الرسالة - فى صور شتى - ولكنهم  
جاهزون دائما لتجويرها، وإفراغها من مضمونها، وتعطيل أهدافها .

وقد كان حادث نجاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، من أجل الناس، وليست -  
فى أصلها - من أجل إبراهيم .

ما جدوى نجاة إبراهيم؟ هل كانت الجدوى لحسابه هو .. وإنه يمكن أن ينجيه  
الله برفعه إليه سليما معافى، وقد فعل مع عيسى عليه السلام؟! أم كانت الجدوى  
لحساب الرسالة فى الأرض؟ للناس؟ لنا نحن البشر؟

تلك الجدوى التى توزعت بين فئات ثلاثة: الذين آمنوا بالله؟ والذين فسروا  
الحادث بأنه سحر أو فسروا الحادث بأن إبراهيم هو - إذن - إله؟

ووجه ثالث للحادث: إذ نرى حول دائرة تكريم إبراهيم عليه الصلاة  
والسلام.. دائرة أوسع، هى دائرة تكريم البشرية كلها فى شخص إبراهيم عليه  
الصلاة والسلام؟! نعم تكريم البشرية كلها وهى تتجه إلى الله، فينالها من الله كل  
عناية، وينالها من الله كل حياة، وينالها من الله أعز نجاة، وينالها من الله إيقاف  
لسنن كونية، وإحياء لسنن كونية أخرى ! لكن ما شرط حصول البشر على ذلك  
كله؟ هو الشرط الذى حققه إبراهيم عليه السلام بإسلام النفس لله

وإسلام النفس لله وإن يكن صعبا على النفس الأمارة، لكنه يمثل أمامها طريقا  
بسيطا واضحا تمام الوضوح، وهو من ثم أسهل الطرق عندما تقسر النفس على

سلوكه، عندئذ تدرك هذه النفس أنه أسهل الطرق . ولو أن غير إبراهيم عليه السلام سلم نفسه لله كما سلم إبراهيم، فجاهد، فاستشهد، لما كان أقل نجاة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

فماذا عن دور الشيطان في هذه الملحمة عن الخير والشر والسعادة والشقاء والنجاة والهلاك؟

إنه وخلافاً لتصور الكثيرين مسخر لاكتمال الصورة في ضوء التصور الإسلامى : إنه لا يمكن في سياق طرح التصور الإسلامى عن الخير والشر، والبلاء، والنجاة، والفوز والفلاح، والفرح والسعادة والشقاء ... لا يمكن إغفال تساؤل هام: ماذا عن الشيطان؟؟

والجواب: لقد كان - وما يزال - للشيطان دور أساسى في صناعة الخير والنجاة والسعادة من الجانب الذى سخره الله فيه، والشر والخسران والشقاء من الجانب الذى - مع تسخيره فيه - كان مقصوداً له، وهو فى الحالين يعمل - رغم أنفه - لتحقيق الخير العام فى رفعة شأن الإنسان .

نعم، فالشيطان مسخر لإرادة الله فى رفع شأن الإنسان: أى فى إيجاد نوع من الخلق - هو الإنسان - يسلم نفسه لله بإرادة واختيار، وتمكن من الخير والشر معاً، والدور المسخر فيه الشيطان هنا: هو فى تمكين الإنسان من الشر .

وإذا كانت وظيفة الشيطان هى ذلك فهذا لا يمنع أن تكون إرادته شيئاً آخر هى هلاك الإنسان، وأن يكون حسابه عند الله بقانون (إنما الأعمال بالنيات) .

وهنا يحدث التدبير الإلهى فى تحقيق إرادته سبحانه وتعالى فى شأن وضع الإنسان فى طريق الخير، بنفس خطوات الشيطان التى يقوم بها قاصداً هلاك الإنسان، وهذا هو تسخير الشيطان لغير ما يريد . مصداقاً لقوله تعالى

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ٣٠ الأنفال

وقد ضرب الله لنا المثل فيما تشرحه سورة يوسف: من تساوق مكر إخوة يوسف بقصدهم إلى هلاكه = ومكر الله بإرادته رفعة شأن يوسف، بنفس إجراءات أعدائه،

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ<sup>٤</sup> وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢ يوسف

وكذلك كان التدبير في قصة موسى عليه الصلاة والسلام وقومه: فرعون بكفره وجبروته يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم، موسى الوليد يقذف به في اليم... هذه الإجراءات نفسها هي التي أدت بموسى إلى مقام النبوة والرفعة في الدنيا والآخرة .. ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿٨ القصص

وعلى هذا المنوال تتحقق إرادة الله برفع شأن الإنسان - أن يكون مختارا - بنفس الإجراءات التي يقوم بها الشيطان في فتنه الإنسان .

وهكذا يسخر الله الشيطان في خدمة الهدف من خلق الإنسان منذ آدم عليه السلام، وإلى أن تقوم الساعة .

### **دور الشيطان في مشكلة الإنسان بين الاتباع والابتداع:**

إن استراتيجية الشيطان في معركته مع الإنسان تقوم على مبدأ أساسى: ذلك هو سحبه من منهج الاتباع إلى منهج الابتداع، أو بعبارة أصح: من منهج الاتباع لله، إلى منهج الاتباع لأعوان الشيطان .

وإذا كانت قضية الحرمان التي تحدثنا عنها آنفا قد جاءت على أساس من قانون المعرفة في إدراك الشيء بنقيضه ... إدراك النعمة بذوق المحنة ... فإن قضية الاتباع تأتى على أساس من قانون المعرفة كذلك: حيث يحدث التقابل بين صاحب العلم الأعلى أمام صاحب العلم الأدنى ... فتكون النتيجة: حتمية الاتباع .

### **اتباع صاحب العلم الأدنى لصاحب العلم الأعلى .**

يقول سيدنا إبراهيم لأبيه: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣ مريم

وقد ضرب الله لنا المثل لذلك في قضيتين متشابهتين: قصة آدم مع الله، وقصة موسى مع الرجل الصالح . هنا لا بد من الاتباع ؛ اتباع آدم لأمر الله، واتباع موسى لأمر الرجل الصالح .

والمشكلة أن بعض المفكرين المعاصرين يمثلون الساحة ضجيجا: أن صراعا يدور بين منهج الاتباع الذى تلتزم به الرجعية الدينية، ومنهج الإبداع الذى تلتزم به التقدمية التنويرية .

وقد جهل هؤلاء أو تجاهلوا أن الاتباع أمر حتمي، وهو الأصل بالنسبة للإنسان، سواء آمن بالله أو لم يؤمن

لا مفر للإنسان من أن يسلك مسلك الاتباع، لأنه - على شتى المستويات - عندما يكتشف أنه ذو علم ضئيل .. أمام مصدر يكتشف فيه أنه ذو علم واسع فلا بد من الاتباع . هذا شأن البشر جميعا: العقلانيين، والتجريبيين، واللاأدرين، والنفعيين، هم جميعا: اتباعيون .

اتباع العقلين لأى شيء يكون؟ للعقل، حسنا، لكن: لماذا؟ ما هو العقل؟ لماذا العقل؟ لا أحد يجيب، وإنما هو محض تسليم !!

اتباع التجريبيين لأى شيء يكون؟ للتجربة، حسنا، لكن : لماذا؟ وهى لا تعطى اليقين، وتقوم على الظن، وتنتظر التصحيح؟ لا أحد يجيب، بغير الخضوع لمنطق التسليم .

اتباع اللاأدرين لأى شيء يكون؟ لحكم اللحظة، وضرورة الوقت، حسنا، لكن: لماذا؟ وهى مخوفة بالخطر، والمجهول، والفناء؟ لا أحد يجيب بغير منطق التسليم.

اتباع البراهماتيين لأى شيء يكون؟ للمنفعة؟ حسنا، ولكن: لماذا؟ وهى منفعة مشتبكة مع أضرار، مهددة بالخداع، والدمار؟ لا أحد يجيب بغير منطق التسليم<sup>(١)</sup>.

حتى ما يسمى الإبداع الفنى، هو فى عمقه قمة الاتباع، فالفنان المبدع لا يكون عبقريا إلا بأن يتبع حالته الوجدانية، التى تدفعه - فى شبه غيبوبة - إلى إنجاز النوع الفنى الذى يعمل فى أسرته، وفى نطاقه: شاعرا كان، أو نحاتا، أو رساما، أو قصاصا

الخ

وإذن فالقضية أولا وأخيرا هى قضية اتباع، اتباع الله، أولغير الله .

(١) أنظر كتابنا فلسفة التسليم

وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك الأمر منذ وضع الإنسان قدمه على هذه الأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴾ طه .

وفي قوله صلى الله عليه وسلم (من سن سنة حسنة) يكون الوصف بالحسن رجوعاً إلى مقياس الشرع . وكما قلنا سابقاً من لم يتبع الله ورسوله تبع غيره حتماً . إنه الاتباع العكسي، الذي يحذرنا منه العليم الخبير: يقول تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ١٦ محمد، وهو الاتباع العكسي الذي تفسد به السماوات والأرض ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ أَحَقُّ أَهْوَاءِهِمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ٧١ المؤمنون .

وهنا يأتي استمرار دور الشيطان، فبعد أن قام بدوره المسخر له في قضية الحرمان بدءاً من آدم عليه السلام ... يأتي دوره في قضية الاتباع، بدءاً من دوره مع آدم، وامتداداً مع ذريته .

فهو يمتحن - أو يمتحن به - الإنسان، في قضية الاتباع:

إما أن يتبع الإنسان أمر ربه فيظهر خيره، وإما أن يتبع الإنسان الشيطان - باختياريته الخيرية في أصلها - فيظهر فساد، ويقول الشيطان هنا: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ٢٢ إبراهيم

وفي الرؤية الإسلامية فإن دور الشيطان مع الإنسان في هذه الحياة لا يدعو للابتئاس، أو الحزن، أو الخوف المرضي: تلك مسيرة ابتلاء واختبار وارتقاء، يقول تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ ٩٩، ١٠٠ النحل .

وهى مسيرة تصاحبنا فيها العناية الإلهية طوال المسيرة، صاحبتنا فيها الرسائل، والتشريعات . والتوبة:

وصاحبتنا فيها الملائكة: و اقترَب الله تعالى فيها منا أيضا: يقول تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ .

ذلكم - فى مقاييس العقيدة الإسلامية - هو معنى الخير والشر، والنجاة، والفلاح، والفوز، والفرح، والسعادة، وأولئكم هم المستحقون له وفقا لنظام الله فى كون الله

ومن هنا - ووفقا لهذه المقاييس - يصبح من اهلاك أن نطلب النجاة بغير مقاييس النجاة التى حددها مالك النجاة، ويصبح من الفشل أن نطلب الفلاح بغير مقاييس الفلاح التى حددها مالك الفلاح .

حتى النجاة فى صراع مع عدو متفوق تكنولوجيا ونويا مضمونة بالتقدم الأخلاقى الذى نملك مفاتيحه، ونملك إمكانية التفوق فيه. وكما يقول عمر بن الخطاب فى رسالته إلى سعد بن أبى الوقاص رضى الله عنهما، وهو فى قلب المعركة (إنما تنصرون بذنوب أعدائكم، فإذا كنتم مثلهم فبم تنصرون؟؟ )

وفقا لهذه المقاييس - انطلاقا من العقيدة الإسلامية بعد تحريرها من التخليط بغيرها - لا تكون النجاة، ولا يكون الفلاح - بكل بساطة الحق ووضوحه - فى شعارات العصر المرفوعة فوق صوارى الزيف. والاستعلاء، والقوة، واللذة

لا يكون الفلاح ولا النجاة ولا الفوز ... فى جائزة نوبل، أو فى تحفيز صورة الفرد على أصنام التاريخ، أو رفع رسمه فى أيدى الملايين فى مظاهرات العبيد، أو وضع يده على أزرار القوة الغشوم، أو التحرك بحراسة مئات الألوف من الجنود، أو النجاح المتوالى فى انتخابات التزوير على مدى العقود، أو القدرة على خرق التوازن الذى انبنت عليه الطبيعة، أو الصراخ الهستيرى أمام مرمى الكرة فى منطقة الخصم، أو امتلاك نوافذ المتعة، وطاقات السرور.

ولعلنا بذلك نكون قد ساهمنا في تجلية أساسيات الموضوع: حول تصور المسلم طالب النجاة لمعنى النجاة، وارتباط هذا المعنى بمعنى الفلاح، وإمكانات نجاة الإنسان المسلم وجهه الله، من الخطر الحقيقي الذى يهدده فى جميع المستويات، وما عليه إلا أن يطلب النجاة من مالك النجاة، بشروطه، وفق علمه، وعنايته وامتلاكه للدنيا وليوم الدين . إن نظرة الإسلام إلى الخير والسعادة والفرح والنجاة على النحو الذى ذكرناه يعنى أولا وأخيرا ربطها بالآخرة .

وهذا هو ما يؤكد أن المشروع الإسلامى للخلافة فى هذه الأرض (الحضارة) يختلف اختلافا جذريا عن المشروع الغربى، حيث بدأ هذا الأخير من اللذة فانتهى إلى الشقاء، وبدأ من الحرية فانتهى إلى العبودية، وبدأ من الابتداع فانتهى إلى الاتباع، وانشصر فى الدنيا فانتهى إلى الفناء .

أما المشروع الإسلامى: فيبدأ من اتباع الرسول لينتهى إلى الحق، ويبدأ من العبودية لله وحده لينتهى إلى الحرية، ويبدأ من العمل للآخرة فيصل إليها حائزا للدنيا وهى راقمة، ويبدأ من الإقرار بالحرمان المنظم وفقا لأمر الله، لينتهى إلى النعيم الحقيقى فى الخلود والقرب من الله .



## الباب الرابع

# الآخرة



## البعث

يقول الإمام الطحاوى (ونؤمن بالبعث، ويجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط، والميزان يوزن به أعمال المؤمنين من الخير والشر، والطاعة والمعصية، والجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان ولا يبیدان، وإن الله تعالى خلق الجنة والنار وخلق لها أهلا، فمن شاء إلى الجنة أدخله فضلا منه ومن شاء منهم إلى النار أدخله عدلا منه، وكل يعمل لما قد فرغ منه، وصائر إلى ما خلق له.

### فائدة الدعاء للأموات

وفى دعاء الأحياء للأموات وصدقته من منعة للأموات، والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضى الحاجات)

تحدث هنا عن البعث بما يتضمنه من الجزاء على جانيه: فى الجنة أو فى النار .

فقى صحيح البخارى بسنده عن عدى بن حاتم قال قال رسول الله "ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة"، وفى رواية أخرى زاد فيه "ولو بكلمة طيبة".

وقد تحدثت سورة الصافات عن أن المنكرين للبعث - فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك فى جميع العصور - يحركهم لذلك استخفاف سلوكى، مقرون بخفة عقلية .

وقد جاء ذلك ضمن قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿٧٨﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٩﴾ أَوْ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٠﴾ أَوْءَابَاؤُنَا الْآوَّلُونَ ﴾ .

فهم أمام أخطر المسائل: يتضحكون ويسخرون، ويتنادون لإشاعة السخرية بين الناس .

وهم أمام حقيقة البعث الذى هو جزء من حقيقة الخلق: يتعلمون، أو يتغابون إذ يزعمون: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقد استدلل القرآن الكريم على البعث بالأدلة العقلية لمن يريدونها حيث ركزها في آخر سورة يس:

﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ : فالقادر على البدء قادر على الإعادة .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ : فهو القادر على أن يخرج - تحت أعينكم - الشيء من نقيضه .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ : فالقادر على الأكبر قادر على الأصغر .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ : فهو الخالق بغير احتياج إلى مادة أو زمن .

إن المنكرين يبنون موقفهم على الزعم بأن العقل البشرى من حقه أن ينكر ما لا يعرفه .

ويرد القرآن على أمثال هؤلاء، حيث يلفت أنظارهم إلى أنهم يعرفون الكثير من أمثال البعث في بيئتهم: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٨١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٧﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٥٨﴾  
٧-٥ الحج .

وتلفت سورة الصفات أنظارهم إلى حقيقة الخلق في أنفسهم وفي العالم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِنْ طِينٍ لَا زِبْ﴾

فهل ينكر العقل حقيقة الخلق لأنه لا يمكنه أن يعرف كيف يتم التخليق؟

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥٩﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ .

فلينظر الإنسان إلى خروج العسل من النحل .

وإلى خروج اللبن من الثدي .

وإلى خروج الشجرة الخضراء من بين الماء والطين .

وإلى خروج الزهرة الملونة من الشجرة الخضراء .

وإلى خروج الفاكهة الحلوة من فم الزهرة الوداعة .

وإلى الأظافر تنبت على أطراف الأصابع .

وإلى الشعرة السوداء تخرج من جلد الرأس .

فلينظر الإنسان إلى الأرض تدور في فلكها حول الشمس .

وإلى الشمس تدور في فلكها مع المجموعة الشمسية حول مركز في المجرة .

وإلى المجرة تدور في فلكها المرسوم بين المجرات الدائرة .

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من خلقنا من بين الأمثلة التي تزخر بها

الحياة، وتزخر بها الطبيعة . وهي بعث كلها؟!

لو أن إنسانا لم ير العسل يخرج من النحل أكان يجوز لعقله أن ينكره؟

أكان يمكن لعقله أن يتصوره؟ أكان يمكن لعقله أن يقترحه؟ أكان يمكن لعقله

أن يصممه، وأن يضع له أسبابه وأن يستخرج منه نتائجه؟

أكان يجوز لعقله أن ينكره لأنه يعجز عن ذلك كله؟

لكن ذلك كله رأيناه ونراه يحصل مرات ومرات؟  
وكيف يصح القول بأن الذى لا نراه يكون غير معقول ونرمى الكلام عنه  
بالسحر، فإذا حصل مرة أو مرات صار معقولا؟

يقول الدكتور نورمان بريلى أستاذ علم الحيوان بجامعة ماكجيل بمونتريال بكندا  
فى كتابه " بزوغ العقل البشرى ": (إن الطفل حديث الولادة يبدو على الدوام من  
المعجزات لكل من يقع نظرهم عليه لأول مرة ... فهم يرونه ماثلا أمام أعينهم  
بوجوده الحاضر وإمكاناته الرهيبة ...)

إن العلم التجريبي نفسه يقدم لنا ظواهر يعرفها العلماء ويتعاملون معها دون أن  
يعرفوا سر الصنعة فيها: فى بناء الذرة، فى ظاهرة الضوء، فى ظاهرة الجاذبية، فى بناء  
الحياة، فى بناء الفلك، فى عملية الذكاء، فى عملية الوعي، فى عملية التذكر، فى عملية  
التخيل .

فى كل ذلك وغيره يمكن للعلماء أن يقوموا بدور الوصف لما يحدث، لكنهم لا  
يمكنهم أن يقوموا بدور التفسير أو التعليل .

والذى يصير على الإنكار لكل ما لا يعرف سر وجوده أو سر صنعته لا يمكنه أن  
يمارس الحياة .

إنه ليكون الأحق بالسخرية، إذ يكون أشبه بالنحلة التى ترفض الزهرة وتنكرها  
ولا تتعامل معها: لأنها لا تعرف مراحل إنتاج الزهرة . أو لأنها لا تتصور القصر  
الذى توجد فيه .. أو الأرض .. أو الشمس .. أو النهر .. أو الإنسان ..

كل أولئك الذين كان لهم دور فى إنتاج الزهرة .

ومن أنكر هذه الحقائق ولم يتعامل معها لأنه لا يعرف سر خلقها هو إذن عقل  
مريض فى نفس مريضة .

إن قدرة الله ... إن أحداث الطبيعة ... إن حقائق الخلق والإبداع، ما نرى منه  
وما لا نرى لا يخضع شئ منه لهذه العقول فى تلك النفوس ... إنه إنها يخضع لمن  
أحاط بعلمه وإرادته وإبداعه كل شئ

وهو سبحانه يضع أمامنا حقيقة البدء إجمالاً لنسلم عن طريقها بحقيقة الإعادة إجمالاً، أى يارجاع الأمر كله إلى ظاهرة الخلق والإعادة، تلك الظاهرة الواقعة تحت أنظارنا فى كل حين:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ١٩

العنكبوت

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٢٠ العنكبوت، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ ٢٩ الأعراف، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ ١٠٤ الأنبياء

﴿ إِنَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ٤ يونس، ﴿ اللَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ٣٤ يونس، ﴿ اللَّهُ يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ١١ الروم، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ٢٧ الروم

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَحْنُ لَمَبْعُوثُونَ ﴾ ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٧٩-٨٥ المؤمنون

تلك الآيات جميعاً تبرهن لنا على صحة البعث عن طريق النظر فيها يحدث أمامنا فى الواقع، وليس عن طريق الدخول فى مباحكات فلسفية

والواقع الذى يحدث أمامنا يرد على شبهات بعض الفلاسفة حيث يبين أن الشخص منا يستمر، وتستمر معه مسئوليته الأخلاقية، لأنه يظل هو هو طوال عمره بالرغم من أن جسده يتبدل ويتغير وينبعث جديداً باستمرار. بل نقول إنه - ما دمنا نتحدث عن الجسد - يموت باستمرار، ويبعث باستمرار.

وما أدق قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾: إنه يموت الآن وفى كل لحظة

ومن منا لا يعترف - إن أنعم النظر في صور مسجلة من مسيرة حياته - : أن الجنين الذى كان مات ثم انبعث الطفل، وأن الطفل مات ثم انبعث الغلام، وأن الغلام مات ثم انبعث الشاب، وأن الشاب مات ثم انبعث الكهل، وأن الكهل مات ثم انبعث الشيخ، وأن الشيخ يقترب من نفس عتبة: الموت والانبعاث .

وهذا دليل أنه يبعث الآن - بعثا دنيويا - فى كل لحظة .

فهل ما زلنا بحاجة إلى دليل واقعى على البعث .

أليس هذا تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۝ الْحَجَّ .

يقول الدكتور نورمان بريل - الذى سبقت الإشارة إليه - (فجسمك الحالى الذى يبلغ وزنه بين ٤٥-٩٠ كيلو جم أو أكثر . ليس هو الجسم الذى كان لك منذ وقت مضى، فكل نسيج وكل خلية إما أن يعاد بناؤهما، وإما أن يستبدلا على وجه الاطراد، سواء فى ذلك الجلد أو الدم، أو الشعر، أو العظام).

ثم يقول: (وأعجب شئ فى ذلك كله أنه بالرغم من هذا التبدل المستمر فى المادة التى يتكون منها جسمى فإننى أحس بأن شخصيتى ظلت مستمرة لم يطرأ عليها تبدل مناظر، ولا يزال الأصدقاء الذين كنت أقابلهم منذ عشرات السنين يعرفوننى)<sup>(١)</sup>

**وأخبر القرآن الكريم عن بعث وقع:**

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمَنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ آدَعْهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦٠ البقرة

(١) بزوغ العقل الابشرى ص ١٣



﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْغَةُ وَأَنْتُمْ  
تَنْظُرُونَ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٥-٥٦ البقرة

وما جاء عن إحياء الموتى على يد المسيح ﴿وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ٤٩ آل  
عمران.

وما جاء عن أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا  
تِسْعًا﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴿٢٥ الكهف.

وعن الذي مر على قرية وهى خاوية على عروشها ﴿قَالَ أَنَّى يُخَيِّرُ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ  
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ ٢٥٩ البقرة.

إن الإخبار بالبعث كما جاء فى رسالة الأنبياء عليهم السلام هو نوع من الإنذار  
لا يصح للعقل البشرى أن يتردد فى التعامل معه والإيمان به، بشروط عملية وإلا  
كان مرتكبا لأشد أنواع الحماقة فيما يختص بمصيره الذاتى، ومصلحته الشخصية، كما  
هو الشأن فى أى إنذار، وبالتالى فى أخطر إنذار

إن التصديق إزاء الإنذار - بشروطه - يصنع موقفاً يتلخص فى كلمتين:  
التصديق أو التكذيب.

**التكذيب كما صنع أبو لهب**

**أو التصديق كما فعل أبو بكر .**

وعلى كل أن يتحمل تبعه موقفه؟!

وتتلخص شروط التسليم للإنذار وفقاً للمنهج العملى: فى أربع قواعد:

القاعدة الأولى: فى طبيعة الإنذار

القاعدة الثانية: فى مصدر الإنذار

القاعدة الثالثة: فى مورد الإنذار

القاعدة الرابعة: فى حامل الإنذار

أما عن القاعدة الأولى: فتعنى أن يكون هو الإنذار الأكبر، بمعنى أنه إذا تكاثرت الإنذارات كان للأكبر فيها أن يلغى الأصغر، وهنا نجد أن الإنذار الذى جاء فى رسالة الرسل الذين يمثلهم محمد صلى الله عليه وسلم هو الإنذار الأكبر على وجه الإطلاق، لكونه يضع أمامك التهديد بالعذاب الأكبر الخالد الأبدى ويعذك بالنعيم الأبدى .

قال الحسن البصرى فى قوله تعالى: ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴾: والله ما أنذر العباد بشيء قط أدهى منها. خرجه ابن أبى حاتم (ابن حبان)، وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ يعنى النار

وأما عن القاعدة الثانية: فتعنى أن يكون مصدر الإنذار هو المنذر الأكبر - ولو على قاعدة الافتراض - وهنا نجد فى رسالة الرسل أن الإنذار الذى جاءوا به لم يكن هو الإنذار الأكبر فحسب، ولكنه جاء صادرا من المنذر الأكبر، لأن الذى أصدره موصوف بأنه مالك الملك مالك يوم الدين، هو الموصوف بصفات الكمال على الإطلاق ولا يوجد فى ساحة الإنذارات المتعارضة إنذار جاء من مثله .

وأما عن القاعدة الثالثة عن مورد الإنذار: فتعنى أن لا يطلب منك الإنذار أن تقوم بعمل لا تملك منه شيئا بأن كان لا يتفق مع فطرتك، كأن يطلب منك الإنذار أن تحمل فوق كتفك عشرة أطنان، وإلا أعدمك، فهذا إنذار ساقط عمليا، وأجدر به أن يكون حكما بإعدامك منذ الآن، وليس عملا مطلوبيا منك أن تقوم به، وهنا نجد فى رسالة الرسل - فى حدود ما نعرفه عن محمد صلى الله عليه وسلم - أنهم جاءوا إليك بإنذارهم ليطلبوا منك ما يتوافق مع فطرتك أولا ﴿ لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ، وما يتحرك بك إلى الأفضل ثانيا، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

أما عن القاعدة الرابعة: فتعنى أن يكون حامل الإنذار نموذجا لتطبيق واجبات الإنذار وآدابه، وهنا نجد فى رسالة الرسل: أنهم إذ جاءوا بالإنذار الأكبر من المنذر الأكبر كانوا وهم حملته يمثلون المثال الواقعى لهذا التطبيق، لقد كان رسول الله صلى

الله عليه وسلم على مستوى الإنذار الذي جاء به، وهنا تنطق سيرته صلى الله عليه وسلم باكتمال الشرط المطلوب في هذه القاعدة<sup>(١)</sup>.

إنه يكفي المندر أن يكون قد أبلغك، وأنت بعد ذلك مسئول عن نفسك إذا صدقت فلنفسك، وإذا كذبت فعليها .

إن الإنذار هنا نوع من الكلام ربما كان على علماء البلاغة أن ينشئوا له نوعاً جديداً غير ما وضعوه من نوعي الإنشاء والخبر .

إنه ربما يوضع في نوع جديد يسمى النوع الإنذاري

وهذا النوع الإنذاري لا يتعامل معه بغير التصديق بعد تحقق الشروط العملية السابقة

وقد حسم رجل مؤمن من آل فرعون القضية على أساس هذا المنهج إذ قال لقومه: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ٢٨ غافر

ولقد حسم الإمام على رضى الله عنه الموقف في هذا الباب بقوله لمن كان يماريه في أمر الآخرة (إن كان الأمر كما زعمت نخلصنا جميعاً، وإن كان الأمر كما قلت هلكت ونجوت ..)

ومع ذلك يستمر إنكار المنكرين خضوعاً منهم للحالة النفسية التي يكشفها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾ .

وهي حالة تدفع بهم إلى مقاومة الآيات باللجوء إلى السخرية:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۖ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ ﴾ ﴿ أَوَذَا آمِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

(١) أنظر المزيد من شرح هذه القواعد في كتابنا " فلسفة الإنذار "، وكتابنا " مداخل إلى العقيدة الإسلامية "

هكذا تأتي مقاومتهم للآيات في أسلوب ساخر، ومن هنا ساقى الآيات الحقيقة إليهم في صورة تقريرية مسوقة بالسخرية، أيضا: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴾.

ثم يقول بعد ذلك: ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢١) من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿.

عبر عن سوقهم إلى الجحيم بلفظ فاهدوهم: إمعانا في السخرية منهم .

وعبر عن كفرهم بأنهم ظلموا؛ هكذا بأوسع إطلاق:

لأنهم ظلموا الله بعبادة الشريك . وظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب . وظلموا أنفسهم بإيرادها موارد الهلاك .

وإمعانا في سخرية يستحقونها قابل ظلمهم ذاك مع ما يوحى به من جبروت بأن فصل مظاهر صغارهم وحقارتهم في الآخرة، فقدّمهم وهم يتلاومون في الموقف، وكل منهم يحاول أن يتصل من مسئولية ما حدث، بينما حقائق الموقف محيطة بهم، لا يجدى فيها تلاوم، أو تناصر، أو مهرب:

﴿ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ (٢٢) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿ (٢٣) بَلْ هُمْ آلِيَوْمَ مُتَسَلِّمُونَ ﴿ (٢٤) وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿ (٢٥) قَالُوا إِنْكُم كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿ (٢٦) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿ (٢٧) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَغِيينَ ﴿ .

وتتحدث آيات القرآن الكريم في سورة الصافات في مجال الزواجر والجزاء ... عن عذاب النار ونعيم الجنة.

وهى تبادر إلى ذكر العذاب، جريا مع سياق النظام الكونى المجعول بوضعه تعالى، وهو من ثم يتناول الخارجين على النظام .

فالخارجون على النظام وإن لم يلحقهم عذاب فى الدنيا كعذاب الشياطين المسترقين للسمع ﴿ فَاتَّبَعُهُمْ سِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ يؤول بهم الأمر بعد البعث إلى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

وهم إذ يدخلون العذاب يدخلونه باقتناع ظاهر، من بعد، مساو لاقتناع كافر، كان مستورا من قبل. يقولون: ﴿فَحَقُّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾.

وهم يعترفون بأن دخولهم في العذاب إنما كان لأموار ارتكبوها:

منها الطغيان ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

ومنها الإغواء ﴿فَأَغْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾.

ومنها الاستكبار ﴿إِنَّمَا كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ومنها الشرك ﴿أَيُّهَا النَّارِ كُورَاءُ إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مُّجْتَنُونَ﴾.

وفى النهاية ﴿إِنْكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْآلِيمِ﴾ وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وهنا لا ينتهى بهم المطاف بدخول النار، ولكنهم يكونون في موضع الانفصاح أمام من كانوا يهزءون بهم في الدنيا: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلَعُونَ﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿قَالَ تَأَلَّهْ إِنْ كِدَتْ لِتَزِدِينَ﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ.

وأخيرا فإن الآيات في تلك السورة - بعد أن تعطى لنا ملامح العذاب للمكذبين وللآخرة، الطاغين، المشركين، المستكبرين، الغاوين، .... تقرر أن عباد الله ناجون، حيث يقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أُولَٰئِكَ هُم رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿فَوَكَّهُ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَنْصَرٌ مِّنَ الطَّرْفِ عَيْنٍ﴾ كَانَتْ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿الصفات ٤٠-٤٩

### أهمية التذكير بالنار في المنظومة الإسلامية

تقوم التربية الإسلامية - والدعوة الإسلامية كذلك - على محور التذكير بالنار، وهو محور أساسى في المنظومة الإسلامية: عقيدة وشريعة وتربية ودعوة وأخلاقا.

خلافًا لمن يبدون اليوم تأففا من هذا الأساس، باسم دعوات فارغة، متجاهلين

أن الدعوة الإسلامية في تركيزها على محور التذكير بالنار إنما تدخل من باب الرحمة بالإنسان: خوفاً عليه من أن يتعرض لحادث النار، وهو حادث ينتظم ضمن النظام الإلهي للكون، ولا منجاة لأحد منه إلا أن يلجأ إلى واضع هذا النظام وصانع سفينة النجاة فيه .

### تؤكد الآيات القرآنية هذا التذكير

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ۝﴾  
آل عمران ١٩٠-١٩٢

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءِامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾  
آل عمران ١٥-١٦

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝﴾ الفرقان ٦٣-٦٦

وقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۝ كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَّقِدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝﴾ المدثر ٣١-٣٧

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ المعارج ٢٧-٢٨

وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَنْ رَبُّ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السُّمُورِ ﴿٢٦﴾ الطور ٢٥-٢٧

قال بعض الصالحين: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار، لأن أهل الجنة قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ فاطر ٣٤، وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ﴾ الطور ٢٦

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يستعيز من النار. ويأمر بذلك في الصلاة وغيرها والأحاديث في ذلك كثيرة.

قال أنس رضي الله عنه: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ البقرة ٢٠١: خروجه البخارى.

وفي كتاب النسائي عن أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من حر جهنم). وعن عدى بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (اتقوا النار) قال وأشاح ثم قال (اتقوا النار) ثم أعرض وأشاح ثلاثا حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال (اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة) خرجه في الصحيحين.

وخرج البزار والطبراني من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (أنا آخذ بحجزكم فاتقوا النار، اتقوا النار، اتقوا الحدود، فإذا مت تركتم، وأنا فرطكم على الحوض، فمن ورد قد أفلح، فيؤتى بأقوام ويؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: رب أمتي، فيقول: إنهم لم يزالوا بعدك يرددون على أعقابهم.)

وخرج الطبراني وغيره من طريق يعلى بن الأشدق عن كليب بن حزن قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اطلبوا الجنة جهداً واهربوا من النار جهداً، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة

اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات، فلا تلهينكم عن الآخرة).

وخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ("والذى نفسى بيده لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا" قالوا: وما رأيتم يا رسول الله قال "رأيت الجنة والنار").

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لما كسفت الشمس رأيت النار، فلم أر منظرا كالיום قط أفضح منها).

وفى التخويف من النار للحافظ ابن رجب الحنبلى: أنه روى الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا (لو أبرزت النار للناس ما رآها أحد إلا مات) وروى موقوفا.

وفيه أنه خرج أبو يعلى الموصلى فى مسنده وغيره من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه خطب فقال: (لا تنسوا العظيمتين الجنة والنار)، ثم بكى، حتى جرت وبلت دموعه جانبي لحيته، ثم قال (والذى نفس محمد بيده لو تعلمون ما أعلم عن الآخرة لمشيتم إلى الصعدات، ولحيتهم على رؤوسكم التراب).

وفى المستدرک على الصحيحين للحاكم بسنده عن زياد بن أبى سودة قال: كان عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه على سور بيت المقدس الشرقى يبكى، فقال بعضهم: ما يبكيك يا أبا الوليد؟ فقال من ها هنا أخبرنا رسول الله أنه رأى جهنم، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وفى سنن أبى داود وابن ماجه عن جابر: "أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل كيف تقول فى الصلاة؟ قال أتشهد ثم أقول "اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ"، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم "حولها فدنندن"<sup>(١)</sup>، وخرجه البزار ولفظه "وهل أدندن أنا

(١) الدندنة: التلطف بصوت خفيض بكلمات غير واضحة فى السمع، وحولها أى: حول النار.



ومعاذ إلا لندخل الجنة، ونعاذ من النار"، وفي مسند الإمام أحمد مثله، بإسناد منقطع عن سليم الأنصاري .

وروى ابن رجب في كتابه " التخويف من النار " بسنده عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قال (إنما يدخل الجنة من يرجوها، ويجنب النار من يخافها، وإنما يرحم الله من يرحم) وخرجه أبو نعيم وعنده: " وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ".

### وهو إنذار الرحيم وتحذير الحفيظ العليم:

إنه ما أكذب هؤلاء الذين يتظاهرون بالرحمة عن طريق الاستنكاف من ذكر النار.

وما أصدق الحكمة السائرة:

صديقك من صدَّقك لا من صدَّقك

من أضحكك أضحكك الناس عليك، ومن أبكاك أبكى الناس من أجلك .

ونقلنا ذلك إلى ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنما مثلى ومثلى أمتى كمثل رجل استوقد نارا، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها)

وفي رواية لمسلم بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثلى كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب .. يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها، قال فذلكم مثلى ومثلکم أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها).

وفي رواية للإمام أحمد بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مثلى ومثلکم أيتها الأمة كمثل رجل أوقد نارا بليل، فأقبلت إليها هذه الفراش والذباب التي تغشى النار، فجعل يذبحها ويغلبها إلا تقحما في النار، وأنا آخذ بحجزكم أدعوكم إلى الجنة، وتغلبوني إلا تقحما في النار) .

وخرج الإمام أحمد أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم قال: (إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذباب)

والخوف من عذاب الآخرة لا ينجو منه أحد، ولو كان من المقربين، حتى الأنبياء والملائكة.

فقد توعده الله سبحانه خاصة خلقه على المعصية قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾  
الإسراء ٣٩

وقال في حق الملائكة المكرمين: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء ٢٩

وفي صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: (استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، قال المسلم: والذى اصطفى محمدا على العالمين، فقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودى، فذهب اليهودى إلى النبى فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبى المسلم، فسأله عن ذلك، فأخبره، فقال النبى: لا تخيرونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلى، أو كان ممن استثنى الله).

وفي رواية أخرى للبخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال: (بينما رسول الله جالس جاء يهودى، فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهى رجل من أصحابك، فقال: من؟ قال رجل من الأنصار، قال: ادعوه، فقال: أضربته؟ قال: سمعته بالسوق يحلف والذى اصطفى موسى على البشر، فأخذتنى غصبة ضربت وجهه، فقال النبى: لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق أم حوسب بصعقة الأولى).

قال الحافظ ابن رجب في كتابه "التخويف من النار": وثبت من حديث عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الشفاعة قال (فيأتون آدم) - أى يطلبون منه أن يتقدم بطلب الشفاعة -، وذكر الحديث وقال: (فيقول آدم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه أمرنى بأمر فعصيته فأخاف أن يطرحنى في النار، انطلقوا إلى غيرى نفسى نفسى) وذكر في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مثل ذلك، كل منهم يقول: (إنى أخاف أن يطرحنى في النار) أخرجه ابن أبى الدنيا عن أبى خيثمة عن جرير عن عمارة به، وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبى خيثمة إلا أنه لم يذكر لفظه بتمامه، وأخرجه البخارى من وجه آخر بغير هذا اللفظ .

وفي كتاب ابن رجب قال: قال عمر رضى الله عنه: (لو نادى مناد من السماء: أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم، إلا رجلا واحدا لحقت أن أكون أنا هو) أخرجه أبو نعيم، وأخرج الإمام أحمد من طريق عبد الله بن الرومى قال: بلغنى أن عثمان رضى الله عنه قال (لو أنى بين الجنة والنار ولا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لا اخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير)

إن تراثنا من عصر بناء أمتنا في عصورها المجيدة المليء بالخوف من النار، حيث تم صنع ضمير هذه الأمة القائم على التقوى، رغم أنف المعادين لهذا المنهج وجهلهم بأسسه:

ففى كتاب الحافظ بن رجب الحنبلى "التخويف من النار" رواية عن الحسن قال: كان عمر رضى الله عنه ربما توقد له النار ثم يدنى منها يديه، ثم يقول لنفسه: (يا ابن الخطاب هل لك على هذا صبر)

وفيه عن ابن السكّ قال: قطع قلوب العارفين بالله ذكر الخلودين الجنة والنار . وفيه عن بكر المزنى أن أبا موسى الأشعري خطب الناس بالبصرة فذكر في خطبته النار، فبكى حتى سقطت دموعه على المنبر، قال: وبكى الناس يومئذ بكاء شديدا .

وفيه عن إبراهيم بن محمد البصرى قال: (نظر عمر بن عبد العزيز إلى رجل عنده متغير اللون، فقال له: ما الذى أرى بك؟ قال: أسقام وأمراض يا أمير المؤمنين إن

شاء الله، فأعاد عليه عمر، فأعاد عليه الرجل مثل ذلك ثلاث مرات، فقال: إذا آبيت إلا أن أخبرك فإني ذقت حلاوة الدنيا، فصغر في عيني زهرتها وملاعبيها، واستوى عندي حجارتيها وذهبها، ورأيت كأن الناس يساقون إلى الجنة، وأنا أساق إلى النار، فأسهرت لذلك ليلي، وأظلمات له نهاري، وكل ذلك صغير حقير في جنب عفو الله وثواب الله عز وجل، وجنب عقابه .

وهذا الكلام - كما يقول الإمام ابن رجب - يشبه حديث حارثة المشهور وهو حديث روى من وجوه مرسلًا، وروى مسندًا متصلًا من رواية يوسف بن عطية الصفار وفيه ضعف عن ثابت عن أنس: (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لشاب من الأنصار: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال أصبحت مؤمنًا بالله حقًا، قال: انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة، قال: يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظلمات نهاري، وكأني بعرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعادون فيها، قال أبصرت فالزم، عبدُ نور الله الإيمان في قلبه)، والمرسل أصح.

وفيه: وقال أحمد بن أبي الخوارى حدثنا علي بن أبي الحر قال: أوحى الله إلى يحيى بن زكريا عليه السلام: يا يحيى وعزتي لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب جسمك، ولزهقت نفسك اشتياقا، ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لبكيت بالصدید بعد الدموع، وللبست الحديد بعد المسوح .

وفيه أنه ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز ساكتا وأصحابه يتحدثون، فقالوا: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكرا في أهل الجنة، كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى .

وفيه عن مغيث الأسود أنه كان يقول: (زوروا القبور كل يوم بفكركم، وتوهموها جوامع الخير كل يوم في الجنة بعقولكم، وشاهدوا الموقف كل يوم بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة والنار بهممكم، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار، ومقامعها، وأطباقيها) .

وفيه عن صالح المري أنه قال: (للبكاء دواعى الفكرة فى الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب، وإلا نقلتها إلى الموقف، وتلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت إلى ذلك، وإلا فاعرض عليها القلب بين أطباق النيران) .

وفيه عن أبى سليمان الدارانى: قال خرج مالك بن دينار بالليل إلى قاعة الدار، وترك أصحابه فى البيت، فأقام إلى الفجر قائما فى وسط الدار، فقال لهم: إني كنت فى وسط الدار خطر ببالي أهل النار، فلم يزالوا يعرضون على بسلاسلهم وأغلالهم حتى الصباح .

وفيه أنه كان سعيد الجرمى يقول فى وصف الخائفين: (إذا مروا بآية من ذكر النار صرخوا منها فرقا، كأن زفير النار فى آذانهم، وكأن الآخرة نصب أعينهم) .

وفيه أنه قال الحسن: (إن الله عبادا كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار فى النار معذبين)، وقال أيضا:

(والله ما صدق عبد بالنار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدق بها حتى يهجم عليها) .

وفيه أنه قال ابن عيينة، قال إبراهيم التيمى: (مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسى: أى شيء تريدین؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا، قال فقلت: فأنت فى الأمنية، فاعمل) .

وفى حلية الأولياء لأبى نعيم بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: (قلت ليزيد بن مرثد: مالى أرى عينك لا تحجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعنى به قال: يا أخى إن الله قد توعدنى إن أنا عصيته أن يسجننى فى النار، والله لو لم يتوعدنى أن يسجننى إلا فى الحمام لكنت حريا أن لا تحجف لى عين، قال: فقلت له: فهكذا أنت فى خلواتك؟ قال وما مسألتك عنه؟ قلت عسى الله أن ينفعنى به، فقال: والله إن ذلك ليعرض لى حين أسكن الى أهلى، فيحول بينى وبين ما

أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يدي، فيعرض لي، فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكى امرأتى، ويبكى صبياننا، ما يدرون ما أبكانا، ولربما أضجر ذلك امرأتى، فتقول: يا ويحها ما خصصت به من طول الحزن معك في الحياة الدنيا، ما تقر لي معك عين) .

وفي التخويف من النار لابن رجب: قال يوسف بن عطية عن المعل بن زياد: كان هرم بن حيان يخرج في بعض الليالي وينادى بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالها، وعجبت من النار كيف نام هاربها، ثم يقول: ﴿ أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الآية الأعراف ٧٩ .

وقال أبو الجوزاء: (لو وليت من أمر الناس شيئاً اتخذت منارا على الطريق وأقمت عليها رجالا ينادون في الناس: النار النار، خرج الامام أحمد في كتاب الزهد) .

وخرج ابنه عبد الله في هذا الكتاب أيضا باسناده عن مالك بن دينار قال: "لو وجدت أعوانا لناديت في منار البصرة بالليل: النار النار". ثم قال: "لو وجدت أعوانا لفرقتهم في منار الدنيا: يا أيها الناس النار النار"

فأين نحن اليوم من هذا المنهج وهذه التربية؟ ثم نتباكى على اللبن المسكوب ونتساءل في بلاهة: ماذا حدث؟

حدث أن خلعنا ذاتنا فوق بعضنا في تيه البحث عن الذات، وخطب المذاهب والضلالات .

### المنطق العملي في الإنذار

هكذا تم بناء الأجيال البناءة التي أقامت الحضارة الإسلامية في صدر الإسلام، ثم تسرب إليهم المنهج الفلسفي اليوناني مع الغزو الفكري في مرحلته الأولى . وتم بذلك جزء من تزييف وعي المسلم ووجدانه وإبعاده عن منهله الصحيح، واستمر هذا التزييف إلى اليوم، وترتب على هذا التزييف التعقيم على ذكر النار . وتسخيف الوعاظ الذين يشغلون الناس بها .

تم تزيف العقل الإسلامى بجره إلى التأثير الكلامى الفلسفى بمشوار عقلى طويل: له صعوبته، وله سلبياته أيضا<sup>(١)</sup>

مشوار طويل: فى البحث فى العقل نفسه كأداة للمعرفة، وشروطه، وميادينه ونتائجه، والبحث فى أول واجب على المكلف، هل هو النظر أو الشك؟ ثم البحث فى العالم هل هو قديم أو حادث، فإذا كان قديما كيف يكون مخلوقا، وإذا كان حادثا كيف حدث بغير تغير فى الذات الإلهية؟ فى إثبات أن كل حادث لا بد له من محدث، وأن مالا يخلو من الخواحد فهو حادث، وفى إبطال الدور والتسلسل. وفى صفات الله وعلاقتها بالذات، وفى دلالة المعجزة: هذا كله قبل الإيهان بالسمعيات ومنها الآخرة والجنة والنار؟؟

وكان لا بد من نقد هذا المنهج النظرى وفى هذا يقول الفيلسوف الألمانى الشهير كانت فى نقده للعقل النظرى "لا ينبغى أن نقلل من الخدمات التى يقدمها النقد إلى علم اللاهوت، فهو يحرره من حكم التأمل الدجماطيقى، وبذلك يضعه فى مأمن تام بعيدا عن ضربات الخصوم، ولقد كانت الميتافيزيقا الدارجة تمنيه بأن تمد إليه يد المساعدة، ولكنها كانت غير قادرة على الوفاء بعهدها، فضلا عن ذلك فإن علم اللاهوت الذى يريد أن يستعين بالدجماطيقية كان يساعد أعداءه على التسلح ضده"<sup>(٢)</sup>

كان لا بد من نقد هذا المنهج النظرى الذى عطل السمعيات منهجيا إلى آخر المطاف، بينما أن الذاتية الإسلامية اعتمدت على شيء مختلف تماما: على المنهج العملى، العقل العملى، منذ البداية التى كان فى أولها الإنذار بالنار.

إننا سوف نبين هنا<sup>(٣)</sup> أن ما جاء فى العقيدة الإسلامية من الإنذار بالنار يقدم

---

(١) انظر كتابنا "الأسس المنهجية فى بناء العقيدة الإسلامية" فى نقد نظرية المعرفة عند المتكلمين، نشر دار الفكر العربى بالقاهرة.

(٢) انظر كتابه "مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علما" ترجمة نازلى إسماعيل حسين والدكتور عبد الرحمن بدوى، نشر دار الكاتب العربى للطباعة النشر ١٩٦٨ م

(٣) أنظر كتابنا "الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية" نشر دار الفكر العربى بالقاهرة عام ١٩٧٨، وكتابنا "فلسفة الإنذار فى الإسلام" وكتابنا "مداخل إلى العقيدة الإسلامية" و "بحوث فى الفلسفة" لطلبة كلية أصول الدين، وغيرها

منهجاً أصولياً متكاملًا يقوم على النظرة العملية والتي لا صلة لها بمواريث الفلسفة اليونانية أو ما يسمى الفلسفة الإسلامية.

إنه المنطق العملي الذي جاء به الإسلام وربى عليه أتباعه الذين قاموا بأعباء الدعوة وبناء المجتمع والحضارة ..

في قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه النسائي في السنن الكبرى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "اللهم إني أسألك علماً نافعاً وأعوذ بك من علم لا ينفع"

ويسنده عن مكحول أنه دخل على أنس بن مالك فسمعه يذكر أن رسول الله كان يدعو يقول "اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وارزقني علماً تنفعني به".

وفيما رواه مسلم في صحيحه بسنده عن زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله يقول، كان يقول (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها).

وفيما جاء من نبيه صلى الله عليه وسلم عن الجدل النظري حول القضاء والقدر، فيما رواه البخاري بسنده عن علي رضي الله تعالى عنه قال: (كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأثانا رسول الله، فقعده وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد وما من نفس منقوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، قال رجل: يا رسول الله؛ أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة؟ قال: أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاء، ثم قرأ: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل فسنيسره لليسرى)



وفي رواية أخرى له زاد (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)

وفيما رواه الترمذى فى سنته بسنده عن على قال: بينما نحن مع رسول الله وهو ينكت فى الأرض إذ رفع رأسه إلى السماء ثم قال: " ما منكم من أحد إلا قد علم - وقال وكيع إلا قد كتب - مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا أفلا نتكل يا رسول الله قال: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

وفيما جاء فى المأثور من تراثنا وهو فى رأينا يمثل نظرية كاملة فى المعرفة: (العلم يهتف بالعمل فإن أجاب حل، وإلا ارتحل) (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، ووقفه الله فيما يعمل حتى يستوجب الجنة، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما علم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار)

وفى حلية الأولياء لأبى نعيم بسنده عن يحيى بن معين عن أحمد بن حنبل عن يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال " من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم " .

قال الشيخ أبو نعيم رحمه الله: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبى صلى الله عليه وسلم فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته، وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل

وليس هذا المنطق العملى مخفوفاً بالخطر أو الشك أو الضعف، الذى قد يقع فيه أتباع العقل النظرى .

إن هؤلاء يقصمون ظهورهم بأوزار العقل النظرى وأثقالة التى حررنا الله منها، فى قوله تعالى فى سورة الانشراح (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك)

إن أصحاب العقل النظرى يعصبون أعينهم بغشاوة العقل النظرى التى يشير إليها قوله تعالى فى سورة يس وهو يتحدث عن طبيعة الإنذار ﴿يَسْ ۝ وَالْقُرْآنِ

الْحَكِيمِ ﴿٦﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٩﴾  
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿١٠﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا  
يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا  
مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٣﴾ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ  
ءَأْنذَرْتَهُمْ أَم لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ  
بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١٥﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا  
وَأَثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ يس ١-١٢

وأية أغلال وأية سدود وأية أوزار وأية أثقال إن لم تكن هي الأنظار والتأملات  
التي يشترط عليك (النظريون) خوضها من خلال ركाम فلسفات سقراط  
وأفلاطون وأرسطو والفارابي وابن سينا وابن رشد والقاضي عبد الجبار والعلامة  
عضد الدين؟ تلك التي خضعنا لسلطانها زمنا طويلا؟ وما نزال؟

إن طبيعة العقل النظري وجدليته وسجن الذاتية الذي هو واقع فيه ناشئة  
بالضرورة عن محدوديته

إنها محدودية العقل البشري المستقل، وهذا الأصل يستخلص بدهيا من طبيعة  
العقل البشري من حيث كونه بشريا أى محدودا بحدود البشر في قواهم المختلفة  
بالضرورة .

كما يستخلص من نقد العقل الخالص في الفلسفة القديمة والإسلامية والحديثة .  
كما يستخلص بدهيا من العقيدة الإسلامية بالنظر إلى اعتمادها على الوحي، ومن  
تفرد الرسول في مخاطبته للعقل بالنسبة للفيلسوف .

كذلك فإنه يستخلص من رواد الفكر الإسلامي نفسه  
والحد الذي يقف عنده العقل البشري هنا هو الحد الذي يضمن له التواضع  
ويتطلب منه انتظار الهداية، ويسلك طريق المنطق العملي .

يقول الإمام الشاطبي (إن الله جعل للعقول في إدراكها حدا تنتهي إليه ولا  
تتعداه، ولم يجعل لها سبيلا إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت

مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان وما لا يكون، وقد دخل فى هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلا، وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا .

فالشيء الواحد من جملة الأشياء يعلمه البارى تعالى على التمام والكمال، بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحواله .

بخلاف العبد فإن علمه بذلك الشيء قاصر ناقص<sup>(١)</sup>

وكان المتكلمون وما يزالون يستندون إلى العقل النظرى وهو ما عرفوه بأنه: (قوة النفس باعتبار تأثيرها عما فوقها من المبادئ للاستكمال بالعلوم والإدراكات)<sup>(٢)</sup>

ولكنهم مع ذلك كانوا يرون أنه فى الحكمة النظرية (التي هى كمال القوة النظرية بمعرفة أعيان الموجودات وأحوالها وأحكامها كما هى، أى على الوجه الذى هى عليه، وفى نفس الأمر ٠٠٠) لابد من قيد هو (بقدر الطاقة البشرية)<sup>(٣)</sup>

ومعنى هذا أنهم يقررون ضمنا أن القدرة البشرية عاجزة عن تحصيل الحكمة النظرية على الوجه المذكور، أى عاجزة عن تحصيل اليقين المطلق، لأن اليقين لا يكون بغير هذه الحكمة سواء كان ذلك فى المسائل التى يتعرض لها العقل البشرى فى مجموعها أو فى مسألة واحدة .

ومن المعروف أن اختبار صلاحية العقل للنظر فى الحكمة النظرية عملية موكولة للعقل البشرى نفسه حيث يكون هو الحاكم والمحكوم، وهذا يدل على بطلان هذا الاختبار منذ الخطوة الأولى .

ولا يكتسب هذا العقل شرعيته إلا بالاستناد على أساس سابق عليه، يؤخذ مأخذا تسليميا بحكم الضرورة العملية وبشروطها الخاصة، - التى ذكرناها سابقا - وهذا يسلمنا إلى اعتماد المنهج العلمى فى طرح الموضوعات العقدية وهو منهج

(١) الاعتصام للإمام الشاطبى ج ٣ ص ٢١٦

(٢) أنظر شرح المقاصد للإمام التفتازانى ج ٢ ص ٤٢-٤٤

(٣) أنظر شرح المقاصد للإمام التفتازانى ج ١ ص ٤٥

يعتمد على ما سباه المتكلمون فيها بعد العقل العملى وهو (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات و تمييز المصالح من المفاسد لانتظام أمر المعاش والمعاد)<sup>(١)</sup>

والحد الذى يتوقف عنده العقل البشرى ولا يتخطاه هو التورط فى الموضوعات النظرية البحتة التى لا يترتب عليها عمل .

وهنا يأتى موضوع الآخرة - المعاد - فى صميم اختصاص العقل العملى .

وإذا كان من المتفق عليه إنسانيا أن المسائل العملية فى حياة الإنسان لا يجوز أن تطرح على مائدة العقل النظرى لما يؤدى إليه ذلك من تعطيل ودمار وخطر شديد على حياة الإنسان: كمسائل الحكم والسياسة والحرب والسلام والقضاء والأخلاق والعلاقات الاجتماعية والشخصية، فإن العقيدة الدينية أولى بأن تستنقذ من برائن هذا العقل، لما يترتب على ذلك من خطر أشد، وهى أولى بأن يعاد طرحها على مائدة العمليات فى دائرة اختصاص العقل العملى، إذ يقدم الدين نفسه - من خلال الإنذار بالآخرة - على أنه تخيير ملزم ضرورى، ولا يمكننا أن نتخلص من مشكلة الاختيار ببقاءنا فى حالة شك وتردد مرتقبين اليوم الذى تأتى فيه أدلة أكثر وضوحا وأقوى يقينا، فليس الشك فى هذه الحالة تجنبنا للاختيار ولكنه اختيار للجهة الأخرى عن غير وعى، وذلك بحكم الضرورة العملية .

وهذه هى وظيفة العقل العملى الذى يبدأ مع هذه الضرورة مستهدفا بجانب الخطر، مصطحبا معه يقين النجاة منذ الخطوة الأولى، وفقا لقول سيدنا على كرم الله وجهه لمن كان يماريه فى أمر الآخرة (إن كان الأمر كما قلتَ تخلصنا جميعا وإن كان الأمر كما قلتَ هلكتَ ونجوتُ) مرتقيا من هذا المدخل إلى سكينه الإيمان وفق مراتب: منهج التسليم، ومنهج الإنذار، بشروط المنطق العملى التى ذكرناها سابقا<sup>(٢)</sup>

---

(١) أنظر (النظر والمعارف) للقاضى عبد الجبار ص ١٤٢ - ١٦٤ - ١٨٥ - ٢٠٣، و (المحيط بالتكليف)

له ص ٢٢ - ٢٣ و (شرح المقاصد) للإمام التفتازانى ج ٢ ص ٤٥  
(٢) أنظر مزيدا من توضيح ذلك فى كتابنا (مداخل إلى العقيدة الإسلامية)

والإسلام يبدأ وفقا لاسمه من التسليم . يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ١٩ آل عمران، ويقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ ٢٢ لقمان .

### العقل النظري المسحور

إن طبيعة العقل النظري وجدليته وسجن الذاتية الذى هو واقع فيه تعجزه عن التفرقة بين الحق والباطل وهو أشبه في طبيعته بطبيعة السحر، حيث لا منطق يخرج بنا منه إلى الحقيقة إلا بضربة عملية من خارجه .

وهنا تأتى سيرة موسى عليه السلام مع فرعون بكاملها تقريرا لمأساة العقل النظري المسحور: في عجزه عن التفرقة بين الحقيقة التى تمثلها (الحية تسعى حقيقة) وبين الزيف (الحية تسعى سحرا)

وفي هذا جاءهم الحق فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ۝ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ يونس ٧٧

ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ۝ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ ۝

وما ذا يفرق بين الحق والسحر؟

إنه ضربة الفعل .

إنها كلمة الله الفاعلة ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَبُّطُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِعُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ يونس ٨١-٨٢

ثم يأتى قوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْنَهُمْ ۝ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ الشعراء ٤٥-٤٨

ومنذ هذه الواقعة التاريخية التى انتصر فيها فرعون للسحر انحرف التاريخ الإنسانى إلى مسارب العقل النظرى .

إذا ما ذا لو أن فرعون قبل رسالة العمل والفعل والحق التى جاء بها موسى عليه السلام؟

### إذن لتغير وجه التاريخ

إذن لكانت مصر قد تطهرت من أوهام الوثنية فى عهد مبكر وإذن لكانت قد تطهرت الإنسانية من أوهام العنصرية بذويان اليهود فى أمة الإيمان المصرية الكبرى ..

وإذن لما عرفت الإنسانية شيئاً يسمى اليهودية أو الصهيونية تلك فرصة أفلتت من قبضة التاريخ إذن لتغير وجه التاريخ بالاستجابة لكلمة الله الفاعلة إذن لاجتمع الحق مع القوة ولكن مصر تقاعست وتراجعت وتأخرت وأسقطت تاريخها من عهد موسى إلى عهد محمد عليهما السلام .

وبين العصرين أفرخت اليهودية وأفرزت أفرخت الصهيونية العنصرية العالمية بما اجتمع لها اليوم من ضلال الأصولية المسيحية الصهيونية العالمية .

وتكرس منذ ذلك الوقت انفصال الحق عن القوة . وضياع القوة فى مسارب الباطل وانفصال المنطق النظرى الواهم عن المنطق العملى الفاعل .

وفى هذا الطريق سار اليونان وسارت الحضارات الهيلينية والرومانية وإلى هذا انحرف ما يسمى (الفلسفة الإسلامية) التقليدية، عند الفارابى وابن سينا وابن رشد.

وماذا عن أتباع موسى عليه السلام من بنى إسرائيل؟

إنهم لم يكونوا في اتباعهم له يقفون على أرض صلبة من التوجه العملى لله تعالى وحده

إنهم تبعوه لعصبية وهمية عرقية قومية عنصرية

هكذا كانت بداية التجمع الإسرائيلى حول موسى قائمة على شفا جرف هار من ضلال . ذلك أنه كما يشير قول الله تعالى: ﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ ٨٣ يونس

هكذا كانوا متأثرين بدافع غريب يدفعهم إلى الإيمان بالله: هو العصبية العرقية: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ وخوف غريب يدفعهم إلى الخوف من غير الله ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

وهنا يعلن لهم موسى عليه السلام عن الدافع الحقيقي الذى يجب أن يتوجهوا إليه، وذلك فى قوله: ﴿يَقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامَنُ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ ٨٤ يونس.

إن أصحاب المنطق النظرى هم الذين تقول عنهم سورة يس: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومن ثم فهى تختصر لنا الطريق وترجع بنا إلى منطق الرسل:

منطق الإنذار

وهو منطق الوقائع العملية، ويبدأ معنا هذا المنطق من إعلان الخطر القادم ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَءَاثِرُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ١٢- يس

ومن هنا نقول: إن الطريق المعتمدة للوصول إلى معرفة الله ورسوله تقوم على المنطق العملى الذى يقره الإسلام .

وأن العقل الذى يعتمد على الإسلام هو ما يمكن أن نسميه "العقل العملي" الذى عرفه العلماء بأنه (قوة التصرف فى الموضوعات واستنباط الصناعات وتمييز المصالح من المفاسد لانتظام المعاش والمعاد)

إن الاعتقادات وفقاً للمنهج الإسلامى عمل أو وثيقة الارتباط بالعمل، فهى منذ اللحظة الأولى " فعل من أفعال العقل أو القلب وجزء أو شرط لأركان التصديق المنطقى " إيقاع النسبة بين المحمول والموضوع، وهى صيغة جمع لمفرد " الاعتقاد الجازم "، وهى تمثل بذرة نشوء علم الكلام الذى تمحور أساساً حول موضوع عملى هو " الأسماء والأحكام " وهى بعد ذلك تعنى " وضع الاستعداد " " اتباع الرسول " فى كل ما يأتى به، وهى تعنى وضع الاستعداد لاتخاذ سلوك معين إزاء خبر معين جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من عالم الغيب

وفى هذا السياق يقول تعالى: ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمْنِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ۖ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ۚ إِنَّ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ٤١ - ٤٥ الرحمن

وإذا كانت النار تعرف زياتها كما تعرف الذرة جزيئاتها، والخلية جيناتها، فهى تعرف من ليسوا من هؤلاء الزبائن لتجنبهم: نظاماً كونياً محتوماً .

ففى صحيح ابن حبان فى باب ذكر سؤال النار ربه أن يجير من استجار به من النار، بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله: "من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار " .

### حدث كونى

إن ما جاء عن الإنذار بالنار فى العقيدة الإسلامية يبين أننا أمام حدث محكوم بميزان الله، مما يطلق عليه الناس قوانين الطبيعة، ونصحح القول فيه لنقول " قوانين الكون الموزون بميزان الله "



إن هذا الحدث مع كونه فى النهاية يمثل عقابا للكفار والعصاة فإنه مما يخشاه الملائكة والنبىون كذلك، مما يدل على صرامة قوانين الله، ونفاذ سننه فى الكون والوجود .

أنظر إلى ما ذكرناه سابقا من أن " الخوف من النار لا ينجو منه أحد "

ثم انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣٢) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزِقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿ ٣٢ - ٢٤ البقرة .

ثم إلى قوله تعالى عما يعترى الجهادات <sup>(١)</sup> من خشية الله: ﴿ وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقَىٰ فَيُخْرَجُ مِنْهُ الْآمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ البقرة ٧٤

إن هذا الحدث الكونى يقدم لنا المنطق العملى فى هلاك العصاة والكافرين: من حيث ما نجده من أن كل ما فى الوجود يتحرك حركته أو ينبغى له أن يتحرك فى سبيل الله، ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ١١ - ١٢ فصلت، وإشكالية الإنسان أنه أراد الله تكريمه وابتلاءه معا بأن يتحرك حركته فى سبيل الله - كما هو شأن المخلوقات جميعا - إلا أنه استثناء منهم أراد له أن تكون حركته باختياره .

وفى سبيل الله بالنسبة للإنسان تعنى أن يتحرك باختياره وفق إرادة الله فى الدين والأخلاق والشريعة والاقتصاد والعبادة، والاجتماع والتربية والأسرة إلخ، وكل نشاط إنسانى - فرديا كان أو اجتماعيا، أو دوليا، يخرج عما يريده الله وعما بينه رسله هو خارج سبيل الله، ليس هذا فحسب، ولكنه اعتداء على سبيل الله، اعتداء على سبيل الله الذى ينتظم الفلك والطبيعة والحياة والحضارة جميعا <sup>(٢)</sup> .

(١) للقارئ أن يستكمل النظرة هنا بما ذكرناه فى أول الجزء الخاص بالعبادة عن الوعى الكونى فى هذا الكتاب

(٢) أنظر تفصيلا لهذا الوضع الكونى فى بحثنا عن " النظام " ضمن كتابنا بعنوان " نحو منبر عصرى " نشر دار الكتاب الجامعى بالقاهرة نشر عام ٢٠٠١

ومن هنا فإن المخالفين يجدون أنفسهم في خلاف لا مع خالقهم فحسب، ولكن مع المخلوقات جميعا: مع الكون، مع الطبيعة، مع قوانين الله في الطبيعة، مع قوانين الكون المخلوق الموزون المحكوم: دنيا وأخرى، ولا منجاة لهم من سحق الكون لهم بالنار، إنها قوانين وسنن كقوانين التنفس وقوانين الجاذبية، أو أدق منها جميعا.

ومن هنا فإننا نرى النار تسعى إلى هؤلاء العصاة المخالفين، وتطلبهم طلبا طبيعيا، كما أنهم يتحركون نحوها حركة طبيعية كذلك، إن جهنم خلقت لتستقبلهم هناك في آخر طريق الانحراف، إنهم مطرودون من الكون وليس لهم مكان فيه غير النار، وذلك بعد أن أخذوا فرصة الهداية، والتوبة في هذه الدنيا فضيعوها.

إن هؤلاء المخالفين يجدون أنفسهم في صدام مع جميع المخلوقات، ويأتى الملائكة على رأس مخلوقات الله الذين يتصادمون معهم: يقول تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۖ ﴾ ١٧- ١٨ العلق، ويقول تعالى عن خزنة جهنم ﴿ عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ٦ التحريم، ﴿ وَتَادُوا بِمَمْلِكٍ لِّيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴾ ٧٧ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿ ٧٧- ٧٨ الزخرف

النار هناك تنتظرهم، فهم وقودها: ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ التحريم ٦ ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الِّمَصِيرُ ﴾ إذا أَلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ٦- ٨ الملك .

والنار تنتظرهم هنالك بكمالية: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿ ١١- ١٢ الفرقان ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ الكهف ٢٩ ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ التوبة ٤٩

وفي مجمع الزوائد للهيثمي بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله: أنه قال لجبريل: مالى لا أرى ميكائيل ضاحكا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت

النار. رواه أحمد من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهي ضعيفة وبقيّة رجاله ثقات

والنار تنتظرهم هناك بشراة: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ ١٤ الليل  
وهي تستقبلهم بطول انتظار وترقب وشرة: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ  
وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ق ٣٠

ويشرح ذلك ما جاء في التخويف من النار لابن رجب: خرج ابن أبي حاتم [ابن  
حبان] من حديث خالد بن دريك عن رجل من الصحابة قال: قال رسول الله صلى  
الله عليه وآله وسلم: من تقول على ما لم أقل فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا، قيل يا  
رسول الله وهل لها عينا؟ قال: نعم أو لم تسمع قول الله عز وجل: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ  
مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ الفرقان ١٢.

وفيه أنه روى أبو يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:  
"إن العبد ليجر إلى النار، فتشهو إليه شهقة البغلة إلى الشفير، ثم تزفر زفرة لا يبقى  
أحد إلا خاف". أخرجه ابن أبي حاتم

وفيه أنه خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث الأعمش عن أبي صالح عن  
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يخرج يوم القيامة عنق من  
النار، لها عينا تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق، تقول: إني وكلت بثلاثة:  
بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إله آخر، وبالمصورين" وصححه الترمذي،  
وقد قيل إنه ليس بمحفوظ بهذا الاسناد وإنما يرويه الأعمش عن عطية عن أبي  
سعيد، فقد روى الأعمش وغير واحد عن عطية عن أبي سعيد عن النبي صلى الله  
عليه وآله وسلم قال: "يخرج عنق من النار يتكلم، يقول وكلت اليوم بثلاثة، بكل  
جبار عنيد، ومن جعل مع الله إله آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس، فتنطوى عليهم،  
فتقدفهم في غمرات جهنم". أخرجه الإمام أحمد .

وأخرجه البزار ولفظه "يخرج عنق من النار يتكلم، بلسان طلق ذلق، لها عينا  
تبصر بهما، ولها لسان تتكلم به، فتقول: إني أمرت بمن جعل مع الله إله آخر، وبكل

جبار عنيد، وبكل من قتل نفسا بغير نفس، فتنطلق بهم قبل سائر الناس بخمسمائة عام، وقد روى عن عطية عن أبي سعيد موقفاً .

وروى ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن القاسم عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يخرج عتق من النار، فتنطوى عليهم، وتتغيط عليهم، ويقول ذلك العتق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد، فتنطوى عليهم، فتطرحهم في غمرات جهنم. خرجه الامام أحمد

وهي تنتظرهم عالمة بزبائنهم الطبيعيين: ففي مسند أبي يعلى الموصلي التميمي بسنده عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله يقول: إذا جمع الله الناس في صعيد واحد يوم القيامة أقبلت النار يركب بعضها بعضاً، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزة ربي ليخلين بيني وبين أزواجي، أو لأغشين الناس عنقا واحداً، فيقولون: ومن أزواجك؟ فتقول: كل متكبر جبار، فتخرج لسانها فتلتقطهم به من بين ظهرائي الناس، فتقذفهم في جوفها، ثم تستأخر، ثم تقبل يركب بعضها بعضاً، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزة ربي ليخلين بيني وبين أزواجي، أو لأغشين الناس عنقا واحداً، فيقولون ومن أزواجك؟ فتقول: كل جبار كفور، فتلتقطهم بلسانها من بين ظهرائي الناس، فتقذفهم في جوفها، ثم تستأخر، ثم تقبل، فيركب بعضها بعضاً، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزة ربي ليخلين بيني وبين أزواجي، أو لأغشين الناس عنقا واحداً فيقولون: من أزواجك؟ فتقول كل مختال فخور، فتلتقطهم بلسانها من بين ظهرائي الناس، فتقذفهم في جوفها ثم تستأخر ويقضي الله بين العباد .

### وجهان لقوانين الله في الكون:

إنه إذا كانت النار واقعة كونية عظيمة من خلق الله ..

وكان يوم القيامة حدثاً هائلاً من حوادث خلق الله ..

فإنه من الأحداث التي يكون لها وجهان أو أكثر .

وجه من حيث هو نتيجة لقوانين كونية وضعها الخالق لهذا الكون المنظم (والسماء رفعها ووضع الميزان) .

وجه من حيث هو ثواب وعقاب لمن استجاب لمقتضيات هذا الميزان بعد أن أحيط علما .. ﴿ أَلَا تَطْفَعُوا فِي الْمِيزَانِ ﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿ ٨-٩ الرحمن

### وجه الحدث ووجه الجزاء

تماما كما لو قيل لقائد سيارة مثلا: إذا سرت بدون ماء في الرادياتير احترقت سيارتك، ولحق الأذى بك وبمن حولك، فإذا به يتصرف كأن لم يسمع هذا التقرير، فاحترقت سيارته .. ولحق الأذى به وبمن حوله .

تلك حقيقة أوردناها من خلال كونها حقيقة طبيعية فيزيائية كونية ..

ونفس هذا الحدث يمكن أن نقدمه بصورة أخرى مشمولة بالإنذار والوعيد .. إذا قيل لصاحب السيارة: حذار من أن تسير بسيارتك بغير ماء في الرادياتير، وإلا كان جزاؤك على هذه المخالفة أن تحترق .. فإذا به يتصرف كأن لم يسمع هذا الإنذار فاحترقت سيارته واحترق بها .. فتلك حقيقة أوردناها من حيث هي حقيقة أخلاقية جزائية .

### وهكذا جاء الإنذار بالنار .

قدمه لنا القرآن الكريم من حيث هو حقيقة كونية تندرج تحت النظام الكوني، والسنن الإلهية، وسبيل الله الموزون، يوم يحدث التوازن: لا عن طريق الاختلاط بين الأضداد كما هو الشأن في هذه الحياة الدنيا، ولكن عن طريق الفرز التام ؛ يقول تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴾ ٣٧ الأنفال، ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِيثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴿ ١٧٨-١٧٩ آل عمران .

أخبرنا بها كما يحدث الإخبار دائما بحقائق المستقبل .

ثم أنذرنا بها كما يحصل التحذير دائما من تجاهل حقائق هذا المستقبل .

يقول تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ٦ التحريم

ويقول تعالى: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ٧١ مريم

ولذلك تكون النجاة لمن لجأ منذ البداية إلى صانع هذا الحدث، وصانع النجاة منه، إذ يقول تعالى بعد ما تقدم: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ ٧٢ مريم

ومن هنا جاء ذكر الصراط ﴿فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ﴾ ٦٦ يس

### الصراط:

وهو جسر منصوب على متن جهنم يمر الناس منه على قدر أعمالهم

ففى صحيح البخارى بسنده عن الزمهرى فى حديث طويل عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يضرب الصراط بين ظهراى جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأتمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفى جهنم كالليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان، قالوا: نعم، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو).

وفى صحيح ابن حبان بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك، وكلايب، وخطاطيف، تخطف الناس يمينا وشمالا، وبجنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلم سلم، فمن الناس من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الفرس ..، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشى مشيا، ومنهم من يحبو حبوا ومنهم، من يزحف زحفا " . صححه ابن حبان وقال الشيخ شعيب الأرناؤط: إسناده صحيح على شرط مسلم

## منطقية سقوط الكافر في النار:

قد يحلو للبعض أن يتساءل: ما العلاقة النسبية بين ما فعله الكافر في الدنيا وبين سقوطه في النار في الآخرة؟

الجواب على ذلك بكل بساطة البديهية، أوحجية المنطق: إنه كما يقول عنه القرآن الكريم: ﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشَقَى ۖ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ١٦ الليل، ويقول تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ٤٨ طه .

**ومن ثم كان التارك المتروك .**

ترك الله صانع النجاة وحده، فانطبق عليه قانون الوجود الإلهي، هذا الوجود الموزون: أى ترك الله فكان بهذا الترك متروكا من الله لزوما .

وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ص ٢٦ ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ التوبة ٦٧، أى تركوا الله فصنعوا بهذا الترك أن كانوا متروكين، فالتاركية تضمنت المتروكية لزوما، فكان المتروكية ليست فعلا زائدا على التاركية .

فخلاصة المنطق في قضية الكافر مع النار أنه المتروك، التارك المتروك، المتروك لعدوه الطبيعي الذى تم تحذيره منه: النار ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ نَفَىٰ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ آخر الفرقان .

وفي هذه النقطة بالذات يظهر الفرق جليا بين حالة المؤمن العاصي الذى يتقاضى عذابه ثم تحتم حاله بالجنة، وحالة الكافر الذى لا يشم ريحها مهما فعل في الدنيا مما نتوهمه حسنات .

ذلك: أن مرتكب الكبيرة بمقتضى إسلامه لاجئ إلى الله طالب للنجاة ممن يملكها، سائر في الطريق التى تُسَلِّكه إليها، فهو مهما يرتكب (متحرك داخل الطريق ..) تذهب الحركة المنحرفة به هنا أو هناك، ولكنه على كل الأحوال " داخل الطريق المؤدية " .

أما الكافر فقد رفض اللجوء إلى الله مبدئياً، وأعطى ظهره للطريق المؤدية، ولم

يطلب النجاة، أو طلبها من لا يملكها، فهو مهما يفعل مما ينفعه أو ينفع الناس، متحرك خارج الطريق، قد يحقق نفعاً هنا أو نفعاً هناك، لكنه على كل الأحوال (خارج الطريق). فكيف يحصل على النجاة من كارثة النار، وهو لم يطلبها، أو لم يطلبها من يملكها؟ (قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم) أى لولا توجهكم إليه، والكافر لم يتوجه إليه، فكيف يحصل على مطلب (النجاة) الذى لم يطلبه أصلاً؛ إذ طلبه لا يتصور إن لم يكن من يملكه؟

إن حادث النار يوم القيامة حادث كونى عام، كما قلنا من قبل - يتعرض له البشر وغيرهم، ﴿لَا تُتَّقَى وَلَا تَذَرُ﴾ ١٠٠ ﴿لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ والله سبحانه وتعالى حذرنا من هذا الحادث، أنذرنا به، وأرشدنا إلى (متجه) النجاة منه، وهو متجه إسلام النفس لله، والكافر أعرض عن هذا المتجه، وولى وجهه عنه ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

والأمر هنا أشبه بما كان فى حادث الفيضان، أنذر نوح عليه الصلاة والسلام الناس به، فمن ركب السفينة كان له النجاة، ومن تولى عنها كيف ينجو من الطوفان؟ إنه خرج بكليته من البقعة الوحيدة التى لا يغرقها الطوفان، خرج بكليته وبإرادته، وغامر بلقاء الطوفان، فلما فاجأه الطوفان، كان الطريق مقطوعاً بينه وبين السفينة واتجه إلى ما كان يظنه بقعة من اليابس خارج السفينة، ولم يدر أن البقعة من اليابس مهما ارتفعت فوق الجبل (الجودي) لا نجاة فيها، لأنها لا تقاوم الطوفان ولا تقلت منه، النجاة الوحيدة فى السفينة.

والطوفان فى الآخرة هو النار، والسفينة هى الإيمان، فكيف لمن ولى عن السفينة أن يطلب النجاة من الطوفان، إنه هالك لا محالة بتولييه، هالك لا محالة بفعله.

أما مرتكب الكبيرة فهو أشبه براكب السفينة الذى يرتكب المخالفات وهو على ظهرها، إنه يؤذّب، إنه يجزى على معصيته، إنه يذوق من النار المحيطة بالسفينة، فإذا هو بعد ذلك لم يتغير موقعه الذى اختاره، ولم يخرج من سفينته التى لجأ إليها، وهذا هو انتهاء عقابه واستئناف مقامه المكفول له بالإيمان، مقام الفوز بالجنة، والنجاة من النار.



## الإنذار رحمة

إن الإنذار نابع من صفة الرحمة الإلهية ففى صحيح البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، أنه سمع رسول الله يقول: "إنما مثلى ومثل الناس كمثلى رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها "

وهذا لأن خوف العقاب ليس مقصودا لذاته إنما هو سوط يساق به المتوانى عن الطاعة، ومن هنا كانت النار من جملة نعم الله على عباده الذين خافوه واتقوه، ولهذا المعنى عدها الله سبحانه من جملة آلائه على الثقلين فى قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ٤٣ - ٤٧ الرحمن .

وقال سفيان بن عيينة خلق الله النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا أخرجه أبو نعيم

### مراتب الخوف وأحكامه:

من الخوف ما هو واجب، ومنه ما هو مستحب أو محمود، ومنه ما هو مكروه أو غير مستحب: فالقدر الواجب من الخوف هو ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم .

فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير فى نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والبعد عن التبسط فى فضول المباحات كان ذلك خوفا محمودا .

فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا، أو هما لازما بحيث يقطع عن السعى فى اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل لم يكن محمودا .

ولهذا كان السلف يخافون على عطاء السلمى من شدة خوفه الذى أنساه القرآن،

وصار صاحب فراش، وهذا لأن خوف العقاب ليس مقصودا لذاته، إنها هو سوط يساق به المتوانى عن الطاعة، والمقصود الأسمى هو طاعة الله عز وجل وفعل مرضيه ومحوباته وترك مناهيه ومكروهاته .

ولا يصح أن ينكر أحد أن خشية الله وهيبته وعظمته في الصدور وإجلاله مقصود أيضا، ولكن القدر النافع من ذلك ما كان عوناً على التقرب إلى الله بفعل ما يحبه وترك ما يكرهه، ومتى صار الخوف مانعاً من ذلك وقاطعاً عنه فقد انعكس المقصود منه، ولكن إذا حصل ذلك عن غلبة كان صاحبه معذوراً .

### **العبد بين الخوف والرجاء والمحبة:**

ومع ذلك فإنه لا بد في حركة المسلم نحو ربه من التفاعل بين الخوف من سخطه من ناحية، والرجاء في مرضاته من ناحية أخرى .

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي: (فضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله والاعتزاز بالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل .

ثم إن الخلق في هذا الزمان كلهم الأفضل لهم الخوف، بشرط ألا يخرجهم اليأس إلى ترك العمل، وقطع الطمع من المغفرة، فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل، وداعياً إلى الانهك في المعاصي وليس بخوف، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل، ويكدر الشهوات، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا، ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور، فهذا هو الخوف المحمود: فوق حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث، ودون اليأس الموجب للقنوط) اهـ إحياء علوم الدين

وقال الإمام ابن حجر في فتح الباري في شرحه لصحيح البخاري: ("قوله باب الرجاء مع الخوف" أي استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء، لثلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكل منهما مذموم، والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله،

ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيا عدم المؤاخذه بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور

وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصى وترجو أن تنجو .

وقد أخرج ابن ماجه من طريق عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن أبيه عن عائشة قلت: يا رسول الله " الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله " أهو الذى يسرق ويزنى؟ قال: " لا، ولكنه الذى يصوم ويتصدق ويصلى ويخاف أن لا يقبله منه " . وهذا كله متفق على استحبابه فى حالة الصحة .

وقيل: الأولى أن يكون الخوف فى الصحة أكثر، وفى المرض عكسه، وأما عند الإشراف على الموت فاستحب قوم الاقتصار على الرجاء، لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذر، فيتعين حسن الظن بالله، برجاء عفوه ومغفرته، ويؤيده حديث " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله " رواه مسلم فى صحيحه .

وقال آخرون: لا يهمل جانب الخوف أصلا، بحيث يجزم بأنه آمن، ويؤيده ما أخرج الترمذى عن أنس: أن النبى صلى الله عليه وسلم: دخل على شاب وهو فى الموت فقال له كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله، وأخاف ذنوبى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الوطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف " .

ويقول الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلى فى كتابه "التخويف من النار (: فأما ما يذكر عن بعض العارفين من عدم خشية النار فالصحيح منه له وجه، قال ابن المبارك أنبأنى عمر بن عبد الرحمن بن مهدي سمعت وهب بن منبه يقول:

قال حكيم من الحكماء: إني لأستحيى من الله عز وجل أن أعبد رجاء ثواب الجنة - أى فقط - فأكون كالأجير السوء، إن أعطى عمل، وإن لم يعط لم يعمل .

وإنى لأستحيى من الله أن أعبدته مخافة النار - أى فقط - فأكون كعبد السوء إن رهب عمل وإن لم يرهب لم يعمل. وإنه يستخرج حبه منى ما لا يستخرجه منى غيره، خرجه أبو نعيم بهذا اللفظ .

وكان بعض السلف: يقول من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري<sup>(١)</sup>، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد مؤمن .

وسبب هذا أنه يجب على المؤمن أن يعبد الله بهذه الوجوه الثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، ولا بد له من جميعها، ومن أحل ببعضها فقد أحل بعض واجبات الإيمان .

وكلام هذا الحكيم يدل على أن الحب ينبغي أن يكون أغلب من الخوف والرجاء.

وقد قال الفضيل بن عياض: المحبة أفضل من الخوف، ثم استشهد بكلام هذا الحكيم الذى حكاه عنه وهب .

وكذا قال يحيى بن معاذ: حسبك من الخوف ما يمنع من الذنوب، ولا حسب من الحب أبدا، فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنها يستويان، لا يرجح أحدهما على الآخر، قاله مطرف والحسن وأحمد وغيرهم، ومنهم من رجح الخوف على الرجاء، وهو يحكى عن الفضيل وأبى سليمان الداراني .

ومن هذا أيضا قول حذيفة المرعشى: إن عبدا يعمل على خوف لعبد سوء، وإن عبدا يعمل على رجاء لعبد سوء، كلاهما عندى سواء، ومراده إذا عمل على إفراد أحدهما عن الآخر .

وقال وهيب بن الورد: لا تكونوا كالعامل يقال: له تعمل كذا وكذا فيقول: نعم إن أحسنتم لى من الأجر، ومراده ذم من لا يلحظ فى العمل إلا الأجر

---

(١) المرجئ من يعتقد أنه لا يضر مع الإيمان معصية، والحرورى يعتقد أن مرتكب الكبيرة كافر بخلد فى النار .

## وهؤلاء العارفون لهم ملحظان:

أحدهما: أن الله تعالى يستحق لذاته أن يطاع، ويجب، ويتغى قربه والوسيلة إليه، مع قطع النظر عن كونه يشيب عباده ويعاقبهم كما قال القائل:

هب البعث لم تأتأ رسله \* وجاحمة النار لم تضرم

أليس من الواجب المستحق \* حياء العباد من المنعم

وقد أشار هذا إلى أن نعمه على عباده تستوجب منهم شكره عليها، وحياءهم منه.

وهذا هو الذى أشار إليه النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا

والملاحظ الثانى: أن أكمل الخوف والرجاء ما تعلق بذات الحق سبحانه، دون ما تعلق بالمخلوقات فى الجنة والنار، فأعلى الخوف خوف البعد والسخط والحجاب عنه سبحانه، كما قدم سبحانه ذكر هذا العقاب لأعدائه على صليهم النار فى قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُولُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿المطففين ١٥ - ١٦﴾

وقال ذو النون: خوف النار عند خوف الفراق كقطرة فى بحر لجى، كما أن أعلى الرجاء ما تعلق بذاته سبحانه، من رضاه ورؤيته ومشاهدته وقربه، ولكن قد يغلط بعض الناس فى هذا، فيظن أن هذا كله ليس بداخل فى نعيم الجنة، ولا فى مسمى الجنة إذا أطلقت، ولا فى مسمى عذاب النار، أو فى مسمى النار إذا أطلقت وليس كذلك.

وبقى ها هنا أمر آخر: وهو أن يقال: ما أعدده الله فى جهنم من أنواع العذاب المتعلق بالأمور المخلوقة لا يخافها العارفون، كما أن ما أعدده الله فى الجنة من أنواع النعيم المتعلق بالأمور المخلوقة لا يحبها العارفون ولا يطلبونه، وهذا أيضا غلط، والنصوص الدالة على خلافه كثيرة جدا ظاهرة، وهو أيضا مناقض لما جبل الله عليه

الخلق من محبة ما يلائمهم وكرهه ما ينافرهم، وإنما صدر مثل هذا الكلام ممن صدر منه في حال سكره واصطلامه واستغراقه وغيبه عقله، فظن أن العبد لا يبقى له إرادة أصلا، فإذا رجع إليه عقله وفهمه علم أن الأمر على خلاف ذلك .

ونحن نضرب لذلك مثلا يتضح به هذا الأمر إن شاء الله تعالى: وهو أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة واستدعاهم الرب سبحانه إلى زيارته ومشاهدته ومحضرته يوم المزيد فإنهم ينسون عند ذلك كل نعيم عاينوه في الجنة قبل ذلك، ولا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من نعيم الجنة حتى يحتجب عنهم سبحانه، ويحرقون كل نعيم في الجنة حين ينظرون إلى وجهه جل جلاله، وكما جاء في أحاديث يوم المزيد فلو أنهم ذكروا حينئذ بشيء من نعيم الجنة لأعرضوا عنه، ولأخبروا أنهم لا يريدون في تلك الحال، وكذلك لو خوفوا عذابا ونحوه لم يلتفتوا إليه، وربما لم يستشعروا ألمه في تلك الحال، وإنما يحذرون حينئذ من الحجاب عما هم فيه والبعد عنه، فإذا رجعوا إلى منازلهم رجعوا إلى ما كانوا عليه من التنعم بأنواع النعيم المخلوق لهم، بل يزداد نعيمهم بذلك مع شدة شوقهم إلى يوم المزيد ثانيا .

فهكذا حال العارفين الصادقين في الدنيا إذا تجلى على قلوبهم أنوار الإحسان، واستولى عليها المثل الأعلى، فإن هذا من شواهد ما يحصل لهم في الجنة يوم المزيد، فهم لا يلتفتون في تلك الحال إلى غير ما هم فيه من الأنس بالله، والتنعم بقربه وذكره ومحبته، حتى ينسوا ذكر نعيم الجنة، ويصغر عندهم بالنسبة إلى ما هم فيه، ولا يخافون حينئذ أيضا غير حجبهم عن الله، وبعدهم عنه، وانقطاع مواد الأنس به، فإذا رجعوا إلى عقولهم وسكنت عنهم سلطنة هذا الحال وقهره وجدوا أنفسهم وإرادتهم باقية، فيشتاقون حينئذ إلى الجنة، ويخافون من النار، مع ملاحظتهم لأعلى ما يشاق إليه من الجنة ويخشى منه من النار .

وأیضا فالعارفون قد يلاحظون من النار أنها ناشئة عن صفة انتقام الله وبطشه وغضبه، والأثر يدل على المؤثر، فجهم دليل على عظمة الله وشدة بأسه وبطشه وقوة سطوته وانتقامه في أعدائه، فالخوف منها في الحقيقة خوف من الله وإجلال

وإعظام وخشية لصفاته المخوفة، مع أن الله سبحانه يخوف بها عباده، ويجب منهم أن يخافوه بخوفها وأن يخشوه بخشية الوقوع فيها، وأن يحذروه بالخطر منها، فالخائف من النار خائف من الله، متبع لما فيه محبته ورضاه، والله أعلم). اهـ.

ومن هنا صح لنا أن نقول: إن النجاة إنما هي على وتر محسوب في صلة ما بين الخوف والرجاء والمحبة .

### التبشير بالنجاة والفوز بالجنة

#### إن الأمل في النجاة من النار قريب:

وفي رواية للبيهقي في الأربعين الصغرى بسنده عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك"، رواه البخاري في الصحيح عن أبي حذيفة عن سفيان

وأسابب النجاة تبدو سهلة المنال: إذا افترضنا إخلاص العبادة والتوبة من الذنوب، وهو افتراض يفرضه لزوم الاتساق مع قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن أبي أيوب أنه قال "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لولا أنكم تذنّبون لخلق الله خلقا يذنّبون فيغفر الله لهم" وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لله أشد فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها" وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجة في سننه بسنده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم"، وبسنده عن أبي عبيدة بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله "التائب من الذنب كمن لا ذنب له"

عندئذ تتوافد نسائم الرحمة وجاذبات النجاة من أقرب درب، وأيسر سبب، وأسهل طريق .

ومن دروب الرحمة تلك .. الاستعاذة بالله من النار:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝۱۵۱ ﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝۱۵۰-۱۶ آل عمران.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِيْلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝۱۵۱ ﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝۱۵۲ ﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيْمٰنِ أَنْ ءَامِنُوْا بِرَبِّكُمْ فَقَامْنَا رَبَّنَا فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآٰتِرِ ۝۱۵۳ ﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝۱۵۴ ﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ۝ آل عمران ۱۹۱- ۱۹۵

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذكر الملائكة الذين يلتمسون مجالس الذكر وفيه: إن الله عز وجل يسألهم، وهو أعلم بهم، فيقول مم يتعوذون؟ فيقولون: من النار، فيقول: وهل رأوها؟ قالوا: لا والله ما رأوها، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد منها مخافة، قال: فيقول إني أشهدكم أني قد غفرت لهم .

وخرج الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثاً إلا قالت الجنة " اللهم أدخله الجنة "، ومن استجار من النار ثلاثاً قالت النار: " اللهم أجره من النار " .

وخرج البزار وأبو يعلى الموصلى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: يا رب إن عبدك فلانا استجار منى فأجره، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلانا سألنى فأدخله الجنة .



## إنه أثر إخلاص العبودية والتوبة .

ومن دروبها: دموع الندم والأشواق

ففى كتاب التخويف من النار لابن رجب فى الباب الرابع فى "أن البكاء من خشية النار ينجى منها، وأن التعوذ بالله من النار يوجب الإعاذة منها": أنه قد تكاثرت النصوص فى أن البكاء من خشية الله يقتضى النجاة منها، والبكاء خوفا من نار جهنم هو البكاء من خشية الله، لأنه بكاء من خشية عقاب الله، وسخطه، والبعد عنه، وعن رحمته، وجواره ودار كرامته:

فقد روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع) أخرجه النسائى والترمذى وقال صحيح .

وعن ابن عباس قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: عينان لا تمسهما النار: عين بكت فى جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله عز وجل) أخرجه الترمذى وقال حسن .

وعن أبى ربحانة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "حرمت النار على عين دمعت أو بكت فى جوف الليل من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله" وذكر عينا ثالثة، أخرجه الإمام أحمد وهذا لفظه، والنسائى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه الجوزجاني ولفظه: "حرمت النار على عين سهرت بكتاب الله، وحرمت النار على عين دمعت من خشية الله، وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله، أو فقتت فى سبيل الله ."

وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع ولو كانت مثل رأس الذباب من خشية الله ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار"، أخرجه ابن ماجه، وقد روى موقوفا على من دون ابن مسعود، وفى الباب أحاديث أخر فى المعنى مسندة ومرسلة

وفيه أنه كان عبد الواحد بن زيد يقول: يا إخوانه ألا تبكون شوقاً إلى الله عز وجل؟ ألا إنه من بكى شوقاً إلى سيده لم يحرمه النظر إليه. يا إخوانه ألا تبكون خوفاً من النار؟ ألا إنه من بكى خوفاً من النار أعاده الله منها .

وفيه عن فرقد السبخي: قال قرأت في بعض الكتب أن الباكي على الجنة لشفع له الجنة إلى ربها، فتقول: يا رب أدخله الجنة كما بكى على، وإن النار لتستجير له من ربها، فتقول: يا رب أجره من النار كما استجار مني وبكى خوفاً من دخولي.

**إنه أثر إخلاص العبودية والتوبة .**

**ومن درويها: شفاعة الولدان:**

ففي مجمع الزوائد للهيثمي عن محمد بن سيرين قال: حدثتنا امرأة كانت تأتين، يقال لها ماوية، كانت ترزأ في ولدها، فأنت عبيد الله بن معمر القرشي ومعه رجل من أصحاب النبي، فحدث ذلك الرجل: أن امرأة أتت النبي بابتن لها، فقالت يا رسول الله: ادع الله تبارك وتعالى أن يبقيه لي، فقد مات لي قبله ثلاثة، فقال: أمتد أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: أمتد أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: أمتد أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: جنة حصينة. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح خلا ماوية شيخة ابن سيرين .

وعن امرأة يقال لها رجا قالت: كنت عند النبي إذ جاءته امرأة بابتن لها، فقالت: يا رسول الله ادع الله لي فيه بالبركة، فإنه قد توفي لي ثلاثة، فقال رسول الله: أمتد أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله: جنة حصينة رواه أحمد، والطبراني في الكبير إلا أنه سماها رجما ورجاله رجال الصحيح

وعن حبيبة أنها كانت عند عائشة رضى الله عنها فجاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخل عليها، فقال: ما من مسلمين يموت بينهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا جئ بهم يوم القيامة حتى يوقفوا على باب الجنة، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فيقولون: حتى يدخل آبائنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وآباؤكم، رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، خلا يزيد بن أبي بكرة ولم أجد من ترجمه، وأعاده بإسناد آخر ورجال ثقات وليس فيه يزيد بن أبي بكرة والله أعلم

وعن زهير بن علقمة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله قد مات لي ابنان منذ دخلت في الإسلام سوى هذا، فقال النبي لقد احتظرت من النار بحظار شديد. رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

### وفيمن مات له ولدان أو ولد:

فيما رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: بسنده عن الحارث بن قيس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من مسلمين يموت لهما أربعة أولاد إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته، قالوا: يا رسول الله وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قالوا واثنان؟ قال: واثنان، رواه عبد الله بن أحمد، والطبراني في الكبير، وأبو يعلى ورجاله ثقات.

وعن بريدة قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن امرأة من الأنصار مات ابن لها، فجزعت عليه، فقام النبي ومعه أصحابه فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله يريد أن يدخل يعزيها، فدخل رسول الله، فقال: أما أنه بلغني أنك جزعت على ابنك، قالت: يا نبي الله ما لي لا أجزع، وأنا رقوب لا يعيش لي ولد، فقال رسول الله: إنما الرقوب الذي يعيش ولدها، إنه لا يموت لامرأة مسلمة أو امرئ مسلم نعمة - قال أو ثلاثة - من ولده، يحتسبهم إلا وجبت له الجنة، فقال عمر وهو عن يمين النبي: بأبي أنت وأمي: واثنين؟ قال نبي الله، واثنين، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

وعن زهير ابن أبي علقمة قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله بابن لها، فقالت: يا رسول الله إنه قد مات لي ابنان سوى هذا، فقال رسول الله: لقد احتظرت من دون النار بحظار شديد، رواه البزار ورجاله ثقات.

وعن أبي ثعلبة الخشني قال: توفي لي ولدان، فقلت: يا رسول الله توفي لي ولدان، فقال رسول الله: "من مات له ولدان أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم"، رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح

و فيمن مات له ولد واحد: عن جابر قال سمعت رسول الله يقول: من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة، قال: قلنا: يا رسول الله واثنان؟ قال: واثنان، قال محمود فقلت لجابر أراكم لو قلتم واحدا لقال واحدا؟ قال: وأنا والله أظن ذاك رواه أحمد ورجاله ثقات

وعن قرّة بن إياس أن رجلا كان يأتي النبي ومعه ابن له، فقال له النبي أتجبه؟ قال: نعم يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه، ففقده النبي فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي لأبيه: ألا تحب أن لا تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ فقال رجل يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا؟ قال: بل لكلكم، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

وعن بعض أصحاب النبي أنه سمع النبي يقول: إنه يقال للولدان يوم القيامة: أدخلوا الجنة، فيقولون: يا رب حتى تدخل آبائنا وأمهاتنا؟ قال: فيأبون، قال: فيقول الله عز وجل: مالي أراهم محبطين؟ أدخلوا الجنة، قال: فيقولون: يارب آبائنا؟ فيقول: أدخلوا الجنة أنتم وأباؤكم، رواه أحمد ورجاله ثقات .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تعدون الرقوب فيكم؟ قالوا: الذي لا ولد له، قال: بل الذي لا فرط له، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح<sup>(١)</sup> .

### ذلكم أثر إخلاص العبودية والتوبة .

وقد تأتي النجاة بشفاعة الشافعين المأذونين:

ففي التخويف من النار لابن رجب:

في الأحاديث الصحيحة أن الموحدین يمرون على الصراط فينجو منهم من ينجو، ويقع منهم من يقع في النار، فإذا دخل أهل الجنة فقدوا من وقع من إخوانهم الموحدین في النار، فيسألون الله عز وجل إخراجهم منها، وفي هذا روى زيد بن

(١) الولد يشمل الابن والبنات .

أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل: قال " حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذى نفسى بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استيفاء الحق.. من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار، يقولون: ربنا إنهم كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى أنصاف ساقيه، وإلى ركبتيه، فيقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول لهم: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه نصف مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجوه خلقا كثيرا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا بإخراجه أحدا فيقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا فيقولون ربنا لم نذر فيها خيرا، وكان أبو سعيد يقول: إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقروا إن شئتم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء ٤٠: يقول الإمام ابن رجب: خرجاه فى الصحيحين ولفظه لمسلم.

### وتأتى النجاة من درب التوحيد:

فيقول الله عز وجل كما جاء فى بقية الحديث السابق: "شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج بها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمما، فيلقىهم فى نهر فى أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل .. خرجاه فى الصحيحين ولفظه لمسلم

والمراد بقوله " لم يعملوا خيرا قط ": من أعمال الجوارح وإن كان أصل الإيمان معهم، وفقا لما جاء فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه فيما جاء فى صحيح البخارى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال رجل لم يعمل خيرا قط .. فإذا مات

فحرقوه، واذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت؟ قال: من خشيتك يا رب، فغفر له) ووفقا لما جاء في الحديث في صحيح البخاري بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)

ويشهد لهذا ما في حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الشفاعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أقول يا رب ائذن لي فيمن يقول لا إله إلا الله" فيقول "وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله" خرجاه في الصحيحين

وعند مسلم فيقول "ليس ذلك لك - أو ليس ذلك إليك -" وهذا يدل على أن الذين يخرجهم الله برحمته من غير شفاعة مخلوق هم أهل كلمة التوحيد، الذين لم يعملوا معها خيرا قط بجوارحهم والله أعلم

وروى أبو الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يوضع الصراط بين ظهرائي جهنم عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فنادى مسلم ومجروح به ناج، ومحتبس منكوس فيها، فإذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وتفقد المؤمنون رجالا في الدنيا كانوا يصلون بصلاتهم، ويزكون زكاتهم، ويصومون صومهم ويحجون حجهم، ويغزون غزوهم، فيقولون: أي ربنا عباد من عبادك، كانوا معنا في الدنيا يصلون بصلاتنا، ويزكون زكاتنا، ويصومون صومنا، ويحجون حجنا، ويغزون غزونا ولا نراهم، فيقول عز وجل: اذهبوا إلى النار فممن وجدتموه فيها فأخرجوه، قال: فيخرجونهم وقد أخذتهم النار على قدر أعمالهم، فمنهم من أخذته إلى قدميه، ومنهم من أخذته إلى ركبتيه، ومنهم من أخذته إلى أذنيه، ومنهم من أخذته إلى ثديه، ومنهم من أخذته إلى عنقه، ولم تغش الوجوه، قال

فيستخرجونهم، ثم يطرحون في ماء الحياة، قيل: يا نبي الله وما ماء الحياة؟ قال: غسل أهل الجنة، قال: فينبتون فيها كما تنبت الزرعة في غشاء السيل، ثم تشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مخلصا فيستخرجونهم منها، ثم يتحنن الله برحمته على من فيها فما يترك فيها عبدا في قلبه مثقال ذرة من الإيثار إلا أخرجه منها، أخرجه الحاكم، وقال صحيح الإسناد .

وخرجاه في الصحيحين من حديث مالك عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يدخل أهل الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله عز وجل: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة أو حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها، قد اسودوا، فيلقون في نهر الحياة - أو الحياة شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية، ولفظه للبخاري .

وعند مسلم " فيخرجون منها حمما قد امتحشوا " .

وفي الصحيحين أيضا عن الزهري عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال " يجمع الله الناس يوم القيامة، فذكر الحديث بطوله، وفيه ذكر جواز الناس على الصراط، ثم قال "حتى إذ فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل الكبائر من النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن دخل النار، يعرفون بأثر السجود، تأكل النار ما من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، قد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل " وذكر بقية الحديث

وخرج مسلم من حديث يزيد الفقير عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارة وجوههم حتى يدخلوا الجنة " .

وخرج أيضا من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله

وسلم قال: "أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأما هم الله إماتة، حتى إذا كانوا فحما أذن في الشفاعة، فجيء بهم ضباير ضباير، فبشوا على أنهار الجنة، ثم قيل لأهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة في حميل السيل"

قال بعض العلماء: وظاهر الحديث يدل على أن هؤلاء يموتون حقيقة، وتفارق أرواحهم أجسادهم، ويرى بعضهم أن المراد إماتة ما كما يوحى بذلك قوله صلى الله عليه وسلم (أما إماتة)، أى نوع إماتة والله اعلم .

ويدل على ذلك ما خرجه البزار من حديث عبد الله بن رجاء حدثنا سعيد ابن مسلمة أخبرنى موسى بن جبير عن أبى أمامة بن سهل عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال "إن أدنى أهل الجنة حظا - أو نصيبا - قوم يخرجهم الله من النار، فيرتاح لهم الرب تعالى إنهم كانوا لا يشركون بالله شيئا، فينبذون بالعراء، فينبتون كما تنبت البقلة، حتى إذا دخلت الأرواح أجسادها قالوا: ربنا كما أخرجتنا من النار وأرجعت الأرواح إلى أجسادها فاصرف وجوهنا عن النار فتصرف وجوههم عن النار" .

وروينا - والكلام للحافظ ابن رجب - من طريق محمد بن معاوية حدثنا حازم عن الحسن قال: أهل التوحيد في النار لا يقيدون، فتقول الخزنة بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء يقيدون وهؤلاء لا يقيدون؟ فناداهم مناد: إن هؤلاء كانوا يمشون في ظلام الليل إلى المساجد .

وقال مروان بن معاوية عن مالك بن أبى الحسن عن الحسن قال " يخرج رجل من النار بعد ألف عام " قال الحسن " ليتنى ذلك الرجل "

**ذلكم أثر الإخلاص فى العبادة، أو التوبة .**

**وتأتى النجاة من درب حسن الظن بالله .**

ففى التخويف من النار أيضا: قال أحمد بن أبى الحوارى دخلت على أبى سليمان، وهو يبكى، فقلت: ما يبكيك؟ قال: لئن طالبنى بذنوبى لأطالبنه بعفوه،



ولئن طالبني ببخلى لأطالبنه بجوده، ولئن أدخلني النار لأخبرن أهل النار أني كنت أحبه

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله تعالى، بإسناده عن علي بن بكار، أنه سئل عن حسن الظن بالله: قال أن لا يجمعك والفجار في دار واحدة .

وعن سلمان بن الحكم بن عوانة أن رجلا دعا بعرفات فقال: لا تعذبنا بالنار بعد أن أسكنت توحيدك قلوبنا، قال: ثم بكى وقال: ما أخالك تفعل بعفوك؟ ثم بكى، وقال: ولئن فعلت فبذنوبنا، لا تجمعن بيننا وبين قوم ظالمين عاديناهم فيك. وعن حكيم بن جابر قال: قال إبراهيم عليه السلام: اللهم لا تشرك من كان يشرك بك ومن كان لا يشرك بك .

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني أبو حفص الصيرفي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا تلا ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ النحل ٣٨ قال: ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليعثن الله من يموت، أترك تجمع بين القسمين في دار واحدة؟ ثم بكى أبو حفص بكاء شديدا .

وروى أبو نعيم بإسناده عن عون بن عبد الله قال: ما كان الله لينقذنا من شر ثم يعيدنا فيه ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ آل عمران ١٠٣، وما كان الله ليجمع بين أهل القسمين في النار ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ النحل ٣٨، ونحن نقسم بالله جهد إيماننا ليعثن الله من يموت

وقال محمد بن إسحاق السراج حدثنا حماد بن المؤمل الكلبي حدثني بعض أصحابنا عن ابن السكّ قال لما طلبني هارون الرشيد قال: تكلم، وادع . فدعوت بدعاء أعجبه، وقلت في دعائي: اللهم إنك قلت ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ اللهم إنا نقسم بالله جهد إيماننا لتبعثن من يموت، أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان واحد؟ وهارون يبكي

وتأتى النجاة من أفق الرحمة المطلقة لمن يتوجه إليه سبحانه .

وإنها لرحمة الخالق بها صنعت يداه من عباده الراجين

فمن حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه مما رواه الشيخان: أنه قدم على النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقى، إذ وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لنا " أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا وهى تقدر على ألا تطرحه، فقال: لله أرحم بعباده من هذه بولدها " متفق عليه .

وفى التخويف من النار بسنده عن أنس، قال: مر النبي ونفر من أصحابه وصبى فى الطريق، فلما رأت أم الصبى القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى، وتقول ابنى ابنى، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار، قال فحفظهم النبي وقال: ولا والله ما يلقى حبيبه فى النار. رواه أحمد والبخاري بنحوه وأبو يعلى ورجالهم رجال الصحيح .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: بلغنى أن رسول الله كان فى بعض مغازيه، فبينما هم يسيرون إذ أخذوا فرخ طير، فأقبل أحد أبويه حتى سقط فى أيدى الذى أخذه، فقال رسول الله: ألا تعجبون لهذا الطير أخذ فرخه فأقبل حتى سقط فى أيديهم؟ والله الله أرحم بخلقه من هذا الطير بفرخه. رواه البخاري بنحوه ورجال الصحيح إحداهما رجال الصحيح

وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يكون قوم فى النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله فيخرجهم منها، فيكونون فى أدنى الجنة فيغتسلون فى نهر يقال له الحيوان، يسميهم أهل الجنة الجهنميين، لو ضاف أحدهم أهل الجنة لعرسهم وأطعمهم وسقاهم وحفهم، ولا أظنه إلا قال ولزوجه، لا ينقصه ذلك شيئا. رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهم رجال الصحيح غير عطاء بن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آخر من

يخرج من النار رجلاً، يقول الله لأحدهما: يا ابن آدم ما أعددت لهذا اليوم؟ هل عملت خيراً قط؟ أو رجوتني؟ فيقول: لا يا رب، فيؤمر به إلى النار وهو أشد أهل النار حسرة، ويقول للآخر: هل عملت خيراً قط؟ أو رجوتني؟ فيقول: نعم يا رب، كنت أرجو إن أخرجتني أن لا تعيدني فيها، وهو آخر من يدخل الجنة. رواه أحمد، والبزار وزاد "هل خفتني" ورجاله رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو حسن الحديث

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن عبداً لينادى في النار ألف سنة: يا حنان يا منان، قال: فيقول الله لجبريل عليه السلام: اذهب فائتني بعبدي هذا فينطلق جبريل، فيجد أهل النار منكبين يبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول: اتنتى به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل، فيقول: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذا أخرجتني منها أن تعيدني فيها، فيقول: دعوا عبدي. رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير أبي ظلال وضعفه الجمهور ووثقه ابن حبان .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله: إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، رحمة منها قسمها بين الخلائق، وتسعة وتسعين إلى يوم القيامة. رواه الطبراني والبزار وإسنادهما حسن

وعن الحسن يعني البصري قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله مائة رحمة، وإنه قسم رحمة واحدة بين أهل الأرض، فوسعتهم إلى آجالهم، وادخر عنده تسعة وتسعين لأولياته يوم القيامة)

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل ذلك، رواه والذي قبله أحمد، ورجال الجميع رجال الصحيح

وعن معاوية بن حيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فرحمة بين خلقه يترامون بها وادخر لأولياته تسعة وتسعين). رواه الطبراني وفيه مخيسر بن تميم وهو مجهول وبقية رجاله ثقات

وعن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قسم ربنا رحمته مائة جزء، فأنزل منها جزءا فى الأرض، فهو الذى يترأحم به الناس والطير والبهائم، وبقيت عنده مائة رحمة إلا رحمة واحدة لعباده يوم القيامة) رواه الطبرانى وإسحق بن يحيى لم يدرك عبادة وبقيّة رجاله رجال الصحيح غير إسحق بن يحيى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو تعلمون قدر رحمة الله لا تكلمتم) أحسبه قال (عليها) رواه البزار وإسناده حسن .

فى صحيح البخارى بسنده عن الزهرى فى حديث طويل عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث طويل: (حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بأثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار، فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود، فيخرجون من النار، قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار، فيقول: يا رب اصرف وجهى عن النار، قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطى الله ما يشاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكّت ما شاء الله أن يسكّت، ثم قال: يا رب قدّمنى عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذى كنت سألت؟ فيقول: يا رب، لا أكون أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أعطيت ذلك أن لا تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسأل غير ذلك، فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكّت ما شاء الله أن يسكّت، فيقول: يا رب أدخلنى الجنة فيقول الله: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذى أعطيت؟ فيقول: يا رب لا تجعلنى أشقى خلقك، فيضحك الله عز وجل

منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول: تمن، فيتمنى، حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله عز وجل: من كذا وكذا، أقبل يذكره ربه، حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه. قال أبو سعيد الخدرى لأبى هريرة رضى الله تعالى عنهما: إن رسول الله قال: قال الله: لك ذلك وعشرة أمثاله، قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله إلا قوله لك ذلك ومثله معه، قال أبو سعيد إنى سمعته يقول ذلك لك وعشرة أمثاله .

وإذا كان الإنذار بمتعلقاته يوجه أنظار البشر إلى خطر النار ليخلصوا أنفسهم منها فإن شذرات من أوصاف الجنة تجذب إليها - من بعد - وجدان عباد الله المخلصين ليكون بها نجاتهم من النار:

يقول تعالى فى تبشير المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ الأنبياء

ويقول تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ النمل.

ويقول تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أُولَٰئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّهٌ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فى جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَنْصَرُوتُ الطَّرْفِ عَيْنٍ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُمْ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ الصافات

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٨﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٩﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٣٠﴾ خَتَمُهُمْ وَسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٣١﴾ وَمَرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٣٢﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ٢٢ - ٢٨ المطففين .

ويقول تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١١﴾﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿٧٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٧٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٨٠﴾ فَبِأَيِّ  
 آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٨٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
 ﴿٨٣﴾ مُتَكِينِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٨٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ ﴿٨٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْإِلَافِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٨٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ  
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٨٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٨٩﴾  
 هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٩٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا  
 جَنَّاتٍ ﴿٩٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٣﴾ مُدْهَمَمَتَانِ ﴿٩٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ ﴿٩٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٩٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ  
 وَنَخْلٌ وَرُؤْمَانٌ ﴿٩٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٩٩﴾ فِيهِنَّ خُمُرٌ حِسَانٌ ﴿١٠٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ  
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠١﴾ خُورٌ مَقْصُورَتٌ فِي الْحَبَايِمِ ﴿١٠٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠٣﴾  
 لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿١٠٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠٥﴾ مُتَكِينِينَ عَلَى  
 رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿١٠٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٠٧﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ  
 ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٠٨﴾ ٧٨ - ٤٦ الرحمن

### نعيم الجنة ماديًا وروحيا

وإذا كان بعض المتفهبين من المبشرين والمستشرقين وغيرهم يصطنع لهجة  
 التعلل على هذه الأنواع من النعيم بينها هو في حياته الشخصية عبد الدينار والدرهم  
 والملاذات الحسية، يسعى إليها ويقتنصها كلما أمكنه، فإننا بعد أن نسجل بذلك  
 صدور هذه اللهجة عن موقف نفاقى مكشوف، نشير إلى ما جاء بالعقيدة الإسلامية  
 من أن هذه الأنواع من النعيم ليس السقف لأنواع النعيم في الآخرة، إنما هي لمن  
 يطلبها، تحريرا لهم من أى شعور بالحرمان ذاقوه من قبل، تصديقا لقوله تعالى:  
 ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ٢٢ الطور، ولقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا  
 يَتَخَيَّرُونَ﴾ ٢١ الواقعة، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي  
 ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ ٤٢ المرسلات، ولقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا  
 أَسْتَهْتَأْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ ١٠٢ الأنبياء، ولقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى

أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ فصلت، ولقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ  
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ٧١ الزخرف .

ومع ذلك فإن هذه الأنواع من النعيم إنما تأتي هكذا في ظاهرها - تأنيسا  
لطالبيها - ولكنها عند التناول يجدونها من نوع نعيم الجنة، لا من نوع نعيم الدنيا،  
وهو شيء مختلف، وذلك معنى قوله تعالى: (قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأوتوا  
به متشابهاً) ٢٥ البقرة، مضموماً إليه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى  
بسنته، بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله  
تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على  
قلب بشر، واقروا إن شئتم " فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما  
كانوا يعملون ") قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

### رؤية الله تعالى

وليس ذاك هو السقف

ولكن تأتي ذروة النعيم في رؤية الله تعالى

يقول تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ القيامة

ولا يصح تأويل ناظرة بمنتظرة كما يفعل بعض المتكلمين لأن النظر بمعنى  
الانتظار يتعلق بالقلب وال خاطر لا بالعين كما في الآية كما يشير إليه قوله تعالى  
(وجوه ..).

ولقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: وفي تفسيره هذه الآية نقل  
الإمام القرطبي ما رواه مسلم بسنده عن صهيب رضى الله عنه، عن النبي صلى الله  
عليه وسلم مرفوعاً أنه قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئاً  
أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال:  
فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) وفي  
رواية (وزاد: ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾) يونس ٢٦

ولقوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُوتُونَ﴾ يقول الإمام الشافعى: "لما  
حجب الكفار في السخط دل على أن أولياءه يرونه في الرضا"

وفي صحيح البخارى بسنده عن الزهرى فى حديث طويل قال: أخبرنى سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه حجاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تمارون فى الشمس ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك .

وتشبيه الرؤية برؤية البدر والشمس من حيث الوضوح التام والتجلى الكامل الذى لا شك فيه ولا ريب .

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ هذا يبين أن جميع الأبصار لا تدركه ومفهومه أن بعضها يدركه <sup>(١)</sup>

ويفرق بعضهم بين الرؤية فهى جائزة، والإدراك فهو لا يجوز، للفرق بينهما من حيث إن الرؤية لا تقتضى الإحاطة، والإدراك يقتضيه <sup>(٢)</sup>

وفى بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى (تسمى الرؤية إدراكا إذا أحاط البصر بالمرئى بجميع حدوده)

وعن ابن عباس فى تفسير الآية: لا يحيط بصر أحد بالملك .  
وهذه الرؤية مجمع عليها عند أهل السنة فى الجملة، وإن اختلف العلماء فى بعض جزئياتها وأفرادها ومكانها .

والحق أنه يستوى فى ذلك الرجل والمرأة لعموم النص .  
ويقول الإمام الغزالى: (إن الله تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار .. مرئى بالعين والأبصار، فى الدار الآخرة دار القرار) <sup>(٣)</sup>

(١) التبصير فى الدين لأبى المظفر الإسفرايينى ت ٤٧١، بتعليق الشيخ محمد بن زاهد بن الحسن الكوثرى ط مطبعة الأنوار عام ١٩٤٠ م ص ٩٤

(٢) فى لسان العرب: الدَّرَكُ اللحاق، والدَّرَكُ اسم من الإدراك، مثل اللُّحَق، والدَّرَكُ اللحاق والوصول إلى الشيء، والدَّرَكُ: لحاق الفرس الوحش، وفرس دَرَكَ الطريدة يدركها، والدريكة الطريدة، والمتدركة غير المتواترة، والمتواتر الشيء الذى يكون هنيهة ثم يجيء الآخر، فإذا تتابعت فليست متواترة، والدَّرَكُ والدَّرَكُ أقصى قعر الشيء، وقال أبو عدنان: يقال: أدركوا الركبة إدراكا، ودَرَكَ الركبة قعرها الذى أدرك فيه الماء . اهـ

(٣) كتاب العقائد من كتاب إحياء علوم الدين



لقد جاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم كما نقل القرطبي عن المبارك متصلا أن أبا موسى الأشعري رضى الله عنه قال على منبر البصرة: إن الله عز وجل يبعث ملكا إلى أهل الجنة فيقول: هل أنجزكم الله وعده؟ فينظرون الحلى والحلل والآثار والأنهار والأزواج المطهرة فيقولون: نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا فيقول الملك: هل أنجزكم وعدكم؟ ثلاث مرات، فلا يفقدون شيئا مما وعدوا فيقولون: نعم فيقول قد بقى لكم شيء، عن الله تعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس ٢٦، ألا إن الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى الله تعالى. <sup>(١)</sup> ومن هنا سمى يوم الجمعة في الجنة يوم المزيد لما يحدث فيه للمؤمنين من رؤية الله تعالى .

وفى مسند الإمام الشافعى رضى الله عنه عن عبد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبريل بمرآة بيضاء فيها وكرة إلى النبی صلى الله عليه وسلم، فقال النبی صلى الله عليه وسلم: ما هذه؟ قال: هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، وفيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى بخير إلا استجيب له، وهو عندنا "يوم المزيد" قال النبی صلى الله عليه وسلم: يا جبريل ما يوم المزيد؟ قال: إن ربك اتخذ في الفردوس واديا أفيح، فيه كتب مسك فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب، فيقول الله لهم: أنا ربكم قد صدقتكم وعدى، فسلوني أعطكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيت، ولدى مزيد، فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه، ربهم من الخير وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة اهـ .

والله أعلم .

(١) أنظر شرح الغنيمى للعقيدة الطحاوية ص ٧٠-٧١



الباب الخامس

# الأسماء والأحكام



## حقيقة الإيمان

(في مسند الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الله بن عباس قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا له، فأتاه جبريل عليه السلام فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واضعا كفيه على ركبتي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: يا رسول الله حدثني ما الإسلام؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تسلم وجهك لله، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله .

قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟

قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت

قال: يا رسول الله فحدثني ما الإيمان

قال: الإيمان أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبين، وتؤمن بالمولوت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب، والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره .

قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟

قال: إذا فعلت ذلك فقد آمنت.

قال: يا رسول الله حدثني ما الإحسان؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإنك إن لم تراه فإنه يراك .

قال: يا رسول الله فحدثني متى الساعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان الله، في خمس من الغيب لا يعلمهن إلا هو: [ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ] ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك .

قال: أجل يا رسول الله فحدثني .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيت الأمة ولدت ربثها - أو ربها - ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها

قال يا رسول الله: ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة

قال: العرب

وفي صحيح البخارى مثله بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه غير أنه قدم السؤال عن الإيوان، ولم يحدد من الحفاة العراة .

لقد كانت كلماته صلى الله عليه وسلم كما جاءت في الحديث: أولاً: عن الإسلام أن تسلم وجهك لله، ثم عن أعمال الجوارح الناتجة عن إسلام الوجه، ثم عما يقتضيه ذلك من عقد القلب على مفردات الإيوان، ثم إحسان العمل في ذلك كله

وكانت كلماته حول الموضوع في ممارسته للدعوة متنوعة بتنوع السائلين وظروفهم النفسية

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: " قل آمنت بالله ثم استقم " أخرجه مسلم فى باب جامع أوصاف الإسلام من كتاب الإيمان، وأخرجه النسائى والترمذى وقال حسن صحيح .

ومن أمثلة هذا التنوع قوله صلى الله عليه وسلم " ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف به في النار " أخرجه الخمسة

وقوله: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس إلى دمائهم " أخرجه الترمذى والنسائى .

وقوله لرجل سأل " أى الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " أخرجه الشيخان والنسائى

ومن ذلك أيضا قوله: " إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله تعالى يقول " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر " أخرجه الترمذى فى باب ما جاء فى حرمة الصلاة من أبواب الإيمان، وهو حديث مختلف فى صحته قال الترمذى: غريب حسن، وقال الحاكم فى مستدركه: صحيح، وضعفه الذهبى.

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من فعلهم فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وعلم أن لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنه، و لا الشرط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم فإن الله تعالى لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره " أخرجه أبو داود فى باب زكاة السائمة منقطعاً، ورواه البغوى والطبرانى مسنداً.

### المدخل إلى الإيمان

إن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى التوجيه إلى الإيمان وتربيته لم يكن منهج اللغويين أو المناطقة، ومهما قيل من ابتدائه مع المدعويين بالشهادتين اللتين تشملمان حقائق الدين جميعاً فإنه يظل من المؤكد أنها مقبولة من المبتدئين وهم على غير وعى كامل بهذه المضامين جميعاً ..

وفى ما يتعلق بوضع تعريف للإيمان نجد علماء الكلام يبذلون جهداً كبيراً من أجل صياغة تعريف منطقى (جامع مانع) للإيمان والإسلام وقد فاتهم - فيما أرى -

أنهم يعالجون حركة نفسية، ودعوة متنامية، وضع الرسول صلى الله عليه وسلم حدها الأدنى ثم أخذ بيدها في طريق صاعد وفق منهج نفسى تمتاز فيه عناصر الإيمان تمازجا عضويا وتتصاعد ولا تجمد في حركة الصعود حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا في حركة الحياة نفسها .

يقول العلامة فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز في شرحه لهذا الحديث مؤكدا ما نذهب إليه من المنهج النفسى: (إن ذوق الإيمان كلمة تقال بالتشكيك<sup>(١)</sup> على مراتب، وإن أصل الإيمان يتوقف على "مبدأ" هذا الوجدان، وكماله - أى كمال الإيمان - يتوقف على كماله - أى كمال هذا الذوق - والذى يليق بهذا الموضع - أى الذى جاء وصفه فى الحديث السالف - أن يكون من النوع الثانى لا الأول، فالمعنى أن من أدى هذه الواجبات على وجهها برهن على قوة وجدانه لحلاوة الإيمان، وأن بشاشته قد خالطت قلبه، ومن قصر فيها دل على نقص إيمانه وضعف إحساسه الدينى).

ثم يقول: (فيجب حينئذ الأخذ بمنطوقها وتعطيل مفهومها) ومفهومها يعنى: أن من فرط فى هذه الأمور أو بعضها خرج من الإيمان، ولو رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا، لأن ذلك خلاف ما دلت عليه الأدلة القاطعة، يقول الدكتور دراز: (لأن دلالة المفهوم عند القائلين بها ظنية لا قطعية، فإن أيدتها الأدلة الصريحة عملنا بها جميعا، وإن عارضتها لم نعمل بها إجماعا، وإن سكنت عنها كان هذا محل اجتهاد المجتهدين فى الأحكام الظنية بين أخذها وغير أخذ)<sup>(٢)</sup>

---

(١) القول بالتشكيك أحد أقسام خمسة لنسبة اللفظ إلى مساه: هى التواطؤ والتباين والاشتراك والترادف والتشكيك، والتشكيك هو فيما كان مترددا بين التواطؤ والاشتراك لاختلاف أفراده بالأولية وعدمها أو بالشدة والضعف كالبياض فى الثلج والعاج، قال القطب: سمي مشككا لأن أفراده مشتركة فى أصل معناه ومختلفة بأحد الوجوه الثلاثة المذكورة، فالناظر إليه إن نظر إلى جهة الاشتراك خيل إليه أنه متواطئ لتوافق أفراده فيه، وإن نظر إلى جهة الاختلاف أوهمه أنه مشترك كأنه لفظ له معان مختلفة كالعين فالناظر فيه يتشكك هل هو متواطئ أو مشترك . أنظر لفظة العجلان للإمام الزركشى .

(٢) أنظر كتابه (المختار من كنوز السنة) ص ٣٠٩-٣١٠



أقول: وما ذاك إلا لأن المنهج النفسى هو المقياس لفهم حركة الدخول إلى الإسلام والترقى فيه.

هذا فيما يتعلق بتعريف الإيمان وموقع علماء الكلام من منهج الرسول فيه .

أما فيما يتعلق بتحديد نقطة البداية التى يستحق بها المؤمن وصف الإيمان لينطلق منها بعد ذلك إلى كمالاته فقد وجدنا علماء الكلام قد رجعوا فيها إلى مفهومهم عن " العلم " و " التصديق " و " البرهان " و " اليقين " ورجعوا إلى اغترارهم بجدوى المجالات النظرية وأنها تؤدى إلى شئ، وقد غاب عنهم ما تعرض له العقل النظرى من ضربات قاصمة فى الفلسفة النقدية قديماً وحديثاً، جعلت منه " وعاء " " قللاً " لما يصب فيه من " الإيمان " .

أما المنهج الذى انتهجه الرسول ﷺ فلم يتورط فى شئ من ذلك - لأنه منهج علام الغيوب اللطيف الخبير الذى أحاط بكل شئ علماً - وكانت بداية منهج الرسول من الإسلام قائمة على " العقل العمل " فى بساطته وشموله ومخاطبته " للإنسان " مهما يكن هذا الإنسان فى بداوته أو حضارته، فى جهالته، أو ثقافته، فى غباوته أو ذكائه، أو عبقريته .

لم يكن المدخل إلى الإيمان كما وضعه الرسول ﷺ إلا موقفاً عملياً لفت فيه الرسول نظر " الإنسان " إلى مقره فيه مهما يكن موقعه فى المكان أو موقعه فى التاريخ، فإذا هو - أى الإنسان - مطالب عملياً بـ " التصرف " وهو - أى الإنسان - ما بين " لفت النظر " و " التصرف " يضيق به المقام عن إجراء البحوث الكلامية، فضلاً عن كونه لا يحتاج إليها لكى يكون مسلماً . إنه الإنذار كما تحدثنا عنه فى المدخل العملى .

وإذن فقد تبين لنا يسر المدخل إلى الإسلام - فى منهج الرسول ﷺ كما تبين يسر المسار فيه مدخل عملى ملزم للإنسان أيا كان، يجد تطبيقه فى مواجهة ما بعد الموت، والإنذار بالنار ... وهو هنا يلجأ إلى الله، كموئل وحيد للنجاة من حادثة النار، فيسلم نفسه إلى الله، وهو إذ يسلم نفسه لله، لا ينحرف إلى استقلال فى المعرفة، ولا

ينحرف إلى استقلال في الهدى، فالمعرفة كالحلق، كالرزق: عطاء من الله للإنسان أيا كان، والهدى كالكرامة: عطاء من الله للإنسان الذى يطلبها من الله بشروطها .

وهو بعد منهج متكامل، يأتى من صانع الإنسان، ليسرى من مداخل الإنسان، ليستقر فى جوانب الإنسان: الإرادية، والوجدانية، والعقلية ...

وهو منهج لا يستغنى فى بدايته، أو وسائطه، أو ذراه لا يستغنى عن " إنسان " يوصله إلى " الإنسان " ومن هنا كانت مكانة الرسول ﷺ كضرورة لا غنى عنها فى البدايات والوسائط والذرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٥١ البقرة .

فهذا يوضح المكانة الأساسية التى يحتلها الرسول فى تحصيل الإيمان والمعرفة باعتبارها طريقاً لتوصيل المعارف الإلهية إلى الناس، بعد أن ثبت عجز العقل المستقل عن تحصيل اليقين فيها أو فى غيرها .

إن بعض المتكلمين بعد أن تحدثوا عن الحكمة النظرية والعملية، وأنها كمال فى القوة النظرية والقوة العملية، أدركوا أن ذلك لا يتم إلا " بقدر القوة البشرية " ومن ثم تظهر الحاجة إلى الاقتداء بالرسول للحصول على هاتين الحكمتين .

### مصطلح الأسماء والأحكام

المراد بالأسماء والأحكام: معرفة تسمية كل من: الإسلام والإيمان، والكفر والنفاق والعصيان، ومعرفة حكم كل من المسلم والمؤمن والكافر والمناطق والعاصى من حيث قبوله ورده، ومن حيث استحقاقه الجزاء أو الثواب فى الآخرة، على سبيل الخلود أو غيره .

وأول ورود هذا الاصطلاح جاء فى مروج الذهب للمسعودى حيث استعمل اسماً لباب ذكر أنه يحتوى على الكلام عن الأصل الرابع عند المعتزلة وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين ..

وورد عن أبى الحسن الأشعري في كتابين له أحدهما: كتاب " اختلاف الناس في الأسماء والأحكام والخاص والعام "، وثانيهما: كتاب (مسائل سئل عنها الجبائي في الأسماء والأحكام) ثم ورد وانتشر في كتب علم الكلام ..

فهو بهذا اللفظ في " المواقف " للإيجي (المرصّد الثالث من الموقف السادس)، وفي " شرح مطالع الأنظار للأصفهاني على متن طوابع الأنوار للبيضاوي "...وفي "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين " للرازي، وفي كتاب " إثارة الحق " لابن المرتضى .

ولقد كانت هناك أسباب اجتماعية أدت إلى زيادة الاهتمام بدراسة الموضوع:

من ذلك أن الانتماء للعقيدة كان وما يزال هو أساس الانتماء للمجتمع في الإسلام، وأن العقيدة الإسلامية من شأنها أن تترتب عليها مسؤوليات متعددة في مختلف جوانب الحياة، ومن هنا ظهرت مشكلة الإيمان والعمل .

وأن المجتمع الإسلامى انتقل إلى العيش في ظل دولة ترعاه حيث ظهرت مشكلة ادعاء الانتماء لهذا المجتمع للاستفادة برعاية هذه الدولة، ومن هنا ظهرت مشكلة الإيمان والنفاق .

من أجل ذلك استثيرت أسباب أخرى يمكن أن تُسميها الأسباب النصية، التي ترجع إلى الكتاب والسنة حيث جرى التناول للنصوص التي تعلقت بهذا الموضوع تناولاً حرفياً أو منطقياً أو فلسفياً .. دون تناولها من ناحية طبيعة النفس البشرية وطريقة دخولها في الإيمان وتغلغلها فيه أو .. تباعدها عنه ..

وتصفح الآيات والأحاديث الخاصة بهذا الموضوع في ظل التناول الحرفي أو المنطقي .. يوضح لنا كيف ساهم هذا التناول في تعقيد المشكلة .

وهذا ما سوف نتبينه من دراستنا لاختلاف الآراء والمذاهب حول حقيقة الإيمان، وعلاقته بالإسلام، وعلاقته بالعمل ... إلى آخر المباحث التي تتفرع حول هذه القضايا ..

## حقيقة الإيمان بين المذاهب المختلفة

تشعبت المذاهب في حقيقة الإيمان تشعباً واسعاً، وكان أحد الأسباب ما نجده من نظرتهم إلى النصوص نظرة حرفية أو لغوية أو نفسية، أو منطقية، أو نظرتهم إليها من خلال ما يذهبون إليه أولاً من عقيدة فلسفية ثم يجتزئون بعد ذلك نصاً يفهمونه على أساس فلسفتهم ثم يتجاهلون النصوص الصريحة إذا عارضتهم، أو يؤولونها إذا قدروا على ذلك .

ولقد تعددت هذه المذاهب ما بين قائل ببساطة الإيمان، وأنه إقرار محض، أو معرفة محضة .، وقائل بأنه مركب ومن بين ما قيل: إنه مركب من المعرفة والإقرار والعمل .

### الإيمان إقرار محض

ذهبت الكرامية إلى أن الإيمان هو: إقرار الخلائق في عالم الذر، إذ سألهم الله تعالى: ألسن بربكم؟ قالوا: بلى .

وزعموا أن ذلك القول باق في كل من قاله مع سكوته وخرسه إلى يوم القيامة لا يبطل عنه إلا بالردة، فإذا ارتد ثم أقر ثانياً عاد إقراره الأول بعد الردة إيماناً، وزعموا أن الإيمان إقرار فرد، فتكرير الإيمان عندهم ليس إيماناً .

### الإيمان معرفة محضة

وذهبت بعض الفرق إلى أن الإيمان معرفة محضة بالله ورسله وبجميع ما جاء من عند الله، بهذا قال الجهمية، فعندهم أن من أتى بهذه المعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن، ولأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا في القلب دون غيره من الجوارح .

### والعمل الإيمان مركب من المعرفة والإقرار

ممن ذهب إلى أن الإيمان مركب من المعرفة والإقرار والعمل الخوارج عموماً .  
وعند الإباضية أن كل كبيرة كفر .. كفر نعمة لا كفر ملة .

وعند الزيدية من الشيعة أن الإيمان مركب من المعرفة والإقرار واجتناب ما جاء فيه الوعيد (الكبيرة)، أما مواجهة ما جاء فيه الوعيد فهو كفر، كفر نعمة .

وعند الإمامية: أنه هو المعرفة والإقرار بالله وبرسوله وبالإمام وبما جاء من عند الله والرسول والإمام .

والمعتزلة ذهب بعضهم إلى أن: الإيمان هو فعل الواجبات دون النوافل، قال بذلك أبو علي وأبو هاشم . وذهب النظام إلى أنه اجتناب كل ما جاء فيه الوعيد

وذهب أبو الهذيل منهم إلى أنه فعل كل الطاعات سواء كانت واجبة أو مندوبة من الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات . ولذلك فممنه ما تركه كفر، وممنه ما تركه فسق، وممنه ما تركه صغيرة وممنه .

وتستدل بعض المذاهب على أن الإيمان لا يكون بغير العمل، بما يذهبون إليه من معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ ٥ سورة البينة . ويقررون أن ما تقدم يدل على أن الأعمال من الدين . ولما كان الدين هو الإسلام كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ . وأن الإسلام هو وحده الدين المقبول عند الله وفقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ فهذا يعني أن الإيمان لن يكون في نطاق المقبول ما لم يكن من الدين وممنه العمل: أى الدين المقبول وهو الإسلام.

ويستدلون أيضاً بما يستتجونه من أن قاطعى الطريق يدخلون جهنم .. على النحو التالى يقول تعالى عن قاطعى الطريق: ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ٣٣ . سورة المائدة .

ثم يقولون: كل من يدخل جهنم يخزى لقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ ١٩٢ . سورة آل عمران ...

ثم يقولون: من يخزى يوم القيمة ليس مؤمناً لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تُخْزِي اللَّهَ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ ٨ سورة التحريم ..

وهذا يعنى أن قاطع الطريق - وهو من المخزيين - ليس مؤمناً لعدم دخوله ضمن قوله تعالى في هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾، وهذا يعنى أن العمل من الإيمان .

### حقيقة الإيمان عند أهل السنة عموماً

#### علاقة العمل والإقرار بالإيمان:

كان الحسن البصرى فيما يروى عنه يذهب إلى أن الإيمان لا يكون إيماناً حقاً إلا إذا كان يحمل صاحبه على العمل، وروى عنه (ليس الإيمان بالتمنى ولكنه ما وقر بالقلب وصدقه العمل) .

وروى عن الإمام الشافعى رحمه الله قوله (الإيمان قول وعمل ..) ومع ذلك فقد ذهب إلى أن الإيمان يبقى مع فوات العمل، وفي هذا يرى المعتزلة تناقضاً، ويوجه الإمام الرازى كلام الشافعى رضى الله عنه بأن له أن يجيب بأن العمل داخل كثمرة من ثمرات الإيمان لا كأصل له ..

وروى عن مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى واسحق بن راهويه وأهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر أنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان .

وذكر الإمام الطحاوى أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان .

وذهب الإمام الماتريدى إلى أن معنى الإيمان هو التصديق بالقلب، وأن الإقرار باللسان (ركن زائد ليس بأصل)<sup>(١)</sup>. أما المعرفة والعلم والعمل والإقرار باللسان فليس جزءاً من الإيمان ولا شرطاً له، ويجعل الإيمان شرطاً للعمل .

ولم يقبل بترك العمل كشأن بعض المرجئة، وهو يقول في تفسيره لمعنى العبادة: إنها جعل العبد كليته لله قولاً وعملاً وعقداً .

---

(١) أنظر شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٣٦ وص ٢٤٢

والإيمان - بمعنى التصديق على الأصل - لا يزيد ولا ينقص، وقد يزيد وينقص باعتبارات أخرى: كالزيادة باعتبار الحجج والبراهين، والتفاصيل، والقوة، والثمار، والخوف من الله .

ويرى أن الإيمان والإسلام بمعنى واحد .<sup>(١)</sup>

ويسند إلى أصحاب الحديث أنهم يذهبون إلى أن الإيمان هو جميع الطاعات فرضها ونفلها . ولكنهم يجعلون الطاعات على ثلاثة أقسام:

قسم يخرج صاحبه به عن الكفر ويتخلص من الخلود في النار إن مات عليه: وهو معرفته بالله وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره .. واعتقاد سائر ما تواترت الأخبار الشرعية به

وقسم يوجب العدالة وزوال اسم الفسق عن صاحبه ويتخلص به من دخول النار، وهو أداء الفرائض واجتناب الكبائر .

وقسم منه يوجب كون صاحبه من السابقين الذين يدخلون الجنة بغير حساب وهو أداء الفرائض والنوافل مع اجتناب الذنوب كلها<sup>(٢)</sup>

ولهم سندهم من الكتاب والسنة من ذلك قوله ﷺ: (الإيمان بضع وستون شعبة - أو بضع وسبعون شعبه - فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبه من الإيمان) . أخرجه الخمسة واللفظ لمسلم، والبخاري رحمه الله إنما رواه " بضع وستون " من غير شك<sup>(٣)</sup> .

ينقل فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز عن الحافظ بن حبان - ت ٣٥٤ هـ - في صحيحه قوله (جعلت أعد الطاعات فإذا هي تزيد عن ذلك شيئاً كثيراً . فرجعت إلى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول ﷺ من الإيمان فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين .

(١) المغربي ص ٣٨٢-٣٨٧، و٤٠٣ نقلاً عن تأويلات أهل السنة ج ١ ص ١١٠-١٧٠-٦٣-٣٠٦

(٢) أنظر أصول الدين للبغدادى ص ٢٤٩ طبعة استانبول ١٩٢٨

(٣) أنظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٤٥

فرجعت إلى ما بين الدفتين من كلام ربنا جل وعلا فتلوته آية آية بالتدبر، وعددت كل طاعة عدها الله من الإيـان فإذا هي عن البضع والسبعين .

فضممت الكتاب إلى السنن وأسقطت المعاد منها فإذا كل شيء عده الله جل وعلا في كتابه من الإيـان، وكل طاعة جعلها رسول ﷺ من الإيـان في سننه تسع وسبعون شعبه لا يزيد عليها ولا ينقص منها شيء .

وقد ذكرت هذه المسائل بكاملها شعبة شعبة في كتاب " وصف الإيـان وشعبه " أرجو أن يكون فيه الغنية للناظر، فأغنى ذلك عن تكرارها في هذا الكتاب) .

ويعلق فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز على ذلك قائلاً: لو أننا ظفرنا ببيان ابن حبان لأعيان هذه الشعب لكانت خير ما يفسر به الحديث، ولكن الذي نأسف له أن كتابه في " وصف الإيـان وشعبه " مفقود ...

وقد عد صاحب الفتح - أي فتح الباري لابن حجر - تسعاً وستين خصلة، قال (إنها يمكن عدها تسعاً وسبعين إذا أفرد بعضها عن بعض، ولكنه لم ينسبها إلى ابن حبان، بل اعترف بأنه لم يقف على بيانها من كلامه) <sup>(٢)</sup>

### حقيقة الإيـان عند أبي حنيفة

قال أبو حنيفة: (أهل القبلة مؤمنون، لست أخرجهم من الإيـان بتضييع شيء من الفرائض ...

ومن أصاب الإيـان وضيع شيئاً من الفرائض كان مؤمناً مذبناً، وكان لله تعالى فيه المشيئة: إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، فإن عذبه على تضييعه شيئاً فعلى ذنب عذبه، وإن غفر له فذنباً يغفر).

وهو يقول: (من قتل نفساً بغير حق أو سرق أو قطع الطريق فهو مؤمن فاسق وليس بكافر، وإنما يعذبهم الله بالإحداث في النار، ويخرجهم منها بالإيـان <sup>(٣)</sup>).

(١) هكذا دون ذكر كلمة تنقص أو تزيد . وفحوى الكلام تدل على كلمة تنقص

(٢) أنظر كتاب المختار من كنوز السنة للفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٣٧-٣٣٨

(٣) الفقه الأيسر (ص ٤٧) .



ويقول أبو حنيفة أيضاً: (ولا تكفر مسلماً بذنب من الذنوب، وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمناً حقيقة،<sup>(١)</sup>).

وهكذا يظهر أن أبا حنيفة لم يكن يقول بترك العمل، أو بإسقاطه فيما يتصل بالثواب والعقاب الآخرين، إذا كان هناك الإيمان

وجاء فيما روى عن الإمام أبي حنيفة: أن (الإيمان هو التصديق والمعرفة واليقين والإقرار والإسلام، وهى عنده أسماء مختلفة ومعناها واحد: هو الإيمان وحده وذلك بأن يقر بأن الله ربه، ويصدق بأن الله ربه، ويتيقن بأن الله ربه، فهذه أسماء مختلفة ومعناها واحد كالرجل يقال له: يا إنسان، ويا رجل، ويا فلان<sup>(٢)</sup>)

وإذا كان النص السابق يسوى بين الإيمان والإقرار من باب الترادف، فيبدو أن المقصود على وجه الدقة أن الإقرار الذى هو مرادف للإيمان: الإقرار القلبي أما الإقرار باللسان وحده فليس إيماناً، ويدل على ذلك قوله (إن من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لم يكن عند الله مؤمناً، ومن آمن بقلبه ولم يتكلم بلسانه كان عند الله مؤمناً).<sup>(٣)</sup>

كذلك الأمر بالنسبة للمعرفة وحدها إذ يقول (الإقرار لا يكون وحده إيماناً، وكذلك المعرفة وحدها)<sup>(٤)</sup>.

أما العمل؟ فيصرح الإمام أبو حنيفة إذ يقول: (أما العمل فمستبعد من حقيقة الإيمان، العمل غير الإيمان والإيمان غير العمل). وهما - أى الإيمان والعمل - قد يفترقان، يقول الإمام أبو حنيفة: (لا تكفر أحداً بذنب، ولا تنفى أحداً من الإيمان)<sup>(٥)</sup>

---

(٢) الفقه الأكبر بشرح المغنيساوى (ص ٢٧ - ٣٠).

(١) كتاب العالم والمتعلم لأبى حنيفة رواية أبى مقاتل حفص بن سلم السمرقندى - نسخ بمكتبة الأزهر  
توحيد رقم ٤٥٠٧ عام ٥٨٤٢٤ ص ١٤

(٢) العالم والمتعلم ص ١٠

(٣) الجوهرة المنيفة فى شرح وصية أبى حنيفة لملا حسين بن إسكندر الحنفى ص ٣ ضع حيدر آباد  
نسخة بمكتبة الأزهر

(٤) الجوهرة المنيفة فى شرح وصية أبى حنيفة ص ٣

ومع ذلك فيمكن القول بأن الخلاف بين الإمام أبى حنيفة وغيره من أئمة السنة الذين يدخلون العمل في الإيمان خلاف صورى أو لفظى، وذلك فيما لو ذهبنا إلى أن أعمال الجوارح أثر لإيمان القلب<sup>١</sup> - كما ذهب إلى ذلك الإمام الشافعى والإمام الرازى - وهو ما نرجح فهم كلام الإمام أبى حنيفة على أساسه، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو فى مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، وهذا يدل فى مجموعه على أنه نزاع لفظى لا يترتب عليه فساد اعتقاد<sup>٢</sup>.

### الإيمان: عند أبى الحسن الأشعرى وأتباعه

الإيمان فى الشرع عند أبى الحسن الأشعرى وأتباعه هو التصديق بما علم محمىء النبى ﷺ به ضرورة، تفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً ..

والتلفظ بكلمتى الشهادتين مع القدرة عليه شرط، فمن أحل به فهو كافر مخلد فى النار .. ولا ينفعه المعرفة القلبية من غير إذعان وقبول، فإن من الكفار من يعرف الحق يقيناً، وكان إنكاره عناداً واستكباراً، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ ١٤ النمل .

والدليل عنده على أن التلفظ بالشهادتين ليس جزءاً من حقيقة الإيمان نسبة الإيمان إلى القلب فى الكتاب والسنة مثل: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ و﴿وَقُلُوبُهُمْ مُّطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وقوله ﷺ: (اللهم ثبت قلبى على دينك) .

والدليل عنده على أن العمل ليس جزءاً من حقيقة الإيمان مجيئه مقروناً بالإيمان معطوفاً عليه فى عدة مواضع من الكتاب كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن الجزء لا يعطف على كله<sup>(٣)</sup> .

أما الإسلام عنده فمعناه: (الانقياد الظاهرى وهو التلفظ بالشهادتين والإقرار

(١) وهذا ما ينبغى أن يفهم من كلام الإمام أبى حنيفة باعتبار أنه يسوى فى العبارة السابقة بين الإيمان والإسلام

(٢) أنظر شرح ابن أبى العز للعقيدة الطحاوية ص ٢٣٧-٢٣٨

(٣) أنظر شرح العقائد العضدية لجلال الدين الدوانى ج ٢ ص ٢٨٠ وما بعدها

بما يترتب عليهما .. والإسلام الكامل الصحيح لا يكون إلا مع الإيمان والإتيان بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج) ..

ولما كان مفهوم الإيمان عند الأشاعرة هو التصديق فقد اختلف العلماء حول المراد بهذا التصديق، أهو التصديق المنطقي<sup>(١)</sup> أم التسليم القلبي؟

وفي اعتقادي أن الصحيح تفسير التصديق الإيماني بالتسليم الباطني والانقياد القلبي، فهذا هو المطلوب شرعاً، سواء صاحبه تصديق منطقي فيزيده رسوخاً، أو لا فيكون الحد الأدنى متحققاً .

وها هو إمام الحرمين رحمه الله ييوح لنا بسر !! يؤيدنا فيما نذهب إليه من كون الإيمان المطلوب شرعاً تسليماً باطنياً، صاحبه الدليل الفلسفي العقلي أم لم يصحبه، وكان تصديقاً بالمعنى المنطقي أو لم يكن .

يقول الإمام الجويني: (وها أنا أذكر في ذلك سرّاً لا أستجيز إخلاء هذه العقيدة الشريفة منه فأقول: جماهير الخلق من أهل السنة على عقد صحيح في الدين، يتعلق " بالمعتقد " على ما هو به .

ولكن عقدهم " ليس " معرفة فإن المعتقد " لا يعرف " ضرورة، وجماهير الخلق لا يستقلون بالأدلة . ولو امتحن الملقبون بالإمامة فضلاً عن العوام بدلالة قاعدة واحدة لبقوا فيها حيارى .

فإذا كانت المعرفة لا تثبت بدون الأدلة ولا تحصل ضرورة، ولا يستقل بالأدلة كل من يعانى الكلام أيضاً .. فمعظم " العقود " ليست " معارف " ولكنها " عقود " مستقرة مصممة .

وما كلف الله الخلائق حقيقة معرفته ودرك اليقين<sup>(٢)</sup> في الدين ..

---

(١) التصديق المنطقي هو إدراك أن النسبة واقعة أو ليست واقعة، وهو أحد قسمي العلم عند المناطقة  
(٢) يقصد اليقين الفلسفي، أما اليقين النفسي (اطمئنان النفس وسكونها إلى ما تعتقد) فهو ما تكفنت الشريعة بتوصيل من أسلم نفسه لله إليه، وأما اليقين العملي فهو ما يتحقق للمؤمن مند اللحظة الأولى في استعداده للأخرة من باب الإنذار .

والدليل على ذلك أن الأولين ما كلفوا تتبع الأدلة، وإنما طولبوا بعقد مصمم وشهادة والتزام أحكام، وهم إن بقوا في عاقبتهم على عقدهم ناجون فائزون كما قال النبي ﷺ " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " .<sup>(١)</sup>

وإنه ليعلم " العقلانيون " أنه لقد ذهب إلى غير رجعة غرورهم بالعقل واطمئنانهم إليه، ويكفى أن نقرأ في هذا ما وصلت إليه الفلسفة النقدية الحديثة لنعرف كيف اكتشف العقل النظري أرض السراب التي يسعى إليها، وأوزار الطريق التي يحملها<sup>(٢)</sup> فلم يبق أمام البشرية غير المنطق العملي الذي قطع به رسول الله طريق الفلاسفة، فألزمهم به، وقد ظهر منهم قبل عصره من ظهر، واستكن في ضمير الغيب آنذاك آخرون، وهو المنطق - العمل - الذي يجعل الإيمان تسليماً، تسليماً يبقى به المرء على عقده وإن ناوشته الوسوس، لأنه يقوم على الإرادة، الإرادة المصممة على اللجوء إلى سفينة النجاة، النجاة من طوفان مرتقب أو نار مرتقبة، الإرادة المصممة على التماس طريق النجاة، النجاة من حادث " النار " الكونية المنتظرة، ولا سلامة إلا في التسليم، التسليم لمن يملك سفينة النجاة، التسليم لمن يملك " الصراط " الممدود على هذه النار: تسليم النفس لله، تسليماً يصعد به " المسلم " إلى قمة اليقين، وفقاً لمنهج تربوى متكامل جاءت به شريعة الإسلام .

### العلاقة بين الإسلام والإيمان

لفظ " الإيمان " :- يستعمل متعدياً بنفسه كقولك آمنت فلانا أى أعطيته الأمان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ ٤ قريش، ويستعمل لازماً يتعدى بالباء أو اللام فيكون معناه التصديق ومنه قوله تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ﴾ ١٣٦ البقرة، وقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ ٧٥ البقرة .

ومعنى الإيمان لازماً يرجع إلى معناه متعدياً لأن من آمن بك أى صدَّقك فقد أمنك من التكذيب والمخالفة من ناحية، وأمن عاقبة التكذيب والمخالفة من ناحية

(١) أنظر العقيدة النظامية للإمام الجويني ط ١٩٤٨ ص ٦٥

(٢) أنظر نقد نظرية المعرفة عند المتكلمين، في كتابنا " الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية "

أخرى، ولعل هذا كان ملحوظاً في إطلاق الإيـمان على المعنى الشرعى، لأن المؤمن هنا آمن عاقبة التكذيب والمخالفة. وفي اعتقادي أن هذا هو مدخل الإنسان إلى الإسلام، إذ آمن عاقبة التكذيب والمخالفة بعد إذ يأتى الرسول ويوجه " إنذاره " للعالمين .

وكذلك الإسلام له في اللغة استعمالان: متعدياً، فيكون معناه التسليم، أى الإعطاء تقول أسلمت درهماً في ثوب أى أعطيت، وتقول: أسلمت أمرى إلى الله أى أسلمته إليه <sup>(١)</sup>.

ويستعمل لازماً يتعدى بحرف الجر فيكون معناه الانقياد، تقول أسلمت لله، أى انقدت لله .

وهنا نجد أن معنى الإسلام لازماً يرجع إلى معناه متعدياً، لأن من أسلم للغير فقد سلم نفسه له .

وإذا تأملنا معنى الإسلام - لازماً أو متعدياً - وجدناه لا يخلو من معنى السلام، أى الأمان من المخاوف. وبهذا يلتقى منذ البداية معنى الإيـمان والإسلام: يحصل إسلام النفس لله فيأتى الأمن والإيـمان .

### والسؤال بعد ذلك بالنسبة للاستعمال القرآنى :

في القرآن الكريم نجد أنه في بعض المواضع قد استعمل كلاً من الإيـمان والإسلام وله متعلق خاص يتعدى إليه بالباء أو اللام وحينئذ يكون المقصود بالإيـمان، التصديق مطلقاً، بحق أو بباطل، والمقصود بالإسلام الانقياد مطلقاً لحق أو لباطل،، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٥٢ العنكبوت، وكقوله تعالى: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُنَّاءَ وَحَدًّا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٣ البقرة، بأسلوب القصر، أى غير مسلمين لغيره تعالى، وهنا يكون الاستعمال في نطاق المعنى اللغوى العام .

(١) أنظر كتاب (المختار من كنوز السنة) لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٥٧

(٢) ومنه اسم الله تعالى " السلام " : أمان من المخاوف وسلامة من النقص .

أما إذا جاءت الكلمة دون أن تتعلق بمتعلق خاص، أى لم تأت متعدية بالباء أو باللام، فيكون المراد بكل منهما حقيقته الشرعية، فالإيمان بغير متعلق يكون معناه الإيمان بالله، والإسلام بغير متعلق يكون معناه الإسلام لله، كقوله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى المؤمنين بالله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ أى الإسلام لله .

لكن السؤال يبقى قائماً: هل تكون العلاقة بين الكلمتين العموم والخصوص المطلق بأن يكون الإيمان خاصاً بالباطن والإسلام أعم؟

أم أن الإيمان خاص بالباطن والإسلام خاص بإسلام الظاهر والعلاقة بينهما التباين؟

أم أنهما قد أزيلت من بينهما تلك الحواجز اللغوية وأصبحتا في عرف الشرع كلمتين مترادفتين؟

أم أن الأمر يختلف بين ما إذا اجتمعت الكلمتان في الذكر، أو افترقتا؟

للإجابة على ذلك يذهب العلامة ابن أبى العز في شرحه للعقيدة الطحاوية إلى أن الإسلام والإيمان إذا افترقا في الذكر كانت العلاقة بينهما الترادف، وإذا اجتمعا في الذكر كانت العلاقة بينهما التباين

وأورد بعض الأدلة على المغايرة بين الإسلام والإيمان عند اجتماعهما في الذكر:

في ذلك حديث جبريل عليه السلام في سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم جواب الرسول ﷺ وقوله " هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " أخرجه البخارى ومسلم، فجعل الدين هو الإسلام، والإيمان، والإحسان (فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاثة: مسلم ثم مؤمن ثم محسن . والمراد بالإيمان في الحديث ما ذكره مع الإسلام قطعاً . والمراد بالإحسان في الحديث أيضاً ما ذكره مع الإسلام والإيمان ..) .

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان - حيث اجتمعا - قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ

الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴿١٤﴾ الخجرات: يعنى انقدنا بظواهرنا . فهم لم يحققوا الإيمان بعد

وهنا يذهب بعض المفسرين إلى أن هذا يعنى أنهم منافقون فى الحقيقة. ويذهب آخرون - ورأيهم عندى أرجح - : أنهم ليسوا كاملى الإيمان لا أنهم منافقون. كما نفى الإيمان - أى الإيمان الكامل - عن القاتل والزانى والسارق ومن لا أمانة له .. ويؤيد التفسير الأخير أمور:

أنه قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ١٥ الخجرات، فهذا يعنى أن المقصود بالإيمان ما يملأ القلب، لا ما يصطحب معه شيئاً من وساوس النفس فهؤلاء الأعراب متنف عنهم "الإيمان الكامل" .

أنه سبحانه وتعالى قال عن هؤلاء الأعراب ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة .

أنه أمرهم وأذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يؤذن له بذلك تعبيراً، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام، كما نفى عنهم الإيمان، ولنهاهم عن أن يمتنوا بإسلامهم، فأثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمتنوا به على رسوله ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون، كما كذب المنافقين فى قوهم نشهد بأنك رسول الله .

ومن أمثلة التفرقة بين مفهوم الإسلام والإيمان إذا اجتماعا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ٣٥ الأحزاب .. وقوله ﷺ: " اللهم لك أسلمت وبك آمنت " متفق عليه، .. وروى عنه ﷺ أنه قيل له " مالك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً، قال: أو مسلماً " - متفق عليه - قالها ثلاثاً فأثبت له الإسلام وتوقف فى اسم الإيمان .<sup>(١)</sup>

وعلى هذا الأساس ففى حال اجتماع الكلمتين فى الذكر يكون الإيمان أعم من

(١) شرح ابن أبى العزى للعقيدة الطحاوية ص ٢٥٣

الإسلام، والإحسان أعم من الإيمان، وذلك من ناحية المفهوم، أى المعنى الذهني للكلمة: حيث يشمل الإيمان الإسلام وما هو أكثر منه، ويكون الإحسان أعم منهما حيث يشمل الإحسان الإسلام والإيمان وما هو أكثر منهما

وأما من ناحية التحقق الخارجى فى الأفراد: فيكون الإيمان أخص من الإسلام، والإحسان أخص من الإيمان والإسلام، وهذا كالرسالة والنبوة، فالرسالة أعم مفهوماً وأخص أفراداً .

أما إذا افترق الإيمان والإسلام فى الذكر فكل منهما يتضمن الآخر: إذا أفرد اسم الإيمان فهو يتضمن الإسلام . وإذا أفرد اسم الإسلام (فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع) <sup>(١)</sup>.

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفرد أحدهما عن الآخر . ويلخص الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز المسألة قائلاً: " الذى يستقرئ موارد الاستعمال القرآنى يرى أنه تارة يراد من الإيمان خصوص الاعتماد الباطنى، وتارة يراد به الدين بجملته، وكذلك يراد بالإسلام تارة خصوص انقياد الظاهر، وتارة يراد به الأمران ..

ثم يستخلص المتتبع لتلك الاستعمالات قاعدة، وهى أنها - أى هاتين الكلمتين - إذا اجتمعتا، أى تجاورتا فى الاستعمال القرآنى - افترقتا - أى قصد بكل منهما معنى غير معنى الآخر، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وإذا افترقتا - أى لم تتجاورا فى الاستعمال - اجتمعتا فى المعنى، أى كان المقصود بكل منهما فى مواضعه، معنى يشمل المعنيين معاً <sup>(٢)</sup>"

وعلى هذا النحو نفهم الحديث النبوى الذى جمع بين الكلمتين فى الاستعمال: ما الإسلام؟، ما الإيمان؟ ما الإحسان؟ هنا نقول أراد بالإسلام انقياد الظاهر . وبالإيمان انقياد الباطن . وبالإحسان كمال الجمع بينهما .

(١) شرح ابن أبى العز للعقيدة الطحاوية ص ٢٥٠

(٢) المختار من كنوز السنة ص ٧٣-٧٤



ولا ينبغي أن نخلط هنا بين الإسلام بمعنى انقياد الظاهر وبين النفاق الذي يعنى التظاهر بالانقياد، فالأول يسلم ما يقع تحت إرادته وسيطرته في ذلك الحال، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها، والثانى لا يسلم ظاهراً ولا باطناً وإنما يتظاهر بالإسلام. وشتان بين الأمرين .

أما القائلون بالترادف بين الإسلام والإيمان ولو اجتمعتا في الذكر فلهن شبهات: منها أنهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٥٠﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وهذا يعنى أن المقصودين بالإخراج جماعة واحدة في بيت واحد سهاهم مؤمنين ثم سهاهم مسلمين ليدل على أن المعنى واحد في الحالين .

ولا حجة لهم فيه لأنه يمكن القول بأن أهل البيت المخرجين كانوا متصفين بالأمرين معا: بالإسلام والإيمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما .. ويحتجون بالتشنع على من قال بالمغايرة: أنه ما قوله في حكم من آمن ولم يسلم، أو أسلم ولم يؤمن: في الدنيا والآخرة؟ فإذا أثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله .

كما يحتجون بأنه لو كان الإسلام هو الأمور الظاهرة لكان ينبغي ألا يقبل إيمان المخلص لأنه لم يوصف بالإسلام: أى بالمعنى المذكور للإسلام .

ولا حجة لهم في هاتين الحجتين: لأن القول بالمغايرة كما سبق أن أوضحنا إنما يتحقق في حال اجتماع اللفظين في الذكر ولا تغاير بينهما في حال الافتراق .. ولأنه إذا نفينا الإيمان عن مسلم فالمقصود الإيمان الكامل أى الذى لا يصحبه خواطر ووسوسة<sup>(١)</sup>.

### زيادة الإيمان ونقصه:

ذهب جمهور المعتزلة إلى أن الإيمان يزيد وينقص .

(١) أنظر شرح ابن أبى العز للعقيدة النحوية في مبحث الإيمان والإسلام من ص ٢٣٦-٢٥٠ وارجع إلى مبحث الوصول إلى اليقين من كتابنا الأسس المنهجية من ص ٤٠٣-٤٠٩

أما السلف وأهل السنة فقد ذهبوا إلى أن الإيمان يزيد وينقص كذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الإيمان (كان أهل السنة والحديث على أن الإيمان يتفاضل، وجهورهم يقولون: يزيد وينقص) وحجته بمثل ما سبق عن السلف حيث قد ثبت لفظ الزيادة والنقصان عن الصحابة، ولم يعرف فيهم مخالف .

ذكر الحافظ أبو القاسم، هبة الله اللالكائي في كتابه " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة": أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وبه قال من الصحابة: عمر بن الخطاب، وعلي، وأبن مسعود ومعاذ، وأبو الدرداء، وابن عباس، وابن عمر، وعمار وأبو هريرة، وحذيفة، وسلمان، وعبد الله بن رواحه، وعائشة رضي الله عنهم جميعاً، ومن التابعين كثيرون ذكر أسماؤهم<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك ما رواه أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بسنده عن ابن عمر قلنا يا رسول الله: إن الإيمان يزيد وينقص قال: "نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار" وله شواهد في البخاري وفي ابن ماجة<sup>(٢)</sup> .

ومن ذلك ما روى عن سيدنا على كرم الله وجهه (إن الإيمان ليبدو لمعه بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت، حتى يبيض القلب كله . وإن النفاق ليبدو نكته، فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فبطع عليه، فذلك هو الختم)<sup>(٣)</sup> .

وإن في هذا لتفسيراً لقوله ﷺ (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكتت فيه نكته سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكته بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفاء فلا يضره فتنة ما دامت السماوات

(١) انظر كتاب الإيمان للدكتور على عبد المنعم عبد الحميد ط ١٩٧٨ ص ١٩٩-٢٠٠

(٢) أنظر شرح العقيدة الطحاوية للغنيمي ص ١٠٠

(٣) أنظر إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي ج ١ ص ١٢٠

والأرض . وآخر أسود لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) رواه مسلم وهو أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ١٤ المطففين .

وقد روى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أن الإيخان يزيد وينقص، وروى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قوله (إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم: أيزداد هو أم ينقص).

وروى أيضاً بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله لأصحابه (هلموا نزداد إيماناً) فيذكرون الله عز وجل .

وروى أيضاً عن ابن مسعود قوله في دعائه (اللهم زدنا إيماناً و يقيناً، وفقهاً)<sup>(١)</sup>

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن الإيخان لا يزيد ولا ينقص، فقد ورد عنه أن (إيخان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص ..) وهو يقارن بين إيماننا وإيمان الملائكة والرسل فيقول: (وقد حدثتكم أن الإيخان غير العمل فإيماننا مثل إيمانهم لأننا صدقنا من وحدانية الرب وربوبيته وقدرته وبها جاء من عنده بمثل ما أقرت به الملائكة، وصدقت به الأنبياء والرسل، فمن ههنا زعمنا أن إيماننا مثل إيمان الملائكة، لأننا آمنّا بكل شيء آمنّا به الملائكة من عجائب آيات الله ولم نعاينه نحن) .

يقول الإمام الطحاوي (والإيخان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقوى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى) وهو بهذا يتفق كما هو ظاهر مع ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة من أن الإيخان واحد لا يزيد ولا ينقص

ولكن العلامة ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية يرى أن الإمام الطحاوي قد أشار بذلك: (إلى أن التساوي إنما هو في أصله، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى).

(١) انظر كتاب الإيخان للدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد ط ١٩٧٨ ص ١٩١-١٩٢

والشارح يبين لنا أن الزيادة في الإيمان ليست محصورة في زيادة المؤمن به، إذ أين زيادة المؤمن به في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أو في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

يقول الإمام البغدادى: كل من قال: إن الطاعات من الإيمان أثبت فيه الزيادة والنقص، وكل من زعم أن الإيمان هو الإقرار الفرد منع من الزيادة والنقصان فيه .  
وأما من قال: إن التصديق بالقلب فقد منعوا من النقصان فيه، واختلفوا في زيادته فمنهم من منعها ومنهم من أجازها.<sup>(١)</sup>

وحاول الإمام الباقلانى حل مشكلة التردد بين زيادة الإيمان وعدم زيادته، إذ جعل الإيمان يزيد وينقص من حيث الجزاء المستحق له من عند الله باعتبار ما يصاحبه من عملٍ لم يكن لتصبح له قيمة قط بغير الإيمان، أما الإيمان من حيث التصديق في ذاته أو صورته فلا يزيد ولا ينقص.<sup>(٢)</sup>

ويقول إمام الحرمين الجوينى:

(ذهب أئمة السلف إلى أن الإيمان معرفة بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان، فهؤلاء أدرجوا الطاعات تحت اسم الإيمان، وهذا غير بعيد في التسمية، فمن أطلق الإيمان على الطاعات كلها يقول على مساق أصله: يزيد الإيمان بزيادة الطاعات وينقص بتقصانها، ومن قال الإيمان هو التصديق، فمن علم وعرف حقاً فلا يتفاوت التصديق المعلوم بالأعمال زادت أو نقصت).

ويصرح الإمام الجوينى بميله إلى القول بزيادة الإيمان ونقصه، وإن لم تدخل فيه

(١) وأقول: الأخرى أن يقال عن القائلين بالزيادة دون النقص، أن للإيمان حداً أدنى إذا كان عنده لم يقبل النقص . وليس مراد

القائل بالزيادة والنقص غير ذلك، سواء أدرج في عداد القائلين بأن الطاعات جزء من الإيمان، أو من القائلين بأنه التصديق فقط .

(٢) الإنصاف للباقلانى ص ٥٧

الطاعات، بناء على ما قرره من أن الإيمان المطلوب شرعاً عقد قلبي، يقوم ويستقر وإن لم يصحبه دليل عقلي، وأن الله كلف الخلائق هذا الإيمان ولم يكلفهم تتبع الأدلة، ثم يقول (وعلى هذه لقاعدة يزيد الإيمان وينقص بالطاعة، فإن من كان معتمده عقداً تأكد عقده بالمواظبة على الطاعة، وإن ضرى بالمعاصي وهى عقده، وهذا يجده معظم الخلق من أنفسهم) .

ويقول الإمام الغزالي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد: لفظ الإيمان مشترك بين ثلاثة معان:

قد يعبر به عن التصديق اليقيني البرهاني، ودليله أن من عرف الله تعالى بالدليل ومات عقب معرفته فإننا نحكم بأنه مات مؤمناً .

وقد يعبر به عن الاعتقاد التقليدي إذا كان جزماً، ودليله أن جماهير العرب كانوا يصدقون رسول الله ﷺ بمجرد إحسانه إليهم وتلطفه بهم، ونظرهم في قوانين أحواله من غير نظر في أدلة الوحداية ووجه دلالة المعجزة، وكان يحكم الرسول ﷺ بإيمانهم .

وقد يعبر به عن تصديق معه العمل بموجب التصديق، ودليله قوله ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة ..) الخ منها (إمارة الأذى عن الطريق) .

ويقرر الإمام الغزالي أن الإيمان إذا أخذ بإطلاقه الأول لم يتصور زيادته ولا نقصانه، بل اليقين إن حصل بكماله فلا مزيد عليه، وإن لم يحصل بكماله فليس بيقين وهى خطة واحدة ولا يتصور فيها زيادة ولا نقصان إلا أن يراد زيادة وضوح (!) أى زيادة طمأنينة النفس إليه، لأن النفس تطمئن إلى اليقينية النظرية في الابتداء، فإذا ما تواردت الأدلة على شئ واحد أفاد بظاهر الأدلة زيادة طمأنينة، وكل من مارس العلوم أدرك تفاوتاً في طمأنينة نفسه إلى العلم الضروري ... فالتفاوت في طمأنينة النفس مشاهد لكل ناظر من باطنه .

(١) العقيدة النظامية للإمام الجويني ط ١٩٤٨ د ص ٦٤-٦٥

(٢) المراد بالمشترك: اللفظ الموضوع لمعان مختلفة كالعين .

ونرى أن هذه إشارة إلى المنهج النفسى الذى يجب أن يكون الحكم فى موضوعنا وهو ما سارت عليه النصوص، ولا شك أن الأمور النفسية تقبل الزيادة والنقصان: كالفرح والحزن والسكينة... إلخ .

ثم يقرر الإمام الغزالى أن الإيمان إذا أخذ بإطلاقه الثانى (أى الاعتقاد التقليدى الجازم) فكذلك، أى يزيد وينقص، ولا سبيل إلى جحد التفاوت فيه، وإنما ينكره الذين سمعوا من العلوم والاعتقادات أساميها، ولم يدركوا من أنفسهم ذوقها، ولم يلاحظوا اختلاف أحوالهم وأحوال غيرهم فيها .

أما إذا أخذ الإيمان بالإطلاق الثالث (تصديق معه عمل بموجب التصديق) . يقول الإمام الغزالى إنه فى هذا المقام لا يخفى تطرق التفاوت إلى نفس العمل، ثم يتساءل: هل يتطرق التفاوت إلى نفس التصديق بسبب المواظبة على العمل؟

ومع أن الإمام الغزالى يقول عن هذه المسألة إن فيها نظراً لكنه يبادر إلى أن يقول:

(وترك المداينة فى مثل هذا المقام أولى، والحق أحق ما قيل فأقول: إن المواظبة على الطاعات لها تأثير فى تأكيد طمأنينة النفس إلى الاعتقاد التقليدى ورسوخه فى النفس، وهذا أمر لا يعرفه إلا من سبر أحوال نفسه وراقبها فى وقت المواظبة على الطاعة، وفى وقت الفترة، ولاحظ تفاوت الحال فى باطنه فإنه يزداد بسبب المواظبة على العمل أنسه لمعتقداته ويتأكد به طمأنينته، حتى إن المعتقد الذى طالت منه المواظبة على العمل بموجب اعتقاده أعصى نفساً على المحاول تغييره وتشكيكه ممن لم تطل مواظبته .

ولذلك تعبدنا الله بالمواظبة على أفعال هى مقتضى تعظيم القلب من الركوع والسجود ليزداد بسببها تعظيم القلوب، فهذه أمور يحجدها المتحذلقون فى الكلام الذين أدركوا ترتيب العلم بسماع الألفاظ، ولم يدركوها بذوق النظر، فهذه حقيقة هذه المسألة<sup>(١)</sup>

وإننى أرى التسوية بين ما كان برهاناً أو تقليداً فى هذا المقام، فكلاهما يتأثر بالمواظبة على الطاعات أو التقصير فيها فهذه هى النفس البشرية .

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١٠١-١٠٢

والإمام الرازي وإن صرح بأنه وأصحابه يذهبون إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص باعتبار أنه التصديق، إلا أنه عاد فقال (والتوفيق أن يقال: الأعمال من ثمرات التصديق، فكل ما دل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة كان مصروفاً إلى أصل الإيمان، وما دل على أنه قابل لها فهو مصروف إلى الإيمان الكامل) <sup>(١)</sup> وهو يعني أن أصل الشيء يظل ثابتاً لا يزداد ولا ينقص من حيث هو أصل، فإذا نظرنا إليه من حيث تحركه نحو الكمال فإنه يقبل الزيادة ليصير كاملاً، ويقبل النقص لينزل عن مرتبة الكمال، والله أعلم .

وينقل العلامة نجم الدين عمر النسفي في كتابه العتائد النسفية - بعد أن يشرح القول بعدم زيادة الإيمان ونقصه - قول بعض المحققين قائلاً (لا نسلم أن حقيقة الإيمان لا تقبل الزيادة والنقصان، بل تتفاوت قوة وضعفاً، للقطع بأن تصديق أحاد الأمة ليس كتصديق النبي ﷺ، وهذا قال إبراهيم عليه السلام "ولكن ليطمئن قلبي") .

وأراد بعضهم التوفيق بين القول بزيادة الإيمان ونقصه والقول بعدم زيادته ونقصه بأن المراد عند القائلين بعدم الزيادة والنقص: نفس التصديق، والمراد عند القائلين بالزيادة والنقص، الإيمان الشرعي .

(قالوا: وهذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقوال السلف، وبين أصل وضعه في اللغة وما عليه المتكلمون) <sup>(٢)</sup> .

أقول: أولاً: كلامنا في الإيمان الشرعي، فلا وجه لتوجيه أحد القولين إلى مفهوم آخر .

وثانياً: إن ضرورة التوفيق إنما تكون عند تعارضها مع ضرورة العقل، أو عند تعارضها مع النصوص والأمر هنا ليس كذلك:

فلا تعارض بينها وبين ضرورة العقل، بدليل أن المتكلمين أنفسهم مختلفون في هذه المسألة .

(١) أنظر كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للإمام الرازي ص ١٧٥ وما بعدها

(٢) أنظر كتاب الإيمان للدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد ص ١٩٨

ولا تعارض بينها وبين النصوص، فالنصوص متضافرة على زيادة الإيمان ونقصه فهي من المحكم في هذا المقام

وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندى في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ بسنده عن أبي مطيع عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة (أن وفد ثقيف سألوا: يا رسول الله: الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: لا، الإيمان مكمل في القلب، زيادته كفر ونقصانه شرك) فإن العلامة ابن أبي العز شارح الطحاوية يقول (سئل شيخنا عماد الدين ابن كثير - رحمه الله - عن هذا الحديث فأجاب بأن الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شئ من كتب التواريخ المشهورة، وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخى فقد ضعفه غير واحد، وقال النسائى متروك، واتهمه شعبة بالوضع حيث قال "لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً" <sup>(١)</sup>).

وأما قولهم: عطف العمل على الإيمان في القرآن الكريم وكونه يقتضى المغايرة... فالمغايرة على مراتب منها المغايرة بالمباينة ومنها ما ليس كذلك <sup>(٢)</sup>

ونضيف: ومنها المغايرة بالإظهار بعد الإبهام، أو بالإعلان بعد الإضمار، أو بالتفصيل بعد الإجمال ومنه المغايرة بين الكل والجزء .

وفي اعتقادى أن الإيمان والعمل يتركان تركيباً عضوياً لا يقوم فيه أحدهما بدون الآخر، ويتناميان فيه معاً بطريقة تبادلية ؛ وما الحد الأدنى من الإيمان (التسليم الباطنى) إلا " فعلاً " أى " عملاً " من أعمال القلب، فكيف نجرد الإيمان من العمل في أى مستوى من مستوياته؟ وكيف نجرد العمل - لوجه الله - من الإيمان؟!

وعلى هذا الأساس فإن الإيمان يزيد وينقص ولو قصرناه على عمل القلب .

وكما ذكر العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فإن الإيمان قابل للزيادة

(١) أنظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٤٦ - ٢٤٧

(٢) أنظر العلامة ابن أبي العز في شرحه للطحاوية ص ٢٤٦ - ٢٤٨



والنقص سواء أخذناه بمعنى التصديق. أو بمعنى يجمع التصديق والقول والعمل، وكما يقول (.. لكن النقصان له حد معين يقف عنده، هو أن يكون انتقاصاً من الزيادة لا من الأصل، فإذا جاوز ذلك لم يسم نقصاناً. بل يسمى ذهاباً ومحققاً وبطلاناً).

(أما الإيمان " بالمعنى الجامع " فأمر الزيادة والنقصان فيه ظاهر .. وإنما الكلام في الإيمان " بمعنى التصديق واليقين نفسه " فالمشهور عند العلماء أن التصديق نفسه لا يزيد ولا ينقص . والصواب أن التصديق نفسه تعرض له الزيادة والنقص من جهات ثلاث، من جهة وسيلته. ومن جهة متعلقه، ومن جهة ثمرته).

ويتضح الحل أمام الدكتور دراز من حيث ينظر إلى الموضوع من زاوية طبيعة النفس البشرية .

فمن ناحية تفاوت التصديق من جهة وسيلته:

يستدل على ذلك بقوله (كلما تكاثرت الشواهد والبراهين التي تؤيد المعلوم كان أشد رسوخاً في النفس وأعمق أثراً في القلب) ويقول (انظروا إلى قضية وصل إليكم علمها عن طريق الأخبار المتواترة، ثم عن طريق المشاهدة وقارنوا في أنفسكم بين درجة العلم في الحالتين)؟

ثم يضرب المثل لذلك بقول إبراهيم عليه السلام "رب أرني كيف تحيي الموتى". قال: أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ..."

... بل العيان نفسه يختلف، فليس العيان الذي يقع مرة ثم تلحقه غيبة كالعيان الذي يتكرر كل يوم ...).

وأما تفاوت التصديق زيادة ونقصاً من جهة متعلقه:

فواضح لأنه كلما زادت قضايا الإيمان وحصل الإيمان بها تفصيلاً، بعد أن كان جملة ... زاد الإيمان بدهاة .

يقول الدكتور دراز (لا تقولوا إن هذه المعلومات الكثيرة متى كانت داخلة في

موضوع ذلك الأمر الإجمالى صارت معلومة بعلمه سواء اطلع عليها أو لم يطلع عليها) ... هنا يلجأ الدكتور دراز إلى المنهج النفسى فى حسم الخلاف إذ يقول (لأن هناك فرقاً شاسعاً بين حصول الشيء فى النفس قصداً وحصوله ضمناً وتبعاً ... ومثل هذا كمثل حبة واحدة، وحبة أنبت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة) .

وأما تفاوت الإيمان زيادة ونقصاً من جهة ثمرته - وهى العمل -:

فبينه الدكتور دراز أيضاً من جهة ما أسميه "المنهج النفسى" إذ يقول (إن الفكرة النظرية التى تأخذ آثارها العملية تبقى ماثلة فى الوجدان لا تراحها الأضداد، ولا يطغى عليها النسيان، لأنها حاضرة غالباً فى مركز الفكر - أو كما يقول علماء النفس فى بؤرة الشعور - فهى تستمد من العمل قوة وثباتاً وإشراقاً ... وكذلك يستمد منها العمل سهولة ويسراً ... وهكذا كلما ازداد تكرار العمل بمقتضى تلك الفكرة ازدادت قوة فى نفسها، واستعداداً لإنتاج أمثاله من الأعمال بدون تكلف ..

فكذلك نقول: إن من اعتاد طاعة الله تعالى ازداد إيمانه، ومن كثرت مخالفته لأوامر الله ضعف يقينه إلى حد ما<sup>(١)</sup>، فإن هو اعتاد ذلك لم يؤمن ثباته، على الإيمان) . وهذا هو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ ١٧ محمد، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٦٣ النور، وعلى هذا يحمل ما ورد عن مروق مرتكب الكبيرة من الإيمان<sup>(٢)</sup>.

### ما بين الوسوسة والإيمان:

جاء فى صحيح مسلم بسنده عن أبى هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبى فسألوه إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذاك صريح الإيمان .

(١) أى دون أن ينزل إلى ما تحت الحد الأدنى الذى هو تسليم النفس إرادياً .

(٢) أنظر المختار من كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز

وفي رواية أخرى له بسنده عن علقمة عن عبد الله قال سئل النبي عن الوسوسة قال تلك محض الإيهان .

وهنا يكون السؤال: هل يكون الشخص مؤمناً وهو مشتمل على هذه الخواطر؟  
الجواب: نعم طبقاً للحديث .

فيأتي بعد ذلك سؤال آخر: أيكون هذا الإيهان هو ما يصفه علماء الكلام بأنه التصديق المنطقي؟ أم يكون الإيهان نوعاً من الإذعان القلبي الذي تحكمه الإرادة مهما تكن خواطر الفكر وسوانحه؟!

لا يصح أن يقال: إن التسامح في هذه الخواطر لا يكون إلا إذا تعلقت بغير أصل من أصول الدين، لأن من الحديث أن ما كان يدور في صدور بعض الصحابة المتسائلين هي أمور تتعلق بذات الله وصفاته: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟!

وهذا يؤكد أن الإذعان الإرادي كاف في تحقيق أصل الإيهان مهما تكن الوسواس والخواطر. والشخص إذا أذعن على هذا النحو أى أسلم نفسه ووجهه لله، يضع نفسه في رحاب الله ويستمطر هداه، فلا عليه بعد ذلك من هذه الخواطر إذا استمر في تسليمه، ومن تسليمه أن يقوم بالشعائر وأن يلتزم الشريعة فهي تدريب نفسي وعمل يصعد به في مدارج اليقين الذي إن أفلت منه أولاً، يقترب منه ثانياً، ويلتحم به ثالثاً .

هل تكفى كلمة التوحيد ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ للحكم بدخول صاحبها في الإسلام؟!

الجواب: نعم، فهذا مقتضى قوله ﷺ فيها أخرجه أبو داود عن معاذ بن جبل رضى الله عنه " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة "

فكلمة التوحيد يلزمها اعترافه بجميع ما يبلغه الرسول عن ربه لزوماً بيناً أو غير بين

ولا مفر من أن نفهم هذا الحديث في ضوء ما اشترطه الحديث في صحيح البخاري بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت

أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)

وفي هذا يذهب الدكتور محمد عبد الله دراز إلى أن هذه الشهادة "التوحيد" يلزمها الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، لأن من لم يؤمن بالرسول لم يؤمن بمعجزاته، فكان معتقداً أن الله شريكاً في خلقها، فكان مشركاً، فالتوحيد - كما يقول الدكتور دراز - هو جماع الدين كله، وإن أنواع الكفر كلها ترجع إلى الشرك .

ومن جهة أخرى نجد أنه لا بد من شيء من البيان: فالكافر إذا قال كلمة التوحيد وحدها ننظر في أمره على تفصيل، إن كان أصل مخالفته للإسلام إنما هو في شأن عقيدة التوحيد، اكتفينا بها وحكمنا بإسلامه .

قال النواوى في شرحه لصحيح مسلم في باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة: (أما إن كانت مخالفته من أجل شيء آخر أيضاً من أصل النبوة فإن كلمة التوحيد وحدها لا تكفى بل ينبغى أن يضم إليها شهادة الرسالة، كما ينبغى أن يضم إليها ما يكون معروفاً عنه مخالفته لأصل من أصول الدين، على حسب ما يقتضيه المقام، ولا يكتفى بشهادة التوحيد، لأن استلزام هذه الشهادة لسائر العقائد من قبيل اللزوم غير البين، فقد يغفل عن شيء منها ويجمع بين التوحيد وبين عقيدة باطلة تضاده غافلاً - أو مغفلاً - جهة التضاد، فالمطلوب أن تكون هناك دلالة نفهم منها اعترافه بجميع ما يبلغه الرسول عن ربه، قوله كانت هذه الدلالة أو فعلية، أو حالية، أو مركبة من هذا وذاك، إجمالية كانت أو تفصيلية على حسب ما يقتضيه المقام<sup>(١)</sup>).

يقول العلامة ابن أبي العز شارح الطحاوية (والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط - مشيراً بذلك إلى قوله ﷺ "من

(١) انظر المختار للدكتور دراز ص ١١٥ - ١١٦ .

قال لا إله إلا الله حرم عليه النار" فإن هذا من المعلوم بالدين بالضرورة، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت أجاحديس في الدرك الأسفل من النار<sup>(١)</sup>.

### حكم تعليق الإيمان على المشينة

يقول الطوسي (المعتزلة ومن تبعهم يقولون: اليقين لا يحتمل الشك والزوال، فقول القائل أنا مؤمن إن شاء الله لا يصح إلا عند الشك أو خوف الزوال، وما يوهم أحدهما لا يجوز أن يقال للتبرك).

وفصل الإمام البغدادى مذهب الأشاعرة والقائلين بأن الإيمان هو التصديق على النحو التالى:

منهم من يميز الاستثناء وهو أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكى وأبو بكر محمد بن الحسين بن فورك، ومنهم من ينكره وهؤلاء أبو عبد الله بن مجاهد والقاضى أبو بكر الباقلانى، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاسفرايينى .

يقول الإمام الرازى (أكثر أصحابنا قالوا أنا مؤمن إن شاء الله لا لقيام الشك، إما للتبرك، أو للصرف للعاقبة).

ثم يقرر مذهب القائلين بأن جملة الطاعات من الإيمان بأنهم يقولون بالموافاة، وأن كل من وافى ربه على الإيمان فهو المؤمن. ومن وافاه بغير الإيمان الذى أظهره فى الدنيا علم فى عاقبته أنه لم يكن قط مؤمناً، فهم يستثنون فى كون المرء مؤمناً - أى بحسب العاقبة -، ولا يستثنون فى صحة الإيمان، واستدلوا على ذلك بأن الله تعالى أمر بإيمان يدوم إلى آخر العمر، وإذا قطع القاطع إيمانه علم أن الذى أظهره قبل القطع لم يكن الإيمان المأمور به، هو أشبه بمن قطع صلاته قبل تمامها، فعند القطع علم أنه لم يصل .

وقد روى عن ابن أبى مليكة أنه قال: أدركت أكثر من خمسمائة من أصحاب النبى ﷺ: كل منهم يخشى على نفسه النفاق لأنه لا يدرى ما يختم له أه<sup>(٢)</sup>.

(١) شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٣٩ .

(٢) انظر شرح الضحاوية ص ٢٣٥ - ص ٢٣٦ .

والخلاصة أن من العلماء من يجرمه لأنه شك فيما هو إيمان أنه ليس كذلك .

ومنهم من يوجهه لأنه حكم متعلق بالخاتمة وليس لأحد أن يدعى على أى وجه تكون، إلا بعلم الله . أو لأنه حكم متضمن لكمال الإيمان، وهذه تركيه للنفس ليس له أن يجزم بها .

ومنهم من يميزها: إذا لم يكن شكه في أصل الإيمان . تأسيًا بقوله تعالى: ﴿لَتَذَخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وبقوله ﷺ حين وقف على المقابر " وإنا إن شاء الله بكم لاحقون " (١) .

### خطر الأمن واليأس على الإيمان

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

ويقول تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ .

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ .

وفي الحديث في صحيح مسلم بسنده عن النبي ﷺ: يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء "

وفي صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه " .

ولمسلم بسنده عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يبعث كل عبد على ما مات عليه . .

وفي رواية أخرى له أيضاً أنه ﷺ قال: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل) .

---

(١) انظر محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي . وأصول الدين للبغدادى ص ٢٥٣ - ٢٥٤ وشرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

ولهذا قيل: إن العبد ينبغي أن يكون رجاءه في مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه .

وقال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم: (قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه . قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفاً راجياً، ويكونان سواء وقيل يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضة، لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذه الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له ..) أهـ

### إيمان الأطفال:

قال بعض الخوارج بالتبري من أطفالنا - أطفال المؤمنين - حتى يبلغوا فيدعون إلى الإسلام، ذهب إلى ذلك العجاردة والصلتية .

وقال آخرون من الخوارج: بالتوقف في شأنهم حتى يبلغوا فيدعون إلى الإسلام دون التبري، هؤلاء هم الثعلبية فيما ذكره عنهم الأشعري، وذكر البغدادى أنهم يقولون: نحن على ولايتهم صغاراً وكباراً إلى أن يبين لنا منهم إنكار .

وينقل البغدادى عن الإباضية أنهم يقولون في أطفال موافقيهم من أهل ملة الإسلام .. إذا ماتوا دخلوا الجنة، أما أطفال مخالفهم فهم في النار مع آبائهم .

وزعمت الكرامية أن الإيثار وجد من الكل في عالم الذر، وعليه فإن الأطفال يولدون مؤمنين بالإقرار السابق، سواء ولدوا من مؤمن أو كافر .

وقال المعتزلة بوجوب الإيثار عند تمام العقل بغير شرط البلوغ، وعليه فإن الطفل قبل كمال عقله ليس بمؤمن ولا كافر، لكنه إن مات دخل الجنة . فإذا كمل عقله - قبل البلوغ - وجب عليه الإيثار: بما يعرف بالعقل في الحالة الثانية من معرفته بنفسه، ووجب عليه الإيثار بما يعرف بالشرع في الحالة الثانية من سماعه خبر الشرع على وجه يقطع العذر، وإلا ... صار كافراً .

وقال بعض المعتزلة يجب عليه ما تقدم لا في الحالة الثانية ولكن بعد مهلة يمكن فيها الاستدلال.

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري ومن تابعه: لا وجوب إلا بالشرع، فوقت وجوب الإيمان هو اجتماع أمرين تمام العقل والبلوغ، إذ الشرع لا يلزم بغيرهما، ولقوله ﷺ: (رفع القلم عن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق) <sup>(١)</sup>. وعليه فإنه لا يجب على الطفل - أى الذى لم يبلغ - شيء . ويحكم إسلامه بإسلام أبيه عند مالك، أو بإسلام أحدهما عند الشافعى وأبى حنيفة <sup>(٢)</sup>.

### حكم أطفال المشركين:

يرى الأزارقة، والعجاردة من الخوارج أن أطفال مخالفيهم مشركون مخلدون في النار .

ويرى الإباضية التوقف في أطفال المشركين: يجوز تعذيبهم، ويجوز دخولهم الجنة تفضلاً من الله .

ويرى الكرامية أن أطفال المشركين مؤمنون لما حصل من الإقرار بالإيمان في عالم الدر .

أما المعتزلة فيقول البغدادى: أنهم أفشوا بين الناس قولهم بأن من مات طفلاً كان من أهل الجنة، مع أن ذلك لا يتفق مع ما تقدم من قولهم بوجوب النظر عليهم بمجرد تعقلهم، فإذا مضت المدة بعد هذا التعقل ولم يستدل ثم مات كان كافراً مستحقاً للخلود في النار .

---

(١) ذكره ابن عبد البر في كتابه التمهيد لما في الموطأ من المعانى والأسانيد ج ١ ص ١٠٨ ط ١٣٨٧ بالمغرب، وصاحب عون المعبود شرح سنن أبى داود ج ١٢ ص ٤٨ نشر بيروت، وصاحب الفتح البارى ج ٢ ص ٣٤٦ نشر بيروت عام ١٣٧٩، وابن حزم في المحلى ج ١٠ ص ٣٤٤، وابن قدامة في المغنى ج ٧ ص ٢٩٠ ط ١٤٠٤ هـ نشر بيروت

(٢) أنظر أصول الدين للبغدادى وكتابنا نشأة الآراء والمذهب والفرق الكلامية .



أما أهل السنة فقد أجمعوا على أن من مات من ذراري المؤمنين صغيراً، أو بلغ مجنوناً ومات يكون مع المؤمنين في الجنة . وتوقف المتخرجون منهم في أفعال المشركين لاختلاف الأخبار فيهم .

والأصح أنه ما لم يصح من هذه الأخبار شيء يرجع إلى القاعدة التي اتخذت أساساً للحكم على أطفال المؤمنين. فهي لم تكن مقيدة بهم، القاعدة أن الطفل لا يعاقب لأنه لم يقصر في أداء واجب، وهو لم يجب عليه شيء قبل البلوغ<sup>(١)</sup>.

### الكبائر والصفائر

وردت طائفة من الآيات والأحاديث تبين أن الذنوب منها ما هو كبير، ومنها ما هو صغير، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ ٤٩ الكهف .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ ٢ النساء .

﴿ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴾ ٣١ الإسراء .

﴿ إِنْ مَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ٣١ النساء .

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ ﴾ ٣٢ النجم .

﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ٢١٧ البقرة .

﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ ٢١٧ البقرة .

﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ ﴾ ٢١٩ البقرة .

﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ٦١ يونس .

ومن ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه، قالوا: وكيف يسب الرجل والديه، قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)

وقد اختلف العلماء في تعريف الكبائر على أقوال:

(١) انظر أصول الدين للبغدادى وكتابنا نشأة الآراء والفرق والمذاهب الكلامية

قيل: هى ما اتفقت الشرائع على تحريمه، وهذا التعريف غير جامع لأنه يقتضى أن شرب الخمر أو الفرار من الزحف، أو التزوج ببعض المحارم، أو التزوج بمحرم من الرضاعة أو الصهرية أو نحو ذلك ليس من الكبائر . وهو غير مانع لأنه يقتضى أن الحبة من مال اليتيم أو الكذبة الواحدة الخفيفة من الكبائر . وهو ليس كذلك باتفاق

وقيل: هى ما سد باب المعرفة بالله، أو ذهاب الأموال والأبدان، وهذا تعريف غير جامع لأنه يقتضى أن أكل الخنزير والميتة والدم أو منع الزكاة ليس من الكبائر، وهذا باطل باتفاق .

وقيل: إنها تسمية نسبية، فالكبيرة تكون كذلك بالنسبة لما دونها، والصغيرة تكون كذلك بالنسبة لما فوقها، وهذا غير صحيح لأنه يقتضى مخالفة النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صفائر بذاتها وكبائر بذاتها . ويقتضى أن تختلف العقوبة باختلاف الأشخاص، بل يقتضى أن يعاقب المسرف فى الذنوب على ذنب أقل مما يعاقب عليه غير المسرف، وهذا ظاهر البطلان

وقيل إنها لا تعلم أصلاً فقد أخفيت كليلة القدر، للتورع عنها حيث يجرى بالخاطر أنها كذلك، وهذا فضلاً عن أنه تجاهل للنصوص التى ذكرناها، فإن قائل ذلك كما يقول العلامة ابن أبى العز شارح الطحاوية عنه: إنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره والله أعلم .

ويؤيد العلامة ابن أبى العز شارح الطحاوية تعريف الكبيرة بأنه: كل ذنب جاء فيه حد فى الدنيا، أو وعيد فى الآخرة، والصغيرة ما لم يرد فيها شئ من ذلك، وبين أن الوعيد الأخرى نوعان: وعيد خاص، وهو ما صرح فيه باستحقاق النار أو اللعنة أو الغضب، ووعيد عام وهو ما لم يصرح فيه بشئ من ذلك، والمراد بالوعيد الذى يجعل الذنب كبيرة الوعيد الخاص لا العام، فهو أى الخاص الذى يقابل ما جاء فى العقوبة الدنيوية من تقدير بقدر هو الحد، أما الوعيد العام فهو الذى يقابل ما جاء فى العقوبة الدنيوية ما جاء بغير تقدير وحد .

ويرجح شارح الطحاوية هذا القول من وجهين:

أحدهما: أنه المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل وغيرهم .  
الوجه الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿ إِن تَجْتَبِئُواْ كِبَارِهِمَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝ ﴾ وهذا يقتضى ألا يستحق هذا الوعد الكريم صنفان من الناس: من توعدده الله بغضب أو لعنة أو نار، ومن كان مثله ممن استحق إقامة الحد عليه في الدنيا .

### إلحاق الكبائر بالصغائر والصغائر بالكبائر

يقول العلامة ابن أبي العز شارح الطحاوية: (ثم أمر ينبغى التفتن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر .  
وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها والإصرار عليها ما يلحقها بالكبائر .  
وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره) <sup>(١)</sup> .  
وهنا نقول: إن الأمر الأول قد يتصور في بعض الكبائر دون بعض، إذ كيف يتصور الحياء في الزنا مثلاً .

ونقول في الأمر الثاني: إنه ينطبق على كثير من حالات الفساد في المجتمع الإسلامى المعاصر: إذ تأتى غالباً من المداومة على الصغائر والاستخفاف بها، كالمداومة على سوء الأدب، أو سوء التصرف، أو قلة الذوق: في الطرقات والاجتماعات، والندوات، والأسواق، على مختلف المستويات، فهى في نظر الإسلام كبائر كلما ارتكبت على سبيل المداومة أو الاستخفاف، أو قلة الحياء .

### حكم "مرتكب الكبيرة"

ذهبت النجدات من الخوارج: إلى تكفير مرتكبى الحدود من موافقيهم كفر نعمة

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ٢٣٢

لا كفر ملة . وقال منهم قوم بأن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها وعيد مخصوص . فأما الذنب الذي فيه حد أو وعيد في القرآن فلا يزداد صاحبه على الاسم الذي ورد فيه مثل تسميته زانياً أو سارقاً، وصاحبه مع ذلك غير داخل في الإيمان . كأنهم يقولون بما قالت به المعتزلة (جزئياً): أى لا هو مؤمن ولا هو كافر .

وقالت البيهسية من الخوارج بكفر الرعية تبعاً لكفر الأمام . وقالت العوفية منهم إذا كفر الإمام كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد .

والخوارج على وجه الإجمال تراوح رأيهم في مرتكبي الكبيرة بين الشرك والكفر كفر اعتقاد، والكفر كفر نعمة يجزى عليها مع ذلك بالخلود في النار، والإسلام بشرط ألا يكون مصراً عليها ولا مخالفاً للفرقة، بل لقد وصل الأمر عند النجديات إلى أن من استحل باجتهاده محرماً فهو معذور، فيما سوى معرفة الله ومعرفة رسله وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، والإقرار بما جاء من الله جملة، والغريب أن هؤلاء النجديات أسقطوا حد الخمر وأقروا مبدأ التقية<sup>(١)</sup> .

وذهبت الإباضية إلى: أن مرتكب ما فيه الوعيد كافر كفران نعمه لا كفران شرك وذهب بعض الباحثين إلى أنهم قد سبقوا المعتزلة في القول بالخلود في النار لطائفة ليست كافرة كفر اعتقاد<sup>(٢)</sup> ولكن كفر نعمة فحسب .

أما المعتزلة: فقد ذهب واصل وعمر بن عبيد والمعتزلة من بعدهما إلى أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر، وهو في منزلة بين المنزلتين .

واستدل واصل على مذهبه هذا بأن مرتكب الكبيرة فاسق لا يسمى مؤمناً ولا يسمى كافراً، لأنه لا يستحق أحكام المؤمن ولا أحكام الكافر، اتفاقاً، وهو كذلك لا يسمى منافقاً لأن المنافق يستحق إجراء أحكام الكفرة عليه إذا علم نفاقه، وليس كذلك صاحب الكبيرة .

(١) أنظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٧٣

(٢) أنظر كتابنا لنشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ص ٩٨

وهم يعنون بأحكام المؤمن هنا مثل ما جاء في أول سورة المؤمنون، وبأحكام الكافر مثل الحكم بقتله مرتداً، أو الحكم بالتفريق بينه وبين زوجته المسلمة، أو الحرمان من الميراث بين أصوله وفروعه المسلمين .

ويمكن مناقشتهم هنا بأن أحكام الإيذان التي لا يحكم بها على مرتكب الكبيرة هي أحكام الإيذان الكامل، أما أحكام أصل الإيذان فيجوز الحكم بها عليه .

وهو يستدل أيضاً بالإجماع من حيث أجمعت الفرق كلها على أن مرتكب الكبيرة فاسق، قال واصل لعمر بن عبيد: أو ليس تجد الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقاً ويختلفون فيما عداه من الأسماء؟، فالخوارج تسميه كافراً وفاسقاً، والمرجئة تسمية مؤمناً فاسقاً، والشيعة تسميه فاسقاً كافراً نعمه، والحسن البصري يسميه منافقاً فاسقاً، فأجمعوا على تسمية مرتكب الكبيرة بالفاسق، وقالوا: نأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه .

ويمكن مناقشتهم في هذا الادعاء بأنهم خرجوا على الإجماع بقولهم بأنه في منزلة بين المنزلتين .

ويستدل أيضاً بالآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِإِنْعَاءٍ شُهَدَاءَ فَإِذْلُهُمْ تَمَيَّنَ جَلْدُهُ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ حيث سماهم الفاسقين .

ويمكن مناقشتهم هنا بأن هذا الاستدلال لا يمنع من تسمية مرتكب الكبيرة هنا مؤمناً مع تسميته فاسقاً كما هو مذهب أهل السنة .

والمعتزلة يضيفون إلى ذلك استدلالهم بأن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه عندما سئل عن مقاتليه من الخوارج أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، ثم سئل: أمسلمون هم؟ قال: لو كانوا مسلمين ما قاتلناهم .

ويمكن مناقشتهم في هذا الاستدلال بأن علياً رضي الله عنه سلب عنهم وصف الإسلام الكامل الذي يكف عنهم العقاب في الدنيا. وهذا التفسير يتفق مع ما ذهب

إليه القاضي عبد الجبار من أئمة المعتزلة إلى أن لفظ المسلم جعل في الشرع على نحو لفظ المؤمن اسماً لمن يستحق التعظيم والإجلال والمدح .

وعند واصل من المعتزلة أن مرتكب الكبيرة من المخلدين في النار وإن كانت دركته فوق دركة الكفار، ويقرر القاضي عبد الجبار من المعتزلة في غير موضع من كتابه " شرح الأصول الخمسة " تخليد مرتكب الكبيرة في النار أبد الأبد، ويذهب مع ذلك إلى أن عقابه يكون دون عقاب الكافرين، وأنه لا يكون يائساً من رحمة الله، وأنه يجوز وصفه بالإيمان مقيداً!!<sup>(١)</sup>.

ونلاحظ أن هذا الجواز عند القاضي عبد الجبار لا يعنى التطابق مع مذهب أهل السنة في الموضوع لأن أهل السنة يميزون وصفه بالإيمان مقيداً وغير مقيد .

ويستدل القاضي عبد الجبار على تخليد مرتكب الكبيرة في النار بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ . (١٤ النساء) وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ . (٩٣ النساء).

ويمكن مناقشة المعتزلة في هذا الاستدلال بأنه لا يستحضر كافة النصوص المتعلقة بالموضوع ليوافق بينها بتفسير بعضها بعضاً والوصول بها إلى أن المراد بالخلود طول المكث لا الأبد، كما فعل أهل السنة كما سيأتى في شرح مذهبهم . .

وإذا كان الخوارج يستدلون بذلك على ما استدل عليه المعتزلة ويزيدون حكمهم بكفر مرتكب الكبيرة على النحو المفصل عند فرقهم المختلفة، فإن المعتزلة لا يخطون هذه الخطوة، ويستدلون على عدم الكفر ذاك بآية اللعان، في قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ أَحَدِهِمْ أَنْ نَعِ شَهِدَتْ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ١١﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنْ لَعَنْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٦ وما بعدها

الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخُمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ ٦-٩ النور .

يقول القاضي عبد الجبار: (فإن اللعان فإنما ثبت بين الزوجين، فلو كان القذف كفراً لكان لا بد من أن يخرج أحد الزوجين بنفسه عن الإسلام فتقطع بينهما عصمة الزوجة فلا يحتاج إلى اللعان، فإنه لم يشرع بين الأجنيين وإنما يجري بين الزوجين فيصح بهذه الجملة أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى كافراً ولا يجوز أن يجري عليه أحكام الكفر) (١).

وأرى أن هذا التعليل إن كان يسوقه المعتزلة للاستدلال على "عدم الكفر" فإنه متهافة لأن اللعان إنما يجري قبل أن تثبت الجريمة، أى قبل أن يثبت الفسق، فهو ما يزال مجرد دعوى بعد، ولأن التفريق بين الزوجين إنما يقع بمجرد الخروج من الإيمان دون انتظار لوصف الكفر الزائد . وقد قال به المعتزلة كما قال به الخوارج فهم سواء في ذلك، فما قالوه لا يفيد الخوارج ولا المعتزلة على سواء .

وتذهب الزيدية من الشيعة مذهبها في تخليد مرتكب الكبيرة في النار، مخالفة إمامها - من بعده - الذي كان يذهب مذهب أهل السنة . فهو أى زيد رضى الله عنه - ذهب إلى أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان أو الإسلام، بل يعذب حيناً من الدهر ثم يرد إلى الجنة .

والإمامية من الشيعة: - يسمون مرتكب الكبيرة مسلماً (إلا أصحاب البدع) (٢) فإنهم كفار مرتدون يستتابون وإلا قتلوا ...). فأين من أنكر الإمامة بينهما؟ ويذهب العبيدية من المرجئة إلى أن ما دون الشرك مغفور لا محالة، وأن العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات .

ولهم في ذلك قياس: أنه كما لا ينفع مع الشرك (طاعة) كذلك لا يضر مع الإيمان عمل (معصية) ولا يدخل النار أحد من أهل القبلة .

(١) أنظر شرح الأصول الخمسة ص ٦٣٣، ٦٩٨، ٧١٢، ٧٠٢، ٧٠٧، ٧١٤، ٧١٧، ٧٢٠، ٧٢٦

(٢) أنظر أوائل المقالات للشيخ المفيد ص ١٥

ويمكن الرد على قياسهم هذا بأنه مع الكفر لا يتصور طاعة، لأن الطاعة بحسب معناها اللغوي البحت إنما تكون كذلك لمن يطيع المطاع، والكافر بعمله لا يطيع فيه أحداً، أو لا يطيع فيه المطاع الذى يرجى ثوابه، وهى بحسب معناها الشرعى لا تكون كذلك إلا بنية التوجه بعمله إلى الله، "إنما الأعمال بالنيات" والكافر لا يتوجه إلى الله بعمله، لأنه غير مؤمن به أصلاً، فالقياس قائم على المغالطة، وهو مبتور من أوله .

وذهبت اليونسية من المرجئة إلى أن ترك ما سوى الإيمان من الطاعة لا يضر حقيقة الإيمان، ولكن يبدو أن سقوط العمل عند هؤلاء يبدو سقوطاً مجازياً، بمعنى أنه بعد تمكن الإيمان - وهو معرفة وخضوع ومحبة الله - من القلب لا يتصور معه وقوع المعصية ولا ترك العمل، قال يونس بن عون النميرى زعيم المذهب (من تمكن في قلبه الخشوع والمحبة له على خلوص ويقين لم يخالفه في معصية<sup>(١)</sup>)

فإذا وقعت منه المعصية فهى فى هذه الحالة "لا تضر" لأنها تكون هفوة ولا عمد فيها ولا إصرار عليها .

### أما المرجئة الحديثة:

الذين يثيرون أغاليط من مثل: التكفير حكم لا يملكه بشر، لأن العقيدة متعلقة بالقلب

ومن مثل: اللاأدرية المتمثلة فى قول بعضهم: أنت لا تملك الحقيقة

ومن مثل: الاعتراض على تكفير النصارى واليهود

ومن مثل: النسبية التاريخية

فهم أكثر انفلاتاً وتديساً وتليساً إلى حد يصدق عليهم فيه قول أبى حنيفة رضى الله عنه "من قال لا أعرف الكافر كافراً فهو مثله"

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٢٥



وللموضوع مزيد بيان في كلامنا الآتي عن الإلحاد المعاصر.

وقد كان الحسن البصري رضى الله عنه من أهل السنة - فيما يروى عنه - يذهب إلى أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن مطلق ولا بكافر مطلق . وأنه يستحق اسم المنافق . لأمرين:

الأول أن الفاسق يستحق الذم واللعن كالمنافق سواء فلا يمتنع إجراء هذا الاسم عليه .

الثاني: أنه بارتكابه الكبيرة دل على أن في اعتقاده خللاً، وأنه أظهر الإسلام دون أن ينطوى عليه قلبه إذ لو كان معتقداً لله تعالى وللثواب والعقاب لكان يكون في حكم الممنوع من ارتكابه الكبيرة، فمعلوم أن أحداً إذا قال له غيره: إن فعلت كذا عاقبتك بهذه النيران المؤججة في هذا البيت - وهو عالم بقدرته عليه وأنه لا يخلف وعده ولا وعيده فإنه يكون كالمندفوع إلى أن لا يفعل ما يهدده وكذلك الأمر هنا <sup>(١)</sup> . وهذا أشبه بالوعظ منه ببيان الحكم الشرعى

وتكلم الإمام أبو حنيفة في حكم مرتكب الكبيرة، قال:

(أهل القبلة مؤمنون، لست أخرجهم من الإيمان بتضييع شئ من الفرائض ...

ومن أصاب الإيمان وضيّع شيئاً من الفرائض كان مؤمناً مذنباً، وكان لله تعالى فيه المشيئة: إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، فإن عذبه على تضييعه شيئاً فعلى ذنب عذبه، وإن غفر له فذنباً يغفر <sup>(٢)</sup>).

وهو يقول: (من قتل نفساً بغير حق أو سرق أو قطع الطريق فهو مؤمن فاسق وليس بكافر، وإنما يعذبهم الله بالإحداث في النار، ويخرجهم منها بالإيمان <sup>(٣)</sup>).

ويقول أبو حنيفة أيضاً: (ولا تكفر مسلماً بذنب من الذنوب، وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمناً حقيقة، ولا نقول إن حسناتنا

(١) أنظر كتابنا نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ص ٦٢

(٢) المصدر السابق (ص ٣٧).

(٣) الفقه الأيسر (ص ٤٧).

مقبولة وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة، وما كان من السيئات دون الشرك والكفر لم يتب عنها صاحبها حتى مات مؤمناً فإنه في مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه بالنار، وإن شاء عفا عنه ولم يعذبه بالنار أصلاً<sup>(١)</sup>.

وقال: (من قتل نفساً بغير الحق أو سرق أو قطع الطريق ... فهو مؤمن فاسق وليس بكافر، إنما يعذبهم الله بالأحداث بالنار، ويخرجهم منها بالإيمان).  
وقال (لا تكفر أحداً بذنب ولا تنفي أحداً من الإيمان).

وسفه رأى القائلين بصدور الذنب عن نفس غير مؤمنة بالضرورة، أو في إيمانها ضعف، يقول: (ومن أين قالت الجاهل إذا رأوا من إنسان زلة جزعاً عند مصيبة، أو جبناً من عدو، أو حرصاً على هوى .. هذا من ضعف اليقين؟ إنما قالوا ذلك لجهالتهم بتفسير اليقين). ويقول: (المؤمنون من قبل إيمانهم يصلون ويزكون ويصومون .. وليس من قبل صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم بالله يؤمنون)<sup>(٢)</sup>.

أما من كان يعيش على أرض الشرك، مقراً بجملته الإسلام، غير عالم بشيء من الفرائض والشرائع، ثم مات على هذه الحال، فإن أبا حنيفة يراه مؤمناً مهما ارتكب من الذنوب والمعاصي<sup>(٣)</sup>.

وقد أشار الإمام - فيما يذكره البياضي - إلى مواضع الإكفار، وترجع جملتها إلى ثلاثة وعشرين موضعاً، في ستة منها يرجع الإكفار إلى نسبة النقص الصريح إليه تعالى. وفي ستة عشر يرجع الإكفار إلى إنكار ما علم بالضرورة كونه من الدين .. وفي موضع واحد يرجع الإكفار إلى تأويل ما علم قطعاً كونه على ظاهره<sup>(٤)</sup>.

ويلتفت الإمام إلى مشكلة الفرق آنذاك: التنازع بالتكفير: فيقول فيمن يرميه

(١) الفقه الأكبر بشرح المغنيساوى (ص ٢٧ - ٣٠).

(٢) العالم والمتعلم لأبي حنيفة ص ١٢

(٣) أنظر كتابه العالم والمتعلم ص ١٤، وكتابنا نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية في الإسلام ص

٢٣٦-٢٣٧

(٤) انظر التفصيل: إشارات المرام للبياضى (ص ٥١).

بالكفر: شهادتي عليه أنه كاذب ولا أسميه كافراً .. ويقول فيمن يبرأ إليه من دينه: إن قال لي هذا لم أعجل، ولكني أسأله عند ذلك مم تبرأ؟ من دين الله؟ أو تبرأ من الله؟ فأى القولين قاله سميته كافراً مشركاً .. فإن قال لا أبرأ من الله ولا أبرأ من دين الله ولكن أبرأ من دينك لأن دينك هو الكفر بالله، وأبرأ مما تعبد لأنك تعبد الشيطان، فإنى لا أسميه كافراً، لأنه إنها يكذب على<sup>(١)</sup> ..

أما الإمام مالك فيروى عنه أنه قال: (لو أن العبد ارتكب الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئاً ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله ﷺ: لأرجو أن يكون في أعلى درجات الفردوس)<sup>(٢)</sup> .

يقول البغدادى فى كتابه " الفرق بين الفرق ": (وكان علماء التابعين مع أكثر الأمة يقولون إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن . لما فيه من معرفته بالرسول والكتب المنزلة، ولمعرفته بأن كل ما جاء من عند الله حق . ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفى عنه اسم الإيمان والإسلام).

ويقول الإمام الرازى: (صاحب الكبيرة عندنا - أى الأشاعرة - مؤمن مطيع بإيمانه عاص بفسقه)<sup>(٣)</sup> .

ومما يصح الاستدلال به على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج بارتكابه لها عن الإيمان أن القرآن وصف بالإيمان مرتكبى بعض الكبائر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفُتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ٩ الحجرات، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ أَلْخُرُ بِالْخُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ ١٧٨ البقرة .

(١) العالم والمتعلم (ص ٢٧) .

(٢) أنظر مناقب الإمام مالك لعيسى بن مسعود بن منصور الزواوى طبع المطبعة الخيرية عام ١٣٢٥

ص ٣٨، وكتابنا نشأة الآراء والمذاهب والفرق الإسلامية ص ٦٤-٦٥

(٣) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٧٤-١٧٥

ومما يدل على أن مرتكب الكبيرة يختلف عن الكافر حكماً، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ولا يصح أن يقال إن هذا مقيد مطلقاً بالتوبة، إذ لا يكون بهذا فرق بينه وبين المشرك، فالمشرك إذا انتهى يغفر له: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

ولا يصح أن يقال إن الذنب الذي شاء الله مغفرته هو الصغائر، لأن الآية لم تخصص الذنب، بأكثر من كونه (دون الشرك) صغائر أو كبائر، على أن الصغائر مغفورة بلا قيد متى اجتنبت الكبائر ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

ومن المهم هنا القول بأن الآية لا تدل على أن غير الشرك من الكفر - كإنكار البعث مثلاً - داخل في حدود الغفران لأن الكفر مهما يكن نوعه، ليس دون الشرك وإن كان غيره، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١). ١٥٠ - ١٥١ سورة النساء

ومما يدل أيضاً على أن مرتكب الكبيرة يختلف عن الكافر حكماً ما جاء من استثناء بقوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في شأن الذين شقوا، والذين سعدوا، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿٦٦﴾ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿٦٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ ﴿٦٨﴾ ١٠٥ - ١٠٨ هود. فالذين شقوا من عصاة المؤمنين حياتهم في النار مقطوعة من آخرها، وحياتهم في الجنة منقوصة من أولها.

ومما يدل كذلك على أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار ما ورد في الحديث، فقد روى الشيخان بسندهما عن وصف النبي ﷺ الصراط ومرور الناس عليه وسقوط

(١) أنظر المختار من كنوز السنة للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٦٣-٦٤

من يسقط منهم في النار قوله ﷺ: (فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخرذل ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان يعبد الله فيعرفونهم بآثار السجود، وحرّم الله تعالى على النار أن تأكل مواضع السجود) وأخرج الشيخان أيضاً قوله ﷺ في الشفاعة (وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً).

وأخرج الشيخان أيضاً قوله ﷺ: في الشفاعة: (يا رب، أمتي، أمتي) يقول الله تعالى (انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من شحير من إيمان فأخرجه من النار) فإذا انطلق النبي ففعل ثم عاد للسؤال: قال الله له: (انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها). فإذا عاد الثالثة قال: (انطلق فمن كان في قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها) فإذا عاد الرابعة قال: يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله. قال تعالى: (ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال: " لا إله إلا الله ").

ومما يستدل به على أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار قوله تعالى " فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " ٧-٨ الزلزلة، فلو خلد مرتكب الكبيرة في النار لما استوفى حظه من الجزاء على مثاقيل الخير التي أداها بمقتضى إسلامه من ناحية، وبمقتضى هذه الآية من ناحية ثانية .

فإذا سأل سائل: وأين جزاء مثاقيل الخير التي أداها الكافر؟ فالرد المنطقي البسيط: ليأخذها من أداها له، والرد الشرعي البسيط: لا قيمة لعمل لم يتوجه به فاعله إلى الله، سواء بالنسبة للمؤمن أو للكافر (إنما الأعمال بالنيات) والكافر بمقتضى كفره لم يتوجه إلى الله بعمله .

ومما يصح قوله لبيان الفرق بين مرتكب الكبيرة المسلم أصلاً، وبين مرتكبيها من غيرهم - وفقاً لنظرية النجاة التي قدمناها في المدخل: أن مرتكب الكبيرة بمقتضى إسلامه لا جئ إلى الله طالب للنجاة ممن يملكها، سائر في الطريق التي تُسلكه إليها،

فهو مهما يرتكب (متحرك داخل الطريق ..) تذهب الحركة المنحرفة به هنا أو هناك، ولكنه على كل الأحوال " داخل الطريق المؤدية "، أما الكافر فقد رفض اللجوء إلى الله مبدئياً، وأعطى ظهره للطريق المؤدية، ولم يطلب النجاة، أو طلبها ممن لا يملكها، فهو مهما يفعل مما ينفعه أو ينفع الناس، متحرك خارج الطريق، قد يحقق نفعاً هنا أو نفعاً هناك، لكنه على كل الأحوال (خارج الطريق)، فكيف يحصل على النجاة من كارثة النار، وهو لم يطلبها، أو لم يطلبها ممن يملكها؟ ﴿قُلْ مَا يَعْبَوْنَ بِكُمْ نَبَى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أى لولا توجهكم إليه، والكافر لم يتوجه إليه، فكيف يحصل على مطلبه (النجاة)؟

إن حادث النار يوم القيامة، حادث كونى عام، يتعرض له البشر وغيرهم، ﴿لَا تُنْفِقُ وَلَا تَذَرُ﴾ ﴿لَوْ أَحَاطَ لِلْبَشَرِ﴾، ﴿وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ والله سبحانه وتعالى حذرنا من هذا الحادث، أئذنا به، وأرشدنا إلى (متجه) النجاة منه، وهو متجه إسلام النفس لله، والكافر أعرض عن هذا المتجه، وولى وجهه عنه ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ والأمر هنا أشبه بما كان فى حادث الفيضان، أئذنا نوح عليه الصلاة والسلام الناس به، فمن ركب السفينة كان له النجاة، ومن تولى عنها كيف ينجو من الطوفان؟ إنه خرج بكليته من البقعة الوحيدة التى لا يغرقها الطوفان، خرج بكليته وبإرادته، وغامر بقاء الطوفان، فلما فاجأه الطوفان، كان الطريق مقطوعاً بينه وبين السفينة واتجه إلى ما كان يظنه بقعة من الياص خارج السفينة، ولم يدر أن البقعة من الياص مهما ارتفعت فوق الجبل (الجودي) لا نجاة فيها، لأنها لا تقاوم الطوفان ولا تفلت منه، النجاة الوحيدة فى السفينة .

والطوفان هنا هو النار، والسفينة هى الإيمان، فكيف لمن ولى عن السفينة أن يطلب النجاة من الطوفان، إنه هالك لا محالة بتولىه، هالك لا محالة بفعله، أما مرتكب الكبيرة فهو أشبه براكب السفينة الذى يرتكب المخالفات وهو على ظهرها، إنه يؤدّب، إنه يجزى على معصيته، إنه يذوق من النار المحيطة بالسفينة، فإذا هو بعد ذلك لم يتغير موقعة الذى اختاره، ولم يخرج من سفينته التى لجأ إليها، وهذا هو

انتهاء عقابه واستئناف مقامه المكفول له بالإيمان. مقام الفوز بالجنة، والنجاة من النار .

### الصلاة خلف كل بر وفاجر:

قال ﷺ " صلوا خلف كل بر وفاجر "، رواه مكحول عن أبي هريرة وأخرجه الدار قطنى وقال: مكحول لم ير أبا هريرة، وفي إسناده معاوية بن صالح متكلم فيه. وقد احتج به مسلم في صحيحه .

وخرج الدار قطنى أيضاً وأبو داود عن مكحول عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال الرسول ﷺ " الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم برا كان أو فاجرا وإن عمل بالكبائر. والجهاد واجب عليكم مع كل أمير، برا كان أو فاجرا، وإن عمل بالكبائر " .

وفي صحيح البخارى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان يصلى خلف الحجاج بن يوسف الثقفى، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج - كما يقال - ظالماً .

وفي صحيح البخارى أيضاً أن النبى ﷺ قال " يصلون لكم فإن أصابوا فلکم ولهم، وإن أخطأوا فلکم وعليهم " . وتفصيل القول فى ذلك: إنها هو من أبواب الفروع<sup>(١)</sup>.

### سقوط عقوبة جهنم عن فاعل السيئات من المسلمين

تتلخص عوامل إسقاط العقوبة فى الآخرة - بمشيئة الله - عن فاعل السيئات من المسلمين فى الأمور الأساسية الآتية التى لخصها العلامة ابن أبى العز:

التوبة . تجنب الكبائر . الاستغفار . الحسنات . المصائب الدنيوية . عذاب القبر . دعاء المؤمنين واستغفارهم له فى الحياة وبعد الممات . العمل الذى لا ينقطع بعد موته من علم نافع أو صدقة جارية أو دعاء خالص وفقاً للحديث . ما يهدى إليه من

---

(١) أنظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٧٤-٢٧٦

ثواب صدقه أو قراءة أو حج . أهوال يوم القيامة وشدائده . مقاصد حسنات غيره  
بسيئاتهم له . الشفاعة . عفو أرحم الراحمين<sup>(١)</sup> .

فاللهم اجعلنا في عفوك بما تشاء

**دين الله واحد**

**تعددية الأديان والشرائع**

يعتقد المسلم أن الإسلام ليس هو ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم  
فحسب، ولكنه هو الدين عند الله أزلا، وهو ما أنزل على جميع الرسل والأنبياء،  
قاطبة

وفي هذا يأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ ١٩ آل عمران،  
ويأتي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ٨٥ آل عمران . و  
يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا  
بِعَمِّ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ١٣ الشورى .

وقد استقصى القرآن الكريم قصص الأنبياء ليسميه جميعا بالمسلمين، ويسمى  
دينهم بكلمة الإسلام الصريحة، لا فرق بين أحد منهم وآخر، بدءا من نوح  
 وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب، ولوط، ويوسف، عليهم جميعا أفضل الصلاة  
والسلام .

من مثل ما جاء في شأن سيدنا إبراهيم ﴿مَا كَانَتْ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا  
وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ .

من مثل ما جاء في شأن سيدنا موسى عليه السلام وصحبه إذ يقولون ﴿رَبَّنَا  
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ﴾ ١٢٦ الأعراف، وفرعون موسى يقول عند  
الاحتضار ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٩٠ يونس

(١) أنظر شرحه للعقيدة الطحاوية ص ٢٣٢-٢٣٤



وفي شأن سيدنا سليمان عليه السلام إذ يقول في خطابه إلى قوم سبأ ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ٣١ النمل، وملكة سبأ إذ تقول ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٤ النمل

وفي شأن سيدنا عيسى عليه السلام وصحبه الخواريين: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ٥٢ آل عمران

بل يصل الاستقصاء القرآني في هذا الموضوع إلى دائرة الجن إذ يقولون ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ ١٤ الجن

وفي الحديث الصحيح يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد)

ويقول الإمام الطحاوي (ودين الله في الأرض وفي السماء واحد)

ويقول ابن القيم في مدارج السالكين (وقد دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم لآخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه) ثم يقول (فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل من أحد ديناً سواه).

ويقول العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز عن كلمة الإسلام بمعناها القرآنية (إنها هو اسم للدين الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء).

إنه اسم للدين وليس محض وصف مؤول بدليل قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم: ﴿هُوَ سَمُّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾

وليس هذا اعترافاً بكون المسيحية أو النصرانية أو اليهودية إسلاماً ولكنه يعنى كما هو واضح إنكار نزول دين سماوى غير الإسلام.

و تأتى المشكلة في ثقافة المسلم المعاصر من استعمال مصطلح تعددية الأديان، بدوافع من زيغ السلطة أو من نزغ السياسة .

لأنه إن كان المراد بهذا المصطلح ذائع الصيت: التسوية بين الإسلام وبين بعض الأديان الأخرى من حيث صحة صدورها عن الله تعالى فهذا مما لا يجوز للمسلم أن يردده دون إكراه .

إن عقيدة المسلم تحول بينه وبين ذلك قطعاً، ومن ثم تحول بينه وبين القول بتعددية النجاة يوم القيامة، كما تحول بينه - تبعاً لما تقدم - وبين القول بما يسمى الأديان السماوية، لأن وصف إحداها بالسماوية يعنى صدورها عن الله تعالى وليس في الإسلام غير دين سماوى واحد .

أما إن كان المراد بعبارة تعددية الأديان: واقع العقائد من حيث ما يشمل الدين المنزل من الله والأديان الوضعية بالأصل أو الوضعية بالتحريف، أى ما يشمل جميع الأديان حقها وباطلها مؤمنها وكافرها فالتعبير صحيح، يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَتَايُبَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾، وفي هذه التعددية يقول ابن القيم (فأديان أهل الأرض ستة، واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن هو الإسلام، والتى للشيطان: اليهودية والنصرانية، والمجوسية، والصابئة ودين المشركين).

وفي المصادر الإسلامية المعتمدة ليس هناك كلمة واحدة تدل على تنزيل من الله لدين ما من هذه الأديان غير الإسلام، وإنما هى أطلقت كأسماء لأقوام كاليهود تنسب إليهم اليهودية، أو لبلد كالناصرية أو لنصرة الحواريين، أو للناصر أى الناظر إلى الله تنسب إليه النصرانية، وأنبياء الله لا يبلغون من ذلك شيئاً غير الإسلام، ولا يبلغون في كتبهم المنزلة ديناً غير الإسلام .

أما كلمة المسيحية فظهرت لأول مرة من جانب الوثنيين الذين أطلقوا هذه التسمية على مجموعة الهيلينستيين الذين أخرجوا من القدس وارتحلوا إلى أنطاكية وكونوا هناك كنيسة أنطاكية، وعامة الناس بالمدينة كانوا يميزونهم بهذه التسمية عن الطائفة اليهودية<sup>(١)</sup>

(١) المسيحية نشأتها وتطورها لشارل جنير، ترجمة عبد الحليم محمود ص ٩٠

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٦٩ المائدة، فهو من ناحية مسبوق بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِسْمِ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ومن ناحية ثانية فقد صرح القرآن الكريم بتقييد هؤلاء جميعا بقيد الإيمان، وببشأن معنى الإيمان المطلوب منهم - بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم - بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ٦٥ النساء، أى: يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إليكم أى بالقرآن الكريم، والإيمان بالقرآن الكريم لا يكون كذلك إلا بجميع ما جاء به... ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ ١٥٩ الأنعام ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٨٥-٨٦ البقرة. ومن ذلك بل على رأسه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وإذن فالقول بأن القرآن الكريم يقر بعض الناس على إيمانهم بوحدانية الله دون إيمانهم بالرسول مهما كانت أسماؤهم أو صفاتهم، أهل كتاب أو غيره، قول باطل بدلالة الآيات السابقة.

وبناء عليه فليس صحيحا أن المفسرين جمدوا النصوص المتعلقة بخيرية أهل الكتاب في التاريخ - ما قبل محمد عليه الصلاة والسلام - وجعلوها نصوصا تاريخية بحتة، لأنهم طبقوها ولا يزالون يطبقونها على كل كتابى يؤمن برسوله ومن سبقه في زمنه ويؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن سبقه بعد بعثته، ويتخذ من القرآن الكريم لا مصدقا فحسب ولكن مهيمنا أيضا، يقول ابن جريج من مسلمى أهل الكتاب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾: "القرآن أمين على الكتب

المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل" ويقول ابن عباس "(ومهمنا) أى حاكمنا على ما قبله من الكتب" ويقول أيضا "ومهمنا أى شاهدا" يقول ابن كثير: وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى: فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله: فهو أمين وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله"

وبالرغم من موافقتنا على نقد الموقف التاريخي البحت، فلن يمنعنا ذلك من أن نبه إلى أن تمييز اليهود بشدة العداوة للمسلمين مقارنة بالنصارى: راجع إلى حالة تاريخية نتيجة وضع اليهود بالمدينة في الوقت الذي لم يكن قد تبلور فيه بعد موقف الشراسة النصرانية التي بدأت بحرب الروم، والتي استمرت حتى اليوم، والتي ذاق فيها المسلمون من النصارى من ألوان العداوة والبغضاء أكثر مما ذاقوا من اليهود، فاليهود ضيعوا الفلسطينيين وسلبوا القدس، أما الدولة النصرانية فضيقت الفلسطينيين والقدس والدولة الإسلامية في المشرق وفي الأندلس وبقية أوربا، وآسيا وما تزال تضيق حتى اليوم. وهما سواء في حكم قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۚ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۚ وَلَئِنَّ آتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ١٢٠ البقرة

وأما الاستشهاد الذي يستشهد به بعض الكاتبين في الموضوع بقوله تعالى عن النصارى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَمَ سِتْرٌ وَرُحْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فاستشهاد مبتور، لأن الآية تتحدث عن قسيسين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وفقا لقوله تعالى في الآية التالية ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ٨٢ - ٨٤ المائدة

أمثال هؤلاء هم فقط الذين جاء فيهم قوله تعالى عما استشهدت به الآيات: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَابِئَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وُسِرْعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٤﴾ آل عمران، هم الذين لا يكتُمون الكتاب ﴿١١٥﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُغِضَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١١٦﴾ آل عمران، هم الذين يقول فيهم القرآن الكريم في نفس السياق ﴿١١٧﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٨﴾ آل عمران، ويقول القرآن في سياق كلامه عن هؤلاء ﴿١١٩﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿١٢٠﴾ النساء، ومن عداهم ممن لا يؤمن بمحمد بعد ظهوره فليسوا على شيء ويقول القرآن الكريم ﴿١٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿١٢٢﴾ البينة .

ومن الواضح أيضا أن يكون موقف الإسلام من أهل الكتاب أكثر حزما وتدقيقا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم منه قبل ذلك لما هو معروف - ومسلم به في علم مقارنة الأديان - من ضياع نص التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام و عدم وجود نص الإنجيل الذي أنزل على عيسى، فإذا كان لهم عذر في اضطرابهم قبل أن يأتي الرسول فليس لهم عذر فيما بعد ﴿١٢٣﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَايِي مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴿١٢٤﴾ المائدة .

أما مكافأة أهل الكتاب على العمل الصالح فما جاء فيه من ذلك في القرآن الكريم لا يمكن فهمه بعيدا عن مجموعة الآيات والأحاديث المتعلقة بالموضوع وإلا "وقعنا في حفرة عميقة من عدم الاتساق"!!، ومن هنا فإن هذه المكافأة لها أربعة أحوال: حالة ما قبل البعثة المحمدية، وحالة بعضهم ممن آمن بمحمد بعد البعثة: فهذان هما اللذان يأتي فيهما حسن الثواب، وهناك حالة من لم يؤمنوا بمحمد - أى بعد البعثة المحمدية - ممن يعملون عملهم للدنيا - ممن يجرى الاستشهاد بهم عادة تبكيها للمسلمين - فهؤلاء يأخذون مكافأتهم في الدنيا ﴿١٢٥﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُتَحَسُّونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ هُوَ، ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِقَائِمَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُحَرِّضُونَ ﴿٢٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ٢٠ - ٢٤ آل عمران . وهناك حالة من يعملون لغير الله فيأخذون مكافأتهم ممن عملوا له، شأنهم في ذلك شأن بعض المسلمين أنفسهم وفقا لما جاء في صحيح مسلم بسنده عن أبي هريرة قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقل عالم وقرأت القرآن ليقل هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقل هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)

أما التفرقة بين نصارى الشرق ومسيحيي الغرب، في معاملتهم للمسلمين فمرجعها أن نصارى الشرق يعيشون غالبا في كنف المسلمين، فلا يتصور أن يعادوا المسلمين كما هو شأن نصارى الغرب، فالمسألة تدخل فيها الجغرافيا كما يدخل التاريخ، وليس فيها شيء من التفرقة الثابتة مطلقا بين الطائفتين .

وأما قوله تعالى: ﴿الْمَرْحُومُونَ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ في آدنى الأرض وهم من بعد غلبتهم سيفلبون ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فمن الخطأ فهم النبوة فيه بأنها تقف عند نصره الروم على الفرس، ولكنها تنبأ بذلك ثم تتجاوزه بنبوة أعظم وهى نصره المؤمنين - المسلمين على الروم - وذلك في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ وعندئذ ففرحة المؤمنين بالنصر هى فرحتهم بالنصر على عدوهم الأكبر: الروم، ولقد صدق التاريخ ذلك، وما كانت عداوة الفرس للإسلام التى زالت فى عقدين أو ثلاث، لتقاس بعداوة الروم التى تطرق علينا أبواب مخادعنا حتى اليوم والساعة .

والخلاصة أن لا مجال فى العقيدة الإسلامية للقول بتعددية أديان صحيحة، ولا مجال لإطلاق مصطلح الأديان السماوية الذى لم يعرف قط فى تراثنا الإسلامى، وإنما زرع بيننا فى فترة الغزو الفكرى المعاصر، ولا مجال للقول بتعددية النجاة يوم القيامة، ولكن النجاة لدين واحد لا غير .

هناك أديان نعم، هناك أديان كتابية نعم. هناك رسالات نعم. هناك كتب سماوية نعم، لكن هذا شيء أما القول بتعددية الأديان السماوية فلا . وإذن فوحدة الدين عند الله عقيدة أساسية عند المسلم لغير المسلم أن يعتقد ما يشاء حوها .

وتعدد الأنبياء لم يكن لتعدد الأديان التى جاءت من عند الله، وإنما كان تعدد الأنبياء - ببساطة شديدة - يدور وجودا وعدما مع بقاء الدين الحق بين أيدي الناس، أو اندثاره من بين أيديهم، فالظروف المكانية والزمانية - مع فقدان وسائل الاتصال والحفظ - كان لها فى الماضى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أثر فى اختفاء الدين الحق (الإسلام) الذى يأتى به نبي من الأنبياء، فعند ما يحدث ذلك يأتى النبي الجديد ليعيد وضع الدين الحق بين الناس مرة أخرى، ويبلغهم رسالة الإسلام التى فرطت فيها أجيال سبقت، أو أرغموا على التفریط فيها، تحت ضغط الظروف الجغرافية والتاريخية، والبشرية، وهكذا حتى توفرت وسائل الاتصال والحفظ فى عصر الرسالة المحمدية وتكفل الله سبحانه بتوفير هذه الوسائل ﴿إِنَّا

نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ الحجر، فالاتصال الجغرافى تم بين أرجاء المعمورة كلها، والاتصال بين الأجيال تم بالتواتر والكتابة والطباعة والتسجيل إلخ، وأصبح من المستحيل اندثار الدين، أو نجاح التآمر على اندثاره . ومن هنا زالت الدواعى التى كانت تدعو إلى رسول جديد أو رسالة جديدة أو كتاب جديد، وكان قضاء الله بختم الرسالات بمحمد عليه الصلاة والسلام .

كذلك فإنه لا مجال للقول بتطور الأديان من الشرك إلى التوحيد، ومن الباطل إلى الصحيح، أو أن ديانة التوحيد ظهرت أول ما ظهرت على يد أخناتون - كما يروج لها أصحاب الثقافة الفرعونية الميتة - لأن الدين الصحيح المنزل من عند الله الذى هو الإسلام قد صاحب الإنسان من وقت نزول آدم، ويصاحبه إلى يوم القيامة: دينا توحيدا صحيحا بكل أركانه، وما حصل مما يسمى تطورا ما هو إلا ذلك التدهور الذى يصيب الدين كما يصيب غيره من الأنظمة، الأمر الذى كان يستدعى توالى التصحيح بتوالى الأنبياء وتوالى رسالاتهم التى تعيد الأمر إلى نصابه، إلى الدين الوحيد عند الله ألا وهو الإسلام مع الإضافة أو النسخ فى مجال التشريع .

إن نظرية التطور فى هذا المجال من أخطر المقولات التى تموج بها التيارات الفكرية المعاصرة، وخطرها على العقيدة الإسلامية يأتى من ثلاث جهات، جهة البداية وجهة الوسط وجهة النهاية جميعا .

فمن حيث جهة البداية تقتضى النظرية أن يكون آدم عليه السلام فى درجة منحنطة من التفكير والتدين، بينما هو الذى يتحدى القرآن بعلمه علم الملائكة، وهو الذى قام بين يدى ربه يأخذ العلم منه، وهذا مناقض تماما لنظرية التطور.

وهى أى نظرية التطور خطر من جهة الوسط لأنها تقتضى تكذيب القرآن الكريم فيما أسنده إلى جميع الأنبياء على توالى العصور من دعوتهم إلى ديانة واحدة هى ديانة التوحيد ديانة الإسلام .

وأما من جهة النهاية فإن نظرية التطور لا تعترف بما يسمى النهاية ولكنها تقتضى انفتاح المستقبل أمام أديان جديدة، وتقدم جديد، يقتضى عقيدة جديدة



وهكذا، إن افترضنا جدلاً أنها تقبل القول برسالات سماوية أصلاً . وهذا مناقض تماماً لما تقتضيه العقيدة الإسلامية.

أما قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى (مثل ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه، وترك منه موضع لبنة، فطاف به النظار يتعجبون من بنائه، إلا موضع لبنة، لا يعيرون سواها فكنت أنا سدوت تلك اللبنة)، فهو يؤكد وحدة الدين عند الله، ولا يتمشى مع فكرة التطور، وإنما يشير إلى التمام، والتمام المشار إليه هو للبناء السابق الثابت، الذى يتم نهائياً ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

والحدود الثابتة المعلومة من العقيدة الإسلامية بالضرورة تتلخص إسلامياً في النقاط العشرة الأساسية التالية:

لفظ الدين بالمعنى الحق المقبول عند الله لا يطلق على غير الإسلام، وإن كان من الممكن إطلاقه بالمعنى العام ليشمل الحق وغيره .

الإسلام هو الدين الوحيد المنزل من الله على جميع الرسل: ابتداء من سيدنا آدم عليه السلام، إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

الإسلام ليس هو التوحيد فحسب، لكنه الإيمان بالله ورسله وما جاء به رسله من غير تفريق بين أحد منهم، ولا بين شيء مما جاء به أحدهم وشيء آخر .

لا إسلام بغير الإيمان بمحمد رسول الله بعد مبعثه ومن لم يفعل ذلك كان اسمه الكافر ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ ٣١-٣٢ آل عمران

### القرآن والحديث الصحيح هما المصدران الإلهيان الوحيدان الموثقان

ماعدا الإسلام ديانات وضعية بقى فى بعضها بعض من آثار الوحى لا تعرف - بعد بعثة محمد - إلا بالقياس إلى القرآن والحديث الصحيح

القرآن صريح قاطع فى وصف العقائد الأساسية: - الثالث والصلب والفداء - ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ١٧ المائدة ﴿ لَقَدْ

كَفَرِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ المائدة ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴿١٧١﴾ - ١٧٢ النساء، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ﴾. ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَيْبِنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٣١ التوبة

وان مصير أصحابها في الآخرة هو ما يقرره صريح الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ النساء ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ ٦ البينة.

الإسلام يسمح بوصف أصحاب هذه الديانات بأنهم أهل كتاب، وهى تسمية في غاية الدقة ولا يسمح بوصف أديانهم بأنها سماوية .

وفي النهاية فإنه لمن المؤكد (أن الإسلام لا يقبل ولا يقر إلا الإيمان بعقيدته الكاملة) لا في التوحيد فحسب، وأن أصحاب العقائد الأخرى يحملون نفس الموقف تجاه الإسلام ولا مجال للمساومة والحلول الوسط حول الأمور العقائدية . ونضيف: وبالتأكيد فليس عند المسلم أية حساسية - أو لا ينبغي أن تكون - في أن يصفه غير المؤمنين بعقيدته بالكفر، فهذا طبيعي ومفهوم.

### تعددية الشرائع:

يذهب بعض العلماء إلى إطلاق القول بتعدد الشرائع الربانية مع القول بوحدة الدين الذى هو الإسلام .

ويجب أولاً أن نبين هنا أن السند لذلك لم يأت من القرآن .

فالذى جاء في القرآن الكريم عن تعدد الشرائع إنما كان في مجال المقارنة بين

شريعة الله وبين شرائع منحرفة وقع البشر فيها. وفقا لأهوائهم المقدورة لهم بالجعل الإلهي. يقول تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْتلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ ٤٨ المائدة، والجعل الوارد في هذه الآية هو كالجعل القدرى المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ ٢٥ الأنعام، وكالجعل الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ ١١٢ الأنعام.

ونأتى كلمة شريعة في القرآن الكريم مرة أخرى في مقام المقارنة بين شريعة الله وشريعة الشركاء ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاتُوا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ٢١ الشورى

ثم تأتى كلمة الشريعة مرة أخرى لتبين أنها شريعة واحدة للأنبياء جميعا ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ ١٣ الشورى .

ويروى ابن كثير ما ذهب إليه بعض الأئمة من أن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾: هذه الأمة، أى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ومعناه قصر وحدة الشريعة على أمة محمد، لكل جعلنا القرآن منكم آيتها الأمة شرعة ومنهاجا، أى هو لكم كلكم تقتدون به. وحذف الضمير المنصوب في قوله: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أى جعلناه، يعنى القرآن شرعة ومنهاجا، أى سبيلا إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أى طريقا ومسلكا واضحا بينا. هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله، ولكن ابن كثير يضعفه ويعترض عليه بقوله: الصحيح القول بأنه - أى القرآن - خطاب للبشرية كلها - ويدل على ذلك قوله تعالى بعده ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ فلو كان هذا خطابا لهذه الأمة لما صح أن يقول ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وهم أمة واحدة. اهـ: تفسير ابن كثير .

والذى نراه أن اعتراض ابن كثير غير وارد، فقد يكون قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تعليقا على الاختلاف المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو اختلاف سببه الخروج على شريعة الله أصلا .

وعلى كل حال فالذى أراه أننا لو أردنا بالشريعة اصطلاحا "الأمور العملية" فهذا لا يرجع سنده إلى القرآن الكريم . فبالرجوع إلى القرآن الكريم لا نجد ذلك المعنى من التعدد الذى يخص قوما دون قوم: فالأمر بالصلاة والصوم والزكاة والوفاء فى الكيل والميزان وطاعة الوالدين وتحريم القتل والزنا.. إلخ مما جاءت الشريعة به صريحة فى القرآن الكريم بالنسبة للأمم السابقة والأنبياء السابقين .

وفى تاريخ الطبرى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق .

وفى تفسيره: نجد ما يدل على التعبير بالشرائع داخل ما جاء به النبى الواحد:

فعن عبيد وكانت له صحبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: الإيمان ثلاثمائة وثلاثون شريعة من وافى بشريعة منهن دخل الجنة، رواه الطبرانى فى الكبير .

وفى المعجم الأوسط للطبرانى بسنده عن المغيرة بن عبد الرحمن ابن عبيد عن أبيه عن جده وكانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة) من وافى بواحدة منها دخل الجنة .

وروى بسنده عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الإسلام ثلاث مائة شريعة وثلاثة عشر شريعة ليس منها شريعة يلقي الله بها صاحبها إلا وهو يدخل بها الجنة) .

وفى شعب الإيمان للبيهقى بسنده عن أبى سعيد الخدرى يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن بين يدى الله عز وجل لوحا فى ثلاثمائة وخمس عشرة شريعة يقول الرحمن وعزتى وجلالى لا يأتينى عبد من عبادى ما لم يشرك فيه واحدة منهن إلا أدخلته الجنة) .

وفى سنن أبى داود: بسنده عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس فقال: وأما

التي في النساء ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم الآية قال: (الرجل إذا عرف شرائع الإسلام ثم قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم لا توبة له) فذكرت هذا للمجاهد فقال إلا من ندم .

وفي سنن ابن ماجة: بسنده عن عبد الله بن بسر أن أعرابيا قال لرسول الله: (إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأنبئني منها بشيء أتشبث به؟ قال لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل).

وفي الحاكم في المستدرک بسنده عن عبد الله بن بسر أن أعرابيا قال لرسول الله (إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأنبئني بشيء أتشبث به فقال لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وفي مسند الحارث: باب في شرائع الإسلام: حدثنا يحيى بن أبي بكير ثنا أبو جعفر أخبرنا الربيع بن أنس قال سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله: من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فارقها والله عنه راض، قال أنس وذلك دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، يقول الله عز وجل: ﴿لَإِنْ تَابُوا﴾ خلعوا الأنداد وعبادتها وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم .

ومع ذلك فلا بد من الإقرار باختلاف صور التكليف بين أمة وأخرى ورسالة وأخرى، ولكن هذا أشبه بالاختلاف في صور التكليف في داخل الأمة الواحدة وبين يدي نبي واحد، فهو هو النسخ في الشريعة الواحدة المنزلة.

فإذا صح أن نسمى هذا النسخ انتقالا من شريعة إلى شريعة جاز على هذا الأساس أن نسمى النسخ ما بين خط الشريعة الممتد بين الأنبياء جميعا تعددا في الشرائع . ولكن هذا لا يفيد المطلوب عند من يطلقون شعار تعددية الشرائع إذا

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: تأليف الحارث بن أبي أسامة الخافظ نور الدين الهيثمي . تحقيق د: حسين احمد صالح الباكري، ط ١٩٩٢

قصودوا من وراء ذلك استقلال كل أمة بشريعتها المنزلة دون اعتبار لما يكون قد حصل فيها من نسخ نتيجة توارد الرسائل كشرعية ممتدة، في مجرى التاريخ<sup>(١)</sup> وقد ورد فيما يدل على ارتباط مفهوم اختلاف الشريعة بالنسخ: ما جاء في المعتصر من المختصر لأبي المحاسن يوسف بن موسى الحنفى: في السحور أنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر، كان الشرع في أول الإسلام أن الصائم إذا قام من الليل يحرم عليه ما يحرم على الصائم إلى خروجهم من صوم الغد، كما كان شريعة أهل الكتاب، ثم نسخه الله بما نسخه به من كتابه فجاز لنا أن نأكل في لياليه .

#### (١) ففي الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس:

بعد الإشارة في مقدمته للأنبياء المرسلين قال: فمن مرسل بنسخ شريعة قد كانت وإثبات أخرى قد كتبت ومن مرسل بثبيت شريعة من كان قبله ومن مرسل بأمر قد علم الله عز وجل أنه إلى وقت بعينه ثم ينسخه بما هو خير للعباد في العاجل وأنفع لهم في الأجل أو بما هو مثله ليمتحنوا ويثابوا كما قال الله عز وجل ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وقال عز وجل وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون

ثم قال: تكلم العلماء من الصحابة والتابعين في الناسخ والمنسوخ ثم اختلف المتأخرون فيه فمنهم من جرى على سنن المتقدمين فوافق ومنهم من خالف ذلك فاجتنب، فمن المتأخرين من قال ليس في كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ وكابر العيان واتبع غير سبيل المؤمنين، ومنهم من قال النسخ يكون في الأخبار والأمر والنهي، قال أبو جعفر وهذا القول عظيم جدا يؤول في الكفر لأن قائلا لو قال قام فلان ثم قال لم يبق فقال نسخه لكان كاذبا

وقد غلط بعض المتأخرين فقال إنما الكذب فيما مضى فأما في المستقبل فهو خلف، وفي كتاب الله عز وجل غير ما قال قال الله عز وجل فقالوا (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ثم قال جل ثناؤه (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون)

وقال آخرون بل الناسخ والمنسوخ إلى الإمام ينسخ ما شاء وهذا القول أعظم من ذلك لأن النسخ لم يكن إلى النبي إلا بالوحى من الله عز وجل إما بقرآن مثله على قول قوم، وإما بوحى من غير القرآن فلما ارتفع هذان بموت النبي ارتفع النسخ

وقال قوم لا يكون النسخ في الأخبار إلا فيما كان فيه حكم فإذا كان فيه حكم جاز فيه النسخ وفي الأمر والنهي

وقال قوم النسخ في الأمر والنهي خاصة

وقول سادس: عليه أئمة العلماء وهو أن النسخ إنما يكون في المتعبدات لأن الله جل وعز له أن يتعبد خلقه بما شاء وإلى أى وقت شاء ثم يتعبدهم بغير ذلك فيكون النسخ في الأمر والنهي وما كان في معناه وهذا يمر بك مشروحا في مواضعه إذا ذكرناه . اهـ

و فيما يدل على شمول كلمة الشريعة لمعنى العقيدة " التوحيد " : ما جاء في كتاب الزهد لأبى بكر أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الشيبانى ت ٢٨٧ هـ ط ١٤٠٨ عن زهد أيوب عليه السلام بسنده عن وهب ابن منبه سئل ما كان شريعة أيوب عليه السلام؟ قال التوحيد وإصلاح ذات الين، وإذا أراد أحدهم حاجة إلى الله عز وجل خر ساجدا ثم طلب حاجته .

وفى اتصال الشريعة بين الأنبياء كان شرع من قبلنا شرعا لنا ما لم يأت نسخ أو استثناء - ففى شرح معانى الآثار للطحاوى: أن حكمه - صلى الله عليه وسلم أن يكون على شريعة النبی الذى كان قبله حتى يحدث له شريعة تنسخ ما تقدمها قال الله عز وجل ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّاهُمْ أَقْتَدِ﴾.

وقد روى هذا المذهب عن مجاهد عن بن سخرية قال: كنا قعودا مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ننتظر جنازة، فمر بجنازة أخرى، فقمنا، فقال: ما هذا القيام؟ فقلت ما تأتون به يا أصحاب محمد رسول الله قال أبو موسى قال رسول الله إذا رأيتم جنازة مسلم أو يهودى أو نصرانى فقوموا فإنكم لستم ها تقومون إنما تقومون لمن معها من الملائكة. فقال على رضى الله تعالى عنه: إنما صنع ذلك رسول الله مرة واحدة كان يتشبه بأهل الكتاب فى الشيء فإذا نهى عنه تركه، فأخبر على رضى الله تعالى عنه فى هذا الحديث أن رسول الله إنما كان قام مرة فى بدء أمره على التشبه منه بأهل الكتاب، وعلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء حتى أحدث الله تعالى له خلاف ذلك وهو القعود .

وفى صحيح ابن حبان: لما كان المصرح عن نبينا فى خبر ابن عباس حيث قال "أمنى جبريل عند البيت مرتين" فذكر الخبر، وقال فى آخره: هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك، كان فى هذا الخبر البيان الواضح أن بعض شرائعنا قد تتفق ببعض شرائع من قبلنا من الأمم

وأخيرا فإذا كنا نقطع إسلاميا بوحدة الدين السماوى، وخطأ ما كتب عن تعدد الأديان المنزلة، وزيف ما كتب عن تعددية النجاة، فإننا نرفض أيضا القول بتعددية الشريعة السماوية بمعنى استقلالية كل أمة بشريعة منزلة

أما إذا اعتبرنا القول بالتعددية بديلا عن القول بالنسخ الحاصل بين نبي وآخر فهو اعتبار وارد نظريا، لكنه غير المقصود عادة عند من يستعملون وصف "التعددية" أو مصطلح النسخ ..

وذلك كله إنما يأتي على بساط تحرير العقيدة، دون أدنى مساس بشرعية حسن المعاملة مع أهل الكتاب، وغيرهم ممن تقوم بينهم وبين المسلمين ذمة الإسلام وعقد الوطنية . إن حسن معاملة المسلمين لأهل الكتاب في الدنيا - حسب شريعتهم الإسلامية - موضوع لا يجوز التشكيك فيه، كما أنه حفظا لسلامته لا يجوز لأهل السياسة أن يخلطوا بينه وبين العقائد.

ويكفى أن نقرر هنا أن حسن معاملتهم تأتي بضمانة الجالس فوق عرشه في قلب كل مسلم: يقول رسول الله: صلى الله عليه وسلم: (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته .) وهذا الحديث وإن كان قد ذكر العجلوني في كشف الخفاء - رواية عن أحمد - أنه لا أصل له لكنه استدرك على ذلك بقوله: (لكن ناقش الحافظ ابن حجر في ثبوت ذلك عن أحمد، وقال: إن له أصلا) فقد رواه أبو داود بسنده عن عدد من أبناء الصحابة عن آبائهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ (من ظلم معاهدا أو تنقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس منه، فأنا خصمه يوم القيامة)

وذكر البيهقي مثله في سننه عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم بلفظ (ألا من ظلم معاهدا أو تنقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة - وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره - ألا ومن قتل معاهدا له ذمة الله ورسوله حرم الله عليه ريع الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا)

وأما المشهور من قوله صلى الله عليه وسلم عن الذمة (لهم مالنا وعليهم ما علينا) فقد أشار السندی - ت ١١٣٨ - إلى ثبوته <sup>(١)</sup>.

---

(١) في حاشيته على النسائي بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة في شرحه لقوله صلى الله عليه وسلم لا تنكأوا دماؤهم !، أنظر ج ٨ ص ٢٠ ط ٢ .



وإذا كانت تلك ضمانة الرسول فهي إذن ضمانة الضمانات، يوم تتزأبق ضمانات الدساتير و العولة وحقوق الإنسان ويثبت قلب المسلم على إيمانه بالإسلام .

### مفهوم الإلحاد

إذا أردنا عبارة شديدة الاختصار لمفهوم الإلحاد قلنا هو: إنكار المعلوم من الدين بالضرورة.

وإذا أردنا شرحاً لهذه العبارة قلنا: إن المعلوم بالضرورة بوجه عام في الدين أو في غيره، هو المعلوم الذي لا يحتاج في إثباته إلى دليل. ومثاله في الرياضيات: قولك: إن الواحد نصف الاثنين، فإذا قلت ذلك لصاحبك لم يقل لك: هات الدليل، ومثاله في التربية الوطنية قولك: القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية، ومثاله في السياسة الدولية: قولك: إن الاتحاد السوفيتي عضو في مجلس الأمن.

وإذن فالمعلوم من الدين بالضرورة هو كل أمر لا نحتاج في إثبات وجوده في الدين إلى دليل، كقولك: إن الإسلام يدعو إلى الإيمان بالقرآن كتاباً منزلاً، وإلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، أو كقولك: إن كلمة " قل " هي أول كلمة في سورة الإخلاص. وأن الوقوف بعرفة ركن في أعمال الحج.

وإذن فالإلحاد هو إنكار أمر موجود في الدين لا نحتاج في إثبات وجوده فيه إلى دليل، كبر هذا الأمر كالقول بوحدانية الله، أو صغر كالقول بغسل الوجه في الوضوء، وذلك لأن إنكار أمر من هذه الأمور يصعد إلى مرتبة الكفر لأنه يعني تكذيب الله أو تكذيب رسوله، وهذا أقصى درجات الكفر .

### مبادئ الإلحاد المعاصر

في الفلسفات الحديثة والمعاصرة من جدلية مادية وبراجماتية ووضعية ووجودية، دعوات صريحة إلى الإلحاد .

وحول المنهج العلمي تنسج أوهام من الإلحاد باسم إنكار كل ما لا يخضع للتجربة، وباسم التطور الذاتي، وحتمية قوانين الطبيعة، وعدم قابلية المادة للفناء ..  
الخ

وفى التنظيم الاجتماعى سحابات من الإلحاد: حيث تقوم بعض الدعاوى فى هذا المجال على إنكار الدين واعتباره طوراً متخلفاً من أطوار التقدم الاجتماعى أو إنكار دوره - عل الأقل - فى عملية التنظيم الاجتماعى، وقطع علاقته بالسياسة أو علاقته بالأخلاق .

وفى قضايا التشريع نزوع إلى الإلحاد: حيث يهاجم الدين فى نظرتة إلى الرق وإلى تعدد الزوجات وإلى "قوامة الرجل على المرأة" وزيادة نصيبه على نصيبها فى الميراث وفى عقوباته التى يقررها فى جرائم السرقة والزنا والقتل .

وفى تدوين التاريخ تيارات من الإلحاد: حيث يقدم الدين على أنه نتيجة لصراع الطبقات ومظهر من مظاهر التطور الاقتصادى: يصنف فيه الصحابة إلى يمين ويسار، ويقدم فيه رسول الله على أنه رسول لقيمة من قيم التطور الاجتماعى كالحرية أو غيرها من القيم الإنسانية، وتقدم الأديان بعامة على أنها السبب الأصيل فيما حدث من الحروب على مر التاريخ.

وفى أساليب التربية نزوع إلى الإلحاد، فالفرائض الدينية تخضع للحرية الفردية والحرية قيمة يعمل بها إزاء عدد من السلطات منها سلطة الدين، والتجربة أسلوب لتكوين الشخصية يمارس حتى بالنسبة للمحرمات. والترفيه عن النفس وتفرغ الكبت الجنسى بالاختلاط الخليع أصل من أصول التوجيه التربوى .

وفى فنون الأدب إشارات إلى الإلحاد: حيث توجه الاحتجاجات الصارخة ضد القدر وتصور بعض الشخصيات الروائية وهى تبحث عن الله بحثاً مضنياً فاشلاً، وحيث تقدم شخصيات رجال الدين والشخصيات العادية المتدينة فى صورة ممجوجة تثير التهكم والسخرية، وتقدم الأديان بعامة على أنها فشلت فى حل مشاكل الإنسان .

وفى بعض البحوث الإسلامية ذاتها تطلعات إلى الإلحاد، إذ يوصف النص القرآنى بالبشرية وينكر إمكانية التوصل إلى ما فيه من ألوهية النص طالما - ودائماً - يتم تقديمه من خلال الفهم البشرى، وينكر دور السنة فى التشريع، ويقدم القصص

القرآنى على أنه نوع من الفن الروائى لا يعبر عن الواقع التاريخى، وتدرس القراءات على أنها نوع من الاجتهاد البشرى. وحيث تقوم الدعوة إلى إغفال النصوص المتعلقة بالجزئيات والاكتفاء بالمبادئ العامة التى يرضى عنها العقل ولا تختص بدين من الأديان .

وفى تكييف العلاقة بين الإسلام والأديان الكتابية تورط فى الإخاد حيث يسوى بينهما جميعا فى الأيمان بالله • ويسوى بين الولى هنا والقديس هناك .

وفى ميدان العادات والأخلاق يحاول البعض فى وسائل الاتصال الثقافى والجماهيرى أن يلفتوا النظر إلى مصدر للأخلاق الحميدة - كالصدق والوفاء والإتقان فى غير الإسلام كالديانات المصرية القديمة، متناسين ما فى تلك الديانات من وثنية ممقوته .

وفى تكييف العلاقة بين السياسة والدين بقوهم: لاسياسة فى الدين ولا دين فى السياسة إلى الحد الذى يقع بهم فى بديل لا يقل عن الوقوع فى: تسييس الكفر و تكفير السياسة.

هذه وتلك تيارات فكرية: تدعى غالبا الاستناد إلى العلم أو إلى المنهج العلمى . أما عن الأشخاص الذين تتمثل فيهم تلك التيارات فكثيراً ما نجد الذين تتمثل فيهم تلك التيارات خالصه بحيث يأخذون حكمها خالصا . لكن الصعوبة تكون فى كثيرين نجد فيهم خليطا متناقضا من الإيها والإلحاد الذى تمثله واحدة من تلك التيارات .

وتقل الصعوبة فيمن يكون من هؤلاء عاميا أو شبه عامى أو نصف مثقف، حيث ينبغى أن نرجح فى شأنه جانب الإسلام، ونعذره فى جهله ببعض ما فى هذه التيارات من تناقض مع الإسلام، وذلك إلى أن نبين له هذا التناقض .

ولكن المدهش حقا أن نجد فى بعض المستويات العليا من المثقفين جمعا بين ظاهرة من ظواهر الإيها وبين فكرة من التيارات الإلحادية تلك أو غيرها .

وعلى سبيل المثال: قد نجد من هؤلاء من يصلى ويقرأ القرآن فى غير موقف من مواقف الرياء أو المداهنة، لكنه فى مناقشة جادة يصرح بأن حديث القرآن عن الجنة ما هو إلا تعبير عما رآه محمد صلى الله عليه وسلم فى صباه من روضات الشام .

وآخر يصلى كذلك ويصرح بأن كثرة حديث القرآن عن موسى عليه الصلاة والسلام ما هو إلا تعبير عن حالة نفسية سيطرت على محمد صلى الله عليه وسلم إزاء موسى !

وآخر يصلى أيضا ويصرح بأن الحضارة الإسلامية محكوم عليها بالفشل فى العصر الراهن لأنها حبيسة الكلمة " وبعبارة أخرى لأنها مقيدة بالقرآن ".....

هذه نماذج غريبة حقا، لأن أداءهم للصلاة ينتسب للإسلام • أما أفكارهم تلك فهى الحاد محض؟ فكيف جمع هؤلاء بين الأمرين المتناقضين؟ وأى هذين الأمرين هو الذى يعبر عن حقيقتهم الداخلية؟

إننا نجزم بأن هؤلاء يجمعون فى ضمايرهم الممزقة بين النقائص، وانهم ضحية عصر البلبلة الثقافية التى يمر بها المجتمع الإسلامى. ونرجئ الحكم تفصيلا إلى ما بعد وضع ضوابط الإلحاد المقررة شرعا .

### ضوابط الإلحاد:

إننا إذ نتعرض لبيان ضوابط الإلحاد التى تحدد لنا بعض الصور العملية أو التطبيقية لمفهومه الذى ذكرناه نود أن نحذر بادئ ذى بدء من التوسع فى الاتهام بالكفر .

لقد كان من أشد الأمور إثارة للأسى والأسف ما وجدناه فى تاريخ الفكر الدينى فى الحضارة الإسلامية من نزعة ملحمة غارمة نحو تبادل الاتهام بالكفر<sup>(١)</sup>

---

(١) - الكفر لغة الستر، وانما سُمى جاحدا ربه والمشارك به كافرين لانها سترت على أنفسهما نعم الله تعالى، وستر طرق معرفته على الاغيار، والعرب تقول: كفرت المتاع فى الوعاء أى سترته فيه، وسمى الليل كافرا لأنه يستر كل شئ بظلمته، قال الشاعر: (فى ليلة كفر النجوم غمامها) وسميت الكفارة كذلك لانها تغطى الاثم وتستره وسمى الحارث كافرا لأنه يستر البذور فى الأرض.

يقول الخياط من المعتزلة: ما علمنا فرقه من أهل الملة سلمت من الاتهام بالكفر: هذه الخوارج يكفر بعضها بعضا، وهذه الروافض يكفر بعضها بعضا، وهذه المرجئة يكفر بعضها بعضا، وهذه أصناف المشبهة يكفر بعضها بعضا، وهذه المجبرة فرق مختلفة وبعضها يكفر بعضها .... وهذه النوابت فرق مختلفة في القرآن وبعضها يكفر بعضها .

والإمام الرازي يحكى قولاً للعلماء يقضى بكفر المجسمة: "لما أنهم بإنكارهم وجود موجود لا يشار إليه قد أنكروا ذات الله".

وينقل البغدادي أن الشافعي أشار إلى بطلان صلاة من صلى خلف من يقول بخلق القرآن ونفى الرؤية .

وأن مالكا قال في المعتزلة: زنادقة لا يستتابون بل يقتلون .

وإذا كان أبو حنيفة قد قرر أنه لا يكفر أحدا بذنب ولا يتهم بالكفر من يرميه به، وإنما يتهمه بالكذب، إلا أنه يضعنا أمام مبدأ دقيق حيث يقرر أن "من قال لا أعرف الكافر كافرا فهو مثله". ولكن التدقيق في معنى عبارته يبعدنا عن مجال التنازع بالكفر إذا فهمنا المقصود من قوله " ... الكافر ... " أنه من يظهر كفره ظهورا بينا قاطعا .

وترجع هذه الموجات المتلاحقة المترابطة من التنازع بالكفر إلى أسباب لم تأت في منهج الإسلام كما جاء به الرسول ﷺ وإنما جاءت من تغلب النزعة الدنيوية أو الشخصية على هذه الموجات .

وقد نجد في النزعة الدنيوية: أسبابا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية<sup>(١)</sup> .

وقد نجد في النزعة الشخصية: اتخاذ منهج يجعل "النظرية" مقياسا للدين . فيحشره فيها وهو يتأبى عليها، بدلا من أن يجعل الدين مقياسا للنظرية إن كان

---

(١) - انظر كتابنا (عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الاسلام)

هناك حاجة للنظرية. وقد كان على هؤلاء وأولئك أن يحاربوا نزعاتهم وأن يعتصموا منها بتحذير الفكر الدينى تحذيرا صارما من تبادل الاتهام بالكفر، إذ يجعل الخطر ماثلا فوق رأس المدعى والمتهم جميعا، ففي الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم:

"إذا كفر الرجل أخاه - أو قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما"

وقوله " لا يرمى رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك " .

وقوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال لا اله إلا الله، لا نكفره بذنوب ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل. والإيمان بالأقدار". أخرج أبو داود باب "الغزو في أئمة الجور" من كتاب الجهاد.

### **يقول الدكتور دراز:**

"إذا كان عدم تكفير المسلم معدودا من أصل الأيمان لزم أن يكون تكفيره كفرا . وبهذا نطقت أحاديث الصحيحين"<sup>(١)</sup>.

ولست تجد واحة وسط هذا المهجير المهلك إلا في ظل شجرة الكتاب والسنة.

إذ تجعل المسلم يحاسب نفسه حسابا قاسيا عسيرا قبل أن يوجه اتهاما بالكفر، إلا أن تقوم أمامه الأدلة على ذلك - لا من النظرية، ولكن من الكتاب والسنة - دلالة قطعية .

ويحصر الإمام البياضى مواضع الإكفار كما يبينها الإمام أبو حنيفة في ثلاثة مواضع:

**نسبة النقص الصريح إلى الله تعالى .**

وإنكار ما علم من الدين بالضرورة .

وتأويل ما علم قطعا كونه على ظاهره .

---

(١) المختار من السنة ص ٣٢٣.

وهذه الأمور الثلاثة لا تخرج عن أوسطها يقول الإمام الرازى:

"الكفر عبارة عن إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول به، فعلى هذا لا تكفر أحدا من أهل القبلة، لأن كونهم منكبين لما جاء به الرسول غير معلوم ضرورة، بل نظرا".<sup>(١)</sup>

وأهل القبلة هم الذين أسلموا على النحو الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إعلان الشهادتين، وأصله ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا".<sup>(٢)</sup>

ومن التفصيل لهذا الأجمال ٠٠٠ والذى نراه لا يخرج عنه، ما جاء فى العقائد العضدية بشروحها على النحو التالى:

لا تكفر أحدا من أهل القبلة إلا إذا ارتكب واحدا من الأمور الآتية:

١- نفى الصانع القادر المختار العليم .

علما بأن الاختيار الذى أثبتته الفلاسفة ليس اختيارا عندنا، والاختيار عندنا ما يصح معه الفعل والترك فلا يغنى وصف القادر عنه، إذ القادر قد يضطر إلى الفعل فيفعله بقدرته وليس مختارا، كذلك علم الله الذى تقول به الفلاسفة، لا يتعلق بالجزئيات وهذا غير ما جاء فى العقيدة الإسلامية

٢- الشرك .

(أ) إما فى وجوب الوجود كالقائلين بالنور والظلمة .

(ب) وإما فى الخالق كالقائلين بأن فاعل الخير النور، وفاعل الشر الظلمة .

لكن لا يصح تكفير المعتزلة لقولهم بخلق العبد أفعال نفسه الاختيارية، لأن

(١) محصل ص ١٧٥ .

(٢) انظر شرح الطحطاوى لآين أبى العز ص ٢١٩ .

العبد ووسائله مخلوق لله ... وقد سئل أبو القاسم الأنصارى وهو من أفاضل تلامذة إمام الحرمين عن تكفيرهم فقال:

لا يجوز تكفيرهم لأنهم نزهوه عما يشبه الظلم والقبح وما لا يليق بالحكمة، وسئل عن أهل الجبر فقال: لا يجوز تكفيرهم لأنهم عظموه حتى لا يكون لغيره قدرة وتأثير وإيجاد .

(ج) وإما في المعبودية كعبدة الأصنام والكواكب والنار والطبيعة والبشر .

٣- وإنكار النبوة: كالبراهمة وأشباههم

٤- وإنكار ما علم بالضرورة مجئ محمد صلى الله عليه وسلم به: كمن ينكر ركنا من الأركان الخمسة للإسلام، أو ينكر البعث الجسماني .

٥- أو إنكار أمر مجمع عليه قطعا ، كمن ينكر كون الصلوات المفروضة خمسا، أو ينكر عدد ركعات كل صلاة منها، أو ينكر كون كل صلاة منها تؤدي بقيام وركوع وسجود وجلوس، على النحو المعروف

٦- أو استحلال المحرمات بشروط ثلاثة:

(أ) أن يحصل الإجماع على تحريمها.

(ب) أن تكون حرمتها من ضروريات الدين: بحيث يستند الإجماع فيها على دليل قطعى. ويشتهر ذلك.

(ج) أن يكون الشخص على علم بما تقدم .

وإنه لمن علامات الكفر الدالة على شيء مما تقدم:

السجود للصنم، أو للشمس من غير إكراه

واحترار المصحف، وأهانته الكعبة من غير إكراه أيضا

وإكبار زعماء الكفر بما يرفعهم فوق منصب النبوة ... من غير إكراه كذلك

وما جرى مجرى ذلك من علامات الكفر وإن لم يكن في نفسه كفرا..



فمن فعل شيئا من ذلك ولم يضامه عقد القلب على الكفر أجرينا عليه حكم أهل الكفر، وإن لم نعلم كفره باطنا .

وعلى هذا الأساس فهناك جماعات نحكم عليها بالابتداع في الدين ولا نحكم عليها بالكفر .

١ - كالقائلين بخلق القرآن بتأول .

٢ - والقادحين في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يكفرهم، وأما بما يوجب تكفيرهم فهم يكفرون

٣ - والقائلين بأن الله سبحانه وتعالى جسم بلا كيف، وأما المصرحون بالجسمية المثبتون للوازمها من غير تستر (بالبلكفة) فهم يكفرون .

٤ - ومن قال إنى أرى الله تعالى في الدنيا وأكلمه شفاها، فللعلماء فيه آراء: والأصح أن يناقش: فإذا صرح بأنه يراه جسما ثبت له لوازم الأجسام من غير تستر ب " بلا كيف " ... وانه يراه رؤية حقيقية فهو كافر .

وإذا صرح بأنه .. بناء على دعوى المكاملة .. ينزل منصب النبوة فهو كافر .

وإذا تستر ب " بلا كيف " وأنها رؤية غير حقيقية، وانه لا منصب نبوة في هذه المكاملة، فلا نحكم بكفره، ويدخل في حكم الابتداع في الدين . " وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار " ....

والأصل فيه أن في تكفير المسلم خطرا عظيما .

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله:

وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين ومن المنسويين إلى أهل السنة وأهل الحديث . ثم قال: والحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة إلا بإنكار متواتر من الشريعة على صاحبها أفضل الصلاة . فانه حينئذ يكون مكذبا للشرع .

وعبر بعض أصحاب الأصول عن هذا بما معناه: من أنكر طريق إثبات الشرع:

كمن أنكر ورود مسألة ما في الكتاب، أو في السنة أو في الإجماع، لم يكفر حتى يعرف، أما من أنكرها بعد الاعتراف بورودها في طريق الشرع، فقد كفر<sup>(١)</sup>.

### درجات من الكفر لا تخرج من الملة:

يقول صلى الله عليه وسلم " سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر " متفق عليه

وقال صلى الله عليه وسلم " لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " متفق عليه . وقال صلى الله عليه وسلم " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر " متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن "

وقال صلى الله عليه وسلم " بين المسلم والكافر ترك الصلاة " رواه مسلم .

وقال " من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد " .

وقال " من حلف بغير الله فقد كفر " رواه الحاكم، وقال " ثنتان في أمتي هما بهم كفر، الطعن في الانساب والنياحة على الميت " .

وفي تفسير ذلك كله ذهب أهل السنة باتفاق إلى أن مرتكب الكبيرة من هذه الذنوب لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، إذ لو كان يكفر في مثل هذه الذنوب كفرا ينقل عن الملة لكان حكمه القتل مرتدا فلا يقبل في القاتل عفو ولي: ولا في الزاني حد بالجلد، ولا في السارق قطع ليد، وهلم جرا .. وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، وهم أمام هذه الأحاديث وما يياثلها طائفتان:

---

(١) - انظر لذلك شرح الجلال الداووني على العقائد العضدية، وحواشيها وأصول الدين للبغدادى . ج ٢ ص ٢٨ وما بعدها . بتصرف .

طائفة تقول بأن الإيـان تصديق وإقرار وعمل، يزيد وينقص، فهؤلاء يقولون فيمن فيهم هذه الأحاديث وأمثالها: إن كفرهم عملى لا اعتقادى فلا يخرج من الملة . وطائفة تقول بأن الإيـان تصديق لا يزيد ولا ينقص فهؤلاء يقولون فيمن جاءت فيهم هذه الأحاديث وأمثالها: إن كفرهم مجازى غير حقيقى<sup>(١)</sup> .

يقول ابن أبى العز شارح الطحاوية: " تجتمع فى المؤمن ولاية الله من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيـان وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيـان .

وقال صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر " فالطاعات من شعب الإيـان، والمعاصى من شعب الكفر، وإن كان رأس الكفر الجحود، ورأس شعب الإيـان التصديق "

وإذن فهى كما قلنا درجات من الكفر لا تخرج من الملة والأجدر أن يقال:

مرتكب هذه الأمور إما أن يرتكبها مستحلا لها فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة فيكون ما فعله كفرا صراحا.

وإما أن يرتكبها مقرا بحرمتها، فكفره باعتباره المأل، إن أصر على ارتكاب هذه الكبائر، وداوم عليها، فإن الآثام تتكاثر على قلب العبد مثل الحصير: عودا عودا، حتى يسود، فيختم عليه، والرسول باعتبار منصبه فى الدعوة والتربية يعالج نفوس البشر ويلفت أنظارهم إلى ما يؤولون إليه .

### بواعث الإلحاد:

• هناك بواعث كثيرة للإلحاد .

ربما نقول إن الباعث إليه يتصل برغبة الإنسان فى الانكباب على شهواته حيث يجد فى الدين رادعا له عن ذلك.

---

(١) - انظر شرح الطحاوية ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة في الوصول إلى موضع السلطة في شعب يمثل فيه الدين عنصرا قويا من عناصر المقاومة لهذه الرغبة .

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة في التخلص من بعض المؤسسات الدينية كالكنيسة أو ما يشابهها .

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة في زعامة فكرية جديدة يحول الدين الصحيح دون ظهورها .

هذه البواعث كلها قائمة، وقد يبدو لبعض الباحثين بواعث أخرى أكثر تنوعا وأدق تفصيلا .. ولكن الباعث الأساسى فى رأى الذى ينبغى إظهاره فى هذا المقام يتضح لنا من النظر فى جوهر الدين .

وليس من المبالغة فى شئ أن نقول إن جوهر الدين هو التسليم لله، وبعبارة أخرى " الاتباع " لله .

وبعبارة أكثر وضوحا نقول: إن منشأ الدين يأتى كجواب على شعور الإنسان بجهله إزاء طبيعة الوجود وبدايته ونهايته، وموقع الإنسان فى هذا الوجود، وكجواب على تطلع الإنسان لإزاحة هذا الجهل

وهنا يأتى الدين: يتلقى فيه الإنسان الجواب على تساؤله وتطلعه، ويتبع الإنسان فيه ما يتلقاه عن الوحي .

إن الإنسان بقصوره العقلى يجهل أصول المشكلات التى يواجهها:

مشكلة الوجود بدايته ونهايته وغايته

مشكلة المعرفة: إمكانها، وطبيعتها وأدواتها

مشكلة القيم: الحق والباطل والخير والشر، والنفع والضرر والشقاء والسعادة

وهو مع هذا الجهل يتطلع فى شوق عارم إلى معرفة الحقيقة التى يجهلها •

وعند هذه النقطة يفرق الحال بين المؤمن المتدين بدين الله، وبين الملحد = (المتدين - رغم أنه - بدين وضعى)

فالمُتدين بدين الله يتلقى المعرفة والتوجيه من الله مسلماً به، متبعاً له .  
والمُلاحد لا يرضى بهذا التلتى، والاتباع، وإنما يبتدع المعرفة والتوجيه، ويحاول أن يصل إليها بنفسه - مع قصوره - أو أن يصل إليها من غير طريق الله .  
وخلاصة القول في بواعث الإيَّمان بالله: إنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، واتباع الحل الذى يأتى من الوحي الصحيح .  
وفى المقابل فإن خلاصة القول في بواعث الإلحاد: أنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، وابتداع الحل من مصدر غير الوحي الصحيح .  
وإذن فمركز الدائرة في التفرقة بين الإيَّمان بالله ورسوله وبين الإلحاد هو عنصر الاتباع لله ورسوله نجده في جانب الإيَّمان، وعنصر الابتداع والغرور والاستقلال الكاذب نجده في جانب الإلحاد.

### أهداف الإلحاد:

- من الناحية السلبية تتلخص أهداف الإلحاد في أمرين:
- ١ - إنكار الإيَّمان بالله سبحانه وتعالى .
  - ٢ - إنكار الإيَّمان برسوله صلى الله عليه وسلم .
- أما من الناحية الإيجابية فتتلخص أهدافه في:
- نصب أديان وضعية مستمدة من الإنسان لا من الوحي . وهذا ما كشف عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)  
وقوله تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) .
- وتتوافر لهذه الأديان الوضعية (الإلحادية) الخصائص الرئيسية التى للدين بصفة عامة، والتى أنكر الإلحاد الدين من أجلها، وهذا يعنى أن الإلحاد المعاصر - وهو يهاجم الدين لم يفعل إلا أن استبدل ديناً بدين .

استبدل بالدين الصادر من الوحي (من الله الحق) دينا صادرا من الإنسان .  
وهذا في حد ذاته كاف في نقض الإلحاد المعاصر، لأن فيه فضحا للكذب  
والدجل الذي ينطوى عليه موقفه من إنكار الدين

### **منهج الرد على الإلحاد المعاصر**

في نظرة استقرائية أكثر شمولاً وجدنا الإلحاد المعاصر يقوم في مجموعه على ادعاء  
الاستناد إلى العلم التجريبي والفلسفة العلمية، وينطلق من أربع قواعد:

إنكار الغيبات

الزعم بكفاية القوانين الطبيعية بديلاً عن القول بوجود الله

الزعم بكفاية العلم في مجال المعرفة

الزعم بكفاية العلم في مجال القيم

وقد تعرضنا لإسقاط هذه القواعد وما تقوم عليه في كتابنا بعنوان "الفكر  
المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية" الذي خصصناه لسد ثغرة "علم الكلام  
المعاصر في جانبه الدفاعي"

تم والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

## الفهرس

٩

المقدمة

### الباب الأول مداخل ومصطلحات

#### المدخل إلى دراسة علم التوحيد

- |    |                              |
|----|------------------------------|
| ١٥ | تعريف كلمة الدين             |
| ١٧ | تعريف علم التوحيد            |
| ٢١ | ضوابط النظر في علم التوحيد   |
| ٢٤ | ميزان الأصول الثلاثة         |
| ٣١ | بين علم الكلام ونشأة الفرق   |
| ٣٩ | مصطلح أهل السنة والجماعة     |
| ٤٢ | مصطلحات أساسية في علم الكلام |
| ٤٢ | التكليف الشرعى وشروطه        |
| ٤٥ | وجوب النظر                   |
| ٥٢ | حكم التقليد                  |
| ٥٦ | خبر الواحد                   |

### الباب الثانى: الصفات والمداخل

#### مدخل إلى الصفات وطرق إثباتها

- |    |                              |
|----|------------------------------|
| ٦٨ | مدخل إلى الصفات وطرق إثباتها |
| ٧١ | أسماء الله الحسنى            |

٧٣	تصنيف المتكلمين للصفات
٧٣	صفة الوجود
٧٣	المدخل الفطرى
٧٨	المدخل العقلى
٧٨	دليل الممكن والواجب
٨١	دليل الحدوث
٩١	دليل العناية
٩٤	مدخل العلم التجريبي
٩٦	دليل السياق الغرضى
١٠٠	بطلان دعوى المصادفة
١٠٨	دليل الانضباط الإحصائى
١١٢	دليل إمساك المادة عن الفناء
١١٨	المدخل العلمى إلى الإيمان بالله تعالى
١٢٤	التفكير فى ذات الله

#### الباب الثالث التشابهات

١٣١	المحكم والمتشابه
١٣٤	حكم ما يوهم التشبيه
١٤٤	رؤية الله تعالى فى الآخرة
١٥١	رؤية الله تعالى فى الدنيا
١٥٣	الرؤية فى المنام
١٥٦	الاستواء على العرش
١٦١	الحنابلة
١٦٧	حديث الجارية
١٧٢	ابن تيمية والصفات الخبرية



١٧٩	منهج ابن تيمية في الصفات
١٨٥	ابن تيمية والمجاز
١٩٨	القضاء والقدر
٢٢٤	الجدل حول القضاء والقدر
٢٠١	الاختيار والجبر وأفعال العباد
٢١٣	الرضا بالقضاء والقدر
٢٢٥	أثر الإيمان بالقضاء والقدر عمليا
٢٢٦	الرزق
٢٢٦	المقتول والأجل
٢٢٧	الهداية والإضلال
٢٣٢	العدل والمساواة في العفو والابتلاء
٢٣٤	الوعد والوعيد
٢٣٥	السعادة والشقاء
٢٣٦	العبرة بالخواتيم
٢٣٧	الحسن والقبح
٢٤١	الصلاح والأصلح
٢٤٣	ما يجوز في حقه تعالى
٢٤٧	الخير والشر
٢٦٢	السعادة والشقاء
٢٦٢	خيرية الابتلاء
٢٦٩	ميادين النجاة والفلاح
٢٧٢	دور الشيطان

#### الباب الرابع الآخرة

٢٧٩	البعث
٢٨٩	أهمية التذكير بالنار

٢٩٨	المنطق العملى فى الإنذار
٣٠٥	العقل النظرى المسحور
٣٠٨	النار حدث كونى
٣١٣	وجهان لقوانين الله فى الكون
٣١٥	منطقية سقوط الكافر فى النار
٣١٧	الإنذار رحمة
٣١٧	مراتب الخوف وأحكامه
٣١٨	العبد بين الخوف والرجاء
٣٢٣	التبشير بالجنة
٣٢٦	من دروب الرحمة
٣٣٨	نعيم الجنة ماديا وروحيا

#### الباب الخامس الأسماء والأحكام

٣٤٧	المدخل إلى الإيمان
٣٥٠	مصطلح الأسماء والأحكام
٣٥٢	حقيقة الإيمان بين المذاهب المختلفة
٣٥٤	أهل السنة عموما
٣٥٦	عند الإمام أبى حنيفة
٣٥٨	عند الإمام الأشعرى
٣٦٠	العلاقة بين الإسلام والإيمان
٣٧٧	تعليق الإيمان على المشيئة
٣٧٨	خطر الأمن واليأس على الإيمان
٣٧٩	إيمان الأطفال
٣٨١	الكبائر والصغائر
٣٨٣	حكم مرتكب الكبيرة

٣٩٥	عواذل إسقاط العصوبة
٣٩٦	دين الله واحد
٤٠٦	تعددية الشرائع
٤١٣	مفهوم الإلحاد
٤١٣	ميادين الإلحاد
٤١٦	ضوابط الإلحاد
٤١٩	علامات الإلحاد
٤٢٢	درجات، من الكفر
٤٢٣	بواعث الإلحاد
٤٢٦	منهج للرد على الإلحاد المعاصر
٤٢٧	الفهرس